نادية هاشمي

لمعان النجوم

رواية

قصة شابة تحاول عقد صلح بين الماضي والحاضر وبين ذاتها والعالم.

ترجمة:
إيمان حرز الله

مكتبة

kalemat

إهداء لـ ..

ڤيوليت

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

لمعان النجوم

SPARKS LIKE STARS

تمت ترجمة هذا الكتاب ضمن

مبادرة ترجم

Tarjim Initiative

لمعان النجوم

SPARKS LIKE STARS

نادية هاشمي

NADIA HASHIMI

ترجمة: إيمان حرز الله

دار كلمات للنشر والتوزيع

البريد الإلكتروني:

Dar_Kalemat@hotmail.com

الموقع الإلكتروني:

www. kalemat.com

الكويت - المرقاب - ق1 - ش عبدالله المبارك - برج NBT. - دور 9

Copyright © 2021 by Nadia Hashimi

طبع في مطابع الخط - الكويت

مكتبة الملك فهد الوطنية

رقم الإيداع: 1445/21609

ردمك: 978-603-05-0443-5

مكتبة

t.me/soramnqraa

لمعان النجوم

SPARKS LIKE STARS

مكتبة
t.me/soramnqraa

نادية هاشمي

NADIA HASHIMI

ترجمة:

إيمان حرز الله

2024

kalemat

مكتبة
t.me/soramnqraa

تمهيد

حتى الآن، ظلّ تاريخي مدفونًا داخلي، كآثار الحضارات القديمة تحت طبقات الأرض والعصور التالية. لكننا نصر على نبش الماضي لاستخراج آثار الأمس والتعجب من بساطة مخلوقاته الراحلة. نعرضُ دلائل ارتقائنا في خزانات زجاجية، في مبانٍ فخمة، أحيانًا على الجانب الآخر من العالم، المقابل لمكان العثور عليها.

رأيتُ في لندن رخاميات إلغن المنقولة من معبد البارثينون، ودرع جويجال المسروقة من الأبورجين الأستراليين، وألماسة كوهِ نور البراقة. كوهِ نور تعني بلغة طفولتي جبل النور.

لكنني لا أشكو، ليس بعد أن استرددت كنزي المسلوب في صندوق، بعيدًا عن مكان العثور عليه. كيف صار معي، تلك قصة لم أحكها قط، لا للمرأة التي ساعدتني على الهروب من بلد يشتعل بالنيران، ولا لمن ربتني أمريكية، ولا للرجل الذي كدت أرتبط به.

لولا ذلك اليوم الذي ظهرت فيه حياتي المدفونة أمامي دون سابق إنذار، لاحتفظت بقصتي سرًّا إلى الأبد. وما كنت لأسأل تلك الأسئلة التي احتفظت بها لنفسي حفاظًا على حياة تبدو عادية.

من أين أنت؟ ما انفكوا يسألونني وأنا أبتاع قهوتي، وأنا أستعير الكتب من المكتبة، وأنا أوضح لمريض في نهاية يوم العمل كيف سأستأصل الورم الذي ينمو بداخله. كأنني عينة

بحث ولست شخصًا. يقذفون بتخمينات عن هويتي ليروا إن كانت إحداها ستلتصق بي؛ يونانية، إيطالية، لبنانية، أرجنتينية، من شرق أوروبا. أتقنت فن تغيير مسار المحادثة، طمس ما أنا ومن أنا بنصف حقيقة، حكاية طفلة متبنّاة. أغير مسارات المحادثات كعامل التحويلات في السكة الحديدية، لأتأمل سؤالهم بطريقتي الخاصة.

إن أخبرتهم سيدهشون كيف أن بلدًا لم يزل يستهلك كميات لا حصر لها من عطف العالم وذخيرته كان مسرح العقد الأول والمسالم الوحيد من حياتي.

لكن التاريخ يواصل نشب أظافره ليخرج من القبر. التاريخ لا يخضع لأحد، ولا حتى للناجين الأشد براءة. يصر التاريخ على حكيه.

كان يا ما كان، طفلة صغيرة بشرائط قرمزية في شعرها، تختبئ في قبو قصر، خلف صناديق تحوي أدوات مطبخ غير مستخدمة وأخرى تحوي كنوز عالم بائد. كلما ارتعشتْ لرغبتها في الصراخ غرستْ أسنانها في لحم ساعدها الناعم. لا تعرف شيئًا سوى أن عليها أن تبقى بلا صوت.

حاولت تهدئة صدى بعيد للأغنية التي كان أبوها يغنيها لها كلما وجدها مستيقظة حتى وقت متأخر.

أنا نائم وأنتِ ساهرة

أنا ساذج وأنت عاقلة.

توسلتْ إلى صوت أبيها أن يسكت وإلا ستبكي في الظلام.

فوقها بأمتار، يتجول جنود في الأروقة، بعضهم بفظاظة وآخرون بفظاظة أقل. تلطخت الجدران ببقع قرمزية؛ بصمات الثورة. استلقى جنرال، بشعور الرئيس، على أريكة فيكتورية من المخمل، وتحسس منحنيات ذراعيها المصقولتين. انتفخ صدره لتفكيره في أن الناس سيقدّرون قريبًا التضحيات التي قدمها الليلة من أجل الصالح العام. نهض وسار على السجادة البورغاندية المغزولة يدويًّا، زهور بيضاء رقيقة تتخلل نمط قدم الفيل. تفقّد نعل حذائه الأيسر، ثم الأيمن. لا قلق مع ذلك. السجادة أفغانية، ربما صُمّمت لتخفي قطرات الدم كما تخفي قطرات الشاي المسكوبة.

المدينة، فضاء حول القصر، في انتظار بيان الرئيس حول وجود الطائرات السوخوي ودوي الطلقات النارية. تساءل الدبلوماسيون الأمريكيون في مقراتهم -وما زال بعضهم ثملًا من مشروبات الكوكتيل- عن النزاع الغريب الذي سيحطّ على مناصبهم الاستوائية الهادئة. حاولت أمريكية ذات شعر فضي، برأس منتشٍ من تأثير سيجارة محشوة اشترتها من زوجين هيبيين، أن تلمس الطائرة الورقية التي حلقت فوق رأسها. هللت، كعادة الأمريكان، لانفجار الألعاب النارية.

كانت الفتاة الصغيرة في القصر متأكدة من أن لا طفل في التاريخ قد شعر بالوحدة التي شعرت بها حينذاك.

تلك الليلة، قُطِعت رؤوس عمالقة. ابتلع خواءٌ مذهل كل ما كان ذات مرة. لكن الفتاة الصغيرة المذعورة لن تستسلم. ستكون شجاعة لأن أباها علمها أن العالم كله بداخلها. عظامها من الجبال. عروقها تسري فيها الأنهار. ودقات قلبها وقع خطوات

آلاف الحوافـر. وأن عينيهـا تتـلألآن بلمعـان نجـوم السـماء.

أنا هذه الفتاة، وهذه قصتي.

الجزء الأول
أبريل 1978

الفصل الأول

توقف صف من السيارات في الممر الدائري أمام القصر، اختفت واحدة تلو الأخرى بتوقف محركها وانطفاء كشافاتها الأمامية. راقبتُ قامات ظلية تترجل منها وتتوجه نحو المدخل الرئيس للقصر.

همستُ: «نيلاب، لقد أتوا».

«كم سيارة؟»

«خمس عشرة تقريبًا. الظلام شديد. لا أرى جيدًا».

«علينا أن نذهب سريعًا»، قالت نيلاب بحذر.

لا بد أن أمي رأت السيارات أيضًا. وصلني صوتها من أسفل.

«ستارة! أين أنتِ؟»

لم أستطع إخفاء سخطي. نظرتُ إلى نيلاب، تقتعد الأرض بركبتيها مضمومتين إلى صدرها. يلقي ضوء اللمبة ظلًا أصفر على خديها.

«لكنها عطلة أسبوعية»، قلتُ متذمرة.

«سيتأكدون من أن جميع الأطفال في فراشهم أولًا قبل فتح ذاك الصندوق في الأسفل»، قالت نيلاب تكرر ما أخبرتها به أمها. «ربما عليكِ الذهاب إليها قبل أن تعثر عليكِ مجددًا».

لكن الاستسلام لم يكن من طبعي قط.

«وماذا عنكِ أنت؟ أراهن أن أمك تبحث عنكِ أيضًا».

هزت رأسها قائلة.

«مستحيل. أنا شابة الآن. تغيرت القواعد».

أعجبني هذا. «أنتِ أكبر مني بعام واحد فقط تقريبًا، وعليكِ انتعال حذاء بكعب عالٍ لتتمكني من النظر إلى عينيّ».

«قولي ما شئتِ، لكنني إن أردتُ سأرتدي ثوبًا وأنضم إليهم بالأسفل دون أن يعترض أحد»، قالت وهي تعقد ذراعيها على صدرها. منعني حبي لها من الإشارة إلى صدرها الذي لم يزل مسطحًا.

«هل نيلاب معكِ؟» سألت أمي، كأنها لا تعرف أنني ونيلاب لم نفترق منذ أن تعلمتُ السير. «لقد حان الوقت لتأوي هي الأخرى إلى فراشها».

تجنبتْ نيلاب النظر إليّ حينها. تكره أن يثبت خطأ كلامها بقدر ما يُمتعني أن تثبت صحة كلامي. جعل الصندوق القصر كله على قدم وساق.

كنت قد اختبأتُ أنا وصديقتي المقربة في المكتبة الرئاسية لتصفح كتاب وجدته الأسبوع الماضي. كتاب النجوم الثابتة، كتبه منذ آلاف السنين عالم فلك يُدعى الصوفي. كان، مثلي، مهووسًا بكوكبات النجوم، القصص المكتوبة بقلم من نور. كنت قد أزحت الستائر المخملية لأميز الكوكبات المرسومة في الكتاب والنجوم في السماء. واحدة تلو الأخرى، أجدها وأتعجب من أن الزمن لم يسرق ولو جوهرة واحدة منها.

«أنا هنا مادر»، صحتُ وأنا أنظر إلى الصفحات أمامي. رسم الصوفي الذيل الأفعواني لكوكبة دراكو، تنين بلسان شوكي، يمتد حول الدب الأصغر. كنت قد قرأتُ، لكنني ما زلت لم أؤكد –

بالملاحظة- أنه يمكن مشاهدته طوال العام من خط عرض كابول.

تُدعى شهورنا بأسماء تلك الكوكبات وسرعان ما سيحل شهر الثور. رسمتُ الخطوط بين النجوم ورأيتُ قرني الثور كسيفين مشهورين في السماء. اقشعر عنقي لتخيلي الوحش الضخم ينقض من السماء ويركض على الأرض.

ظهر رأس أمي من الباب الفرنسي للمكتبة.

«وجدتكما. لقد تأخر الوقت يا فتاتي»، أنَّبتنا برفق. «ستارة، أريدك أن تبقي مع أخيك لأنزل إلى الأسفل. سيقدمون العشاء قريبًا، ويجب أن أكون مع أبيكِ».

«لكن كاكه داوود أخبرنا أنه بوسعنا...»

من أدعوه العم داوود هو جد نيلاب. وهو أيضًا رئيس أفغانستان منذ خمس سنوات مضت، وقد أذن لنا بحرية دخول المكتبة الرئاسية المكدسة بأرفف الكتب من أرضها إلى سقفها.

لم يكن بين أبي والرئيس داوود صلة دم حقيقية لكن أسرتينا كانتا مقربتين جدًّا، فنشأتُ أنا ونيلاب كابنتي عم. كان أبي أقرب مستشاري الرئيس إليه. فكثيرًا ما كنا نبيت في القصر، خاصة حين يعقد الرئيس اجتماعات مسائية. كنت أنا ونيلاب في تلك الليالي نختبئ في أحد أركان القصر ونظل نتحدث حتى يغلبنا النوم على أصوات الموسيقى التي تصلنا من الحديقة. تبادلنا أسرارًا ربطتنا معًا بقوة أكبر من صلة الدم. كانت هي الوحيدة التي تعرف أنني أخذت أحد خواتم أمي اللؤلؤية وبادلته مع إحدى زميلاتي في المدرسة بدمية لها أهداب تفتحهما وتغمضهما.

وكنت أنا الوحيدة التي أعرف أن ابن الجنرال جامشيد، ذا الوجه المملوء بالبثور، قد كتب لها رسالة حب، كلمات أغنية على ورقة كراسة مسطّرة.

بمرور السنوات، استكشفنا أنا ونيلاب وأخوها رستم كل قدم مربعة في «الأرك»، القصر الرئاسي الآن. كنا نستلهم الحوادث التاريخية المهمة ونقحم أنفسنا فيها. نطلق أنا ونيلاب أعيرة نارية خيالية بأصابعنا، ويتظاهر رستم بأنه غازٍ ينقض على الخندق العميق المملوء الآن بالعشب الأخضر.

نقلد الأصوات الناعمة لمحظيات الملك في المبنى الذي كان في ما مضى الحريم، ثم نقفز إلى المبنى الذي كان ثكنات الجيش ونمشي المشية العسكرية، نرفع أعناقنا ونؤدي التحية العسكرية. يقرأ رستم قصص غزوات جنكيز خان لهذه الأرض ونحن نجلس في برج صغير، نرنو إلى قمم الجبال المسننة التي تحيط بكابول كجدران قصر.

لو كان بوسعنا السفر عبر الزمن، لكنا زرنا كل عقد من تاريخ القصر لنرى دقة تمثيلنا لمراسم توقيع الاتفاقيات، ومشاهد الخيانة، والكفاح الذي لا نهاية له لاستقلال بلدنا من الغزو الأجنبي.

ذات يوم، جلسنا في ظل أشجار البستان برفقة أحد كتب التاريخ. راقبني رستم وأنا أقلب الصفحات بحثًا عن صراع أو مدة لم نمثلها من قبل.

«أيًا كان من كتب هذا فقد قضى حياته مغمض العينين!» قلتُ وأنا أغلق الكتاب وأنظر إلى كعبه أبحث عن اسم المؤلف.

«هـل أختـرتِ كتابًـا خطـأ؟» سـألني رسـتم رافعًـا أحـد حاجبيـه. كانـت نيـلاب مسـتلقية علـى العشـب وإحـدى رجليهـا علـى الأخـرى، فانقلبـت علـى جانبهـا وأسـندت رأسـها إلـى يدهـا.

«فكـر فـي كل مـن فـي القصـر»، قلـتُ وأنـا أشـير بيـدي نحـو المبانـي الضخمـة البعيـدة. «ألا يوجـد سـوى الرجـال هنـاك؟ أو فـي كابـول؟»

«مـاذا تقصدين؟» سـألني رسـتم.

«لا يوجـد نسـاء فـي الكتـاب»، قالـت نيـلاب مسـرورة لأنهـا تشـرح لأخيهـا الأكبـر شيئًا واضحًـا جـدًا.

«كونـي منطقيـة. لا يمكنـكِ لـوم الكتـاب»، أجـاب رسـتم. «الرجـال هـم الملـوك والـوزراء، والمحاربـون والمستكشـفون. هـم مـن يتخـذ القـرارات وينفـذ الخطـط ويصنـع التاريـخ. والكتـب تسـجل هـذا. الأسـبوع الماضـي، اخترنـا هزيمـة البريطانييـن عـام 1842، أتذكـران؟ اضطـررتمـا إلـى أن تمثـل كل واحـدة منكمـا دور رجـل وإلا لـم تكونـا لتلعبـا».

كان ذلـك أحـد أفضـل عروضنـا لأننـا لـم نمثـل طـرد الأفغـان للبريطانييـن وجنودهـم الهنـود مـن البـلاد فحسـب، بـل مثلنـا أيضًـا حفلات الشـاي ومسـرحيات شكسـبير التي كان الضبـاط البريطانيون وزوجاتهـم يقضـون وقتهـم فيهـا قبـل بدء المعركة مباشـرة. اسـتخدمنا أيضًـا كل الكلمـات الإنجليزيـة التـي تعلمناهـا مـن معلمينـا.

«سـتوضّح لـك سـتارة الآن»، قالـت نيـلاب وهـي تعـدل القبعـة الخياليـة فـوق رأسـها وتميـل إلـى صـف مـن الشـجيرات. تقلـد المبعـوث البريطانـي السـمين الأرقـط بمطامعـه لاحتـلال أفغانسـتان.

«رستم»، قلت بنفاد صبر معلمة مُرهَقة. «لقد حذر شاعر إنجليزي الجنودَ البريطانيين من أنهم سيفضلون الموت على مواجهة غضب نساء أفغانستان. وإن ظننت أن النساء لسن كفئًا للتحرك، فذلك لأن لديك مخًا مملوءًا ببذور القرع».

لم يعتذر رستم، ولم يشعر بإهانة أيضًا، لكنني عرفت أنه سمعني لأنه لم يستبعد النساء من التاريخ بعد ذلك أبدًا.

«يمكنكما العودة إلى المكتبة غدًا». قالت أمي. «هذه الليلة مهمة جدًا وأنا في حاجة إلى مساعدتك. صار فهيم يكره النوم وحده مؤخرًا، وأنت لا تريدينه أن يستيقظ ويجد نفسه وحده، أليس كذلك؟»

«هذا ليس عدلًا. أضطر دائمًا إلى البقاء معه»، اعترضتُ.

«لا داعي للشكوى، أنا أفضل أن أبقى مع فهيم على أن يبقى معي رستم»، قالت نيلاب وهي ترفع كتفيها. «وهو أيضًا لم يحب الأمر قط».

لم يعد رستم، بعد أن صار في الثالثة عشرة من عمره، يرغب في أن يراه أحد يلعب مع فتاتين. ما رحبت به أمي إذ سرعان ما سينسى الجميع حقيقة أننا قضينا طفولتنا نلعب معًا ونقرأ كثيرًا.

حتى نيلاب كانت تقترح أننا، أنا وهي، سنغدو أختين بالفعل لو أمكنني قبول فكرة الزواج بأخيها. كرهتُ ملاحظتها تلك لكنني، مع ذلك، بدأتُ أرى رستم بطريقة مختلفة قليلًا. لم يعد يتصرف كطفل. كنت أفتقد صحبته وأتساءل إن كان معنى هذا أنني أكنُّ له أكثر مما ينبغي. ورغم مشاركتي نيلاب كل فكرة صغيرة، احتفظتُ بهذه الفكرة سرًا بيني وبين نفسي.

«فتاتان، فتاتان»، قالت أمي تحثنا.

أسدلتُ الستائر، وتنهدتُ بصوت عالٍ لتسمعني مادر، أعدتُ الكتاب العربي إلى موضعه بين كتب أخرى بعناوين دارية وإنجليزية وسيريالية. فهمت فظاعة أن تتملكك المخاوف، حتى غير المعقولة منها. قد يكون خوفي من الظلام هو ما جذبني إلى لمعان النجوم.

قالت نيلاب: «لم يعد بوسعي البقاء ساهرة حتى الآن في جميع الأحوال. أحلام سعيدة يا ستارة. طابت ليلتك ياعمتي».

قالت أمي: «طابت ليلتك يا نيلاب. ارتاحي قليلًا. ستستيقظ ستارة مبكرًا في الصباح وتعود إليكِ».

أحاطت نيلاب خصر أمي بذراعيها واحتضنتها بقوة قبل أن تخرج من الغرفة.

تجنبتُ النظر إليها لئلا تكشفنا إحدى ابتساماتها الواسعة. التفتتْ إليّ أمي ما إن غادرت نيلاب، «هيا بسرعة، أنتِ تعرفين»، همستْ بتآمر، «عمك داوود لا يمكنه فعل شيء دون مشورة أبيكِ».

«وبابا لا يمكنه فعل شيء دون مشورتك. ربما يمكنك العمل وزيرة لكاكه داوود أيضًا».

أشرق وجهها، فأضفت ابتسامتها اللمسة النهائية على أناقة مظهرها. كانت ترتدي ثوبًا أزرق سماويًا بحزام عند خصرها النحيل. يصل طرفه حتى ركبتيها فقط، بكمين واسعين قليلًا عند المعصمين. أهداها أبي قماشه، قطيفة رقيقة جاء بها من آخر سفراته إلى لبنان. من تصميمها هي وتنفيذ الخياطة نفسها

التي فصّلت لها ثوب زفافها وسائر أثوابها الأخرى. اختارت له حذاء من الجلد المدبوغ بكعب عالٍ ورباط حول الكاحل. قلادتها الذهبية بسيطة، لفظ الجلالة من ذهب عيار ثمانية عشر. جمعت شعرها في لفة إلى الخلف، ورفعت تاجها نحو الأعلى قليلًا لتبدو أطول ببوصة. لمستُ وجهها، معجبة بلمعان عينيها البندقيتين أسفل الكحل الأسود الثقيل لأهدابها. أهو حسد، أم غرور، أم مجرد فيض من الحب أن يريد المرء أن يكون جميلًا مثل أمه؟

«ستارة، ما الأمر؟» سألتني وهي تلمس شعرها بأصابعها، إيماءة قلق. «أيوجد خطب ما؟»

«لا، مادر جان. إطلاقًا. كنت أفكر فحسب».

«في ماذا؟» سألتْ.

قبّلتُ خدَّها. يقول أبي إن الجنة تحت أقدام الأمهات. ورغم ولعي بالتجول في أرجاء القصر، كنت أحب البقاء مع أمي.

«متى سنعود إلى بيتنا؟» سألتها لافتقادي الصباحات التي نقضيها أنا وفهيم بمنامتينا في حجري والدينا. كنا كثيرًا ما نبيت في القصر بحيث لم نكن نشعر بأننا ضيوف، مع ذلك لم نكن نشعر بأننا في بيتنا أيضًا. «ظني أن فهيم يشتاق إلى البيت».

«بعد العطلة الأسبوعية القادمة»، أكّدت لي. «ظل أبوك مرتبطًا باجتماعات كثيرة خلال الأسابيع الماضية، لكن الأمور ستتحسن قريبًا».

«أهي سيئة جدًّا؟» سألتُها. ظلت الاجتماعات تستغرق وقتًا طويلًا لمدة. ثم صارت قصيرة جدًا وينتهي بعضها بصفق الباب وخطوات تضرب بقوة في أرض الرواق.

أمسكتْ أمي وجهي بيديها.

«سيكون كل شيء بخير. سنحتفل الليلة بتاريخ بلدنا مع أشخاص مهمين لمستقبله».

«سيكون الروس هنا؟»

«والأمريكان، والهنود، والفرنسيون. وربما آخرون أيضًا».

«لكن معلمنا الخاص أخبرنا بأن الروس والأمريكان لا يحب أحدهما الآخر. ألن يشب بينهما عراك؟»

«لا، حبيبتي»، أجابتني وهي تلمس شعرها. «الطعام والفن قوات حفظ سلام قوية جدًا. إلى جانب ذلك، إنهما يعرفان جيدًا أنه ليس بإمكانهما العراك في بيتنا. لقد رأى شعبنا ما يكفي. وقد نلنا السلام الذي نستحقه أخيرًا».

كنت أعرف التاريخ الذي تلمح إليه. بوسعي سرد تاريخ كفاح أفغانستان ضد الاحتلال، وكنت أعرف أن كل تغيير في النظام يأتي باضطرابات. كانت الأغلبية العظمى من عالمي يعشقون الرئيس داوود خان. لكنني ذات يوم كنت في حديقة عامة وسمعت رجلًا يغني أغنية شعبية معروفة. استبدل بكلماتها كلمات أخرى أذهلتني، استقرت في ركن من ذهني بقوة القافية:

مات أخي شهيدًا في ليلتك السوداء،

لتنم سيدي الرئيس بلا هناء.

«ربما يمكنني حضور الحفل؟ قد أكتب عنه للجريدة»، اقترحتُ بنبرة مثقفة.

زمت أمي شفتيها.

كانت مدرستي قد أعلنت، في نهاية العام الدراسي الفائت،

عـن مسـابقة فـي الكتابـة لخريجـي الصـف الدراسـي الثامـن فـي المدرسـة.

كيـف يحتفـل شـعب أفغانسـتان بذكـرى اسـتقلال البـلاد بأفضـل السـبل؟

ومـع أننـي كنـت فـي الصـف الرابـع ولـم أكـن أهتـم كثيـرًا بالكتابـة، وجـدت ذهنـي يطـن بنقاشـات دارت بينـي وبيـن والـديّ علـى العشـاء عـن المـرات الثـلاث التـي حـارب فيهـا الأفغـان البريطانييـن. وضعـت إطـارًا عامًـا لمقـال يبـدأ ببيـت شـعر لشـاعر إنجليـزي، روديـارد كيبلينـغ.

حين تسقط جريحًا في سهول أفغانستان
وتخرج المتوحشات للقضاء على ما تبقى منك
خذ سلاحك واقضِ على نفسك
لتلق حتفك كجندي.

قـرأ العالـم قصيـدة كيبلينـغ، هكـذا كتبـتُ، وحسـب أن النسـاء الأفغانيـات وحوشًـا فيمـا كـن يدافعـن عـن بيوتهـن وعائلاتهـن ضـد الغـزاة. علينـا -نحـن الأفغـان- أن نحتفـل بالاسـتقلال بـأن نبـدأ تسـجيل تاريخنـا بكلماتنـا نحـن.

وضعـت ورقتـي التـي كتبتهـا بعنايـة فـي صنـدوق بريـد الناظـرة. فـي نهايـة اليـوم الدراسـي اسـتدعتني الناظـرة إلـى مكتبهـا، ذُعِـرت ظنًـا منـي أن إحـدى معلماتـي قـد شـكتني لشـرودي فـي أثنـاء الـدرس أو لسـوء خَطـي.

أخبـري والديـكِ أن يشـتريا الجريـدة هـذا الخميـس يـا سـتارة. فـازت مقالتـك فـي المسـابقة وستُنشـر فـي الجريـدة.

عاد أبي إلى البيت بنصف دزينة من النسخ، شع وجها والديّ سرورًا حين قرأا كلماتي. حتى الرئيس داوود قال مازحًا إنني قد أشغل منصبًا في حكومته قبل تخرجي في المدرسة.

«الوقت متأخر جدًّا لتبقي ساهرة»، قالت أمي. «اطلبي من أبيك تقريرًا خاصًّا في يوم آخر. سيخبرك بكل شيء بالتأكيد».

عرفتُ من نبرتها أنها لن تلين.

«أنا متعبة بالفعل على كل حال. اذهبي واستمتعي بوقتك. سأبقى أنا مع فهيم».

أغلقتْ أمي باب المكتبة واصطحبتني إلى غرفة ضيافتنا الخاصة في الطرف الآخر من الرواق، يمكنني الوصول إليها مغمضة العينين من أي مكان بالقصر. انطبعت رسومات ورق الحائط في ذاكرتي، بما في ذلك مواضع بدء تقشره في الأركان. أعرف كم عدد اللمبات في كل نجفة وأي نافذة أفتحها ليهب نسيم عطر. كان بيتنا على الجانب الآخر من نهر كابول مجرد قطعة من القصر، لكنه دافئ ولا بديل عنه. أشارك أخي غرفة النوم، ما يناسبني تمامًا. كنت أكبره بسبع سنوات، لذلك كنت المسؤولة عنه عادة حين تنشغل أمي في المطبخ أو مع ضيوف.

ارتديت المنامة التي جهزتها لي أمي. خبط فهيم في الفراش بقدميه الصغيرتين بإيقاع قلق. انزلقتُ إلى جانبه في الفراش الدافئ وقبلت جبينه. شددت الغطاء على كتفي ورقدتُ وجهي في وجهه. حين شعر بوجودي، هدأت رجلاه وراح يتنفس بعمق.

«ناما جيدًا، يا حبيبيَّ».

«تصبحين على خير مادر جان».

تظاهرتُ بالتثاؤب، بحرص لئلا أبالغ. تابعتُ نقر كعبها يخفت، تخيلتها وهي تسير في الرواق، تمر بمكتب أبي ومكتب كاكه داوود. كان مقر معيشة الرئيس على الجانب المقابل في الطابق الثاني، حيث تنام نيلاب، لذلك لا مجال ليلتقيا مصادفة في منتصف الليل.

سمعتها قبل خروجها من الغرفة تهمس بكلمة واحدة: «الحمد لله».

كانتْ شاكرة دائمًا. كعادة من عانوا في العموم. حين تزوج والداي، كان أبي واحدًا من ثمانية عشر طالبًا حصلوا على منحة لدراسة الهندسة في الولايات المتحدة في مكان يُدعى أوكلاهوما. كانت جامعات أمريكية كثيرة ترحب بالأفغان لدراسة الهندسة والزراعة، ليمكنهم العودة والعمل مع الشركات الأمريكية في بناء السدود والبلدات في أفغانستان.

كنت أتمنى أن أعرف المزيد عن أوكلاهوما لكنهما لم يتحدثا كثيرًا عن حياتهما هناك. عرفت فقط أن الأرض هناك مسطحة جدًا بحيث ظنّا أن الشمس ستجلس أمامهما في الأفق. الطرق ممتدة بلا نهاية والمدينة كبيرة بحيث يمكنها ابتلاع كابول بأسرها. ومع أن القليلين ممن قابلوهم هناك يمكنهم تحديد موقع أفغانستان على الخريطة، لكنهم كانوا ودودين. أحضر أحد جيرانهم كعكة للترحيب بهما ومرطبان من السجق أهداه أبي في ما بعد لزميل دراسة أمريكي. انهمك أبي في دراسته، عازمًا على المشاركة في بناء مستقبل أفغانستان. ومع أن أمي لم تكن هناك للدراسة، تعلمت القيادة وأتقنت الإنجليزية بحضور دروس في

إحدى المكتبات، ومشاهدة البرامج التليفزيونية، وتكرار الجمل بصوت عالٍ.

ولِدت أختي الكبرى هناك أيضًا، التي عاشت وماتت قبل مجيئي إلى العالم. كل ما أعرفه عنها يمكن جمعه في راحة يدي: صورة فوتوغرافية لأمي وهي تحملها ملفوفة في بطانية، وأخرى لها وهي جالسة على ركبة أبي، وشهادة ميلاد أمريكية، وسوار فضي بخرز أزرق كتميمة ضد العين السيئة.

مع ذلك، فشلت التميمة في حمايتها. إذ لم يمضِ وقت قصير بعد عودتهما بها إلى أفغانستان وتقديمها إلى جحافل الأعمام والعمات، حتى انتابتها حمى لم تنحسر. توفيت خلال أيام، فتركتْ أذرعهما خالية وقلبيهما كسيرين.

«كنت أتمنى أن أرى ابنتيّ الاثنتين جنبًا إلى جنب»، كان أبي يقول أحيانًا. «لكننا لن ننساها أبدًا. لقد اخترتُ نجمة في السماء وتخيلت أنها هي في الجنة، تنير لنا إلى الأبد».

بنوع ما من سحر لم أقدره حق قدره وأنا طفلة، ضفّر أبواي حزنهما بالشكر. عرفت أن أمي تفكر في أختي الراحلة منذ زمن طويل وهي تنظر إلى فهيم يرقد بجانبي. لم تنفك تخبرنا بأننا أغلى هدايا الله لها. كنت كطفلة أفهم من هذا بأننا لاقينا نصيبنا من المعاناة.

حين أتممت العاشرة، لم أعد أتقوقع بين ذراعي أبي أو أطلب من أمي تقبيل كل خدش كما اعتدت حتى العام المنصرم. لم أعد أتلهف على حبهما، كنت أراهما كالرمال في الصحراء، موجودين إلى ما لا نهاية.

الفصل الثاني

حين اختفى وقع خطوات أمي تمامًا، أخرجتُ يدي من تحت الغطاء وداعبت أنف فهيم برفق. لم يتحرك. أزحت عني الغطاء ببطء وأزلقت قدمًا واحدة على الأرض، ثم الأخرى. لم يستيقظ فهيم حتى وأنا أسير في الغرفة على أطراف أصابعي وأفتح الباب بما يكفي لمروري منه فقط. مررت بالمكتبة وانعطفت في الرواق. علا صوت جلجلة الأواني والطاسات الألومنيوم. إلى يساري سلم ضيق يقود إلى مطبخ يعج بالنشاط فيما يستعد خدم القصر لتقديم العشاء للضيوف. واصلتُ سيري في الرواق، تضيء لي طريقي شمعدانات صغيرة ذوات إضاءة خافتة.

تجمدتُ حين سمعت صوت خطوات تقترب. حبست أنفاسي وأرهفت السمع. سمعت ما بدا أنه باب ينغلق في الطرف البعيد من الممر. حين تأكدت من أن الخطوات لا تقترب، مضيت في سيري على أطراف أصابعي. لم أكد أتحرك ثلاث خطوات حتى توقفت مجددًا.

هذه المرة أنا متأكدة من أنني سمعت شيئًا ما.

ألصقت ظهري بالجدار ونظرت يمينًا ويسارًا، أعرف بالفعل أنه لا مكان للاختباء هنا. دق قلبي بعنف.

تقدمت ببطء حتى وصلت إلى تجويف في الحائط. توجد طاولة على شكل نصف دائرة محشورة في التجويف المستدير ومغطاة بمفرش حرير. عليها آنية زهور من العقيق الأخضر الباهت.

توقفتُ، أفكر في احتمالات أن يراني أحد ما لو اندفعت ركضًا إلى نهاية الرواق.

حينها شعرت بأحد ما -أو شيء ما- يمسك كاحلي. شهقت وسقطت على الأرض. استندت بذراعي إلى الطاولة لأتفادى السقوط بحدة. انقلبت على ظهري ولاحظت برعب الآنية وهي تهتز على حافة الطاولة قبل أن تستقر. تنفست الصعداء ونظرت إلى يساري.

«نيلاب!»

كانت تجثم أسفل الطاولة بابتسامتها المشرقة اللعوب. رفعتُ جانبًا من مفرش الطاولة.

«أيتها المتسللة الصغيرة!» قلت بحنق. «كدت تقتلينني!»

«الخطر في جميع الأنحاء»، همستْ نيلاب بتشاؤم. خرجتْ ببطء من مخبئها، تمد أطرافها الطويلة.

سامحتها على إخافتي وأقسمت أن أجد مخبأ جيدًا لنفسي في الجولة التالية. زحفنا بهدوء حتى نهاية الرواق، حيث سلم منحنٍ يؤدي إلى قاعة الطعام بالطابق الأسفل. إلى جانب المدخل المقوس مباشرة يوجد منضدة خدمة. ألصقنا ظهرينا بجدار السلم المظلم، حيث يمكننا البقاء بعيدًا عن الأنظار ومراقبة الاحتفال من زاوية جيدة إلى حد كبير. على منضدة الخدمة مجموعة من الزجاجات. لم أعرف ماذا يفعلون بهذه الزجاجات التي كان محرمًا على الأطفال لمسها. كان أبي يشرب في المناسبات فقط. بدا أن الشراب يحسن مزاجه قليلًا، مثلما يحدث له حين يزحف على الأرض معي أنا وفهيم. لكنني رأيت

أيضًا بعض أصدقائه ينتابهم غضب حاد بعد كأسين أو ثلاث. في حفلة ما منذ شهرين، وبخني أحد الجنرالات لأنني لم أحيه بشكل رسمي. حين رأيته يتقيأ بين الشجيرات بعد ذلك خلال المساء، ركضتُ إلى غرفة تجمُّع الأطفال بالطابق الأعلى، وأيقظت حتى من نام منهم، وقدتهم جميعًا بوعدهم بشكولاتة روسية إن ساعدوني على مفاجأة جنرال في حاجة إلى الترويح عنه. كان الرجل ما زال منحنيًا بمنديله على فمه حين تجمعت عصبة الأطفال لتحيته بتحية عالية، أيديهم الصغيرة مرفوعة إلى جباههم.

تظاهرَ أبي بتوبيخي على هذا فحسب.

رأيتُ أمي في نهاية الغرفة. كانت تقف مع جدة نيلاب، السيدة الأولى، تتحدثان مع بعض النساء الأجنبيات. ربما تصلح صورتهن لغلاف مجلة، بحقائبهن الصغيرة تحت أذرعهن، وتنانيرهن التي تصل إلى ركبهن ومشابك شعورهن من عظم ظهر السلحفاة. رُحتُ أمسح الغرفة بعينيّ.

«أرى جدك»، همستُ. «لكن أين الصندوق؟»

بالتأكيد لن يكون بعيدًا عن الرئيس. أبقيت عيني على كاكه داوود، كان يقف أسفل بساط حائط عريض يصور فريقًا من لاعبي البوزكاشي[1] على أحصنتهم. بدت الأحصنة، بعروقها وعضلاتها المفتولة، على استعداد للقفز من البساط. يرتدي اللاعبون معاطف من فراء الغنم، تمتد أيديهم إلى الأرض لتصل

(1) البوزكاشي: رياضة شعبية من آسيا الوسطى يتنافس فيها فريقان من الفرسان على التقاط ماعز مذبوحة ورميها في دائرة محددة. (المترجمة).

إلى الماعز وتحرز هدفًا. أمسك أحد اللاعبين، يضع سوطًا بين أسنانه، الماعز بإحدى يديه، وألجمة حمراء بالأخرى.

يرتدي الرئيس، رجل ذو بنية قوية وجبين شامخ، بذلة سوداء بسيطة. بدا أنه ينظر إلى الأرض، شفتاه مزمومتان، يستمع إلى ضابط جيش لا أعرفه. بدا الضابط، بسترة زيتونية ذات أزرار نحاسية، مرتبكًا. يحرك يديه بعصبية وهو يتحدث، وضع أحدهم يده على ذراع الرئيس.

لم ألحظ أبي وهو يقترب، مال ليهمس بشيء في أذن كاكه داوود. أومأ بأدب إلى الضابط ووضع يدًا على ظهر الرئيس، قاده إلى رجل روسي، أحد الأعيان بشعر بني خفيف وسترة أنيقة. جعلت قامته النحيلة كرش الرئيس يبدو أكثر بروزًا ووجدتني أتمنى أن يعيد رئيسنا كتفيه إلى الخلف على الأقل.

قال أبي شيئًا جعل الرجل الروسي ينتبه، فأدار الرجلان ظهريهما إلى بقية الغرفة. استطعت رؤية جانبي وجهيهما. ذكرتني وقفتهما المتخشبة وأقدامهما الثابتة بالدمى الخزفية المرصوصة للعب.

انتهت وقفتهم بمصافحات بالأيدي وتعبيرات وجه قاتمة. راقب أبي الرجل الروسي وهو يسير مارًا بالأطباق العريضة ويخرج من الغرفة. مع أنني لم تكن لديَّ فكرة عمَّا كانوا يناقشونه، كنت مأخوذة بكيف يبدو أبي دائمًا كأنه يعيد ترتيب الأشخاص والأفكار بنظرة ذات مغزى، حاجب مرفوع، إصبع تنقر... ولم يكن الرئيس حتى.

في خصوصية بيتنا، حيث يكون لا شيء سوى والدنا فحسب، كان يناديني بألقاب خاصة. كنت «جوهرته»، «دميته»، «فراشته». حين كبرت على الجلوس على ركبتيه، ظل يشتري لي الآيس كريم. كان يعود من سفره بالخارج حاملًا الهدايا: دُمى في مهدها من كييف، صندوق جواهر من خشب الصندل من دِلهي، صحن مرسوم عليه بخط اليد من إستانبول. كان ذلك يجعلني أتوق إلى رؤية العالم الرائع بعينيّ. أما فهيم، الذي كان صغيرًا جدًّا ليفهم أسباب غياب أبي لأسابيع، كانت هداياه مسدسًا وأنموذج طائرة من البلاستيك. كان أفضل جزء أنه كان يأخذ وقته في لف تلك الهدايا في ورق جرائد ليمنحنا ثواني قليلة من الفضول اللذيذ قبل رؤيتها.

ربما لهذا شعرتُ بتغير الأجواء في الطابق الأسفل. لاحظتُ تجمع حشد من الضيوف حول طاولة رخامية عالية في منتصف الغرفة. ففهمت لماذا امتدت الأعناق وانتبهت الأعين.

«الصندوق»، قلت.

أومأت نيلاب توافقني.

زاد الحشد، وبعد أن قرع أحدهم كأسه بشوكة، سكتت الهمهمة. نظر الرئيس داوود إلى صندوق خشبي على الطاولة. مدّ الروسي -الذي كان يتحدث معه منذ قليل- ذراعيه نحو الضيوف يحثهم على إفساح مجال. أطاعوه وعادوا نصف خطوة إلى الخلف.

«لقد انتظرنا هذه اللحظة وقتًا طويلًا جدا». أعلن رجل أصلع.

«أي وزير هذا؟» سألت نيلاب.

«إنه من وزارة الشؤون المهمة جدًّا»، قلت.

«أوه، نعم... التي ستتولى معاقبتك لتوريطنا في مشكلات الليلة»، أجابت. ثم بدأ الوزير التحدث.

«لقد سُلّمت الكنوز -أغلبها- المستكشفة في آي خانم إلى المتحف الوطني بالفعل. هذه عينة لما كشفنا عنه في تلك المدينة القديمة خلال الاثني عشر عامًا الماضية. تخيلوا هذا، يا أصدقائي، حضارة عظيمة تحت طبقات من الأرض! الليلة، نقدم خالص شكرنا لأصدقائنا من الروس والفرنسيين لاستعادة هذا التاريخ. الليلة، يلتقي مستقبل أفغانستان ماضيه الذهبي».

آي خانم، في الجزء الشمالي من البلاد، أحد أقدم مواقع مملكة إغريقية قديمة. كنت قد قرأت الكثير جدًّا عن كوكبات النجوم والأساطير المرتبطة بالآلهة الإغريقية حتى لفت ذلك اهتمام نيلاب أيضًا. حاولنا تخمين أي كنوز قد تُرِكت هناك منذ قرون.

سرتْ موجة تحية مهذبة في القاعة، صلصلة الكؤوس وسحب أنفاس سجائر احتفالية.

أمسك الوزير بعتلة وُضِعتْ إلى جانب الصندوق وناولها للروسي.

«أخيرًا!» قالت نيلاب وهي تضغط على ذراعي برفق. انتظرنا وصول هذا الصندوق شهرًا ثم أسبوعًا آخر لوصول هؤلاء الثلاثين ضيفًا -مزيج من الأفغان والفرنسيين والأمريكيين- تجمعوا لهذا الكشف. كان أبي وأمي يقفان جنبًا إلى جنب، يتحدثان مع أجانب لا أعرفهم.

«أراهن أنه تمثال ثور، صحيح؟ أم ما الذي قرأنا عنه اليوم، تنين؟» همست نيلاب.

«شش! لا يمكنني سماع ما يقوله الروسي الآن».

تحدث الروسي بدارية متكسرة، لكنته غليظة جدًا وبالكاد فهمت ما يقوله:

«... هذه القطع من أفغانستان القديمة... بيت جديد في متحف كابول... كل هذه البقايا من حضارة...»

سرت في الغرفة همهمة استحسان، جلست بذراعين معقودتين. أذهلني وجود مملكة إغريقية في أفغانستان منذ وقت طويل تركت تماثيل ومباني وجواهر. وكيف تقلصت تلك المملكة إلى قطع حليّ قليلة في صندوق؟

أردت أن أنظر إليها من كثب.

رفع الرجل الروسي صندوقًا مبطنًا بالمخمل إلى الدائرة وفتحه. سحب قطعة قماش مربعة وأمال الصندوق، رفع ذراعيه لأعلى فرفع الضيوف رؤوسهم ليروا ما في الصندوق. حين مال إلى اليمين قليلًا ببطء، كدت أنزلق على درجات السلم وأنا أحاول النظر من زاوية أفضل.

خاتم ذهبي مرصع بحجارة صغيرة من الفيروز والعقيق. حجارة بحجم أظافري ويمكن رؤيتها حتى من بعيد. انفجرت شهقات الإعجاب.

«منذ قرون... خاتم ذهبي باكتيري». أوضح الروسي. «دليل على التاريخ الطويل بين الإغريق والأفغان».

«وعلى العلاقة الطويلة بين النساء والجواهر!» صاح صوت مرح. ضحكت أمي. ساد جو من المرح. حتى وجه الرئيس الجامد في العادة أشرق قليلًا.

واصل الروسي إخراج القطع من الصندوق. عملات وتماثيل صغيرة. تسلل أبي والرئيس داوود مبتعدين عن الحفل، التقيا ليقفا جنبًا إلى جنب أسفل بساط الحائط المزخرف بكأس نصف فارغة في يد كل منهما.

لم أستطع إبعاد عيني عن منظرهما وهما واقفين بظهريهما لمشهد البوزكاشي المغزول. صار الرجلان -اللذان يلوحان عاليًا كجبلين في عالمي- فجأة قزمين بما خلفهما من جياد وفرسان يمسكون السياط، يتدافعون بجنون على وشك العصف بالغرفة.

الفصل الثالث

أبريل 1978

كان يحرس القصر عدد من الجنود نراهم دون أن نسمع لهم صوتًا. سألتُ أبي ذات مرة إن كان أحد قد فكر من قبل في استبدال عصيٍّ عليها الزي الرسمي بهم. تفكر في سؤالي السخيف بالاهتمام نفسه الذي يمنحه لأسئلتي الأكثر جدية. يُضيق عينيه ويحول سؤالي إلى صورة في ذهنه، أشعة سينية تكشف عن عظام تفكيري المنتظمة معًا بحرص. كنت أقف في حضوره بقامة أطول ببوصات. ولأن تشعر طفلة بقيمتها في قصر متعدد الطوابق والقاعات لم يكن ذلك بالإنجاز الصغير.

لوجود الجنود هناك، كنا نجد الطرائق لاستخدامهم في عروضنا. اندماجًا في عرض عن الجاسوسية، تتبعت أنا ونيلاب حركاتهم ومنحنا كلًّا منهم اسمًا سريًا. دعونا واحدًا منهم بعينين خضراوين سابزي، أو سبانخ. كان، حين نكون جمهوره الوحيد، يُدوِّر عينيه ويغضن أنفه كأنه يشم رائحة مقززة. مع ذلك لم يكن والدانا وجميع الكبار الآخرون في القصر يرون منه سوى وجهه الجامد.

كان الجنود الآخرون يخشون التوبيخ لو غامروا بلحظة مزاح. منحناهم أسماء أكثر استفزازية، من باب الكيد ربما. سمينا الحارس الذي يطرف بعينيه دائمًا، كِشمش [زبيب]، إذ كان وجهه كله يتجعد حين ينظر إلى شيء يبعد عنه بأكثر من أقدام قليلة. كان يوجد جندي يعطس كثيرًا لفرط حساسيته، فسميناه *داريا*،

لأن أنفه كان يسيل كالنهر. كان شير جنديًا يقف منتصبًا وصامتًا كالشمعة. أكثرهم التزامًا، تقريبًا. أول من يضرب كعبه بالأرض بالتحية الرسمية. كان رستم، في مدد الظهيرة النادرة التي لا يكون فيها مع معلمه الخاص، يترك انطباعًا رائعًا بصوته، العميق واللا مبالي.

بعد أسبوعين من الحفل، كنت أنا ونيلاب ما زلنا نهفو إلى النظر عن قرب في كنوز آي خانم الملفوفة بالمخمل. كنت متأكدة من أننا سنعثر عليها لكننا بعد بحث شامل في جميع أنحاء القصر شعرنا بالتعب ونحن خاليتا الوفاض. اقترحت نيلاب -ونحن نتناول إفطارًا من البيض المقلي والطماطم- أن نطلب من بابا أن يرينا الصندوق. لم أرحّب بإعلان الهزيمة، لكنني عرفت أن الكنز سيُنقل قريبًا إلى المتحف وسأفقد فرصتي في النظر إليه عن قرب. فقررنا أن نقنع بابا بالتأكيد على اهتمامنا البالغ بهذا الكشف الجديد عن تاريخ أفغانستان. كأي طفلة طموحة، كنت أعرف جيدًا اهتمامات أبوي وعاداتهما وأعرف جيدًا أنني لو ركزت على شغفنا المشترك للتاريخ، سيمكنني إقناع أبي بخرق بعض القواعد أيضًا.

ركضنا في ممر يغمره ضوء الصباح. يحتل القصر مساحة ثلاثة وثمانين فدانًا في قلب كابول. بمبانيه المتعددة ومساحاته الخضراء الشاسعة، كان كمدينة داخل مدينة، وكقصص داخل قصص. صار جد نيلاب أول رئيسٍ للبلاد بإعلان ذاتي، أنهى به حكم الملك، ابن عمه، فيما كان العاهل في أوروبا. لكن القصة الأعمق، سواء أكانت حقيقية أم لا، تقول إن الشعب كان يريد إنهاء

حكم الملك والقضاء عليه، لذلك فإن جدّ نيلاب قد أسدى إليه صنيعًا.

«أتظنينه سيتركنا نمسكها بيدينا؟» سألت نيلاب وعضت شفتيها.

«نعم، شريطة ألا نخبر أحدًا أبدًا».

قاطع ثرثرتنا صوت رجل.

«لن تخبرا أحدًا بماذا؟»

التفتنا متفاجئتين لنرى من الذي سمعنا. كان شمعة، أو شير، ما بدا منطقيًا. لا أحد غيره يمكنه الاقتراب منا بهذا الهدوء.

«ديك»، أجبته بسرعة. أي تردد في الإجابة سيوحي بالكذب لذلك تفتق ذهني عن شخصية ديك من أغنية أطفال على وشك أن يُقدّم على العشاء. كانت عالقة في ذهني منذ الصباح. رأيت أمي تمسك بيد فهيم في يدها وترسم دوائر في راحته، تثني كل إصبع من أصابعه لتحولها إلى شخصيات في الأغنية:

ليلي ليلي بركة صغيرة
تنمو فيها طحالب كثيرة
جاء الديك ليشرب منها
فانزلق وسقط فيها
هذه الإصبع أخرجته
هذه الإصبع ذبحته
هذه الإصبع وضعته في الطبق
وهذه الإصبع جلست لتأكل
سألت الإصبع الصغيرة، يا عمتي أين نصيبي؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

قالت لها في الطبق

لكن الطبق خالٍ

لا بدّ أن القطة أكلته

لكن القطة هربت

ها هي ذي! مياو مياو مياو.

مع مواء القطة تأخذ أصابع أمي في دغدغة جانبي فهيم لينفجر في نوبة ضحك. كان أحيانًا حين تنتابه الحازوقة يمد يده لها كي تغنيها له مرة أخرى.

«ديك؟» كرر الجندي شير.

«نعم، لا بد أنك سمعت عنه. إنه كالدجاج لكنه يفتقد القوى السحرية»، أوضحت له. أخفضت نيلاب وجهها تخفي ابتسامتها.

بدا أن ردي الساخر لم يزعجه ففكرت في أنه ربما يتسامح مع شقاوتي لخاطر أمي.

لم تكن أمي تتصرف بأدنى قدر من الاستعلاء مع الجنود المسؤولين عن حراستنا. ورغم أن أبي توسل إليها مرارًا ألا تفعل، لم تتوقف عن إجراء محادثات قصيرة معهم. كانت تعرف أسماء زوجاتهم ووالديهم. كانت تتذكر من أين عائلاتهم ودائمًا ما تجد نقطة تواصل ما؛ مدرسة عليا مشتركة أو قريب لها ينحدر من الإقليم نفسه. كانت تقف حين تتحدث معهم بدلًا من محادثتهم وهي تمر بهم. تصر على أن الأمر لا يستغرق سوى ثوانٍ قليلة للنظر إلى شخص ما في عينيه ومنحه الاحترام الذي يستحقه.

لكنهم مجرد جنود، قلت لها ذات مرة.

نحن جميعًا جنود بطريقة ما، أجابتني بغموض.

انصرفت بدلًا من الجدل معها. لم أكن أرتدي زيًا رسميًا أو أحمل سلاحًا على كتفي. لم أقسم يمينًا لحماية الوطن أو الرئيس. لكنني احتفظت بتلك الحجج لنفسي لأنني كنت متأكدة من أن أمي ستبدأ محاضرة عن الطرائق الكثيرة التي يمكنني بها تحسين شخصيتي. وفي بعض الأيام، كنت أريد الاستمتاع بنقائصي.

ذات يوم، راقبتُ أمي تطوي كومة ملابس صغُرت عليّ. استخدمت شريطًا طويلًا من الساتان لربطها في صرة أنيقة، وأعطتها بعد ذلك لشير حين ذهبنا إلى القصر. سألتُها ونحن نسير إلى القاعة التي تنتظرنا فيها نيلاب عن حاجة جندي إلى ملابس فتاة صغيرة.

هزت رأسها وأخبرتني أن شير لديه ثلاثة أطفال، منهم فتاة أصغر مني بعامين.

الملابس تبدو أجمل على الأطفال منها في الأدراج، قالت.

كان من المستحيل تخيل شير أبًا. تساءلتُ إن كان يقف وقفة الحراسة في بيته كما يفعل في القصر. أخبرتُ نيلاب بتلك الفكرة ثم انحنيتُ قليلًا لأحيي أطفالًا متخيلين بتعبير جاد على وجهي. ضحكتْ نيلاب كثيرًا إلى حد أن شخرت، ما ضاعف ضحكنا نحن الاثنتين.

«ظننتُ أنكم ستغادرون اليوم. ألم تخبرك أمك بأن تستعدي؟» سألني شير.

لم أسمعه يردد كل هذا العدد من الكلمات من قبل.

«ربما تبحث عنكِ الآن».

«لا»، أجبتُه. «سنبقى مع أبي. ما زال لديه الكثير ليناقشه هو والرئيس».

بدا مرتبكًا، كأنه يحاول ترجمة كلمات إلى لغة لا يتحدثها.

«أأنتَ بخير؟» سألتْه نيلاب. لديها قلب أمي. تشعر بارتباك الآخرين وبضرورة أن تفعل شيئًا ما تجاهه. لكن شير لم ينظر إليها. تنحنح ولوح لنا بيده دون أن يتفوه بكلمة أخرى.

«الشمعة ليس في أفضل أحواله اليوم، أليس كذلك؟» تمتمتُ ونحن نسير بسرعة في الرواق. فهزتْ نيلاب رأسها.

حين ابتعدنا عنه مسافة كافية، استدرتُ لأرى إن كان ما زال يراقبنا. في ضوء الشمس المنثال من النوافذ من خلفه، لم أرَ سوى ظله. يداه الاثنتان عند جانبيه. كنت قد تحدثت معه بحرية وجهًا لوجه، لكن من هذه المسافة، جعلتني قامته الداكنة أسرع في سيري مبتعدة.

جذبت نيلاب ذراعي.

«إنه يؤدي عمله فقط. ولو لم يوبخنا، لكان أحد آخر قد وبخه. وبشكل أسوأ حتى».

كانت محقة. ذات مرة في أثناء موكب عسكري، وقفتُ أنا وهي، جنبًا إلى جنب، نراقب صفوف الجنود تسير بإيقاع ثابت وموحد أمام الرئيس وعائلته. أمام أعين العامة، كانت التكوينات كاملة. رجال في الزي الرسمي يسيرون معًا على قرع الطبول، بشرائط ونجوم على صدورهم وكتافات بشراشب تتدلى من أكتافهم. شعرنا بالفخر ونحن نشاهد فخامة جيش بلادنا ذاك اليوم.

لكننا في الأسبوع التالي مباشرة، تسللنا من مجلسنا إلى مائدة العشاء إلى الحريم السابق للملك حبيب الله. بعد عقود من اغتياله، ما زال قاتله مجهولاً. يوجد كثير من المشتبه فيهم: ابنه الذي اعتلى العرش بعده، جاسوس إنجليزي، أو فلاح ثائر. كان الحريم يؤوي أربعين امرأة، جميعهن يتقن لفت أنظار الملك. كنت مقتنعة أن بوسعنا العثور على رسالة ما مخبأة أو دليل ما لم يرَه أحد يؤكد على تواطؤ إحدى محظياته في مخطط اغتياله.

لكننا بدلاً من حل لغز الملك المغتال، رأينا مصادفة جنرالاً يحدق بغضب إلى جندي متهم بقبول رشوة. وقف الجندي بذراعيه إلى جانبيه، يرتعش. في البدء أنكر التهمة بصوت ثابت، ثم، بينما يصيح الجنرال فيه بقرفه من الكاذبين، تهدج صوته.

راقبنا ونحن مختبئتان خلف عمودين عريضين كفّ الجنرال ترتفع في الهواء وتهوي بصفعة حادة على وجه الجندي. تردد صدى الصوت بين الجدران. أخفضنا رأسينا كأننا نخشى الاصطدام بموجات الصوت.

تساءلتُ إن كان شير قد تعرض من قبل لتوبيخ بهذا السوء. لو كنت أشبه أمي أكثر لكنت وجدت طريقة لأسأله. أدركت أنه من الغريب ألا نعرف شيئًا عن المسؤولين عن حمايتنا والدفاع عنا ضد بقية العالم.

لكنني لم أعر الأمر اهتمامًا كبيرًا. بلا مبالاة الطفولة، واصلنا سعينا، تتبعنا أشباح الملوك والمحظيات، والجنرالات والجنود، وجميع الوجهاء الذين كانوا يخطرون السير بفخر قبل سقوطهم مباشرة.

الفصل الرابع

خطوات قليلة ونصل إلى مكتب أبي، أبطأنا سيرنا لنلتقط أنفاسنا ونستجمع شجاعتنا. اختلست النظر من الباب الزجاجي ووجدت أبي في جلسته المعتادة: يمسك قلمًا، يسدده كأنه سيضرب به الورقة. لم يلحظنا حين فتحنا الباب.

«بابا»، قلت بهدوء.

رفع بصره، فارتفع حاجباه.

«فتاتيّ! أي رياح طيبة أتت بكما إليّ هذا الصباح؟»

ليس في الغرفة سوى مكتب وكرسيين. في الخلف خزانة كتب مكدسة بالكتب على جميع أرففها. على أحد الحوائط ثلاث صور فوتوغرافية بالأبيض والأسود لثلاثة رجال في الزي الرسمي. على مكتبه صورة لأسرتنا، أمامه مباشرة. في الصورة، أنا أحمل فهيم ووالدانا يجلسان إلى جانبي. يبدو فهيم على وشك التدحرج من بين ذراعي وأبدو مرعوبة وأخشى إسقاطه.

«لقد أنهينا فروضنا المدرسية هذا الأسبوع وأعدنا كتبنا إلى المكتبة، كيف حال عملك؟» سألته، أمهد قليلًا للغرض الأساسي من الزيارة. مال بابا إلى الخلف في جلسته. بدا سعيدًا لمقاطعته أكثر منه منزعجًا.

«الأسهل عليّ أن أطير طائرة في صندوق». أجابني بتنهيدة. أخفض نظارته. «أين أخواكما؟»

«رستم يحاول تدريب طيور الحمام البيضاء على التحليق في دوائر في الحديقة، وفهيم يراقبه».

«وهل تظنانه سينجح في هذه المهمة الجريئة؟» سألنا.

هزت نيلاب رأسها.

«حتى فهيم طلب منه أن يستسلم». قالت. «يعرف الجميع أن طيور الحمام التي تعيش في القصر لا يمكن تدريبها».

«ملحوظة حكيمة، نيلاب جان. الآن، ظني أنكما لن تأتيا لمناقشة مزاج طيور الحمام».

أعرف أن أبي يحترم المباشرة في الحديث، فوضعت كلتا يدي على مكتبه ونظرت في عينيه.

«بابا، نريد أن نرى كنوز آي خانم! منعتمونا جميعكم من حضور الحفل، والآن سيتم نقلها إلى المتحف».

«فهمت». قال. وضع قلمه على مكتبه بهدوء وأزاح مجلة ذات غلاف لامع جانبًا ليضع مرفقيه على المكتب. «بادئ ذي بدء، ماذا تعرفان عن آي خانم؟»

«كانت مدينة قديمة في شمال أفغانستان حين كانت مملكة للإغريق والأفغان، وتقع عند ملتقى نهرين»، رددت نيلاب بنباهة.

«وعثر عليها الملك زاهر شاه خلال رحلات صيده»، أضفتُ.

«كنت على وشك قول هذا»، أصرت نيلاب وهي ترمقني بنظرة. تستمتع مثلي بترك انطباع جيد لدى أبي. زممت شفتي معًا وأومأت برأسي؛ اعتذار صامت.

مد بابا يده في جيب صدريته وأخرج ساعة جيبه الفضية، صورة رأس حصان على غطائها. كانت هدية من أمي، كي تحثه على العودة إلى البيت بعد العمل في وقت معقول. زم شفتيه ونقر بأصابعه على المكتب.

«لنذهب إذن»، قال وهو ينهض عن كرسيه. «من حقكما أنتما الاثنتان رؤية بقايا المملكة العظمى كأي شخص آخر».

سرنا خلفه إلى السلم الضيق المؤدي إلى المطبخ. مررنا بالطباخ ومساعديه الاثنين. امتزجت رائحة البقدونس المقطّع المنعشة برائحة شرائح البصل اللاذعة. مسح أحد المساعدين عينه بكم قميصه، ثم أعاد سكينه على لوح التقطيع الرخامي. حياهم أبي بالاسم. توقفوا عن عملهم وأجابوه ببهجة، ووضع الشيف يده على قلبه احترامًا.

«من هنا يا فتاتيّ».

على الجانب المقابل للمطبخ يوجد ممر ضيق ينتهي بباب. فتح أبي الباب وسحب سلسلة تتدلى من السقف. ترددتُ. لقد استكشفنا جميع أرجاء القصر وحدائقه، دخلنا حتى المناطق الممنوعة بعيدًا عن أنظار الحرس. لكننا، رغم شجاعتنا لم نهبط إلى الأسفل قط.

«إضاءة القبو ليست جيدة لذلك راقبا خطواتكما». نظر إليَّ من أعلى كتفه ولمس رأسي. إن كان شعر بتوتري، فلم يتحدث عنه. نظرتُ إلى نيلاب خلفي، تُمسك بالدرابزين وتركز في النظر أمامها جيدًا.

«تقدمي أنتِ»، همستْ لي بارتباك. «لأنها فكرتك».

نيلاب أكبر مني بعام، لكنها ليست شجاعة مثلي. شعرتُ بنفحة ثقة، ففردت كتفيّ وسرت خلف بابا.

لم نستطع رؤية الكثير في الإضاءة الخافتة للمبة واحدة. هبطنا السلم ببطء. تثير كل خطوة من خطواتنا صرير اعتراض من

ألواحه. في الأسفل كان القبو الفسيح مقسمًا إلى مناطق مختلفة بحبال سميكة وثقيلة وحواجز قابلة للطي. إلى اليسار أكداس من الكراتين. على مسافة أقدام عدة، أوانٍ وطاسات ألومنيوم ضخمة مرصوصة بعشوائية على رف معدني. رأيت مذياعين روسيين قديمين على طاولة. إلى يميني أكداس من لوحات زيتية في أطرها تستند إلى الحائط، مع مرايا وبعض السجادات الملفوفة. بقيت قريبة من أبي وركزت نظري على أعمدة الصناديق المائلة التي بدت على استعداد لأي تحول في الضوء الهزيل.

خلف أكداس أدوات المبطخ وحاجز مطلي بالأخضر والذهبي، قادنا بابا نحو مقصورة ضيقة. قد ألمس جدرانها إن مددت ذراعي فيها. تستند سجادة أخرى ملفوفة، سمكية كجذع الشجرة، في أحد الأركان وبجوارها كومة من الصناديق الخشبية.

«أنا أعرف أنكما لن تخرجا من هنا لتثرثران عن هذا، لكنني ما زلت أريد منكما وعدًا بألا تتحدثا مع أحد عمّا ستريانه. انتبها جيدًا يا فتاتيّ».

لا بد أنه شعر بنظرتي على كتفه لكنه لم يقل شيئًا. لا يمكنني الانتباه جيدًا دون أن أعرف إلى ماذا أنتبه. راقبته يتحسس بيده جدار المقصورة حتى التقطت إصبعه مزلاجًا صغيرًا. أداره في اتجاه دوران الساعة فسمعنا تكة ناعمة. سحبه فتحول الجزء الأسفل من الجدار فجأة إلى باب. في الداخل، مساحة خالية ثم باب آخر بمقبض معدني وثلاثة أقراص بأرقام من واحد حتى تسعة وتسعين. وضعت على مسافة بوصات أحدها من الآخر وتكوّنُ معًا مثلثًا. أدار أبي القرص الأيسر أولًا، حركه ببطء

حتى أشار سهمه إلى ثلاثة وستين. ثم انتقل إلى القرص الثاني، وضبطه على سبعة وعشرين. وحين أدار القرص السفلي إلى رقم خبأه بكم سترته، وحرك المقبض المعدني إلى الأسفل، تكت سنون الصفائح المعدنية وهي تنضبط معًا لتفتح القفل.

جفلت أنا ونيلاب حين سمعنا وقع خطوات ثقيلًا أعلى رؤوسنا.

«لم تخافا من الخدم في المطبخ منذ دقائق قليلة. فلا داعي لتخافا منهم الآن»، وبخنا بابا دون أن ينظر إلينا.

انفتح الباب بقعقعة هادئة، نظرنا أنا ونيلاب داخل الخزنة الضخمة المظلمة. كانت في مثل طولي تقريبًا. دلف أبي فيها بظهره منحنيًا وأخرج الصندوق الذي رأيناه في الحفل. أمسكتْ نيلاب بيدي، سرتْ رعشة كهربية عبر أصابعنا المتشابكة وبابا يرفع غطاء الصندوق ويخرج منه أول علبة صغيرة مبطنة بالمخمل.

واحدة تلو الأخرى، أرانا القطع التي لم نستطع رؤيتها ليلة الحفل. أنار لنا قلمه الضوئي في المساحة الضيقة، ألقى بالضوء على ميدالية من الجص ذات نقوش، ومجموعة من العملات البرونزية. تركنا نقربها من وجهينا بحيث رأيت حبيبات الرمل عليها والمنحنيات التي صنعتها أدوات نقش من القرن الثالث.

«وجد علماء الآثار أطلال قصر ملكي في آي خانم، مشيد بعواميد طويلة، وغرف تخزين، ومكتبة، وبرك سباحة ونوافير. كان مقرًا للمهندسين والأطباء، والتجار ورجال السياسة. فكرا فقط في الوقت الذي مضى منذ ذاك الحين وفي قدرة هؤلاء الناس على البناء».

عرفتُ العلبة التي تحوي الخاتم قبل أن يفتحها أبي. كان الخاتم هو القطعة الوحيدة التي رأيناها ليلة الحفل. ندت من نيلاب شهقة رقيقة. كانت صديقتي المقربة من نوعية البنات التي تتمناها الأمهات، ممن يفضلن الأثواب الضيقة والجواهر. يمكنها الجلوس ساعات دون أن تسمع لها صوت، ولا تعود إلى البيت بركبتين ملطختين بالطين مثلي.

في حين انبهرت هي بالذهب والحجارة الكريمة، أذهلني أنا بقاؤهما وقتًا أطول من أي شخص استخدمهما.

«هذه قطعة رائعة»، قال أبي معجبًا. كان حجر الفيروز يلمع بقوة على الذهب الثمين. «تخيلا فقط أنه منذ ألفي عام صنع صائغ إغريقي أو أفغاني هذا الخاتم بيده وبلا شيء سوى مطرقة ولهب. التصميم إغريقي لكن الذهب والفيروز أفغانيان. يا له من إتقان. كأنه كان يعرف أن عمله سيكون أحد آخر الأدلة على وجود حضارة بائدة».

«ربما كان يعرف بالفعل». خمنت.

«ليس مرجّحًا. لا أحد يتوقع أن تُباد حضارته. الكبرياء تعمي».

«لماذا سيُوضع كل هذا في المتحف؟ لماذا لا نعرضها هنا في القصر؟» سألتْ نيلاب.

«لأنها جزء من تاريخ أفغانستان، والتاريخ ملك للشعب».

خطر لي سؤال وأنا أراقبه يعيد العلب إلى مواضعها ويغلق غطاء الصندوق الكبير.

«ما الذي قضى على آي خانم بابا؟»

خبط على الصندوق خبطة واحدة سريعة بقبضته.

«ألم يأتهم الغزاة من الشرق؟» سألت نيلاب.

فـرد ظهـره ونظـر إلينـا، انعكـس ضـوء اللمبـة الخافـت علـى عدسـتي نظارتـه.

«نعـم. ومـع ذلـك لـو لـم يكونـوا أتوهـا مـن الشـرق لكانـوا أتوهـا مـن الغـرب»، أوضـح. «يبـدو أن أرضنـا تجتـذب الرجـال الذيـن لا يحبـون الراحـة. يسـعى كل منهـم لصنـع اسـمه، مهمـا كان الثمـن».

أغلـق بـاب الخزنـة وأدار الأقـراص الثلاثـة سـريعًا. أعـاد إغـلاق بـاب المقصـورة مـرة أخـرى وعدنـا أدراجنـا نصعـد السـلم الـذي اعترضـت ألواحـه الخشـبية بصريـر مجـددًا. حيـن صرنـا فـي المطبـخ، قبّـل رأسـي ولمـس ذقـن نيـلاب.

«صاحـب!» صـاح جنـدي مـن عنـد البـاب. يضـم قدميـه معًـا ويفـرد كتفيـه للخلف.

«الـرئيس يطلب حضورك. للضرورة. سيدي».

أومأ له أبي برأسه.

«انتهـى درس التاريـخ الآن يا فتاتـيّ»، قـال بابتسـامة متعبـة. بـدت عينـاه ثقيلتيـن بالظـلال، حتـى فـي الضـوء السـاطع للمطبـخ. كان جبينـه مغضنًـا وخطواتـه ثقيلـة. خطـر لـي أننـي لـم أره نائمًـا منـذ أيـام. «عِدانـي أنكمـا سـتبقيان بعيـدًا عـن المشـكلات».

أومأنـا برأسـينا بطاعـة وانطلقنـا إلـى الحديقـة للبحـث عـن أخوينـا. تخلـق الجـدران العاليـة للقصـر وهـم الخصوصيـة، رغـم وجـود نحـو مئـة شـخص فـي مسـاحة ثمانيـن فدانًـا مـن الأراضـي والمبانـي. بينمـا نسـير، مـررت بأصابعي على الشـجيرات واسـتنشـقت الشـذا الخفيـف لأشـجار البرتقـال. أزهـرتْ إحـدى شـجيرات الـورد

الجوري مبكرًا، وأرادت نيلاب، البستانية الهاوية، أن تلمس أوراقها المخملية.

كان جنود بالزي الرسمي يقفون عند المدخل المقوس لقصر دلخوشا. صرّت الأبواب الخشبية العريضة وهي تنفتح ويخرج منها الرئيس داوود خان. وقف الجنود وقفة الانتباه، تخفي قبعاتهم الزيتونية وجوههم قليلًا، وأطراف بناطيلهم محشورة في الرقاب العالية لبياداتهم. سار الرئيس، محاطًا بثلاثة من مستشاريه، ويداه متشابكتان خلف ظهره المائل قليلًا إلى الأمام، كأن رياحًا عاتية تضرب في وجهه. ابتعد عن القصر أمتارًا قليلة قبل أن يستدير على عقبيه ويسير في الاتجاه المعاكس.

انحنينا برأسينا إلى الأسفل. توارينا عن الأنظار خلف شجيرات الورد الكثيفة. راقبنا وسمعنا.

«سيدي، كلمة واحدة منك وسوف آمر الجنود بجمع السجناء والقضاء عليهم الليلة».

شحب وجه نيلاب، ثبتت عيناها على جدها. أمسكتُ بمرفقها إذ بدا أنها ستسقط مغشيًا عليها.

«كي تنبت الأرض محصولًا آخر من الرايات البيضاء؟» صاح مستشار آخر. «إن جعل المعارضين شهداء يشبه حك الظهر بسكين حاد».

ظهر أبي من باب جانبي وانضم إلى النقاش الذي بدا أنه مستمر منذ أيام.

«مع احترامي، نحن في المأزق نفسه الذي توقعته منذ أن بدأنا بناء السجن. نحن نبني مدارس كبيرة بأمل أن تمتلئ

بالأطفال. ونبني مساجد فسيحة بأمل أن تمتلئ بالمؤمنين. وقد بنينا بول إي تشارخي، سجن كبير يسع الآلاف. هل كنا ننوي أن تظل الزنازين شاغرة؟»

«ليس لدينا الوقت للتفلسف. ماذا سنفعل؟ موسكو تقول إننا لو تركناهم يتزايدون ويتجمعون، ستصير تلك الأصابع قبضة».

توقف الرئيس فجأة، خبط بكلتا يديه جانبي رجليه. جفلتُ أنا ونيلاب على إثر الصوت.

«لن يُقتل سجين واحد دون أمر مني!» أعلن.

«لن يسر موسكو هذا الأمر ولو...»

«لم نكافح للتحرر من البريطانيين لتحكمنا موسكو»، أكد أبي.

«كفى!» صاح داوود خان.

أخفض المستشار رأسه وأرخى كتفيه. لم أكن قد رأيت الرئيس غاضبًا من قبل. ومن تعبير وجه نيلاب ظني أنها لم تره كذلك أيضًا.

«إنه محق. أخطأت موسكو فهم كرم ضيافتنا وشكرنا. أنا لست تحت سيطرتهم. هذه الأمة ليست تحت سيطرتهم!» هدر الرئيس بصوت عالٍ.. «على المكتب السياسي التراجع خطوة إلى الخلف وإلا سيعرضوننا جميعا للخطر».

أشارت لي نيلاب أن نبتعد. ندت عنها أنة ألم ونحن نستدير. كان على ساعدها نقطتان قانيتان حيث جرح الشوك جلدها، ضغطتُ بطرف قميصي الأسود عليهما. حين رفعته، كان الدم قد توقف.

لكنها لم تبدُ مرتاحة، بل بدا أنها تشعر بالغدر قادمًا من البراعم الرقيقة.

«تعالي»، قلت لصرف ذهنها عن الأمر. «لنبحث عن الصبيين».

وجدنا والدتينا عند النافورة. كان فهيم على الحافة الأسمنتية الدائرية، يده تعبث بالمياه الجارية وقدمه الحافية تتدلى في الهواء. سمعت موجات قهقاته تتردد، تعلو وتهبط فتطرب من يسمعها أكثر من صوت المؤذن وقت الصلاة.

بات القصر في حاجة ماسة إلى البهجة مؤخرًا. بدت جدرانه كأنها تنوء بما داخله. حدقت نيلاب إلى النافورة.

«ستارة»، بدأت كلامها بهدوء. «أتظنين أن شعب آي خانم هربوا؟ أم دُفنوا مع تلك الكنوز؟»

عرفتها منذ وقت طويل جدًا إلى حد جعل حياتينا تتضفران معًا. كنت أحيانًا أتخيلها طريقة الله في تعويضي عن أختي الكبرى التي لم أرها. عرفت من نبرة صوتها أنها مرعوبة. كنا ماهرتين في التقاط المحادثات السياسية، لكن ما سمعناه لتونا أذهلنا نحن الاثنتين.

«كان ذلك منذ زمن طويل، نيلاب. ربما عادوا إلى اليونان أو ذهبوا للبحث عن أرض أخرى». خمنت. لكنها لم تقتنع برأيي.

«لا بد أنه كان في آي خانم أطفال». قالت بحزن.

وجدتني أردد هراءً لأرفع معنوياتها.

«لم أرَ في الصندوق أي دمى أو خواتم صغيرة. أراهن أنهم كانوا مشغولين جدًا في نقش الحجارة عن التفكير في إنجاب الأطفال».

بدت متشككة.

«تعالي»، قلت بمرح وأنا أشد يدها. «لنتسلل ونستمع إلى والدتينا. مع كل الزوجات والأجنبيات اللاتي حضرن الحفل، لربما سمعنا فقرة نميمة دسمة».

سرنا معًا بانسجام، كعادتنا دائمًا، لكنني تجرأت على الالتفات إلى الخلف. كانت الأبواب الخشبية قد أغلقت مرة أخرى. اختفى الرئيس ومستشاروه وظلالهم الطويلة وعادت للحديقة سكينتها مجددًا.

كان فهيم يختبئ خلف عربة يد في لعبة غماية، يضغط براحتيه الطريتين على عينيه، تنعكس شمس الظهيرة على شعره الكستنائي. ندت عن شفتيه المفتوحتين صيحة جذل.

«أين ابني الصغير؟ أين ذهب؟» قالت أمي بمرح. لكن صوتها شابته كآبة ما. ربما كانت تحزن، مثل جميع الأمهات، للحقيقة التي سيتعلمها أخي في المستقبل؛ أن إغماض العينين لا يجعلك تختبئ مِمَّن يبحث عنك.

الفصل الخامس

27 **أبريل** 1978

بعد ذلك اليوم بدا القصر كصرة فك أحدهم رباطها. صارت قاعاته معتمة وخانقة. سمعت والديّ يتناقشان حول إن كان من الأفضل لنا العودة إلى بيتنا. لكن حينها أمر قائد عسكري بزيادة عدد الدبابات المصفحة حول جدران القصر العالية. فاطمأن أبي للتعزيزات الأمنية.

عُزِلت أسرة الرئيس داوود في غرفة شرقية بمبنى آخر. حين سمعت أحدًا ينادي اسم رستم عبر المرج، تساءلت إن كان صديقاي قد حاولا التسلل لزيارتي. بعد ذلك بساعات، ظل لا أثر لهما. تأففت لأن عليّ انتظار مرور العاصفة قبل رؤية نيلاب ورستم مجددًا.

سمحت لي أمي بالتجول في نطاق ضيق، أكدت عليّ أن أظل بالقرب منها. شعرت كسجينة في مكان ظلّ دائمًا ساحة لعبي. لحسن الحظ، كنا ما زلنا بالقرب من مكتبة الرئيس؛ ما منحني ملاذًا على الأقل بين الأرفف الثرية.

مكثتْ أمي طوال الوقت في غرفتنا مع أخي. كان يشكو من ألم في معدته منذ ليلة أمس. فظلتْ تطعمه منقوع الشمر الدافئ بالملعقة وهو يحاول دفن وجهه في صدرها. كنتُ في السابعة من عمري حين وُلد. أتذكر حين كنت أتقوقع بجوار بطنها النامي لأشعر بركلاته الحادة. بقدر ما كنت متشوقة للقاء الأخ الجديد، كنت قلقة من أن يسحب اهتمام والديّ مني.

لكنني أغرمت به حين وُلِد، بأصابعه الصغيرة ورائحته التي تشبه رائحة البودرة، إلى حد زال معه كل القلق. وبطريقة ما اتسع حضن أمي لنا نحن الاثنين، التشريح الغامض لحب الأم.

كنت أضغط رأسي على صدرها وأسمع دقات قلبها المنتظمة، كأن في صدرها ساعة. كنت أستمع إليها كلما جلست بجانبها، تطرد الأفكار القلقة من قلوب تخضع لحدود الزمن.

في الظهيرة، انبعث دوي مدفع من أعلى قمة التلة كالعادة. رغم انقضاء الصباح، ما زال الوقت يمضي ببطء شديد. شعرتُ بجوع وتساءلت إن كان عليّ إعداد شيء ما لأمي وفهيم أيضًا. كان أبي غارقًا في مناقشات بدا أنها لا تؤدي إلى أي شيء، إذ ما زال لم يظهر بأي أخبار جيدة.

اختلستُ النظر في غرفة النوم، فرأيت أمي نائمة متكورة حول فهيم. سرتُ بهدوء نحو المطبخ لئلا أوقظهما. توقفت حين سمعت الأصوات المألوفة للخدم في المطبخ يتحدثون بهمس مرعوب.

«لا يمكن أن تكون جادًا! لماذا قد يفعلون هذا؟»

«لتوي رأيت ذلك بعيني هاتين. لقد وجهت الدبابات الواقفة في الخارج أسلحتها نحو القصر لتوها. نحن تحت الحصار!»

دخلتُ المطبخ.

«هذا مستحيل. لماذا ستوجه الدبابات أسلحتها نحونا؟»

«ماذا تعني بأننا تحت الحصار؟»

وضع الرجلان أيديهما على المنضد، وجهاهما متجهمان. لم يزعجهما أنني سمعتهما.

«اذهبي إلى أمك أيتها الفتاة الصغيرة»، قال أحدهما، بالكاد نظر إليّ. «ابقي معها، هذا ليس وقت اللعب».

أذهلني الغضب في صوته، انصرفت دون أن أسأل عن طعام. أردت أن أخبر أمي بما سمعته لتوي لأرى ردة فعلها. أردت أكثر من ذلك أن أجد أبي. سيخبرنا بما يحدث حقًا. شعرت أن شيئًا ما مشؤومًا، لم أستطع تحديده، كان يحدث.

هزت كتف أمي. كانت عيناها ما زالتا ثقيلتين من النوم، لم تنم جيدًا ليلة أمس. زال نعاسها تمامًا حين أخبرتُها بما سمعته. جعلتني أكرر ما قلته وأقسم إنني متأكدة ممّا سمعته.

تمالكتْ نفسها وحاولت طمأنتي، لكنني كنت قد لمحت الرعب في وجهها بالفعل.

«كل شيء سيكون بخير. يجب أن أجد والدك»، قالت وهي تطرف بعينيها بسرعة.

كأنها استدعته، ظهر أبي فورًا عند الباب. ذقنه نابتة ووجهه غائر، أكمامه مشمرة.

«سليمان...» قالت أمي.

ربت أبي على كتفي وسار في الغرفة، ألقى بنفسه على مقعد كأنه يحمل حجرًا يزن مثل وزنه.

«لقد غيرت الرياح اتجاهها»، قال.

«تحدث بوضوح»، قالت أمي بصوت يرتعد.

جلستُ إلى جوار فهيم الذي بدا أن معدته استقرت حين بدأ كل شيء آخر في القصر يضطرب. أحطته بذراعي ووضعت ذقني أعلى رأسه حين سمعت ما يشبه قعقعة عملات معدنية في علبة صفيح كبيرة.

«انبطحوا!» قالت أمي مذعورة. جذبتنا هي وأبي بحركة واحدة سريعة، وغطّيا جسدينا بجسديهما. جثمنا نحن الأربعة على الأرض مشلولي الحركة. حتى فهيم تجمد ولم يصرخ. بعد دقائق قليلة، توقف إطلاق النار وفككنا التصاق بعضنا ببعض. لم يمس الغرفة شيء. لم يصب أحدنا بأذى، مع ذلك لم أشعر بالاطمئنان.

نهض أبي وخرج إلى الرواق.

«أرى أحد الحراس»، قال وهو ينظر خلفه إلى أمي. «سأذهب لأرى ماذا يحدث».

«لكن، سليمان!»

رأيته يتردد، لم أتعرف عليه تقريبًا. كور يديه حول جبينه كأن أفكاره ستنفجر من جمجمته. هز رأسه وركع أمامنا.

«سنجد نهاية آمنة لكل هذا. علينا ذلك».

نحبت أمي بهدوء إذ تعرف ما يعنيه هذا. كانت كل المحادثات قد أجراها أبي.

بعد وقت قصير من خروجه من الغرفة، سمعت صوتًا مرعبًا... رعدت السماء وانشقت عن طائرات مروحية تحلق أعلى القصر على مستوى منخفض، ترمي بقذائفها على الأرض. لم أسمع صراخي في خضم الانفجار. بقينا ساكنين، يشلنا التوتر عن الحركة. حين عاد أبي إلينا، همس لأمي أن فصيلًا من الجيش قد انقلب على الرئيس بالفعل.

تذكرتُ المحادثات التي سمعتها خلال الأسبوعين الماضيين. تسلل السخط والشكوك من عائلات السجناء السياسيين إلى

طلبة الجامعة. البعض يرى أن زيارة الرئيس داوود إلى الولايات المتحدة جعلته مطية للأمريكان. طالب آخرون بأخذ موقف أكثر حدة في مواجهة موسكو. وبعيدًا عن مسمع السيدة الأولى الرصينة، كانت النساء يتناقشن حول ما إن كان الرئيس يتمتع بقدر من الهيبة يمكّنه من حفظ النظام وسط هذه القلاقل.

كان بابا يتحدث معه بحدة.

تصفية المعارضة لن تحل هذه المشكلة، حذره قائلًا. *إن الأمريكان يمسكوننا من ذراعنا اليمنى والروس من اليسرى. ستتذكر كلامي هذا. لن يُفلت أي منهما قبضته حتى ولو رأونا نتمزق إربًا*.

ظل كاكه داوود وبابا وعدد من المستشارين حبيسي غرفة اجتماعات مؤطرة بالخشب. كان المطبخ مهجورًا، لا أحد لديه أي شهية على كل حال. انقضى النهار وحل المساء. عاد أبي متثاقلًا إلى غرفتنا في وقت متأخر، عيناه حمراوان. تفوح منه رائحة شاي وخمر ودخان سجائر.

«بابا، هل سيؤذوننا؟» سألت وأنا أحاول بجهد ألا أبكي. لم أستطع منع ذقني من الارتعاش.

«لا، لا، فتاتي الحبيبة»، أجابني بهمس مبحوح. «إنهم شعبنا. وهم يلتفتون يمينًا بالسرعة نفسها التي يلتفتون بها يسارًا. كل شيء سيكون بخير».

سال الكحل من عيني أمي مع دموعها على خديها قبل أن تمسحه. سمعت همسها بالدعاء. ابيضّت مفاصل أصابعها وهي تقبض على يد أبي. بقينا ملتصقين معًا في غرفتنا. بحثت عن

علامات صغيرة على أننا لا نواجه نهاية العالم، تشبثت بنظريتي التي توصلت إليها حديثًا بأنه ما دام استمر تعاقب الشمس والقمر سيظل عالمي سالمًا.

نام العشرات ممن يؤويهم القصر، مرعوبين ومرهقين، على المقاعد الوثيرة، وعلى أسرتهم الفخمة، وبظهورهم إلى ورق الحائط البارز.

ربما كانت حاجتي إلى التأكد من وجود القمر هي ما أيقظني من نومي القلق تلك الليلة. ربما كان حلمي الخاص. الذي عدت فيه إلى حدائق القصر ورأيت أبي يلعب الغماية مع الرئيس داوود، ونيلاب تقف أعلى النافورة تلقي بعملات آي خانم في المياه.

أيًّا كان السبب، فقد استيقظت فجأة. حاولت العودة إلى النوم لكنني لم أستطع إغماض عيني. كنت ظمأى أيضًا.

تقلب فهيم بجواري. حبست أنفاسي، لا أريد إيقاظه. ندت عنه همهمة هادئة قصيرة ثم عاد تنفسه لإيقاع النوم. أردت أن ألمس وجهه، حين قربت أصابعي من خده، طرفت أهدابه بخفة فأبعدت يدي.

اعتادت عيناي الظلمة وميزت قطع الأثاث. نهضتُ. أمي نائمة على الفراش على مسافة قدم واحدة مني. نام أبي جالسًا على المقعد، يشخر بهدوء ونظارته في يده. ارتحت لرؤيته نائمًا.

كان دائمًا ما يجدني مستيقظة، أقرأ، حين يجب أن أكون نائمة. وبدلًا من أن يغضب عليَّ كان يغطيني ويغني لي أغنية أحمد ظاهر، المغني ذي الشعر الطويل الذي سحر إذاعات الراديو والحفلات في البيوت.

أنا أنعس، وأنت تسهرين
وأنا ساذج وأنت حكيمة
أنا أرتاح وأنت تكدحين
حبك البراق يملأ كل شيء
حين تزول السحب في السماء
تألقي يا نجمتي ونوّري الحياة

لدى بابا عمل مهم، كانت أمي قد أوضحت وهي تجلس بجانبنا على الفراش، تربت على ظهر فهيم وتمسد لي شعري. بدت متعبة هي الأخرى، ربما كان ذلك لأن مهمتها ليست بأقل أهمية من مهمته.

كانت ترقد على جانبها، يداها أسفل وجهها، صدرها يعلو ويهبط كموجات بحيرة. تبدو جميلة حتى وهي نائمة؛ أنفها المستقيم، عيناها المستديرتان، وخصلات شعرها السوداء. تستقر دلاية قلادتها الذهبية، لفظ الجلالة، في تجويف عظام ترقوتها.

وضعتُ قدميّ على الأرض وسرت على أطراف أصابعي نحو الباب.

تسللتُ بهدوء إلى الرواق ونظرت إلى الأبواب الفرنسية للمكتبة. ينثال نور القمر من النافذة. دخلتُ وسرت إلى الأرفف لألمس كعوب كتب الرئيس، بعضها كتان، بعضها لامع، حتى سحبت كتاب النجوم الثابتة وفتحت الصفحة التي كنت قد علّمتها. سرتُ بالكتاب إلى النافذة، أحاول التقاط قصة من النجوم المتناثرة.

كنا في شهر الثور، فبحثت في السماء عن الثور الأسطوري.

لكنني سمعت ضجة في الحديقة نبهتني لمجموعة من الجنود في الزي الرسمي. ثمة شاحنة عسكرية، كشافاتها مطفأة، في الممر الدائري لمدخل القصر. انقبضت معدتي حين أتاني وقع خطوات في الرواق من خلفي. التصقت بظهري بالنافذة وتساءلت، من غيري كان مستيقظًا؟

أنصتُّ فميزت وقع خطوات أكثر من شخص. يتحركون ويتوقفون في وقت واحد. حبست أنفاسي، تساءلت إن كان خوفي حماقة. قد يكونون الجنود الذين يحرسون القصر كل يوم. بالطبع، سيمكنهم التغلب على حفنة التفاحات الفاسدة الذين انقلبوا علينا.

حطمت الليل سلسلة من الانفجارات الحادة. نظرت إلى الخارج ورأيت الجنود يندفعون إلى القصر. راحتاي متعرقتان. ربما جاء الجنود ليخبروا الرئيس بأخبار جديدة. بالطبع سيوقظون بابا أيضًا. إن استيقظ والداي ولم يجداني سيقلقان. سرت خطوات عدة نحو باب المكتبة.

دوت طلقات نارية، صراخ، صياح، خطوات تهرول وأبواب تصطفق. دوى مزيد من إطلاق النار في قاعات القصر. اختبأتُ خلف الستائر، ألصقت ظهري بالنافذة. غص حلقي بصرخة مكتومة.

اختلست النظر من خلف الستائر. كنت قد أغلقت باب غرفة نومنا خلفي حين خرجت، فشعرت بالرحمة لوهلة إذ ظننت أن هذا يكفي، وأنني بهذا خبأت أسرتي في مأمن من الخطر.

لكنني لم أفعل.

انفتح باب غرفة النوم على مصراعيه. لمحتُ أبي، قميصه مفتوح ونظارته مائلة. أردت أن أناديه لكنني تجمدت في وقفتي.

ما إن خرج أبي إلى الرواق، بدا أن أحدهم قد دفعه من كتفه، فطرحه أرضًا بعنف. سمعت صوت الطلق الناري بعد ذلك بثانية، ثم رأيت جسد أبي صريعًا على الأرض كقط سيامي.

فهمت على الفور أنه لقي حتفه. عدت أنظر إلى باب غرفة النوم المفتوح فرأيت أمي ملتصقة بالجدار البعيد للغرفة، أمامي مباشرة. التقتْ أعيننا. أشرتُ لها أن تختبئ، أن تركض، أن تجد طريقة للفرار من الوحش الذي يوشك أن يفتك بالغرفة.

كان الهواء ثقيلًا كغيمة ملبدة.

ند عن أمي أنين. انزلق صوتها في الرواق، عبر بجسد أبي واستقر، كنَفَس واحد، في أذني. أحاطت فهيم بجسدها، غطت عينيه بيديها. أمالت رأسها ونظرت إليّ بحنان وحب، وإذ بقامتين طويلتين تقتحمان المشهد بيننا، فتدرك أنها ليلة بلا رحمة.

مادر، حاولت أن أبكي كما يبكي الأطفال والكهول لرؤيتهم الوجه الآخر للعالم.

مادر، التماس الرحمة، أنشودة الرثاء.

الفصل السادس

28 أبريل، 1978

لم أجرؤ على اختلاس النظر من خلف الستائر. تمسكت وأنا مختبئة خلف الستائر بكل احتمال لنجاة أسرتي. بالطبع سيهرع إليهم أحد، أي أحد، وينقلهم إلى المستشفى حيث سيعالجون جروحهم ويعودون كما كانوا. دعوت الله أن أرى المعاطف البيضاء والسرنجات والأيدي الماهرة للأطباء. مع ذلك كانت آمالي تلك واهية كفقاقيع الصابون، خاصة مع تردد الأصوات غير المألوفة في الأروقة بلا منازع.

حين كنت في الرابعة، استيقظت ذات ليلة على صيحة أمي. كان لص قد قفز على سطح بيتنا في كابول وأسقط آنية زهور وهو يحاول التسلل من النافذة. حين هرب، طارده أبي، قفز من سطح إلى آخر حتى قبض عليه على سطح بيت غير بعيد. أو هكذا أتذكر الأمر على الأقل.

ربما كان قد طارده في الشارع أو اندفع إلى داخل بيوت الجيران النائمين، بصرف النظر، شكلت تلك الذكرى تصوري عن أبي. كانت السبب في يقيني بقدرته على حمايتنا من أي خطر. حين كان يسير بي إلى المدرسة، كنت أنظر إلى ظله أمامنا وأراه تجسدًا لكل حقيقة. كان أبي، بالنسبة إليَّ، ليلًا ونهارًا، أكبر من الحياة.

لذلك لم يسعني فهم لماذا انطرح أرضًا هكذا، توقعت ظهوره في أي لحظة من النافذة ليحملني إلى السطح لنهرب. نظرت إلى

ساعة الحائط. بعد ثلاث ساعات من الوقوف بدأت عضلات رجلي تؤلمني. مع ذلك، ظللت واقفة بانتباه ما أمكنني، أحاول الاختباء بجسدي في الملاذ الصغير خلف الستارة وبعيدًا عن أنظار أي أحد قد ينظر من الخارج.

أين كان الجميع؟ لماذا لم يهب الرئيس داوود بقواته للقبض على المجرمين؟ أرهفت السمع وفي النهاية سمعت صوت الرئيس داوود يعلو من مكان ما في أعماق القصر.

خونة!

لم أميز كلمة أخرى.

شعرتُ بأني كقارب بلا مرسى. أردت أن أسقط وأستسلم للأرض. ما زال ضوء القمر يتألق لكن الشمس ستشرق خلال ساعة أو نحو هذا، وسيتلون الأفق باللون الوردي.

سمعت وقع خطوات، الضجة المكتومة لبيادة ثقيلة على السجاد الناعم. سمعت زعيقًا بأوامر وغمغمات عالية. لم أجرؤ على اختلاس النظر. نظرت فقط إلى السجادة الداكنة أسفل قدمي وانتظرت أن تقود رائحة بولي الجنود إليّ.

تحركوا في جميع الأرجاء ودخلوا جميع الغرف. أغمضت عينيّ بقوة، مع أن ما رأيته بعيني المغمضتين كان أشد رعبًا مما رأيته وهما مفتوحتان.

دخل وقع الخطوات المكتبة. تحركوا ببطء. سمعت صوت تنفس رجل، يسحب الهواء بصعوبة عبر فتحتي أنف ملتهبتين. كنت أستجمع شجاعتي لكسر زجاج النافذة بمرفقي والمغامرة بالقفز منها حين أُزيحت الستارة. وجدتني أقف وجهًا لوجه أمام

جندي -أو بشكل أكثر دقة- أمام العين التي لا تغمض لفوهة كلاشينكوف. أغمضتُ عيني وكياني كله يرتعش.

لا أعرف كم من الوقت مضى عليّ هكذا، بوجودي متوقفًا على إصبع واحدة متكورة على زناد.

عند نقطة ما، فتحت عينيّ.

انخفضت الفوهة لكنها ظلت موجهة نحوي. تجرأت على النظر إلى من خلف السلاح، الذراعان المرتعشتان اللتان تحملانه. رأيت رجلًا، يلهث، عيناه الحمراوان جاحظتان. التفت خلفه ثم عاد ينظر إليّ.

مسح راحته في بنطاله.

«يجب أن تهربي!» همس بحنق، لكزني بطرف سلاحه في ذراعي. جفلت من ملمس المعدن الدافئ. «اذهبي!»

مسح عرق جبينه.

همست بدعاء، أنظر إلى غرف النوم الخالية خلفه. سقطت عيناي على الأرض المظلمة.

«أريد أن أذهب معهم».

تراجع إلى الباب، نظر إلى الرواق ثم عاد إليّ. سحبني من ذراعي وأخرجني من المكتبة بطرف سلاحه بين عظمتي كتفيّ.

سرت، لا أجرؤ على النظر إليه.

سمعت وقع خطوات وهمهمة أصوات تأتي من ناحية مقر الرئيس.

نيلاب؟ صرفت صديقتي المقربة عن تفكيري بقوة وركزت على اتخاذ خطوات هادئة.

«لا يمكنك الاختباء. لا يوجد مكان للذهاب إليه»، قال، أنفاسه حارة وتلسع أذني.

هل سيتركني أختبئ؟

أسفل طاولة في الرواق. في المطبخ بين براميل الزيت. في الحمام مع الطيور المرسومة على جدرانه. خلف منضدة المشروبات في قاعة الطعام. كانت كل أفكاري مريعة.

ثم تذكرت القبو.

هدأ إيقاع سيري.

«أين؟» سألني.

سرت إلى السلم الضيق المؤدي إلى المطبخ، خطوت بحذر وهو يتبعني.

عرفت، بعد سماع صوت فتح وغلق خزانات وأدراج المطبخ، أن في الداخل اثنان على الأقل.

وقفت أسفل السلم. سار الجندي حولي، أخفض سلاحه وصعد السلم. سار بخطوات ثقيلة على أرضية المطبخ.

لم أستطع تمييز ما قاله. تساءلت إن كان عليّ أن أهرب وأعود إلى الرواق بدلًا من الاختباء في القبو.

«كل شيء تمام في هذا الطابق أيضًا. لا شيء آخر لفعله هنا».

«نعم، لهذا أرسلني القائد في طلبك، يوجد تغيير في مهمتك ربما».

جفلت من صوت خبط، اصطفق باب خزانة ينغلق.

اقتعدت الأرض في بئر السلم، يداي على أذني، جذبني أحد من ذراعي وألقى بي في المطبخ. الأصابع تضغط عظم ساعدي.

«اذهبي!» أمرني، فأسرعت إلى باب القبو.

هبطتُ إلى ظلام القبو الحالك، ساقاي ترتعشان. انغلق الباب خلفي قبل أن أهبط درجتين. وجدتُ يدي الدرابزين وتحسست بأطراف أصابع قدمي كل درجة قبل الهبوط درجة أخرى. حين لمستْ قدماي أرض القبو الباردة، انفتح الباب في الأعلى. اختبأت قبل أن يُقذَف بضوء أبيض على السلم. قلم ضوئي.

التقطته وأطفأته.

«نعم، هذا أنا»، صاح الجندي. «أسقطتُّ كوبًا، هل انتهينا أم لا؟»

كان صوت شير. كنت متأكدة. كان وجهه خلف ذلك السلاح.

«الفوضى أكبر مما توقعنا».

صلصلة مفاتيح.

«علينا نقل الكثير قبل طلوع النهار. ستقود أنت».

وقف شير أعلى السلم، يمسك في راحته سلسلة مفاتيح والسر الخطِر لوجودي.

الفصل السابع

28 أبريل 1978

قبل هذا بثمانية عشر شهرًا فحسب، كنت قد واجهت الموت لأول مرة. حين رقدتْ جدتي في نعشها، بشفتين مرمدتين، وملفوفة بإحكام شديد في قماش من الموسلين الأبيض كان ليخنقها لو كانت ما زالت تتنفس.

بينما كان بابا يهيل التراب على النعش، همست مادر جان في أذني أن جدتي الآن يستقبلونها في جنات النعيم. وجدت صعوبة في مصالحة هذا المصير السامي بالنعش المطمور تحت الأرض بمترين. كنت قد رأيت جدتي تعتني بنباتاتها، تقلم أفرعها واحدًا بعد الآخر وتتفقد رطوبة التربة بإصبع واحدة. كانت مثل نباتاتها، تزدهر في الشمس فلم تكن لتسدل ستائر بيتها قط. كيف لهذه الحفرة القاتمة أن تكون ممرها إلى النعيم؟

مع ذلك، اخترت الإيمان بالأمل الذي تقدمه أمي حتى لا يحزنني التفكير في جدتي وهي في الظلام الأبدي.

حين سمعت وقع خطوات تقترب من باب القبو لأول مرة، حبست أنفاسي ودعوت الله أن يمكنني إحاطة أمي بذراعيّ مجددًا في تلك الجنات السماوية، لكن الصوت تراجع تاركًا خلفه صمتًا عميقًا، صمت جلب صدى صوت أبي الهادئ.

هذه النظرة في عينيكِ، حين تعرفين أنك محقة، تذكرني بملالي وهتافها في المعركة. هزم الأفغان نصف الميتين البريطانيين بسببها. لطالما ظل سلاح أفغانستان السري في نسائها.

لكن بابا، أنا مجرد فتاة.

ماذا تقولين؟ كأن الفتاة من مادة أقل شأنًا. أنسيت كلمات الرومي؟ لست قطرة في المحيط، بل المحيط بكامله في قطرة.

لم أفكر في كلماته هذه حقًا حتى هذه اللحظة.

فكرة المحيط بداخلي، بقطراته اللا نهائية، يجري بداخلي كشحنة كهربية، أن وجودي جزء لا يتجزأ من الكون.

ماذا كانت صيحة ملالي في المعركة يا بابا؟ سألتُ الصمت. فتردد صدى صوت أبي مجددًا.

أحبائي الشباب، سيفخر من يضحي بشبابه في المعركة
وإلا فسيحيا في أسمال العار.

عذبني التفكير في تلك الظهيرة حين اصطحبنا أبي إلى القبو، حين أردت رؤية كنوز عالم بائد. زحفت إلى عمق المقصورة، أردت لمس الصناديق التي لمسها من قبل. تمنيت لو كانت نيلاب معي، كنا سنتماسك معًا على الأقل. فتحت المزلاج كما فتحه أبي بأصابعي المرتعشة. انحنيت ودخلت الفجوة السوداء وأغلقت الباب السري خلفي.

خطر لي، في لحظة ما خلال الساعات القليلة الماضية، أن غياب دوي الطلقات النارية قد لا يعني وقف القتل، بل قد يعني أنه لم يبق أحد لقتله. انتابني حنق شديد نحو شير. أهو من أطلق النار على أسرتي؟ لم يهدِّئ من غضبي أنه أنقذني بتركي أختبئ هنا.

تضغط أقراص الخزانة الثلاثة على عمودي الفقري. ضغطتُ بظهري للخلف بعناد. تذكرت آي خانم، حضارة كاملة اختفت تحت الأرض.

لا ، قلت لنفسي. *لن أدع هؤلاء يبيدونني.*

تكورت أصابعي على القلم الضوئي الذي ألقى به الجندي لي. أشعلته وألقيت الضوء على أصابعي، توهجتْ بلون وردي. وجهته نحو الخزانة وألقيته على الأقراص.

لقد رأيت الأرقام، أليس كذلك؟

كانت الأقراص ثقيلة، أدرت القرص الأيسر أولًا، ببطء. حدقت إلى الأرقام، على أمل أن تنبعث الشيفرة من الرماد. أدرتُ القرص مجددًا وأغمضت عينيّ.

رأيت نيلاب وتحفزها المذهول حين كان بابا يكشف لنا عن الخزانة. تغضن أنفها بالفرح. شعرت بأصابعها تلتف حول ذراعي، تشدّه قليلًا في حركة صداقة وترقب. سمعت صوتها حينذاك، بعيدًا وشاردًا.

بالطبع تتذكرين ستارة. أنتِ لا تنسين أي تفصيلة أبدًا.

فتحت عيني، أدرت القرص مرة أخيرة وضبطته على ثلاثة وستين. ثم ركزت على القرص الآخر، نقرت على المقبض كأنني أطلب النجدة.

سبعة وعشرون.

أدرتُ القرص التالي تحت ضوء قلمي حتى سمعت تكة خافتة.

لا ينقصني سوى الرقم الأخير. الرقم الأخير الذي أخفاه أبي بذراعه. لم أر ذاك الرقم قط.

ضغطت بجبيني على الباب المعدني. الرقم بين الواحد والمئة. ضبطته على رقم واحد وأدرته لكنه لم يستسلم. إلى اثنين وحاولت مجددًا. إلى ثلاثة.

عند ثلاثة وثلاثين، انفتحت الأقفال ولان المقبض. سحبت نفسًا عميقًا وتراجعت إلى الخلف قليلًا لأفسح المجال لفتح الباب. لو كان قد صر بهذا الصوت العالي حين فتحه أبي فلم ألحظ حينها. الآن، يبدو أن لا أحد في الطابق الأعلى قد لاحظ أيضًا. وجهت الضوء في الخزانة ودخلت.

فتحت علبة صغيرة بعد الأخرى. لمست جص تمثال نصفي مصغر وقلادة ذهبية بطبقات متعددة. ماذا سيحدث لهذه القطع؟ ماذا سيحدث لي؟ في صحبة الكنز الناجي، تساءلت إن كان بإمكاني وضع خطة للهروب. أعدت قطع الكنز إلى علبها المبطنة بعناية، جمعيها ما عدا واحدة.

ارتديت الخاتم المرصع بالفيروز والعقيق في يدي اليسرى، لمست دائرته الذهبية المطروقة والسطح الأملس للحجارة الكريمة. كان واسعا جدًّا حول إصبعي. قلبته لتنضغط الحجارة في راحتي وقبضت عليه بحرص.

كانت الأصوات قد هدأت في الأعلى وكان الهدوء يشجعني. كنت قد عدت لتوي إلى المقصورة حين سمعت الباب ينفتح. تراجعت إلى الخلف، تعثرت قدماي بذعر. اختبأت في المقصورة، وجنديان يهبطان إلى القبو، كانا قريبين إلى حد أن شممت رائحة الدخان والعرق على زيهما الرسمي.

«أحضر هذا المذياع إلى الأعلى. ظني أنه بإمكاني إصلاحه»، قال أحدهما.

«نعم سيدي».

حين اقتربت الخطوات، كتمت صراخي بأن عضضت راحتي وذراعي ورجلي. غرزت أسناني في لحم ركبتي الرفيع.

«ماذا عن هذه السجادة؟»

«ربما. افردها لنرى إن كانت تستحق حملها إلى الأعلى أم أنها هنا في الأسفل لسبب ما».

في تلك اللحظة ارتج القصر بكامله مجددًا. سقطتُ على جانبي وفلتت من حلقي شهقة. من حسن الحظ أن صياحهما كان أعلى، لوح أحدهما للآخر للصعود مجددًا بسرعة.

اهتزت الجدران بانفجار آخر. دفنتُ رأسي بين ركبتيّ أتوقع انهيار القصر بكامله على رأسي.

زحفتُ إلى خارج المقصورة مجددًا. كانا قد ذهبا. أخذا المذياع، والسجادة المنبسطة المبقعة بالجص والطلاء.

قبل ذلك بعام، يوم عيد ميلادي، اهتز بيتنا على إثر زلزال. كنت نصف مستيقظة حين شدتني أمي من يدي وفهيم على ذراعها، وخرجت بنا من البيت.

في الخارج أأمن، صاحت بجزع.

مادر جان. منذ ليلة الانقلاب فصاعدًا سأظل أتساءل إن كانت نظرة عينيها في تلك اللحظات الأخيرة حبًا أم خوفًا.

سمعت صوت تكسير في الأعلى وتخيلت أواني وكراسي ونجفًا تسقط على الأرض. انهار أحد أعمدة الكراتين المكدسة في القبو، انكسر زجاج في مكان ما. طارت يدي أعلى رأسي بشكل غريزي.

لم يكن زلزالًا. الزلازل ليس لها رائحة البارود، والعرق والدم. لن ينتهي هذا حتى يُدمّر القصر بكامله.

غريـزة البقـاء أقـوى لـدى مـن لديهـم سـبب للعيـش، شـيء مـا لإنقـاذه. لـم يكـن لـدي شـيء، مـع ذلـك ظللـت أأبـى الذهـاب بهـدوء. لـم يسـعني التفكيـر إلا فـي أن والـديّ قـد أصـرّا بشـدة علـى أن تعيش كل آمالهمـا فـي المسـتقبل فـيّ أنـا.

صعـدت السـلم، تـزداد كثافـة الدخـان كلمـا اقتربـت مـن البـاب. فتحتـه ببطء فسـقط ضـوء مهتـز علـى وجهـي. لـم أسـمع صوتًـا فـي المطبـخ فدخلـت. نظـرت إلـى السـلم المـؤدي إلـى الطابـق الأعلـى وغـص حلقـي مجـددًا. كانـت الأرض مغطـاة بالأوانـي المقلوبـة والأطبـاق المهشـمة. تدلـت اللمبـة المثبتـة فـي السـقف بشـكل غريب.

تقدمـت خطـوة فأجبرنـي ألـم حـاد أن أسـحب قدمـي. اسـتندت إلـى الحائـط بيـد ورفعـت قدمـي. بـرز مـن باطنهـا مثلـث زجاجـي كزعنفـة حـادة.

استندت إلـى الحائـط وبعينيـن مغمضتيـن سـحبت كسـرة الزجـاج بحركـة واحـدة سـريعة. سـمعت صياحًـا قريبًـا، فنهضـت. تقافـزت علـى قـدم واحـدة فـي الـرواق ونظـرت مـن غرفـة مهدّمـة لأخـرى. آنيـة زهـور صينيـة مهشـمة. كراسـي السـفرة مقلوبـة. صـدع مسـنن يشـبه السـحاب فـي السـقف. بـاب بهـو يتدلـى متعلقًـا بمفصلـة. تلقـى بـاب مكتـب الرئيـس ثلاثـة ثقـوب، تشـقق خشـبه علـى نحـو مريـع.

نظـرت إلـى المـكان الـذي كان مخبـأ نيـلاب المفضـل فـي أثنـاء اللعـب. انشـقت أريكـة خضـراء بلـون الزمـرد إلـى نصفيـن. انكسـرت إحـدى قوائـم طاولـة رخاميـة، فبـدت كأنهـا تغـوص بأنفهـا فـي السـجاد. لوحـة زيتيـة مقلوبـة علـى وجههـا علـى الأرض.

من هذه القاعة، يمكنني الوصول إلى الجانب الجنوبي من القصر، حيث تتيح الشجيرات العالية ساترًا. أسرعت أفتح النافذة، ألقيت برِجل واحدة خارج إطارها ثم الأخرى. تبدد هواء القصر، المعبأ بالدمار والخطيئة، وأنا أغادره. حدقت لأرى في الدخان الأحمر، وجدت نجمة واحدة. كانت كل ما أحتاج إليه لإنارة طريقي.

سرت، متوارية، بظهري ملتصق بجدار القصر. إن استطعت الوصول إلى الطريق، قد أجد أي مأوى في كابول بطريقة ما.

لكنني ما إن انعطفت، تحول لمعان النجمة إلى ضوء يعمي البصر. انغرزت أصابع في ذراعي وشعرت بيد تكتم فمي قبل أن أصيح. حاولت المقاومة لكنني توقفت حين رأيت اللمعة الباهتة للمعدن، مسدس معلق بخصر.

سلاح. كل ما عليّ فعله أن أمد يدي وأمسكه.

كنت الوحيدة الناجية من أسرتي. كنت أمل والديّ الوحيد في المستقبل، أيًّا كان شكله.

ماذا لو لم تهتف ملالي في الجنود المهزومين لتستحثهم على القتال؟ ماذا لو كانت قد صرخت لتستعد هي للمعركة؟

انبعثت جوقة أصوات.

نحن جميعًا جنود بطريقة ما. تبع صوت أمي قرع طبول متصاعد في صدري.

الق حتفك كجندي

أنت المحيط بكامله، في قطرة

الضحكة المضيئة لملاك صغير

ستواجهك ستارة الآن.

علت الأصوات وتوحدت في رأسي، غطت على تكتكة احتراق العشب والأثاث والضجة البعيدة للجنود.

ملأتُ رئتيّ بهواء الليل المدخن وأقسمت على ألا أعيش أو أموت جبانة.

الفصل الثامن

28 أبريل، 1978

«تظاهري بالنوم»، همس شير. لكنه لم يرِد مني التظاهر بالنوم حقًا.

انقبضت كل عضلة في جسدي وهو يحملني ويبتعد عن القصر، تحرك بسرعة وقلق إلى حد أن كدت أسقط على الأرض مرتين. أبعدتُ رأسي عن صدره وعن الرائحة النتنة للخطيئة.

ألقى بي في دواسة سيارة وألقى عليّ بطانية صوف قديمة، رائحتها دخان سجائر وعادم. رفعتُ طرفها لكن هواء السيارة كان خانقًا بالقدر نفسه. قاد شير السيارة ومررنا بالأعمدة العالية للقصر.

حين تأكدت من انعطافنا إلى الطريق، رفعت البطانية عن رأسي.

«أكنتَ أنتَ؟» سألتُه، بصوت خشن مثل الطريق.

لم يجبني.

«أكنتَ أنتَ؟» كررت بصوت أعلى.

رأيت فكه ينقبض. ارتجت السيارة أعلى حفرة. ارتطمت كتفي بالمقعد الخلفي.

«هل قتلتهم؟» صحت بحنق، وأنا أحاول النهوض لأجلس.

«أخفضي رأسك!» زمجر. سمعت تكة، شد أجزاء طبنجة لا تخطئه الأذن. أطعته، انزلقت إلى دواسة السيارة.

كان ذلك جانبًا من شير لم أره من قبل قط، جانبًا، ربما، لم يكن موجودًا قبل أسبوع.

«عليك أن تكوني هادئة. هادئة جدًّا!»

كان يقود بسرعة بعيدًا عن القصر، مع ذلك لم تتبدد الرائحة. تخيلت كابول كلها تحترق، العالم كله انتهى بغتة.

في كل منعطف، أنظر إلى مقبض الباب، أستعد للحظة يمكنني فيها القفز والتدحرج. لكن السيارة لم تبطئ قط، وحين توقفتْ، قفز شير وفتح الباب قبل أن يمكنني تمييز الاتجاهات.

حاولت الركض بعيدًا عنه لكنه قبض عليّ بذراع واحدة وهمس بحنق أنني سأكون مخطئة بشدة إن لم أطعه.

حين تأكد أن لا أحد يراقبه، جرّني إلى بئر سلم إحدى البنايات السكنية. ميزت البناية وشعرت بالأمل يملأ قلبي. لدي عم يعيش بالقرب من هنا. يجب أن أصل إليه فقط. ألقى ضوء القمر بظلال شبحية على البسطات الأسمنتية. فتح باب شقة في الطابق الثالث ودفع بي داخلها، كانت توجد امرأة دُهِشت تمامًا.

«ما... ما هذا؟» سألتْ مذهولة.

«لا أحد»، أجابها باقتضاب.

ضيقت عينيها ببطء، كأنها تحاول الرؤية في مكان مظلم. نظرتْ إلى قدمي الجريحة التي يسيل الدم منها على سجادها.

«إنه قاتل!» صحتُ. وقفت أنا وشير يحدق أحدنا إلى الآخر للحظة، أنفانا محمران. تقدم نحوي خطوة ومال إليّ.

«لماذا تدعوك قاتلاً؟» سألته المرأة.

«إنها ابنة الشقاء»، أعلن وهو ينظر إليّ. «وسوف تلتزم الهدوء».

«الشقاء؟ أتعني أنها يتيمة؟»

لم أكن يتيمة. أردت أن أقول إن لي أمًّا وأبًا، لكن لساني انعقد في فمي.

جثمت المرأة أمامي، تحاول فهم الموقف.

«يا إلهي»، قالت وهي تتفحصني، بوجه مذعور. رفعت يدها لتلمسني لكنها شهقت حين لطمت يدها لأبعدها».

«خيطي لها قدمها يا طاهرة. ثم حمميها وأطعميها. يجب أن تنام».

«أخيط لها قدمها؟ أنا لست طبيبة! لا تظن أنني سأ...»

أغلق شير باب الشقة خلفه منهيًا المحادثة فجأة. هرعتْ طاهرة إلى الشرفة لتنظر إلى الشارع، تتمتم بغضب. استدارت وسبت في سرها حين رأتني كأنها ظنت أنني سأختفي حين تدير لي ظهرها.

أخذتْ صحيفة من فوق الطاولة ووضعتها أسفل قدمي لالتقاط الدم.

«أتتألمين؟ ما اسمك؟» سألتني وهي راكعة أمامي.

لم أجبها.

«تعالي»، أشارت لي أن أنهض معها. «ها هو ذا الحمام. سآتي لك بملابس».

لم أحاول الهرب منها إما لتعبي الشديد وإمّا لأن وضعها ذكرني بأمي وهي تصلي.

«أرجوكِ. دعيني أذهب»، رجوتها بهمس. يسكن عمي على مسافة شارعين من هنا، وكذلك ابن عم لأمي. كنت متأكدة من أنني سأصل إلى أحدهما إن استطعت فقط تمييز الاتجاهات.

يمكنني حتى إيجاد عدد من البيوت الأخرى المألوفة لي إن أطلقت سراحي.

وقع نظرها على الخاتم في إصبعي. عقدت ذراعي لأخفي يدي.

«لا يمكنني هذا»، قالت بتردد.

تبعتها إلى الحمام، سرتُ على كعبي فقط. لمحتُ انعكاسي في مرآة الحمام خطفًا. بدوت كحيوان بري خرج لتوه من عراك. شعري ملبد ومغطى بندف الجص. ملابسي ملطخة بالطين الجاف. شفتاي متشققتان ومخدوشتان. ثنيت ركبتي لأنظر إلى الجرح في باطن قدمي. طرفاه كفم مشدوه، ملطخ بالطين ونثار الزجاج. لا عجب من إرساله دفقات ألم إلى أعلى رجلي حين أسير عليه.

تحركتُ بميكانيكية. صبّت لي طاهرة الماء الفاتر من إبريق. تحرّقتْ خدوش خديّ. ظهرت رسومات الكدمات على ذراعيّ. بدأت قدمي تنزف مجددًا. تجمعتْ المياه البنية حولي قبل أن تختفي في فوهة الصرف.

ألبستني طاهرة، وهي تتجنب النظر إلى عينيّ. تبعتها في العودة إلى غرفة الجلوس وجلسنا مستقيمتين فوق وسادة على الأرضية، كانت قد أتت بسلة صغيرة من دولاب في الرواق. نظرتْ إلى محتوياتها ثم إلى قدمي.

«لا تلمسي قدمي»، قلت بحنق وأنا أسحب قدمي نحوي بحذر.

«أنا لا أريد ذلك»، قالت بصوت على حافة الانهيار إلى حد أن كدت أشفق عليها. «لكن الجرح سيئ. بالكاد يمكنك الوقوف عليها».

كان شير قد نبه عليها أن تطفئ أضواء الشقة. وضعتْ شمعة قريبة جدًا من قدمي إلى حد أن شعرت بدفئها في قدمي. وبملقط من الحديد المقاوم للصدأ في يديها المرتعشتين، التقطت الفتات من الجرح. دفنتُ وجهي في وسادة، مستسلمة لألم لم أشعر به من قبل.

حاولتْ طاهرة عشرات المرات قبل أن تستطيع إدخال الخيط في الإبرة. راقبتها تقرب الإبرة من قدمي وتتنفس من بين شفتيها الرفيعتين. طرفت بعينيها بسرعة وعدلت وضع الشمعة. بكيتُ ببلاهة. كان مجرد لحم، رغم كل شيء.

ارتعشتُ حين انغرزت الإبرة في جلدي. أمسكتْ طاهرة كاحلي بيد. لا بد أن شير لم يذهب بعيدًا لأنه عاد حينها وألقى نظرة سريعة إلى الموقف. حين ركع بجانبي، عرضت عليه طاهرة الإبرة لكنه رفض بهزة رأس سريعة. لكنه لف يده حول كاحلي مساعدًا ليثبّت قدمي بالأرض.

ركلته بقدمي الحرة فنجحت في ضرب فكه المربع. شهقتْ طاهرة. سبّ بصوت مكتوم، تكورتْ يداه في قبضتين. تهيأتُ لتلقي لكمة الانتقام.

«إن كنت ستخيطين فلتبدئي إذًا»، قلتُ لطاهرة وأنا أمد قدمي نحوها. لن أبين خوفي. «لكنني لا أريده أن يلمسني».

أبقتْ طاهرة الإبرة المرتعشة على جلدي وقتًا طويلًا جدًا حتى ظننت أنها ستترك الجرح مفتوحًا. ثم أخذتْ نفسًا عميقًا وشعرتُ بوخز السن الحاد في جلدي. عضضتُ شفتيّ وعددت حتى اثنتي عشرة وخزة، يتخدر طرفا الجرح مع كل وخزة. انفجرتْ ومضات ضوء أبيض خلف جفنيّ المغمضين.

حين انتهى الأمر، مزقت طاهرة كسوة وسادة إلى شرائط وضمدت بها قدمي. غطتني ببطانية وذهبت إلى غرفة نومها، بدت مرهقة وفي حاجة ماسة إلى التخلص من كل هذا.

جلس شير على مقعد، يحرسني. قررتُ أنني لن أنام وهو موجود، جلستُ بظهر مستقيم وحدقت إلى مجموعة التابلوهات على الحائط أمامي. قرصتُ راحتيّ وذراعيّ حين شعرت بجفني يثقلان. حين سمعت أنفاسه تزداد طولًا وعمقًا، أمسكت بمطفأة سجائر زجاجية كانت على طرف الطاولة بجانبي وشعرت بوزنها في يدي قبل أن أدسها عند خصري. أهي ثقيلة بما يكفي لتقضي عليه؟

سأعرف.

في النهاية، نال مني التعب وسقطت في النوم أنا أيضًا. حين فتحت عيني، كانت طاهرة على ركبتيها بجانبي مجددًا. يقف خلفها ثلاثة أطفال. منهم فتى قريب في السن من رستم، وفتاة تصغرني بأعوام عدة. تعرفت على ثوبها، الفراء القرمزي والشريط الستان. كنت سأرتديه لعام آخر لو لم تصر أمي على أنه صار قصيرًا بشكل غير لائق. أردت أن أنزعه عنها وأمزقه. أصغرهم رضيع في طول فهيم. جلستُ بحدة، أبقيت البطانية حتى ذقني.

ظهر شير من المطبخ بسيجارة تتدلى من جانب فمه. تحسست بيدي تحت البطانية أبحث عن مطفأة السجائر لكنني لم أجد شيئًا. رفعت بصري فرأيتها في يده. ينقر سيجارته بحدة على طرفها، تناثر الرماد في الهواء.

تتحنح ونادى أطفاله. أخبرهم بقواعد عدة. لا أحد يذكر شيئًا عني خارج البيت، وليس مسموحًا لهم بسؤالي عن أي شيء. ولا بتلبية طلباتي، ولا بالاقتراب مني.

بينما يتحدث زوجها، جلبت لي طاهرة طبقًا من الخبز والجبن وكوب شاي.

«تناولي شيئًا»، قالتْ برفق.

لم أحرك ساكنًا.

رفعتِ الغطاء لتلقي نظرة إلى الجرح. قبضتُ على كتلة الصوف بيديّ، لا أريد عرض نفسي. لاحظتْ طاهرة حينها الخاتم في إصبعي.

«ما هذا؟» همستْ.

حين مدت يدها إلى يدي جفلتُ وتراجعتُ. انقلب كوب الشاي الذي وضعته بجانبي، واختفى السائل في السجادة.

«طاهرة»، قال شير بحدة. «لا تلمسيها».

احمرّ وجهها كأنه اتهمها بالسرقة. فردت كتفيها للخلف بسخط وعبست في وجهه.

«هذا وضع مؤقت»، قال. لم يكن واضحًا إن كان يتحدث إليّ أم إلى زوجته أم إلى جميع من في الغرفة. «كل ما عليكم أن تلزموا الهدوء».

في الأيام القليلة التالية حاولتُ الهرب مرات عدة. ركضتُ إلى الشرفة وإلى باب الشقة. سرتُ على أطراف أصابعي في غرفة المعيشة ليلًا، أو في أثناء لحظات انشغالهم نهارًا. لم تنجح محاولاتي إلا في إشعال الشجار بين طاهرة وشير فحسب. ما

نتج عنه جلوسي بمعصميّ مقيدين لساعات.

بمرور الأيام، كان مظهر الجندي يزداد شحوبًا. ظلت طاهرة باردة معي، عطوفة أحيانًا لكنها تنظر لي أحيانًا أخرى كأنني سرقت منها شيئًا. كانت شقتهم متواضعة، فكنت أسمع أغلب محادثاتهم. كان شير غاضبًا من إخوانه لأنهم يعدّونه شيوعيًا ملحدًا. وكانت طاهرة قلقة من ابن عم لها قد يتسبب لسانه الفالت وآراؤه السياسية في مقتله على يد هذا النظام الجديد. أعلن مذيع في الراديو أن الحزب الشيوعي سيُعين حكومة جديدة، حكومة ستقدم للشعب الأفغاني ما هو أكثر من الخدمة الشفهية.

شير. فكرتُ في اسمه، يعني أسد. كنت أنا ونيلاب ندعوه شمعة، في حين كان حيوانًا مفترسًا.

شام. شير. صار هذان الاسمان معًا كلمة جديدة مركبة، شام-شير، وتعني سيف. شعرت أنني أتمزق إربًا، كان هذا الاسم الجديد منطقيًا أكثر من أي شيء تحملته في الأيام الماضية.

التزم الأطفال تحذيرات أبيهم وظلوا يحدقون إليّ من بعيد. بعد أول يومين، بدا أن حتى طاهرة قد اتخذت مسافة مني. في المرة الوحيدة التي ناديت فيها أمي وأنا نصف نائمة، استيقظت لأجد طاهرة، خلفي ببوصات قليلة، كأنها تخشى أن تلتصق بها الكلمة كما يلتصق دخان السجائر بسترة صوفية.

«شير، يجب أن تكون صادقًا معي»، همستْ لزوجها في وقت متأخر من تلك الليلة بعد أن نام الأطفال. ميزت قامتيهما في المطبخ في ضوء شمعة وحيدة. «ماذا سيحدث لنا إن عثروا على هذه الفتاة في بيتنا؟»

نهض شير على قدميه. فتح خزانة ومد يده بين مرطبانين. سحب المسدس، قلبه بين يديه وحشره في حزام خصره.

«لنأمل ألا نعرف أبدًا».

الفصل التاسع

استيقظتُ على الصياح. كان ابن شير النحيل الطويل يقف في ركن من غرفة المعيشة، يشير بإصبعه نحوي. كان ينادي أمه ووجهه يتلوى من القرف. نظرت إلى أسفل فرأيت بقعة حمراء على المرتبة التي أنام عليها. شعرت ببلل بين فخذي فأدركت أنني أنزف.

«ماذا فعلت؟» صرختُ، وأنا أنهض. تراجعتُ إلى الخلف ألصق ظهري بالجدار متأكدة من أنه طعنني وأنا نائمة.

«هش! لم يفعل بك أحد أي شيء»، قالت طاهرة، بإرهاق. أخفضتْ صوتها. «أنت لست طفلة الآن. النساء ينزفن كل شهر. إنه مرض علينا تحمله».

ناولتني منشفة ولباسًا داخليًا، ثم أغلقت باب الحمام. لم تخبرني من أين يسيل الدم ولا لماذا.

ظل ابن شير، منذ ذاك اليوم، ينظر إلي من بعيد كأنني كلب ضال سينشر البراغيث في بيته. صار يحدق إليّ وأنا آكل، وحين أغمض عينيّ، وحين أطلب الإذن بدخول الحمام. أخفيتُ وجهي أغلب الوقت، أشعر بعار لم أحسبه ممكنًا يغمرني.

يومًا بعد يوم، كانت ابنة شير تخرج من غرفة النوم مرتدية ملابس أعرفها: بنطالًا قصيرًا برتقاليًا، بلوزة مخططة، بنطال داينم. تألمت حين تذكرت كيف ربطت أمي الصرة لشير بعناية ليأخذها معه إلى البيت.

«هـل فعلـتِ شيئًا فظيعًـا؟» سـألتني الطفلـة ذات يـوم، بهمـس. «لمـاذا يعاقبـك أبـي؟»

«لأنـه وحـش!» صحـتُ عاجـزة عـن ابتـلاع نظرتهـا المتعاليـة لـي وهـي ترتـدي ملابسـي. ابتعـدتْ عنـي تمامًـا بعـد ذلـك.

رغـم كربـي الشـديد، كان جسـدي يسـترد عافيتـه. بـدا جـرح قدمـي أفضـل. بـدأت الخـدوش تشـفى وتحولـت كدمـات ذراعـيّ، حيـث عضضـت نفسـي لأكتـم صراخـي، إلـى هـالات صفـراء. كانـت طاهـرة تعتنـي بالجـرح، وكانـت أحيانًـا تديـر محادثـات تافهـة لمـلء الصمـت.

«جارتنـا ذوقهـا بشـع فـي الموسـيقى، سـأذكّرها ذات يـوم بأنهـا ليسـت الوحيـدة فـي هـذه البنايـة».

«لم تكن أمي لتخشى التعبير عن رأيها أبدًا». أجبتها بخشونة.

طرفـت بعينيهـا فحسـب. ضمـدت الجـرح بسـرعة ثـم اختفـت فـي المطبـخ، أوقفـتْ الطبـخ، وراحـتْ تنظـف وتتفقدنـي مـن حيـن إلـى آخـر.

الطفـل الأصغـر فقـط مـن كان يتفاعـل معـي بحريـة وكنـت أتمنـى ألا يفعـل. كان يمـزق قلبـي وينقذنـي فـي الوقـت نفسـه. يجلـس بجانبـي ويقـدم لـي نصيبًـا مـن أي شـيء يأكلـه؛ خبـز، زبيـب، لبـن. كنـا أحيانًـا نسـقط فـي النـوم معًـا علـى المرتبـة فـي غرفـة الجلـوس، فكنـت أسـتيقظ وأنـا أتوقـع رؤيـة وجـه أخـي.

كانـت أمـه توبخـه حيـن يطيـل التلكـؤ حولـي دون أن تبـذل جهـدًا لإبعـاده. تبـدو سـعيدة بانشـغاله بالفتـاة الغريبـة فـي غرفـة الجلـوس. كذبـت غيـر ذات مـرة علـى شـير حيـن سـألها أيـن كان الصغيـر يلعـب طـوال اليـوم.

وقت الوجبات، يجلسون متربعين حول مفرش من الفينيل على أرض غرفة المعيشة. يجلس الصغير بجوار أمه، يتناول الأرز والسبانخ من يديها. يرمقني الطفلان الآخران بنظرات جانبية. بالكاد يتبادل شير وزوجته كلمات قليلة، وجودي يحبس أفكارهما.

كنت أقبع في ركن من الغرفة بصحن طعام منفصل. شهيتي ضعيفة وفي الغالب أتناول من يديّ الصغير أكثر مما أتناوله وقت الوجبات.

حدقت إلى الشرفة وفكرت في ارتفاع الشقة عن الأرض. حتى إن واتتني الشجاعة للقفز، سيمسك بي شير من قميصي أو شعري قبل أن أضع رجلي الأخرى على السور.

من خلف الستارة الشفافة، نظرت إلى نوافذ الشقق الأخرى، لأسفل إلى الشارع حيث ملعب صغير يتجمع فيه الفتية للعب كرة القدم. كابول، مما أراه وأستشعره، لم تحترق. سمعت أبواق السيارات والأغاني في الراديو وصياح الأطفال. غياب ملحوظ لدوي الطلقات النارية، للنحيب. لم أفهم لماذا يبدو أن عالمي فقط هو ما توقف بصرير.

«عمي يعيش في بناية قريبة. أريد أن أذهب إليه»، قلت للمرة الألف.

ساد الصمت الغرفة. نظر الأطفال إلى أمهم ثم إلى أبيهم. مضغ شير طعامه، غير مبالٍ. أوقفتْ طاهرة قطعة خبز أمام فمها، كأنها نسيت ماذا تفعل بها.

«سأصرخ. سأصرخ بصوت عالٍ جدًا لدرجة أن جميع الجيران سيسمعون»، هددتُه، بصوت عالٍ. سقط الخبز من بين أصابع طاهرة.

«شش، يا فتاة»، توسلتْ إليّ.

«لست فتاة بعد الآن، أليس كذلك؟» صحتُ بها. «كأن هذا يهم. انظري إليه. إنه رجل كبير ولا يمكنه إجابتي حين أسأله هل قتل أسرتي أم لا. ألستِ مهتمة بما حدث للمرأة التي أرسلت لابنتك هذه الملابس؟ ألا يعنيكِ أن تسأليه لماذا أنا وحدي؟ ألا يعنيكِ معرفة من يرقد بجانبك ليلًا؟»

كنت أحدق إلى طاهرة لذلك فوجئت بصفعته تلطم وجهي. لمستُ خدي الساخن.

انفجرتْ طاهرة بالبكاء. اتسعتْ عينا الفتى برعب واقتربت الفتاة والرضيع من أمهما.

بدأت طاهرة تغمغم بشفتين مكتومتين، وهي تهتز إلى الأمام والخلف، كأنها تصلي.

«إن عمك»، قال شير وهو يقف أمامي، «أوقفه مكتب الوزير بالأمس. عرض مساعدته على الحكومة الجديدة. أنتِ غبية إن ظننت أنه سيأخذك ويخاطر بالزجّ به في السجن».

لم يغفر عمي، بصفته الأخ الأكبر، لأبي قط اختلافهما السياسي. فهل سيؤويني فعلًا إن كان قد خلع أبي؟

«شير، لا يمكننا المواصلة هكذا. عليك فعل شيء»، أعلنتْ طاهرة. «أنا لم أخرج من هذه الشقة لدقيقة واحدة مذ جاءت إلى هنا».

«كفى!» هدر. أمسك بمنفضة السجائر وقذفها نحو الحائط. حين سمعت صوت تكسر الزجاج ركضت إلى الشرفة وصرخت بأعلى صوتي كأن الشقة كلها تشتعل بالنيران.

«النجدة! لقد قتل أسرتي! ساعدوني أرجوكم...»

كتم فمي بيده وحملني داخل الشقة مجددًا في لمح البصر. ثبتني بالحائط من كتفيّ، مال يقترب من وجهي بشدة إلى حد أن رأيت تفرعات الأوعية الدموية لعينيه.

«ماذا لو حاولتُ شيئًا كهذا مجددًا؟» صاحت طاهرة.

«حينها سأدفعها أنا بنفسي وسنكون قد انتهينا». أقسم وهو ينظر إليّ مباشرة. «لقد حذرتك من طرح أسئلة لا داعي لها. إن كنت ذكية جدًا، فكري في هذا بدلًا من التفكير في القفز. ماذا قد يحدث لأي أحمق قد يأخذك؟»

زممت شفتيّ بتحدٍ.

احمرّ ثقبا أنفه. تلاحقت أنفاسه، وانضغطت.

«دعيني أقرأ لكِ شيئًا ما»، قال وأخرج قصاصة جريدة مطوية من جيب صدر زيه الرسمي الزيتوني. نشر القصاصة وبدأ يتلو أسماء.

«فريد أغا. ميرويس خان». توقف بين الاسمين، نظر إلى وجهي ليتأكد من أنني سمعتهما. «عبد الله رحيم».

كانت تلك أسماء أصدقاء أبي، من كنت أدعوهم أعمامي. الذين ربتوا على رأسي منبهرين بازديادي طولًا. الذين منحوني الحلوى والأيس كريم في العطلات.

«جميع هؤلاء تولوا مناصبهم في الحكومة الجديدة».

طرفتُ بعيني.

«توجد أسماء أخرى لم تظهر في الجريدة. وهم من زُج بهم في السجن أو قضي عليهم»، قال ببرود، كأنه أمر منطقي تمامًا. ثم أفلتني من قبضته.

تكورت على الأرض.

حين خيم الليل، رنوت ببصري خارج النافذة إلى الأنف المدببة للثور حتى ثقل جفناي. اتخذ شير مكانه لحراستي.

كانت كابول تغط في نوم عميق حين استيقظتُ على شير وهو يضع شريطًا لاصقًا عريضًا على فمي. حاولتُ الصراخ، ركلتُ، خربشتُ، لكنني توقفت حين سدد لي فوهة مسدسه مجددًا.

«لا صوت»، حذّرني قائلًا.

بالطبع سمعتْ طاهرة صوت صراعي. تخيلتها على الجانب الآخر من باب غرفة النوم، تفرك يديها.

لف شير وشاحًا على رأسي وكتفي وقادني خارج الشقة. رغم عرجي، هبط بي السلم بسرعة وصمت، تلفت حوله ليتأكد من أن لا أحد يراه، دفعني برأسي أولًا إلى السيارة المعبأة برائحة عطنة لدخان سجائر وجاز. هذه المرة، أقعدني على المقعد المجاور للسائق. سار حول السيارة وجلس على مقعد السائق، دس المسدس تحت فخذه.

هوت معدتي حين ابتعد عن الحي السكني. قاد بصمت حتى وصلنا إلى وزارة الداخلية، التي عرفتها رغم ما لحق بها من ضرر. هنا، أخيرًا، يوجد دليل على حدوث شيء ما مروع.

«أترين؟» قال وهو يضغط رأسي من الخلف حتى اصطدم بزجاج النافذة. لم أقل شيئًا. قاد مبتعدًا نحو الغرب ليريني مزيدًا من المباني المهدّمة. توجه في الطريق الدائري المؤدي إلى القصر فكاد قلبي يتوقف. يحرس مدخله الجنود. قاد إلى

خارج المدينة، في طريق مهجورة. لاح في المشهد مبنى بلون التراب بدا أنه يمتد بلا نهاية.

كان سجن بيل جرخي.

«أترين هذا المكان؟ لقد أسدى إلينا الرئيس صنيعًا حين بناه. لدينا الآن مكانًا لنضع فيه عائلته».

برزت فوهات الأسلحة من أعلى أبراج الحراسة المحيطة بالسجن.

أدار شير عجلة القيادة. قاد بطريقة منحرفة. ظللت قريبة من باب السيارة في انتظار اللحظة المناسبة للقفز. انعطف يسارًا بحدة وقاد في طريق دائري آخر، ثم أوقف السيارة أسفل يافطة للحزب الجمهوري الديمقراطي الأفغاني.

حدق إليّ ففهمت. لم يعد مهمًا كم عدد المباني التي بقيت دون ضرر. ليس مهمًا أن الأرض لم تنشق، ولا السماء. لقد تغير كل شيء. تغير الجميع.

أمسك بي من عنقي ودفع برأسي نحو الزجاج الأمامي، ليجبرني على النظر إلى الخارج. نقر على الزجاج، لطخه ببصمات أصابعه.

«كل من كانوا أصدقاء أو أقارب من قبل سيغلقون أبوابهم في وجهك وإلا فسيخاطرون بنهايتهم. أهلك انتهوا. كابولك انتهت».

كان غضبه ينمو شيئًا فشيئًا، فاض من فتحة زجاج النوافذ وأحاط بالسيارة كإعصار رملي. أخذ المسدس من تحت فخذه وأمسك به بين يديه بتهور. سكن الهواء كأن الأكسجين قد نفد من السيارة.

«كابولك انتهت»، كرر.

ثـم انهـار، كلهـب شـمعة انطفـأ بيـن إصبعيـن. دفـن وجهـه فـي يديـه. أرعبنـي اختفـاء الأسـد أكثـر مـن غضبـه. عرفـتُ أن علـيّ الهـرب. سـحبت مقبـض البـاب لكنـه كان موصـدًا. خبطـتُ بيـدي علـى الزجـاج وصحـت وهـززت المقبـض بيـأس كـي أهـرب قبـل أن ينفّـذ شـير أيًـا كان مـا يخطـط لـه تلـك الليلـة.

«يـا فتـاة»، قـال بأسـى. «ليـس أمامـي خيـار آخـر. لـم يكـن لـي خيـار قـط».

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل العاشر

لم يقتلني شير. بل قاد بنا إلى سوق الدجاج حيث ظللنا جالسين في السيارة، بعد أن أطفأ المحرك والكشافات. جئت إلى هنا مرات عدة مع أمي لكن المحلات لم تكن مغلقة ومعتمة هكذا. مال شير إلى الخلف في مقعده، بقينا صامتين نحو ساعة قبل أن يفرد ظهره بحدة.

«اخرجي»، قال وهو يفتح بابه ويترجّل من السيارة. تبعته إلى ممر ضيق بين محلين.

لمس مسدسه حين سمع صوت خطوات. همس لي بحنق أن ألصق ظهري بالحائط. فأطعته.

«ماذا نفعل هنا؟» سألته نافدة الصبر.

لم يجبني.

حين شعرتُ بساقيّ تنهاران، جرّني.

«سيري خلفي»، قال بغضب وهو يمسك بكُم قميصي. فكرت في الهرب لكنني خفت من أن يوقفني برصاصة في ظهري. سار بسرعة. كنا نقترب من امرأتين تقفان أمامنا بأمتار عدة.

«لا تؤذيهما»، همست له، «أرجوك!»

وقفت المرأتان أمام باب بناية، وضعت إحداهما يدها في حقيبتها. التفتت إلينا ونحن نقترب.

«سلام، من أنت؟» قالت بصوت عالٍ جعل كلبًا ضالًا نائمًا يهمهم باعتراض. تقدمتْ خطوة، بشكل وقائي، أمام المرأة الأخرى. كورت يدها اليمنى في قبضة بمفاتيح بارزة من بين أصابعها كأنصال صغيرة.

تفحصتهما من خلف شير، بدت من ترفع قبضتها في سن أمي تقريبًا. كانت مَن خلفها أكبر سنًا بقدر ملحوظ، بأساور خشبية سميكة تطقطق حول معصمها النحيل. بدت مرتبكة حين وقع نظرها على مسدس شير.

«ماذا تظن نفسك فاعلاً؟» قالت الأكبر سنًا بالإنجليزية، وهي تتقدم خطوة بين المرأة الأصغر وشير. لم تكونا قد لاحظتاني.

«أمي، دعيني أنا أتعامل مع هذا»، قالت الأصغر سنًا، صوتها متماسك وصارم. لم ترفع بصرها عن وجه شير للحظة، ولا حتى حين جذبت أمها من كمها من الخلف.

نقل شير بصره من واحدة إلى الأخرى، ثم اتخذ خطوة إلى يساره. وقعت عينا المرأتين عليّ في وقت واحد.

«ساعدا فتاة»، قال بإنجليزية رديئة. «كابول خطر».

لم يقتلهما. تركني لهما. اختفى في ظلمة الليل، وقع خطواته كسقوط قطرات المطر على سقف. سمعت طنين سيارته المألوف على مبعدة شارع واحد.

ساعدا فتاة. كابول خطر.

دارت عيناهما عليّ ببطء، كأن رسالة ما يجب فك شيفرتها في القميص والبنطال الرماديين اللذين أرتديهما، ملابس فتى تتدلى واسعة جدًا على قامتي. لم ألحظ تكور يديّ في قبضتين حتى رأيت أعينهما تطرف نحوها. مع ذلك ظللت متحفزة ومشدودة.

«انتظر! من أنت؟ أهذه ابنتك؟» همست المرأة الأصغر بصوت عال قليلًا عبر الشارع. لكنه كان قد اختفى في الظلام، انطفأ لهب الشمعة.

ابنته. علمني أبي الكلمات الإنجليزية لأفراد الأسرة قبل المعلم الخاص، كان معجبًا بقربها من كلماتنا. دوتر [ابنة]، دوختار. ماذر [أم]، مادر. فاذر، بادر. براذر- برادار. في الكلمات الأكثر إعزازًا تختفي الفروق بين الشرق والغرب.

«أليس هذا غريبًا!» قالت المرأة الأكبر. «لم يأخذ حقيبتينا حتى!»

نظرتا إليّ ثم إلى الظلام كأنهما تنتظران ظهور شيء ما آخر في الليل.

«مرحبًا»، قالت لي أصغرهما بالإنجليزية. تحدثت بحذر. «اسمي أنتونيا. ما اسمك؟»

لم أجبها.

قالت أشياء أخرى، لكن قلبي كان يدق بقوة إلى حد لم أستطع فيه سماع كلماتها، ناهيك فهمها. أشارت لي إلى الباب خلفها، وضعت يدًا على نفسها ثم أشارت إلى نافذة شقتها. سمعتها تقول خان، بيت، وشاي. نظرت إلى محل خلفها ورأيت السلم المؤدي إلى الشقة أعلاه.

تلفتّ أنظر إلى المنطقة من حولي. يدفع رجل بعمامة عربة كارو من بعيد. تاكسي يمر بسرعة. عدد قليل جدًا في الأنحاء ليلًا. تساءلت إن كان يوجد أحد يعرفني أو يعرف أبي. إن كان عليّ أن أغامر بالهرب إلى بيت أعرفه، ربما إلى بيتي أنا حتى.

قبل أن أفكر في الأمر، ظهر عند الناصية رجلان بالزي العسكري. تحركت بسرعة وألصقت نفسي بنافذة المحل. نظرت المرأتان الأمريكيتان إلى ما رأيته. وفي لمح البصر، دفعت بي

أنتونيا إلى باب ثم إلى سلم. ثم دخلتُ شقة أعلى مخبز قبل أن أتمكن من المقاومة.

في غرفة المعيشة، أغلقت المرأة النوافذ وأسدلت الستائر. أخبرت أمها أن تذهب إلى المطبخ وتأتي لي بعصير فيما كانت تختلس النظر من النافذة. لم أسمع من قبل أحدًا يأمر شخصًا كبيرًا في السن بهذه المباشرة، لكن الأم بدت راضية.

«لدينا عصير!» قالت الأم لي. أشارت بإصبعها نحو المطبخ ثم عبرت الغرفة بخطوات خفيفة. بعد دقيقة، عادت بعلبة عصير مانجو وكأس فارغة. صبت العصير الثقيل في الكأس وأساورها الخشبية تطقطق برفق.

لم أتناوله.

«تناولي رشفة على الأقل، تبدين شاحبة قليلًا»، قالت برقة.

نظرتُ إلى قدمي. أخبرني أبي أن الجزارين يضعون مكعب سكر في فم الخراف قبل ذبحها. لن أكون خروفًا جهولًا.

«أنت محقة تمامًا»، قالت، كأنني أقنعتها. «لندعك تلتقطين أنفاسك أولًا. يبدو أنك لا تفهمين كلمة مما أقوله».

لكنني فهمت أغلب ما قالته، إن لم يكن كله، والفضل في ذلك لممارستي الإنجليزية مع أبي وأمي ودروس المعلم الخاص.

وضعتْ المرأة الكأس على طاولة وجلست على الأريكة. أشارت لي إلى المقعد لكنني ظللت واقفة قرب باب الشقة ما أمكنني.

كانت الصغرى، أنتونيا، ما زالت لدى النافذة، تتلفت يمينًا ويسارًا. عرفت أنها تبحث عن شير. تمنيت أن يختفي إلى الأبد لكنني لم أكن متأكدة. حين تأكدتُ من أنها لا ترى شيئًا، جلست بجوار المرأة الكبرى.

«أوك، أوك. لنبدأ بالأساسيات»، قالت. «أنا أنتونيا».

«يمكنك مناداتها نيا، لو كان ذلك أسهل. كنت أدعوها به حين كانت فتاة صغيرة»، تدخلت المرأة الأكبر بمرح. نيا أسهل عليّ في النطق كثيرًا. حتى في رأسي. لم أستطع تركيب مقاطع اسمها كاملًا بسلاسة.

«وهذه تيلي، أمي»، قالت أنتونيا.

لم تكونا تتصرفان بنحو ما يشبه أي أم وابنتها رأيتهما من قبل.

«ما اسمك؟» سألتني تيلي، عيناها واسعتان وطفوليتان. أصابعها تعبث بالطرحة الفوشيا حول عنقها. ثم لوت وجهها والتفتت إلى ابنتها. «أوه، لا يمكنني فعل شيء سوى التحدث إليها بالإنجليزية! ألا يمكنك سؤالها بالأفغانية؟»

«الدارية»، صححتْ لها ابنتها برفق. كانت تبذل جهدها لتتجنب النظر إلى الخربشات والكدمات نصف المتعافية على جسدي.

«حسنًا، بالدارية إذًا. واسأليها إن كانت...»

«أمي، أرجوكِ!» قالت نيا، فطرفت تيلي بعينيها بقوة وضغطت بإصبعها على شفتيها.

«نام إي شوما شي إيست؟» سألتني أنتونيا بصرامة. أدهشتني داريتها وكذلك مخاطبتها لي بالصيغة الرسمية، احترام لا يوجه إلى طفل. ومع أنها سألت عن اسمي، لم أجبها.

كسرت أمها الصمت المؤقت وذكرت لها أسئلة أخرى عدة لتسألني إياها، وهي تتنقل عينيها بسرعة بيني وبين ابنتها.

«أمي، أيمكنك ترك هذا الأمر لي من فضلك؟»

أومأت تيلي برأسها. وضعت مرفقيها على ركبتيها. كانت نحيلة، لكن حركاتها رشيقة جدًّا إلى حد قد يظنها البعض طفلة.

«أنت في أمان هنا. أنا أريد أن أساعدك». واصلت أنتونيا بالدارية. «أكان هذا الرجل أباك؟»

«ماذا قلت لها؟» همست تيلي.

«سألتها إن كان ذلك الرجل أباها».

«من كان يحمل المسدس؟» سألت تيلي مستنكرة. «بالتأكيد ليس أباها». طاقتاهما مختلفتان تمامًا.

أغمضتْ أنتونيا عينيها ببطء.

ظللت صامتة، ما زلت لا أعرف ماذا أفعل. كنت بعيدة عن شير الآن لكنني في أيدي أجانب.

زمت تيلي شفتيها وأطلقت صفيرًا طويلًا. قالت شيئًا ما عن كون أفغانستان بلدًا رائعًا جدًّا لكنه غريب. وقفتْ أنتونيا وذهبت إلى غرفة مجاورة. عادت بعد دقيقة بملاءة فراش وبطانية ووسادة، وضعتها كلها على طرف الأريكة. ثم ذهبت إلى المطبخ وعادت بمجموعة أصناف من الطعام؛ شريحتين من الخبز بالزبد، وصحن فستق، وتفاحة، وشكولاتة مغلّفة بورق الألمنيوم. وضعت الصينية بجوار كأس عصير المانجو الذي لم ألمسه.

«هل ستتصلين بالشرطة؟» سألت تيلي ابنتها.

هزت أنتونيا رأسها وهي تنظر إليّ.

«لا»، قالت بحزم. «لن أتصل بالشرطة. لن أتصل بأحد حتى أعرف أفضل السبل للحفاظ على سلامتها».

ارتحتُ لسماعها تقول هذا وتمنيتُ أن تكون صادقة. لم أعد أثق بأي شخص يرتدي الزي الرسمي ولم أكن أعرف إن كان هذا سيتغير أم لا.

أخذتْ كل منهما حذاءها ووضعته في خزانة بجوار باب الشقة مع سترتيهما. ارتدتا منامات النوم واستخدمتا الحمام واحدة بعد الأخرى. ملأت أنتونيا كوب ماء لأمها.

ثم، ودون إغلاق أي أبواب أو ترك أحد لحراستي، ذهبتا إلى غرفة النوم وتركتا بابها مواربًا. سمعتُ تكة قبل أن تظلم غرفتهما. لحسن الحظ تركت أنتونيا مصباحًا مضاءً في ركن من غرفة المعيشة فظل بإمكاني رؤية ما حولي. طال الصمت فأقنعتُ نفسي أنهما نامتا.

نظرتُ إلى الطعام أمامي وبدأت معدتي تتقبض جوعًا.

تمنيتُ لو كان بإمكاني النظر إلى أبوي لتلقي توجيههما. كانا بإيماءة، أو بطرفة عين بطيئة، أو انخفاض صغير للحاجبين، يذكرانني بإلقاء التحية أو يأذنان لي بقبول حلوى الليمون من جنرال. أتوق الآن إلى أي إشارة منهما.

هل عليّ؟

أرهفتُ السمع في الصمت منتظرة أي إجابة، دون جدوى. قرقرتْ معدتي بصوت عالٍ فقررت أن عليَّ تهدئتها. تناولت كل الطعام الذي تركتاه لي، بدأت بالعصير وختمت بالشكولاتة. تركت الفستق فقط لأنني لم أستطع فتح حبّة واحدة منه دون التفكير في الأمسيات التي قضيتها أستمع إلى حكايات أبي من أقاصي

العالم وهو يضع حبات الفستق الخضراء المملحة في راحتي المتلهفة.

مادر، بادر، أرجوكما جِدًا طريقة للتحدث معي.

ماذا سيحدث لي في هذه الشقة؟ مع أنني لست تحت تهديد سلاح، ما زلت أشعر كحيوان حبيس. سمعت أبي يغني مع أغنية في الراديو، ينظر إلي وهو يتمنى أن أشعر بالكلمات الصوفية كما يشعر هو بها.

لماذا تختار الاستسلام للسجن

وباب الحرية مفتوح أمامك؟

أيعني هذا أن أخرج من باب هذه الشقة؟ كنت مرعوبة من المجهول لأقدم على ذلك.

سرتُ على أطراف أصابعي إلى رف عليه كتب قليلة وكوب مملوء بالأقلام، وبعض الملفات والكراسات. جعلني فضولي أدقق النظر. على إحدى الكراسات صورة لعربة قطار مكتوب عليها كلمة واحدة بحروف عريضة: **أوكلاهوما**.

طرفتْ عيناي بقوة. شعرتُ بأنفاس أمي أعلى رأسي، بيدي أبي على كتفيّ. هل وجدا طريقة للإشارة إليّ من الجانب الآخر؟

فكرت في الأم وابنتها اللتين تنامان بالقرب مني، لقد أخذتاني تحت تهديد السلاح. إن كنت سأنجو، فعليّ أن أبدأ الثقة بأحد.

«اسمي ستارة»، همستُ، صوتي واهن كالستائر الشفافة التي تفصلني عن الفوضى في كابول.

الفصل الحادي عشر

خرجت أنتونيا من غرفة النوم على أطراف أصابعها مع أول ضوء للصباح. شعرت بها تنظر في غرفة المعيشة، وبذلت ما في وسعي لئلا أتقلب. تراجعتْ وعادت لتقف عند الباب خلال أربعين دقيقة ثلاث مرات على الأقل. في المرة الرابعة، نهضتُ أجلس وتلفحت بالبطانية. حبستها في غرفة نومها بما يكفي.

دخلتْ وتحدثتْ بهمس.

«أرجو أن تكوني قد نمتِ جيدًا»، قالت وهي تنظر إليَّ سريعًا قبل أن تدخل الحمام. ناسبني ذلك جدًّا.

خرجت تيلي من غرفة النوم، ألقت بنفسها إلى جواري ولمستْ شعري.

«صباح الخير»، قالت برقة. «هل رقص رأسك بالأحلام؟»

كان لها طريقة مضحكة في الكلام.

أز جهاز اتصال لاسلكي على الطاولة ثم صدر منه صوت لم أستطِع فهمه. اندفعت أنتونيا من الحمام، فرشاة أسنان في يدها. وضعت الجهاز على أذنها وأجابت باقتضاب قبل أن تعود إلى الحمام. سمعتُ صوت الماء الجاري وغرغرة.

ذلك الصباح، كانت نيا مشغولة تمامًا في فعل ثلاثة أشياء في وقت واحد، فلم تطرح عليّ أي سؤال. راقبتها ترتدي سروالها وهي تناقش اختيارات الغداء مع تيلي. أز جهاز الاتصال مرتين أخريين، وفي كل مرة كانت تجيب باقتضاب دون أن تتوقف عن القراءة أو تقطيع الخبز أو إزاحة الستائر لتختلس النظر إلى الشارع في الأسفل.

«لا تتصل به قبل أن آتي إلى المكتب. لن يفيدنا التسرُّع».

بعد ذلك بدقائق قليلة، قالت ويداها في خاصرتها.

«لدي نص مكتوب، بالفعل. لماذا يقوم جورج بعمل أُنجز بالفعل؟»

حين لاحظتني أراقبها ذهبت إلى المطبخ وأخفضت صوتها. أرهفت السمع لأي إنذار بالخطر، لكنني لم أسمع سوى صلصلة الأكواب وصوت تحريك الورق. احتجت إلى دخول الحمام فنهضتُ. في طريقي إلى هناك نظرت خطفًا إلى المطبخ فرأيتها تطوي منشفة أطباق وسماعة الهاتف على أذنها.

جلستُ على الأريكة ثابتة كوسادة، جاءت نيا وجلست على الطاولة. وضعت ساقا فوق الأخرى.

«أنا أعمل في السفارة الأمريكية»، أوضحتْ. «عليّ الذهاب إلى هناك اليوم لكنني سأعود سريعًا جدًّا. أتفهمين؟»

أخرجت تيلي رأسها من غرفة النوم. كانت ترتدي حمالة صدر وردية وسروالًا واسعًا أزرق.

«أنت لا تفكرين جديًا في الخروج، أليس كذلك؟» سألتْ ابنتها ويداها في خصرها.

حاولتُ أن أفهم لماذا تركني شير لامرأة تعمل في السفارة الأمريكية. أكان يستخدمني في حيلة ما؟

«يجب أن أذهب، ماما»، أجابت أنتونيا. ارتدت سترة فضفاضة وسارت نحو الباب. توقفت للحظة، نظرت إلى يدي، ثم عادت إليّ. «الرجل الذي جاء بك إلى هنا. أتعرفين اسمه؟»

وضعتُ يديّ خلفي ولم أجب. ظللت أخفي الخاتم المرصع في راحتي لكن لمعته الذهبية لم تخفَ عليها.

ابتسمت أنتونيا لتؤكد لي عدم انزعاجها من صمتي. كنت أرى أنها لا تريد أن تذهب.

«سأعود سريعًا جدًّا. ستكونين بخير هنا. أمي تحب أن تتحدث»، قالت بهدوء. «لكن ليس عليكِ أن...»

«اذهبي إن كان عليكِ الذهاب»، قالت تيلي وهي تندفع إلى الغرفة في حمالة صدرها لتدفع بنيا إلى الباب. «أعدك أننا لن نحرق الشقة وأنتِ في الخارج».

ارتدت تيلي قميصًا وذهبت إلى المطبخ. قطعت البرتقال على شكل شرائح والجبن على شكل دوائر وأصابع، ورتبتها في الطبق على شكل وجه، وضعت قطعتي قشر برتقال كحاجبين. بدا مكعبان من الجبن كسنين بارزين. رفعت كتفيها ودارت على عقبيها.

جلست بجانبي وراحت تمتص ربع برتقالة. ثم وضعت يدها على صدرها وكررت اسمها ببطء وتركيز. نظرتُ إلى أصابعها المفلطحة، أظافرها المستديرة والبقع البنية الباهتة على ظهر يدها.

«تيلي»، قالت مرة أخيرة. «مثل سيلي [سخيف]، لكن بالتاء».

كانت كأنها تناولني مفك براغٍ مثلًا، ماذا كنت سأفعل بهذا الاسم؟ لم يسبق لي أن خاطبت أحد الكبار باسمه. كان أبي وأمي ليُصعقا.

انبعثت موسيقى من الشارع. نظرتُ إلى النافذة. في ضوء النهار، لم يسع الستائر إخفاء السماء الساطعة. حمل الهواء رائحة خفيفة لخشب محترق وبارود. تساءلتُ إن كانت تيلي تشمها أيضًا أم أنه الهواء الذي تنفسته في القصر المنكوب تلك الليلة وسوف أظلّ أشمه إلى الأبد.

لم أرَ وجهًا مألوفًا واحدًا منذ ليلة الهجوم. قررت أن أضع قائمة بكل من أعرفهم. قال شير إنني لم يبق لديّ أحد. لكن حتى وإن كان هذا حقيقيًا، يوجد أشخاص آخرون. لدي مدرسون وجيران. الخياطة التي كانت تفصل لأمي أثوابها. إن استطعت الوصول إلى أحد منهم...

حينها اصطدمت بحائط صد. كانت طاهرة تنظر إليّ كأنني ذخيرة حية. ماذا لو كان شير محقًا وكنت أمثل خطرًا على الآخرين أيضًا؟

أرحت رأسي العاصف على وسادة.

لا بد أنني غفوت، لأنني حين استيقظت كانت الغرفة صامتة وتيلي ليست موجودة. على الطاولة كوب شاي فارغ. ارتحت لفكرة وجودي وحدي في تلك الشقة. سرتُ بهدوء، وببطء، لألقي نظرة إلى غرفة النوم. على الفراش لحاف أصفر. وعلى التسريحة صورة فوتوغرافية واحدة، بالأبيض والأسود، لأنتونيا تقف على المقعد الخلفي لسيارة جيب بلا سقف بذراعيها معقودتين على صدرها ورأسها يميل إلى الخلف وهي تضحك. حول السيارة أجمات وشجيرات برية. لم تكن تنظر إلى الكاميرا. بل إلى رجلين يقفان إلى يمينها، بشرتهما داكنة ويغطي كل منهما جزأه

السفلي بشال بألوان زاهية. أحدهما يحمل عبوة ماء كبيرة على كتفه ويبدوان مسرورين بشدة لوقوفهما في الصورة. كان هناك صورة أخرى لأنتونيا تصافح رجلًا يرتدي بذلة. وقفا أمام قصر بسيط بأعمدة طويلة، وعلم أمريكي أعلى سطحه.

سرتُ في الرواق الضيق. كان الحمام خاليًا. على مسافة مترين، رأيت سلمًا. سرت نحوه على أطراف أصابعي فوجدته يؤدي إلى باب نصف مفتوح ينهمر منه ضوء الشمس.

سرت نحو الضوء، جائعة للهواء الطلق وللشعور بدفء الشمس على وجهي. دفعتُ الباب فرأيت الأم، التي لا أستطيع نطق اسمها بصوت عالٍ، تجلس على كرسي فينيل قابل للطي. كان ظهرها للباب وكانت ترفع قدميها على كومة من الكتب والمجلات. شمرت أيضًا بنطالها الواسع، لتعرض جلد فخذيها الرقيق للشمس. تصاعد أعلى رأسها عمود دخان أبيض.

سرت نحوها ورأيتها تمسك سيجارة محشوة بين إصبعي يدها اليمنى. حيتني بابتسامة هادئة.

«أليست سماء رائعة؟» قالتْ وهي تحيط بذراعيها الهواء كأنها تريد معانقته. ذكرني شعرها الفضي وعيناها الخضراوان بلوحة بالألوان المائية. أطفأتْ سيجارتها في ذراع كرسيها. ثم مدتْ لي يدها بطبق بسكوت.

أخذت قطعة وجلست متربعة على أرض السطح الأسمنتية لأظل بعيدة عن الأنظار.

أغمضتْ عينيها، تتشرب وهج الشمس. سمعتُ من الشارع في الأسفل رنين أجراس وصدى أصوات المساومات، لأسبوعين لم

أسـر مسـافة تزيـد علـى مسـاحة غرفـة. قدمـاي تشـعران بعـدم الثقـة، بضعـف. مددتهمـا أمامـي.

ظننتهـا غفـت لذلـك جفلـت واعتدلـتُ فـي جلسـتي حيـن سـمعت صوتهـا.

«كنت تعرجين»، قالت. «ماذا حدث لقدمك؟»

حاولت إخفاء قدمي عنها. هزت رأسها محبطة.

«للأسف لا يمكن لقدمك التحدث عن نفسها».

كانـت طاهـرة قـد شـدت طرفـي الجـرح بقـوة وهـي تخيطـه فتكونـت قمـة متورمـة. حاولـت ألا أسـير أمـام تيلـي أو نيـا، لئـلا ألفـت نظريهمـا.

«ربمـا ليـس اليـوم»، قالـت وهـي تلتفـت إلـيَّ. «لكنهـا ستتحسـن. وأنـا لا أتحـدث عـن قدمـك فحسـب. القـدم ليسـت سـوى قـدم رغـم كل شـيء. أنـا لا أعـرف مـاذا حـدث لـكِ، لكننـي أعـرف أنـه كان فظيعًـا، أيًّـا كان مـا حـدث. سيتحسـن كل شـيء».

ارتاحت في جلستها وشخصت ببصرها إلى السماء الصافية.

«مـاذا تعـرف امـرأة عجـوز رغـم كل شـيء؟ ربمـا هـذا مـا تفكريـن فيـه. حسـنًا، هـذه المـرأة العجـوز ليسـت محقـة طـوال الوقـت. لـم أشـتهر قـط بالقـرارات العقلانيـة. يمكنـك سـؤال نيـا عـن هـذا وسـتكون أول مـن يؤيـده. لكننـي أعـرف جيـدًا أن الأطفـال بارعـون فـي أخـذ الليمـون مـن الحيـاة ليصنعـوا منـه عصيـر ليمونـادة. وقـد تركـتُ نيـا بليمونـات كثيـرة»، قالـت بأسـى. ثـم رفعـت قبضتهـا الصغيـرة فـي الهـواء. «وانظـري إلـى مـا هـي عليـه الآن!»

لـم أفهـم مـا علاقـة الليمـون بـأي شـيء، لكننـي فهمـت أنهـا تخبرنـي

بأن أثق بابنتها. لم أكن مهيأة لهذا لأنها تعمل لدى حكومة، وفي تلك اللحظة كان كل ما يتعلق بالحكومات يجعل راحتيّ تتعرقان.

«لم أمكث هنا طويلًا. جئت إلى هنا بالطائرة منذ أسابيع قليلة فحسب. دهشتْ أنتونيا بشدة حين رأتني، ربما أكثر من دهشتنا حين رأيناكِ حتى»، صاحت. «لكنني كنت أفتقدها. إنها طيبة وقلبها كبير جدًّا. وطريقتها في التعامل مع جميع أنواع البشر... أوه، ككيميائية! لم ترث هذا مني أنا، مع أنني منحتها حب المسرح والقصص. كان أبوها هو من يرعاها حقًّا. كان صحفيًّا. بدأ يقرأ لها المقالات قبل أن تبدأ السير. لكنه كان ذكيًّا، حسنًا، لا يجوز التحدث بالسوء عن الموتى، لكنه كان قليلًا ما...»

فردت ذراعيها مجددًا وكشرت بوجهها بجدية. بذلتُ جهدًا لأتابع ما تقوله وكنت متأكدة من أن قدرًا كبيرًا يفوتني. مع ذلك، كنت أرحب بقتل الوقت.

«قصدي أنها ستبذل كل ما في وسعها لمساعدتك. للتأكد من حل جميع المشكلات وتوصيلك إلى المكان الذي تريدينه بالتحديد. أتؤمنين بالقسمت؟»

في البدء لم أميز الكلمة.

«قسمت. القدر. المصير المكتوب على الرمال»، قالت وهي تدور إصبعًا في الهواء. «ما سيكون سيكون. أسمعتِ عن مارلين ديتريتش؟[1] أنا متأكدة من أنك لم تسمعي بها. أنتِ صغيرة جدًّا.

(1) ممثلة ومغنية ألمانية أمريكية. (المترجمة).

قسمت. حينها فهمت، مع أنني لم يكن لدي أدنى فكرة عن ماذا أو عمَّن تتحدث.

نهضتْ ووقفت على قدميها دون عناء، كأنها رُفعت بخيوط خيالية. راحت تخطر على السطح، يقود سيرها إصبع قدمها المدببة، تدندن لحنًا يعلو ويهبط. لفّتْ أصابع يديها حول سمانتيها ثم لأعلى بطول ساقيها بحركة خليعة جعلتني أشيح بوجهي بعيدًا تقريبًا. دارت على السطح الصغير كراقصة إغراء، تهز ردفيها مع كل خطوة وتمسك بطرف طرحة لا مرئية على وجهها.

«ألستُ رائعة؟» قالت وهي تربت على عينيها وتتحسس جذعها. أمالت رأسها جانبًا وشدت كتفيها إلى الخلف، توجه صدرها نحو الشمس، ووضعت يدًا أسفل ظهرها والأخرى خلف رأسها المائل. مدت قدمها اليسرى أمام قدمها اليمنى بمسافة بعيدة إلى حد خشيت أن تسقط على الأرض.

لم أرَ شخصًا كبيرًا يتصرف على هذا النحو من قبل.

«لقد ابتسمتِ»، قالت تتهمني، بمكر. «نجحت سيدة ضوء القمر في مهمتها إذن».

عادت إلى كرسيها بمشية قطة. ألقت بنفسها عليه، ثم أخذت نفسًا عميقًا قبل أن تلتفت إليّ. كان في تعبير وجهها حزمٌ، يقين يبدو كبيرًا بما يكفي ليسعنا نحن الاثنتين.

«إن أردت التحدث في أي وقت، اعلمي أنني مستمعة جيدة جدًا. لا أعرف هل يبدو عليّ هذا أم لا، لكنني كذلك»، قالت بصوت مشرق بشقاوة. لم أفهم ما قالته بعد ذلك. كان كلامها مثل رقصها، يدور في مختلف الاتجاهات ويتطلب جهدًا كبيرًا

لمتابعته. أطلقتْ تنهيدة طويلة، مالت إليَّ وختمت كلامها بـ«لا مؤاخذة على فرنسيتي».

لو كانت قد تحدثت بالفرنسية فلم ألحظ. تركتُ شعري يغطي وجهي كي أخفي الدموع التي سالت على خديّ رغمًا عني. لم أقصد الابتسام. دعوت الله أن يغفر لي لحظة الخفة تلك. تمنيت أن تغفرها لي أسرتي. كنت غاضبة من نفسي بشدة.

مع ذلك، أردت أن تواصل تيلي حديثها لأنه يُغرق أفكاري السوداء.

كنت قد قضيت الأسبوعين الماضيين أناضل لهضم الحقيقة المُرّة أنني أنا وأختي آريانا قد تبادلنا الأماكن. بينما صرت وحيدة تمامًا لأول مرة في حياتي، لم تعد هي نجمة وحيدة تلمع في سماء الليل.

إنه القدر. قصتي المكتوبة على الرمال.

مررت تيلي إصبعها على حافة كوبها. لم تكن عيناها خضراوين فقط، كانتا بكل ألوان عالم قديم، لم يواره الثرى، مرصع بالذهب والنحاس. بدت منيعة، كأنها لم تقض يومًا واحدًا سيئًا طوال حياتها. كانت تتحرك كأنها لا تعرف عمرها.

مع أنهما لم تكونا متشابهتين في شيء، لكنهما فعلتا شيئًا لم أكن قد رأيت غرباء يفعلونه من قبل قط. حين ينظر أغلب الكبار إلى العالم، يتغبش الأطفال ويُستبَعدون. لكن تيلي ونيا كانتا تنظران إليَّ كأن بقية العالم قد انتهى ولم يبق منه أحد سواي.

أحيانا، يُسمع المرء بوضوح فقط حين يصمت، قال لي أبي ذات مرة.

بصمت، أعدّت أنتونيا لي فراشًا ومنحتني مساحة لأتنفس. وبينما أجلس بجوار تيلي، كانت تنظر إليَّ بعينين حانيتين تحيطهما التجاعيد.

أغمضتُ عيني بقوة وحاولتُ استحضار وجه أبي.

لن أنجو من هذا القدر وحدي، لكنني لست متأكدة من استعدادي للثقة بأنتونيا أيضًا.

أدرت الخاتم المسروق في إصبعي وتحسست حجارته الكريمة. مملكة آي خانم، سيدة القمر، دُفنت مرتين؛ مرة حين أبيدت والثانية في قبو القصر.

صار الخاتم تميمتي، مفتاح بقائي. ازدادت حمرة العقيق على خلفية راحتي الوردية. لون السجادة التي كنت أقرأ عليها القصص، لون سترة أبي الصوفية، ولون الدماء المسفوكة. نعومة الفيروز كباطن معصم أمي، ولون مصابيح بوابات الجنة، وعروق تبدو كأعين شريرة مغمضة.

كان العالم القديم ملفوفًا حول إصبعي حتى والعالم الحديث الذي أعيش فيه يلف أصابعه القاسية حول حلقي بقوة أكبر.

الفصل الثاني عشر

بعد ذلك بيومين، خرجت من الحمام ووجهي ما زال مبللًا. ظللت أشعر بالحر ذاك الصباح فكنت أغسل وجهي ليبرد قليلًا. وجدت أنتونيا تجلس إلى مائدة طعام صغيرة في ركن من غرفة المعيشة وأذنها ملتصقة براديو. كانت قد أخفضت صوته بشدة إلى حد لم أسمعه إلا حين فتحت الباب. لكنها أطفأته ما إن رأتني.

«ماذا يقولون؟» سألتُ وتمنيت أن أستطيع فتح النافذة قليلًا من أجل بعض الهواء. تجمدتْ أنتونيا قبل أن تلتفت إليّ. كنت قد قلت بالأمس عبارات عدة. صباح الخير. لا، شكرًا. لكنها لم تضغط عليّ لقول المزيد، ما قدرته لها.

«يوجد تشويش كثير. ضجيج أكثر من الكلام»، قالت وهي تهز رأسها. كانت قد عادت إلى البيت لتناول الغداء، والأرجح كي تتفقدني أيضًا. «وأغلب الكلام لا يمكن الوثوق به على كل حال. كل شيء هادئ اليوم، على ما يبدو».

وقفتْ وبدأتْ جمع أشيائها في حقيبتها لتعود إلى السفارة. قفزت إلى الراديو وشغلته ما إن غادرت. بدت تيلي كأنها ستمنعني لكنها جلست على الأريكة وراقبتْ. أدرتُ القرص حتى اتضح صوت المذيع.

نبرة صوته كئيبة، سلطوية.

«سيواصل الحزب الديمقراطي الشعبي الأفغاني، الحزب الحاكم الشرعي، العمل من أجل تحقيق مصالح الشعب وتحسين البنية

التحتيـة، ومناهضـة الاحتـلال وازدهـار أحـوال جميـع الأفغانييـن. عُيـن أفـراد أكفـاء فـي المناصـب الوزاريـة المهمـة. الحـزب موحـد وقـوي ويدعمـه شـعب كابـول دعمًـا كامـلًا».

لم تتحمل أعصابي الاستماع إليه كما لم أستطع إطفاءه.

ذكرنـي الصـوت بالبيـت وبطريقـة توجيـه أبـي أذنـه إلـى الأرض دائمًـا. كان يعـرف أغلـب المذيعيـن بشـكل شـخصي وكان كثيـرًا مـا يتصـل بهـم إن رأى أنهـم لـم يغطـوا جوانـب الأمـر كلهـا. كانـت تلـك محادثـات قصيـرة نـادرة. علمنـي أبـي إدراك مـا خلـف الدعايـة ورؤيتها، أن أشك في أي بيان لا يسمح بالجدل أو بطرح التسـاؤلات.

عمتك مينـا مثـال جيـد علـى الدعايـة. حيـن تقسـم أن لا أحـد فـي كابـول كلهـا أفضـل منهـا فـي طبـخ الباذنجـان أو يخنـة الخضـراوات المشـوحة. وحيـن تقـول إن طبخهـا أفضـل مـن طبـخ عماتـك الأخريـات، مـاذا أقـول لهـا دائمًـا؟

يجـب أن أذوقـه قبـل أن أحكـم. حقـا، لـم تكـن العمـة مينـا تتحلـى بأدنـى قـدر مـن التواضـع فـي المطبـخ. كانـت تنظـر إلـى ضيوفهـا وهـم يأكلـون بحـدة، تجمـع الاستحسـان كأنـه ضريبـة العشـاء.

خذي من الآخرين معلومات، قال بمكر، *ولا تأخذي منهم رأيًا أبدًا*.

اسـتمعتُ إلـى الراديـو سـاعة أخـرى دون أن أسـمع شـيئًا عـن الانقـلاب أو عمّـن قُتِلـوا. لا بـد مـن الـكلام الفـارغ قـد أصابنـي بصـداع ودفـع بـي إلـى النـوم لأننـي استيقظت علـى أنتونيـا تهمـس بحـدة فـي الغرفـة المجـاورة.

«الأخبـار، مامـا؟ قلـت لـك هـذا الصبـاح إنـه ليـس جيـدًا لهـا أن تسـمعه».

«أنا لستُ سجّانة، نيا. أنا أومن بحرية الرأي والتعبير»، قالت تيلي تدافع عن نفسها.

«هذا ليس حرية رأي وتعبير»، أجابت نيا.

«معذرة، حرية الاستماع إلى الرأي والتعبير»، كررت تيلي.

دخلتا غرفة المعيشة، التي بدا أنها تضيق حين تجلسان معًا فيها. هذه الأم وابنتها لا يمكنهما التحرك في الشقة دون أن تصطدم إحداهما بالأخرى. شعرت بجفنيّ ثقيلين وأفكاري بطيئة. لم أنم جيدًا في الليلتين الماضيتين وما بدأ حكّة في قدمي تحول إلى نبضات أليمة.

لاحظت تيلي ترنحي وجلستْ بجواري على الأريكة.

«قدمها لا تبدو بخير»، قالت وهي تدقق النظر في الجرح ويداها خلف ظهرها. هذا الصباح، رأيت قيحًا أصفر ينز من الجرح، والجلد من حوله يزداد سخونة وانشدادًا. جاءت نيا لتنظر بنفسها فجلست فورًا.

«اللعنة»، قالت. «لقد تلوث. إنها بحاجة إلى مضاد حيوي».

«ألا يمكنك أخذها إلى مستشفى؟»

«لا»، قلت برأسي يعصف بتحذيرات شير من أنه لم يعد في كابول كلها مكان آمن. «لا مستشفى».

عضتْ أنتونيا شفتها.

«هيا، حبيبتي. أنت تعرفين جميع الأشخاص المهمين في البلد. وزير هذا ورئيس مجلس إدارة ذاك. لا بد أنك تعرفين طبيبًا يمكنه رؤيتها». ألحت تيلي.

رفعتُ بصري، منتبهة.

أي أشـخاص مهميـن فـي البلـد تعرفهـم أنتونيـا؟ ولمـاذا تقابـل النظـام الجديـد؟ حتـى تلاميـذ المـدارس فـي أفغانسـتان يعرفـون أن الأجانـب جواسـيس بيننـا، يتنكـرون بصفـة رجـال أعمـال أو معلميـن لجمـع معلومـات لحكوماتهـم الاسـتعمارية. خطـر لـي هاجس فظيـع حينهـا. مـاذا لـو كانـت نيـا جاسوسـة؟ مـاذا لـو كانتـا همـا الاثنتـان جاسوسـتين؟

مـاذا يريـدان منـي؟ ضـج قلبـي. نهضتُ، تلوى وجهـي حيـن لمسـتُ الأرض بقدمـي اليمنـى. فكـرت فـي الهـرب وطلـب النجـدة مـن مالـك المخبـز فـي الأسـفل. يمكننـي التوجـه إلـى الشـارع مباشـرة أو القفـز مـن السـطح. لـم يبـدُ أي منهمـا طريقًـا سـالمًا. شـعرت بالهزيمـة، سـرت علـى قـدم واحـدة إلـى المطبـخ وفتحـت الأدراج واحـدًا بعـد الآخـر ببـطء حتـى وجـدت أخيـرًا سـكينًا حـادة. اسـتدرت فرأيـت أنتونيـا تنظـر إلـيّ.

«حبيبتي، ماذا تفعلين بهذه السكين؟» سألتني.

ماذا كنت أفعل بالسكين؟

كـدت أضعهـا علـى المنضـدة لكننـي توقفـت حيـن رأيتهـا تنظـر خلسـة إلـى الجانـب المقابـل للمنضـد. أكانـت تبحـث عـن سـكين أكبـر؟ هـل خدعتانـي؟

«اجلسي أرجوكِ، دعينا نتحدث».

«مـاذا تفعـلان أنتمـا الاثنتـان...» قالـت تيلـي وهـي تقـف عنـد بـاب المطبـخ. تجمـدت حيـن رأت السـكين فـي يـدي. «أوه، الجحيـم المقدسـة، ضعـي السـكين جانبًـا إن لـم تكـن خطتـك الهجـوم علـى برتقالـة».

«لماذا أخذتماني؟» سألتُ. «أأنتما جاسوس؟»

«جاسوس؟ ماذا تعني جاسوس؟ نيا، هل تحسبك يسوع؟» سألت تيلي ابنتها. ثم التفتت إليّ، مستنكرة، وقالت: «إنها ليست يسوع! لا يمكنها حتى دخول الكنيسة دون أن تقشعر».

«اسمعيني. لا. أنا لست جاسوسة»، أقسمتْ أنتونيا براحتيها لأعلى. «أنا أعمل في المركز الثقافي الأمريكي. أساعد في بناء المدارس لأطفال أفغانستان. نساعد في تعليم الإنجليزية. وقد أخذتك لأن ذاك الرجل قال إنك لست آمنة في كابول. أحضرتك إلى هنا من أجل سلامتك».

«ما كان يسوع ليفعله»، أضافت تيلي.

ارتعشت يداي، نظرتُ من إحداهما إلى الأخرى، عرفتُ أن حياتي تعتمد على قدرتي على اتخاذ القرار السليم، على تذكري تعاليم أبي وأمي، على التفكير فيهما دون أن أتمزق إلى نصفين، على أن أعرف متى أركض ومتى أتحدث، أن أعرف قدر ما يمكنني البوح به لأواصل. كانت قدمي تشتعل بالنار. عجزتُ عن رؤية أفكاري أو سماعها، طنت أذناي بهدير عال كمحركات طائرة.

ربما كان أبي مخطئًا بشأني. ربما لا يسري في عروقي دم ملالي المحاربة.

سقطت على الأرض وفقدت وعيي.

الفصل الثالث عشر

استيقظتُ بأنين، أطرافي متخشبة وخدرة. طرفتْ عيناي وأخذت رؤيتي تتضح ببطء. رأيت تسريحة، على أدراجها خدوش عميقة تركت الخشب الباهت عاريًا.

أعلى المرآة قلادة من اللازورد. سقط ضوء الشمس على الحجر الأزرق بعروقه البيضاء اللامعة. توجد زجاجة دواء على طرف التسريحة.

أزحت البطانية عني وسمعت خطوًا هادئًا في الرواق. صوت همس تيلي. كان الصمت غريبًا. مثلما كان أبي لا يلاحظ ارتفاع صوت التلفاز إلا حين تُطفئه أمي. لم ألحظ صوت القرع في أذنيّ حتى توقف.

على حافة الفراش ملابس نظيفة لي: قميص وبنطال وملابس داخلية. كانت ملابسي التي أرتديها مبللة بالعرق. اختبأتُ خلف الباب وارتديت الملابس الجديدة بسرعة. فتحت الباب قليلًا، ثم أكثر قليلًا.

«حسنًا، انظروا من التي استيقظت على الجانب الصحيح من الفراش اليوم!» صاحت تيلي حين خرجتُ من غرفة النوم أعرج. رفعتُ بصري لأنظر إلى عينيها.

كانت تقف على المقعد وهي ممسكة برزمة ورق. ترتدي ثوبًا من الكتان الأخضر، وحول خصرها خيط من حبات مسبحة ملونة. شعرها، بلون الغيوم الملبدة، معقوص للخلف. شكل ثوبها الصندوقي وياقته المربعة يؤطران زوايا جسدها، الخطوط

الأفقية لعظام ترقوتها وكتفيها، الخطوط الرأسية لأنفها ورجليها. بقيت عيناي على الأفخم، نعل وردي في قدميها.

«قبل أن تتقدمي، هل تحملين سلاحًا؟» سألت وهي ترفع يدها إلى الأعلى لإيقافي. ظهرت أنتونيا من المطبخ يبدو عليها الارتياح.

احمرَّ عنقي خجلًا.

«جيد»، قالت وهي تشير لي أن أساعدها على الهبوط من فوق المقعد. «الآن، حان وقت إطعامك قليلًا وإلا سيسبب لك المضاد الحيوي ألمًا في المعدة. سيكون لدينا الوقت للبروفات لاحقًا. والآن وقد عدت إلى نفسك قليلًا، هل يمكنك إخبارنا باسمك على الأقل؟»

«ستارة». قلت.

«ستارة»، كررت تيلي.

خلال الأيام القليلة التالية ظلتا تعتنيان بي كأنني مريض عزيز. تفقدت أنتونيا الجرح وقاست درجة حرارتي كثيرًا. كان صوتاهما معي مرحًا كأنه صداح طيور. كانت محادثاتهما مع إحداهما الأخرى متقطعة وتتخللها تعابير الوجه التي لا تحتاج إلى ترجمة.

بينما كان عمل أنتونيا يُخرجها من الشقة، لم تكن تيلي تذهب إلى أبعد من المحلات في الأسفل. كانت تعود ببطيخة أو زجاجة مياه غازية بطعم البرتقال. تعيد تمثيل المحادثات التي خاضتها مع أصحاب المحلات وتتحدث عن كيف تذكرها النساء في السوق بكليوباترا. كانت تتحدث عن أنتونيا أيضًا. أخبرتني أن ابنتها ذات مرة قوّمت لرجل ذراعه المكسورة بعد سقوطه عن ظهر شاحنة

في تركيا. صففت لي تيلي شعري بالفرشاة وأحضرت لي أطباقًا من الطعام أكدت لي أنها ستساعد جسدي على التخلص من السموم. كانت تغني لي وتقرأ لي بصوت عالٍ من كتاب عن امرأة وقعت في غرام رجل يركض في أنحاء المدينة على ظهر حصان.

التأم جرحي. تحول الأحمر إلى وردي. جف السائل الأصفر تمامًا. كنت أسير بعرج خفيف لكنني اقتربت من تثبيت قدمي بقوة على الأرض.

بدأت تيلي تدعوني ستار، التدليل الإنجليزي لاسمي. كنت في تلك الآونة أتحدث بكلمات قليلة فحسب، لأجيب عن أسئلتهما فقط. لكن الصمت غلاف ثقيل ووجدت نفسي في حاجة ماسة إلى تمزيقه.

ذات ليلة، وقفت عند باب المطبخ أراقب أنتونيا تجفف أطباق العشاء. استدارت قليلًا لتبتسم لي قبل أن تضع الأطباق في الخزانة وتبدأ تجفيف الأدوات الفضية. أغلقت الدرج بهدوء. طوت المنشفة إلى نصفين، علقتها على حافة الحوض وخرجت إلى غرفة المعيشة. جلستْ متربعة على الأرض وأشارت لي أن أنضم إليها. جلستُ، كما أجلس دائمًا، في وضع يمكّنني من رؤية باب الشقة والوصول إليه كذلك.

«أنتِ في أمان هنا»، قالت أنتونيا مرتين، بالإنجليزية أولًا ثم بالدارية. كانت قد غيرت ملابس العمل وارتدت بنطالًا قطنيًّا خفيفًا وقميصًا واسعًا. تؤطر خصلات شعرها المعقوص في ذيل أرنب وجهها فتمنحها هيئة شبابية. «وإن وثقتِ بي، سأفعل كل ما يمكنني لمساعدتك. أتفهمين؟»

بمرور الوقت اتضح لي شيئًا فشيئًا أن عمل أنتونيا يشبه عمل أبي، حافظة سلام، مستشارة موثوق بها. لاحظتُ من المحادثات التي سمعتها عرضًا أن السفارة تعتمد عليها كثيرًا. إن كانت تلقي الأوامر هكذا في أثناء تحدثها في الهاتف فلا بد أنها واحدة من أهم المسؤولين في السفارة.

جلستْ تيلي على المقعد. قرطها مصنوع من حبات زجاجية قزحية تتدلى من شحمتي أذنيها. كمخرج مثير للجدل في موقع تصوير. أومأت لي برقة أن أجيب.

«نعم. أنا بخير هنا»، قلتُ ببطء وخرق.

«أوك، هذا جيد»، أجابت أنتونيا.

أخذت نفسًا عميقًا، ثم تقدمت بطلبي الكبير.

«أريد بيتي من فضلك».

«بيتك؟» كررت أنتونيا، تتقدم بحذر. «أين بيتك؟»

تسارع ذهني وأنا أعيد التفكير في خطتي. هل أجرؤ على البوح بمكان بيتي حقًا؟ قد يساعد أي شيء في تحديد هويتي ولم أكن متأكدة من أنه التحرك السليم.

بدأت أنتونيا تردد أسماء المناطق. حين رددت اسم المنطقة الهادئة عند سفح أحد الجبال، تحركت قدمي بعصبية.

«هذا جيد. بيتك ليس بعيدًا عن هنا».

لكن البيت كقشر البطيخ، لا فائدة له سوى حمايته الفاكهة الحلوة الرطبة بداخله.

«أخبريني عن أسرتك»، قالت أنتونيا بحذر، ورقة.

سقطت عيناي على الأرض كأن ما شدهما قوة أكبر بكثير من الجاذبية.

«أسرتي... كانت أسرتي في القصر حين... أنا فقط...»

شعرتُ أنني أعترف بجريمة أكثر من كوني أحكيها. غطيت وجهي بيدي. وضعت أنتونيا يدها على ساعدي برقة.

«أنا آسفة. أنا آسفة جدًّا».

ثم سكتت تمامًا، وبدت كأنها تحبس آلاف الأسئلة. مع ذلك نهضتْ وذهبت إلى المطبخ، وعادت بكوب ماء.

«ما اسم أبيكِ؟» سألتْ برقة. داريتها، رحمة من اللّه، قائمة على صيغة المضارع، فلم تسلبني شيئًا.

«سليمان زماني»، قلت فتضخم اسمه في الغرفة حتى ملأ أرجاءها.

كررت أنتونيا اسمه، مالت برأسها جانبا كأنها تحاول تحرير ذكرى ما.

«أليس هو المستشار الكبير في حكومة الرئيس؟ وكان يعمل مع الفرنسيين ومتحف كابول على مجموعة التحف الفنية؟ كنتُ في آي خانم...»

تجمدت أنتونيا. نظرت سريعا إلى يديّ المشبوكتين في حجري، أصابعي تخفي أحجار الخاتم جزئيًّا.

«أوه»، قالت مذهولة.

دسست يدي تحت وسادة.

«أنت تعرفينه؟» سألتها بأسى. نظرت تيلي إلى ابنتها، عيناها تعكسان أملي.

أومـأت أنتونيـا برأسـها. قابلتـه فـي ثـلاث مناسـبات علـى الأقـل وتتذكـر أنـه كان رجـلًا مثقفًـا ولبقًـا.

أردت أن أسـمعها تتحـدث بالمزيـد عـن أبـي لكنهـا أرادتنـي أن أواصـل.

«أم... أمي»، قلت متلعثمة.

أخبرتهـا عـن أسـرتي بكلمـات خرجـت سـطحية بشـكل مؤسـف. كانـوا أكثـر بكثيـر مـن اسـميهما لكنهـا كانـت كل مـا لـدي حينـذاك. أعدتهمـا إلـى الحيـاة بهذه الطريقـة الصغيـرة، فـي المسـاحة الآمنـة مـع أنتونيـا وتيلـي تسـتمعان بانتبـاه. تحـركتُ إلـى الخلـف والأمـام فـي الوقـت نفسـه، مـن اللحظـات المرعبـة للانقـلاب إلـى الأيـام الذهبيـة التـي سـبقته.

ومـع أننـي ارتجفـت وتلعثمـت وأنـا أتحـدث عنهمـا، لكـن الأمـر لـم يقتلنـي، كمـا كنـت أخشـى.

«درس أبوكِ في أمريكا، أليس كذلك؟»

أومأتُ برأسـي.

«أين ولدتِ؟»

«هنـا»، قلت. «أختي فقط من وُلِدت هنـاك».

«أختـك؟» كـررت أنتونيـا، فـي انتظـار توضيحـي. حدثتهـا عـن أختـي وحياتهـا القصيـرة، المجمّعـة فـي صنـدوق ذكريـات صغيـر. ثـم حدثتهـا عـن نيـلاب، التـي كانـت بمثابـة أختـي أيضًـا، ورسـتم، صديقـي. حدثتهـا أن أسـرة الرئيـس كانـت فـي جنـاح آخـر مـن القصـر ذاك اليـوم. أردت أن أصـدق أن نيـلاب ورسـتم مـا زالا علـى قيـد الحيـاة في مـكان مـا.

«الحرس»، قلت. «تغيروا إلى الأسوأ. تغير كل شيء».

بدت كلمة «تغيروا» نسخة باهتة من الحقيقة، لكنني حينها لم أكن أعرف كلمات مثل «الخيانة» أو «الغدر» أو «التمرد».

«الناس يرتكبون الفظاعات من أجل السلطة»، علقت أنتونيا. «ماذا عن الجندي الذي أحضرك إلى هنا؟ أكنتِ تعرفينه؟»

شير. أخبرتها بكل شيء عنه، كيف لم يهتم بتحذيرنا من الانقلاب وكيف قد يكون هو من أطلق النار على أسرتي. أخبرتها كيف اختطفني من القصر وحبسني في شقته مع أسرته الذين ظلوا ينظرون إليّ بانشداه.

«أنت فتاة شجاعة جدًّا»، قالت تيلي بصوت مبحوح وخفيض. ارتعش ذقنها قليلًا وهي تتحدث. «لأنك مررت بكل هذا وما زال بإمكانك الجلوس هنا قوية كالحجر».

لمستْ أنتونيا ركبتيّ بأطراف أصابعها.

«لا أعرف كيف، لكنني سأساعدك»، وعدَتْني فتمنيتُ بشدة أن يمكنني تصديقها. «لن أدع أحدًا آخر يمسّك بسوء، وسوف نجد طريقة لجعل كل شيء أفضل».

«أوه، بحق السماء يا نيا، عانقي الفتاة!» قالت تيلي وهي تبكي. عبرت الغرفة وجلست بجواري، تألمت وهي تثني ركبتيها. كانت رائحتها برتقال وقرفة والسجائر المحشوة التي تدخنها وبعض نداوة خفيفة، عطر لا يمكنني تحديد اسمه.

رن جرس الهاتف. تجاهلته أنتونيا. تراجعت إلى الخلف في جلستها لتفسح مجالًا لتيلي كي تجذبني إليها وتعانقني. جلستْ

بجوار الحائط وركبتاها مضمومتان إلى صدرها. ربما تفكر في الوعود العسيرة التي قطعتها.

ابتعدت تيلي لوهلة، ثوبها مبلل بدموعي.

همست وهي تكور يديها معًا: «العالم مقلوب رأسًا على عقب، أليس كذلك؟ أحيانًا ينقلب هكذا ونحن في الوسط، فيسود الظلام تمامًا ونظن أننا لن نرى الشمس ثانية أبدًا». ثم علا صوتها بحرارة. «لكن ذلك لا يدوم لأن الفتيات الصغيرات يمكنهن إصلاح العالم والإبقاء على دورانه. فتاتي الصغيرة نيا تعرف هذا. أوه، تعالي هنا يا حلوتي الصغيرة».

جذبتني إليها مجددًا، مزيج من الآلام والأوجاع والأسى.

اهتززنا معا كجسد واحد. كشطري بيت شعر. كطرفي جرح مفتوح. كأم ثكلى وطفلة ناجية.

الفصل الرابع عشر

«يصعب تصديق أن ثلاثة أسابيع مضت على تلك الليلة. كنت هنا على السطح، لا أعرف ماذا أرى. ظلت نيا تتصل. «اهبطي من فوق السطح يا ماما»، قالت تيلي مقلدة صوت نيا. شخص بصرها في السماء. «رأيت كل شيء لكنني لم أعرف ماذا ترى عيناي. وحين أفكر الآن...»

شرد ذهني. تخيلتُها جالسة على السطح فيما تحلق الطائرات الروسية في سماء القصر، ترمينا بقذائفها.

جلستُ بجانبها متربعة ودفتر في حجري، كما صارت عادتي. كنت أكتب تفاصيل عن حياتي، مقاطع من محادثات مع أبويّ، عادات فهيم. أخشى فقدان اللحظات الخاصة التي عشناها معًا. أتت إليّ أنتونيا بدفتر جديد، دون أن تسأل عمَّ أكتبه. حركته عبر الطاولة بحرص كأنه منديل ورقي. أخذتُ، شاكرة، أملأ الصفحات المسطرة لساعات في كل مرة. مع ذلك كنت أشعر بتعب واستنزاف وتجدُّد الحزن.

خلال دقائق قليلة، غفت تيلي على المقعد. كانت تغفو كثيرًا وبعمق، في الغالب لأنها كانت في صحوها تتحرك بطاقة كرة مندفعة. غمغمتْ بنعومة في نومها، مالت رقبتها بزاوية غير مريحة. أخذتُ طرحتها الفوشيا من حجرها، كورتها في يدي ووضعتها تحت رأسها.

سرتُ إلى حافة السطح. رأيت الجبال في الأفق البعيد، الأسطح المتراصة للعمائر المجاورة. استأت ممن يعيشون فيها

كأن ما حدث منذ ثلاثة أسابيع لم يكن سوى فيلم ما. طفت أصوات، يشوبها الحزن، من شقة قريبة.

أمه تذهب إلى السجن بالطعام كل يوم. ولا يخبرونها حتى إن كان حيًا أم ميتًا.

ألا يعرف زوجك أحدًا في الجيش؟ ألا يمكنه أن يسأله؟

وماذا لو أخبر رؤساءه بأنني سألته؟ هؤلاء الوحوش سيخفونه في منتصف الـ...

ششش!

صوت إغلاق نافذة بقوة. ربما ليسوا مغيبين تماما عما حدث كما ظننت.

كانت كابول تتحول إلى مدينة للمتلصصين والمدلسين والبصاصين. كان الناس يتجسس بعضهم على بعض ويشكّ بعضهم في بعض.

فتحت الباب لأعود إلى غرفة المعيشة. جلست أنتونيا إلى المائدة بظهرها لي، سماعة الهاتف على أذنها. على المائدة كومة ملفات. لم تلحظ دخولي.

«مع كامل احترامي، لا تسألني عن حدسي كامرأة»، قالت وهي ترفع يدها بضجر. «أنا أعمل طبقًا لمعلومات وليس بالحدس. لدينا ملفات عن أغلب المسؤولين الجدد. علينا بناء علاقات معهم. أرادت موسكو إبعاد الجميع عنهم لوقت طويل».

لان صوتها حينذاك، تحول إلى النبرة المطمئنة التي تستخدمها معي. «أعرف أنه كان صديقك سيدي. أعرف أنك فقدت كثيرًا من الأصدقاء تلك الليلة. كلنا كذلك. لكن الآن، علينا الفصل

بين مشاعرنا الخاصة وواجباتنا المهنية. لا يمكننا اتخاذ قرارات عاطفية».

سرتُ نحو الكنبة ورفعت الوسادة عن طرفها. وجدتُ العلبة الخضراء التي أهدتني إياها أنتونيا لأضع فيها الخاتم. لم أرد خلعه لكنها حذرتني من أنه هش جدًّا على أن يُستخدَم. حشرتُ في العلبة منديل يد قماشي وراقبتني وأنا أضع الخاتم في العلبة. كنت أتفقده طوال الوقت، كأنه قد يختفي فجأة.

التفتتْ خلفها، فوجئتْ بوجودي. عضتْ شفتها وضغطت بيدها على جبينها.

«ربما من الأفضل أن نناقش هذا على انفراد»، قالت وعيناها تفيضان بالحزن وهما تقابلان عينيّ.

أنهت المكالمة ووضعت السماعة. ابتسمت ابتسامة رقيقة وأشارت إلى أن أجلس معها.

«ستار، اجلسي معي قليلًا. مضى وقت طويل وعلينا فك هذه الغرز».

جلسنا معًا على الكنبة، ووضعتُ قدمي في حجرها. أمسكتْها بكلتا يديها، فركت كعبي برفق وأومأت برأسها.

«زال التلوث تمامًا. تبدو أفضل كثيرًا».

«تتحدثين كأنك طبيبة»، قلتُ فضحكتْ.

«بالكاد. قضيت أوقاتًا لا بأس بها في أماكن لا يوجد فيها أطباء».

أحضرتْ مقصًا، وملقطًا ولفافة شاش من الحمام. نما جلد جديد وردي على معظم الخيط الذي استخدمته طاهرة لخياطة

الجرح. قصت نيا بعض الغرز بسهولة لكنها اضطرت إلى غرز الملقط في لحمي لفك غرز أخرى. عضضت على شفتي السفلى وأشحت ببصري بعيدًا.

«ماذا تفعل تيلي بالأعلى؟» سألتني.

«إنها نائمة»، أجبتها. «إنها مرهقة جدًّا».

هزت رأسها.

«سأحضر لها بعض الفيتامينات أو شيئًا ما في طريق عودتي من السفارة»، تمتمتْ. «إنها تفكر في هذا وذاك وتنسى أن تأكل».

«إنها مثلك». قلت.

بدا أنها فوجئت تمامًا بقولي هذا. ابتسمت ابتسامة طفيفة ثم عادت تنتبه إلى الغرز العنيدة المدفونة في قدمي.

نظرتُ نحو باب الشقة ورأيتُ حقيبة نيا بالقرب منه. كان قلبي يدق بقوة كلما غادرت الشقة. كنت قلقة مما قد يحدث لو لم تعد أو لو هاجمها أحدهم. صار ما أخبرني به شير منطقيًّا الآن أكثر مما بدا في تلك الليلة السوداء. لم تعد كابول وطني. لا يمكنني الذهاب إلى أي مكان. لا يمكنني اللجوء إلى أحد. وبالطبع لا يمكنني البقاء في هذه الشقة إلى الأبد.

«الجندي»، بادرتني أنتونيا، كأنها قرأتْ أفكاري. «أخشى أنه محق. أنا أعمل على خيارات عدة. كلما انتظرنا مدة أطول زاد احتمال أن يعرف أحد بوجودك هنا. يخشى الناس التحدث عن الانقلاب وإلا زُجّ بهم في السجن. أنت شاهدة على ما حدث تلك الليلة يا ستارة».

لم يحجب صوغها الرقيق الخطرَ الذي تشير إليه.

«أظن أنه بمقدورنا الذهاب بكِ إلى أمريكا». قالت وهي تفرك كعبي بحزم، ما خفف الألم حول أطراف الجرح.

أمريكا.

كنت قد سألت والديَّ ذات مرة إن كانا يرحبان بالعيش في أمريكا مجددًا. سمعت منهما عن الطرق السريعة التي تسع ثلاث سيارات تسير في اتجاه واحد جنبًا إلى جنب، المتاجر الكبرى التي تبيع أنواع حبوب الإفطار شتى، إلى حد أن تخصص لها قسمًا كاملًا. والجامعات التي يدرس فيها طلبة من جميع أنحاء العالم. ضحك أبي وحدّثني عن مدينة الأمريكيين الذين يعيشون في لشكركاه في الجنوب. *ستأتي إلينا أمريكا بنفسها*، قال.

ماذا سيحدث لي في أمريكا؟ كان التفكير في الذهاب إلى هناك دون أسرتي مؤلمًا. كيف سأعيش وحدي؟ هل سيرسلونني إلى دار أيتام؟

«لن يكون هذا إلى الأبد»، قالت حين رأت وجهي الحزين. «بل لوقت ما فحسب، حتى يمكننا إيجاد أحد أقاربك. وحتى نتأكد أن كابول آمنة بالنسبة إليك».

شعرت بالخاتم في إصبعي. عرفت أنتونيا أنني أرتديه لكنها لم تنزعج من تمسكي به. وضعتْ المقص على الطاولة. سحبتُ قدمي نحوي، نظرتُ إلى الفتحات التي صنعتها الإبرة في جلدي والخطوط الوردية التي تركها الخيط. أمكنني تقريبًا شم رائحة الدخان القاتم الذي غلف القصر ليلة الانقلاب.

«سأذهب»، قلتُ.

أومأت أنتونيا برأسها.

«حسنًا. يجب فقط أن أفكر جيداً في طريقة لإرسالك إلى هناك دون خطر. لدي فكرة لكنها تعني أن علينا التحدث عن أختك».

أختي؟ كأن الأحياء لا حول لهم ولا قوة، فلجأت أنتونيا إلى الموتى. كان الأمر مضحكًا تقريبًا.

كنت قد سمعت ذات مرة أحد أقاربنا من بعيد، في حفل عائلي، يشكو لأبي من أنه لم ينل ترقية ما. ظل جنديًا سنوات طويلة دون أن يحظى بشيء ما يعلقه على صدره ويفتخر به.

بادر، سألتُ أبي تلك الليلة وهو يضعني في الفراش، لماذا لم يمنحه الله الترقية؟

مع أنني كنت ناعسة وأتثاءب، ظلت إجابته واضحة في ذهني.

إن الله لا يمنحك نصيبك كاملًا مكمّلًا، قال أبي، *بل يترك لك حرية تشكيله. لكن القدر لا ينثني بسهولة. فكري في حداد يثني قطعة من الحديد. لن يستطيع ذلك دون وضعها في النار.*

بدأت أفهم ما يعنيه: أن أتحكم في قدري بنفسي، عرفت أن عليّ تحمُّل النار إن أردت ثنية نحو النجاة.

الفصل الخمس عشر

«يمكننا إخراجك من أفغانستان إلى الولايات المتحدة بشهادة ميلاد أختك الأمريكية»، قالت نيا. «لكن هذا يعني أن عليّ الذهاب إلى بيتك».

عرفتُ ما يعنيه هذا تحديدًا فأمسكتُ فورًا قلمًا وورقة وبدأتُ أضع خطة لأذهب أنا وأنتونيا إلى بيتي لنأتي بشهادة الميلاد. قد يلفت مشهد امرأة أمريكية مع طفلة أفغانية الأنظار.

«يمكنكِ ارتداء شادوري»، اقترحتُ عليها. «لا تتحدثي. أنا فقط من سأتحدث. سنسير سريعًا ونعود سريعًا».

«لا يمكنني السماح لك بالذهاب إلى هناك. الأفضل أن أذهب وحدي»، أصرّتْ.

«سأذهب أنا معها»، قالت تيلي وهي تقلب السكر في شايها. جفناها مغبران ببودرة زرقاء لامعة تناسب لون ثوبها. «لقد تجولت في جميع أنحاء المدينة حين جئت إلى هنا ولم أواجه أي مشكلة».

«وعقدتِ صداقات قليلة في طريقك، أليس كذلك؟» أجابتها أنتونيا دون تكلف.

رشفت تيلي شايها بصوت عالٍ، رفّت أهدابها اللامعة وهي تتجاهل تعليق ابنتها.

«أنا أعرف بيتي. يمكنني العثور على كل شيء. إن ذهبتما وحدكما، لن تعودا بشيء»، أكدتُ. كانت أنتونيا تذرع الخطا في غرفة المعيشة، يدها في خصرها.

«حسنًا»، قالت. «لكن علينا التحرك بحرص لئلا يلاحظنا أحد. أتظنين أن بإمكانك هذا؟»

كما خططنا، اشترت أنتونيا شادوري أزرق من السوق. مررت تيلي أصابعها على شبكة فتحة العينين ولفت القماش الطري على ذراعها.

«نيا، أتذكرين الزي الذي ارتديته في ذاك العرض لمسرحية الوحوش الزجاجية؟»

«كيف أنسى، لقد جلستُ هناك أربعة وعشرين عرضًا»، قالت أنتونيا بجفاء.

«أربعة وعشرون عرضًا بجمهور كامل»، صححتْ لها تيلي.

في اليوم التالي ارتديت ثوبًا اشترته لي أنتونيا من محل الملابس المستخدمة نفسه الذي كانت تتردد إليه أمي. جمعت أنتونيا شعرها خلف ظهرها وربطته. في خطتنا التنكرية التي نسجتها ستؤدي أنتونيا دور امرأة أفغانية متحفظة جدًا لا تُظهِر وجهها للعامة ولا تتحدث مع رجال أغراب. سأتحدث أنا الطفلة نيابة عنها.

«خطة رائعة يا نيا»، قالت تيلي وهي تومئ برأسها استحسانًا. «تتطلب جهدًا في التمثيل حتى مع غياب الحوار. يا فتاتان، لا تمثلا. بل كونا من تقولان إنكما هما وستجدان الجمهور ملفوفًا حول أصابعكما النحلية الصغيرة».

«أأنتِ بخير؟» سألتني أنتونيا. توترتُ. أعرف أن الخوف معدٍ وأنني وهي عرضة لالتقاط العدوى من إحدانا الأخرى. وقفتُ

ووضعتُ يدي على مقبض الباب، بأمل أن تكون الشجاعة مُعدية أيضًا.

عانقتنا تيلي وقبلت خدينا. وقفت عند عتبة الباب لتودعنا.

«ستكونان رائعتين!» قالت كأننا نتوجه إلى المدرسة في أول يوم دراسة.

رفعت بصري لكنني أخفضت رأسي. في نهاية شارع سوق الدجاج، همست لي أنتونيا أن أسير على مهل. كانت قدمي قد تعافت فكنت أسير أسرع من أنتونيا. رأيت قدمها تطأ طرف الشادوري الطويل. تذكرت مزحة ألقتها أمي ذات مرة.

كلما طال الشادوري، قلت احتمالات السقوط، ليس سقوط من ترتديه، قالت حين رأتني حائرة لا أفهم، *بل الرجال الذين يحدقون إلى كواحل النساء.*

بدا مستحيلًا أنني أتجول في كابول في وضح النهار دون أبي وأمي. توقعت أن يعرف جميع من حولي أنني يتيمة، كأنه مكتوب على جبيني. كانت رؤية الزي الرسمي تجعل أعصابي تشتعل وبدا أن الجنود في كل مكان. فقدت ثقتي بكل ما حولي خلال الأسابيع الماضية، بالكاد أثق بالأرض التي أسير عليها.

راودني شعور غريب بأنني خائنة، كأنني ليس من حقي أن أسير في الشوارع بعد ما حدث لأسرتي.

أشرت إلى تاكسي، طلبت منه توصيلنا إلى تقاطع طرق على مسافة مبانٍ عدة من بيتي. سنسير بقية الطريق. كنت أرتدي طرحة للتخفي ولو جزئيًا عن أعين الجيران أو أي شخص آخر قد يعرفني. سرنا بخطوات بطيئة ومحسوبة حتى لاح بيتي.

حينها تجمدتُ.

شعرت أنني عدت في الزمن إلى الخلف. كانت سيارة الرئيس داوود التويوتا البيضاء تقف خارج البيت. للحظة، خيل لي أن كاكه داوود يجلس في غرفة معيشتنا، ربما يناقش مسألة مهمة مع أبي. لكن حينها ترجل من السيارة جندي وأشعل سيجارة، استدرت ودفنت وجهي في طيات شادوري أنتونيا.

حثتني أنتونيا على التنفس.

كنا على مبعدة ثلاثة بيوت.

«أريد أن أعود إلى البيت»، أخبرت أنتونيا.

«بالطبع. يمكننا إيقاف تاكسي من الشارع القادم»، أجابتني. «لنعد إلى البيت ونفكر في خياراتنا».

«بيتي»، صححتُ لها. ماذا يفعلون في بيتي رغم كل شيء؟ هل لمسوا بذلات أبي أو كتبه؟ فرشاة شعر أمي؟ هل داسوا ببياداتهم الملطخة بالدم على ألعاب فهيم؟ هل مزقوا الصور الفوتوغرافية التي كنت أجمعها؟

«بيتي»، قلت.

لم أستطع رؤية أنتونيا، وبالكاد سمعتها من عصف الأفكار في رأسي. أردت الوقوف في المطبخ حيث كانت أمي تعد حساء الشعيرية بالفاصولياء الحمراء والحمص، في غرفة المعيشة حيث يدقق أبي في فروضي المدرسية، وفي غرفة نوم والديّ حيث علمت فهيم كيف يخبئ حقيبة عمل أبي لمنعه من الذهاب إلى العمل.

كانت يدي على جدار واجهة البيت حين جذبتني أنتونيا. حاولتُ الإفلات من قبضتها.

«ماذا يحدث هنا؟» صاح صوت.

وقف الجندي المدخن أمامنا، سيجارته بين شفتيه، إحدى يديه عند خصره بالقرب من مسدس.

أمسكت أنتونيا يدي بقوة. ظلت منحنية قليلًا ورفعت يدها من تحت الشادوري، كأنها تطلب عفوه.

«أفقدتِ عقلك أيتها الصغيرة؟»

«لا لم أفقده»، قلت بتحدٍّ، رغم خوفي الواضح.

«لماذا إذن»، قالت بتلك النبرة المتعالية التي يوضح بها الكبار للأطفال أخطاءهم. «لماذا تجعلين أمك المسكينة تركض خلفك هكذا؟»

حينها انفتح باب بيتنا، وخرج منه رجل آخر. عرفت من كتافيته وقبعته أنه جنرال. تنحنح. فالتفت الجندي ووقف وقفة انتباه أمام رئيسه.

انحبست شهقة في حلقي. عرفت الرجل، كنت قد رأيته مع أبي من قبل. أخفيتُ وجهي في شادوري أنتونيا. فلفت ذراعيها حولي بقوة.

«هذا ليس وقت لهو». زعق الجنرال في الجندي.

«عذرًا سيدي، لكنني لم أكن...»

«كفى!» أشار الجنرال إلى الجندي ثم إلى السيارة. حبستُ أنفاسي، توقعت أن يتعرف عليّ. استدارت أنتونيا دون أن تتركني وبدأت تعود بي نحو ناصية الشارع. كان الشادوري واسعًا بما يكفي ليخفي وجهي المذعور.

انغلق باب السيارة وأُدير محركها. سرنا بخطوات حاولت أنتونيا جعلها ثابتة. سمعت صوت المحرك يقترب منا وشعرت بالسيارة تمر بنا ببطء.

«خانم، دقيقة واحدة»، قال الجنرال وهو يشير إلى أنتونيا أن تتوقف. وقفتُ بين أنتونيا وجدران البيوت، نادمة على مغادرتي شقة سوق الدجاج. «أتعيشين في هذا الشارع؟»

هزت أنتونيا رأسها ببطء وواصلت سيرها خطوة أخرى إلى الأمام.

«ماذا تفعلين هنا إذن؟» سألها وهو يشدّد على كلماته بوضوح لئلا ندّعي أي سوء فهم.

لو كان بابا حيًّا -فكرت بيني وبين نفسي- لكان سألها السؤال نفسه.

لكنني من دفعت بنا في هذا المأزق وعليّ إخراجنا منه.

«أمي قابلة. استدعوها لتوليد امرأة»، قلت وأنا في مكاني خلف شادوري أنتونيا.

دق قلبي آلاف الدقات قبل أن يتحدث الجنرال.

«أنت صغيرة جدًّا لتشهدي وصول حياة جديدة إلى هذا العالم».

«إن كنت لست صغيرة جدًّا لأشهد الموت، فلست صغيرة جدًّا لأشهد الحياة». خرجت الكلمات من فمي قبل أن أعي لنفسي.

عصرتْ أنتونيا يدي بقوة، هلعًا أو غضبًا.

«تعرفين إذن هشاشة الحياة. ألا يخيفك الاقتراب من المارج إذن؟» سألني وهو يريح ذراعه على نافذة السيارة المفتوحة.

كان توقيتًا غريبًا ليخطر لي أن كلمة «أرج»، القلعة أو القصر، على وزن كلمة «مارج» نفسه، أي الموت بالدارية. معقول جدًا، فكرتُ، للشعراء الذين قد ينظمون يومًا ما قصيدة عن ليلة سفك الدماء على السجاد وتدنيس قاعات القلعة.

«حكيم»، قال الجنرال للجندي السائق، الذي كان متحمسًا جدًا لإرضاء رئيسه إلى حد أنه نسي أن يغلق فمه. فرد يده على باب السيارة من الخارج، تنقر أصابعه على الصاج الأبيض. في خنصره خاتم أبي. «ألا تشبه هذه الفتاة الصغيرة أحدًا نعرفه؟»

الفصل السادس عشر

اختبأت خلف باب غرفة النوم، أطيع تعليمات تيلي بأن أبقى بعيدة عن الأنظار. ألصقتُ عيني بثقب المفتاح، رأيت الرجل والمرأة الجالسين على الأريكة. دعتهما تيلي. كان اسم الرجل ذي الشعر الذهبي إنديجو. يرتدي سترة بنية خفيفة وبنطال جينز واسعًا. عقد وشاحه الرمادي البيزلي حول عنقه وترك طرفه الطويل يتدلى على صدره كخرطوم الفيل. اسم المرأة التي معه باتريشيا. ترتدي نظارة مستديرة وشعرها البني الناعم مضموم في ضفيرة طويلة. كانت تجلس إلى جانب إنديجو فخمنت أنها زوجته.

سمعت صوت فتح وإغلاق خزانة المطبخ، فيما تخبرهما تيلي أن عليهما تذوق الكعك المملح الذي جلبته من المخبز في الأسفل.

«كعك مملح؟» سألتْ باتريشيا.

«إنه مثل البسكويت، لكنه ليس بسكويتًا، مرشوش بحبوب السمسم السمراء. إنه مقرمش وغريب، ستحبانه»، وعدتهما وهي تقدم لهما الطبق.

دخلت أنتونيا الشقة حينها. باتت أعصابها على حافة الانهيار منذ أن أوقفنا الجنرال في شارعنا. كان سائقه، حكيم، قد رفع كتفيه وأشار برأسه إلى ساعة تابلوه السيارة دلالة على أنهما سيتأخران.

وداعًا إذن، قال الجنرال بتلويحة من يده. اجلبا إلى العالم أطفالًا أفغانًا أصحاء ووطنيين، يا سيدتي الطيبتين.

كان واضحًا من تحيتها الفاترة للضيفين أنها لم تكن تتوقع الزيارة. قدمتهما لها تيلي بصوت مرح ومبتهج كبالونة حمراء.

«أنا آسفة، لكنني لم أكن أتوقع زوارًا»، قالت أنتونيا بحدة.

«وأليست المفاجآت رائعة؟» صاحت تيلي. «الآن، انظري ماذا جعلتهما يجريان للمرة الأولى. لماذا نتناول الخبز في حين يمكننا تناول الكعك؟»

نظرتْ أنتونيا إلى باب غرفة النوم سريعًا. إن كانت قد رأت بؤبؤ عيني فلم تبدِ أي رد فعل.

«كان إنديجو في منتصف قصته»، أوضحت تيلي. «وهكذا اشتروا الجِمال؟»

«هكذا، كما كنت أقول، اشترى الرحالة الألمان الثلاثة أربعة جِمال من الرجل الأفغاني»، قال إنديجو. «امتطى كل منهم جملًا وحمّلوا متاعهم على الرابع. سارت القافلة الصغيرة في الصحراء بظل كبير يبلغ عشرة أضعاف حجمها الحقيقي. ساروا نحو عشرين ميلًا في ذاك اليوم ثم توقفوا للتخييم. كان أحدهم ذكيًا بما يكفي ليربط أقدام الجمال لئلا تشرد بعيدًا».

«يعتني الألمان بالتفاصيل»، علقت تيلي.

«في الصباح. استيقظوا وتمطوا وذهبوا لإلقاء نظرة على جمالهم، ويا للهول، كانت الجمال قد اختفت جميعها. لكنهم ألمان ماهرون، حظوا لتوهم بقسط جيد من الراحة ليلًا، كما لم يضطروا إلى السير على أقدامهم طوال العشرين ميلًا الأخيرة. لذلك راحوا يقتفون آثار حوافر الجمال في الرمال، اسمعي هذا، كانت الجمال الأربعة قد عادت أدراجها مسافة العشرين ميلًا إلى صاحبها».

«حيلة نصب على السائحين لا مثيل لها»، أضافت باتريشيا بمرح.

«إنها قصة حقيقية. قابل صديقي أحد هؤلاء الألمان. لقد جنى ذاك الأفغاني ثروة طائلة من تلك الجمال كلما مر عليه رحالة أجنبي بقدمين رقيقتين».

«أفغان»، صححت له أنتونيا. «الأشخاص يدعون أفغانًا. أفغاني تعني العملة».

«العملة بالجملة»، قالت تيلي. «ومن أين جاءت كلمة دولار على أي حال؟»

«من أين أنت إنديجو؟» سألت أنتونيا.

«أوهايو، نحن الاثنان من هناك. كنا نركض في الدوائر نفسها سنوات عدة قبل أن نرتبط. كان أخو باتريشيا من بين الطلبة الذين واجهوا طلقات الرصاص في كِنت. كان أحد الناجين. جنون. قُتِل عدد كبير من الأمريكان لمنع الشيوعيين من دخول فيتنام».

كان أبي قد أخبرني عن حرب الولايات المتحدة في فيتنام. تذكرتُ كيف أدار الكرة الأرضية ليتحرك من أمريكا إلى الطرف القصي لآسيا.

«عشرون عامًا. عمرنا كله تقريبًا. أردت أنا وباتريشيا أن نخرج ونتنفس. بدأنا رحلتنا من إستانبول منذ ستة أشهر. شددنا الرحال من تركيا إلى إيران ثم إلى أفغانستان. نقرأ. نكتب. نشارك في الأنشطة. كان من المفترض أن نصل إلى باكستان الآن للاحتفال بعيد ميلادي هناك لكننا نظل نحيد عن مسارنا طوال الوقت».

«لا مسار محدد، أتذكر؟» قالت باتريشيا. «هل قرأتِ سيدهارتا؟ إنها رواية رائعة، حقًّا».

«منذ سنوات عدة. إنها كذلك بالفعل»، أجابتها أنتونيا، ثم أعادت توجيه المحادثة بمهارة. «يُدهشني أن الانقلاب لم يخفكما. ما الذي جعلكما تمكثان؟»

«كان فظيعا، أليس كذلك؟» صاح إنديجو. لم أر وجهيهما لكنني رأيت باتريشيا تميل إليه. «سافر عدد من أصدقائنا خلال أيام عدة بعد ما حدث. لا أفهم شيئا مما حدث حقًّا. ظننت أنهم سينظمون مسيرة عسكرية أو شيئًا من هذا القبيل».

«أنتونيا تريد أن تعرف متى تخططون للسفر وكيف»، تدخلتْ تيلي، بنبرة هادئة. «إنها تعمل في السفارة، وهم يتابعون الأمريكان الموجودين هنا دائمًا، من أجل سلامتهم بالطبع».

«نعم»، قال إنديجو ببطء وهو يمرر أصابعه في شعره الحريري. «ظللنا هنا مدة طويلة. لكنني لا أظن أن هذا هو كل شيء».

«أمي، أيمكنني التحدث معكِ قليلًا من فضلك»، قالت أنتونيا وهي تنهض واقفة.

«لن نتأخر»، قالت تيلي وهما تدخلان غرفة النوم. نظرت أنتونيا إليّ ثم إلى أمها.

«فيمَ كنت تفكرين حين دعوتِ زوجًا من الهيبيين إلى هنا؟» همستْ وظهرها للباب.

«قلتِ إن علينا إخراج ستار من البلد دون أن يكتشفها الأفغان. هذان يمكنهما ذلك»، أوضحت تيلي.

«هذان؟ ماذا كنت تفعلين معهما بالتحديد؟»

«ما شأن هذا بأي شيء؟» سألتها تيلي.

«كعادتك دائمًا»، تمتمت أنتونيا. «أخبرتك بأنني أعمل على خطة مع بعض معارفي، أشخاص يتفهمون الموقف، وليس هيبيين شاركوكِ بعض ما يدخنون».

«عليكِ إخراجها من البلد بسرعة. أنتِ نفسك قلت إن معارفك يخشون أخذ طفلة من عائلتها هنا. وعمّها من الأشرار الآن...»

«الأشرار؟»

«نعم، الأشرار!» قالت تيلي وهي ترمقني بنظرة اعتذار. ظلتا حتى تلك اللحظة تتحدثان وهما تظنان أنني لا أسمعهما.

«ومن هم الطيبون يا ماما؟» سألتها نيا وهي تجلس على الفراش.

«ألسنا نحن الطيبين؟ أنتِ وأصدقاؤك في السفارة؟»

لم تقل نيا شيئًا. ظلت تحدق إلى الأرض. أمسكت تيلي وجهي بين يديها الاثنتين، شعرتُ بأصابعها باردة وناعمة. قالت شيئًا ما عن ترك الضيفين وحدهما وقتًا طويلًا وعادت إلى غرفة المعيشة. وقفتْ نيا وخرجتُ خلفها.

عدتُ إلى الباب لئلا تفوتني كلمة. أطلقت أنتونيا نفسًا طويلًا بطيئًا ومالت إلى الأمام في جلستها.

«يوجد شخص يريد أن يغادر أفغانستان»، قالت فجأة تكسر الصمت. «سرًا».

سمعتُ صرير الكنبة وتنحنح الرجل.

«ألهذا دعوتِنا إلى بيتك؟» سأل.

«كيف تنويان السفر إلى باكستان؟»

«ماذا تعنين بـ(سرًّا)؟».

لم تجبه.

«أتطلبين مني تهريب شخص ما من البلد؟» ثم ضحك، ضحكة متقطعة بشهقات حادة. «هذا أشد ما سمعته جنونًا، وقد سمعت أشياء مجنونة كثيرة. أنا أسافر لأرى العالم، وليس لأرى السجن الأفغاني».

«إنديجو، إنها مسألة حساسة»، أضافت تيلي. «أتذكر أولى محادثاتنا؟ حين رأيتني أسير عند نهر كابول وأوقفتني لتخبرني بأنني أذكرك بجدّتك».

«ظننت أنك ستطلقين عليّ النار حينها».

«لم يكن لدي سلاح للأسف. لكنك حينها أخبرتني عن جدتك. عن كونها بطلة. وعن كيفية سيرها في النار، بالمعنى الحرفي للكلمة، لتنقذ طفليها من بيت يشتعل بالنيران».

«هذا حقيقي»، وافقتها باتريشيا. «لقد أنقذتْ الطفلين حقًا».

«إنديجو، هل سألت نفسك من قبل ماذا كنت ستفعل لو كنت مكانها؟»

لم يجبها.

«الأمور هنا تشتعل بالنيران. وتوجد طفلة في حاجة إلى الإنقاذ، المرء لا يفكر في هذا مرتين. الأبطال يقومون بما ينبغي فحسب. كما فعلت جدتك ولهذا أنت تسير الآن في كابول تتحدث عنها مع الغرباء».

«واه، طفلة»، صاح مدهوشًا. هز رأسه ورفع راحتيه اعتراضًا. «طفلة فعلًا؟»

«إنديجو، لنسمع كل ما لديهما فقط». قالت باتريشيا برقة.

«أتعرفان؟ لننسَ كل ما قيل فحسب». قالت أنتونيا.

«لننسَ بالطبع»، وافقها إنديجو. «نحن قطعًا لا نبحث عن أي نوع من المشكلات».

«هذه ليست مشكلات»، قالت تيلي. «كيف تدعو طفلة مشكلات؟»

وقف إنديجو، ثم باتريشيا. سارت أنتونيا نحو الباب، تستعد لتوديعهما. كان الأمر سينتهي عند هذا الحد. كانا سيخرجان من الغرفة بلا عودة لولا أن وضعتْ باتريشيا يدها على كتف إنديجو.

«حبيبي، أتذكر ما قرأته لي في باميان ونحن أسفل بوذا العظيم ذاك؟» سألته. «الضوء الساطع للهدف قد يعمي المرء عن بلوغه. نحن لا نبحث. نحن نجد».

فتحتُ الباب في تلك اللحظة، فألقى إنديجو بنفسه على مقعده كمن يحمل حجارة ثقيلة.

الفصل السابع عشر

«الجندي الذي أحضرك إلى هنا» قالت أنتونيا وهي تتقدم خطوتين في غرفة الجلوس. «أنا أعرف أنني رأيته من قبل. كان في حراسة وزير التعليم الجديد. كنت في اجتماع معه عقب الانقلاب مباشرة وذلك الرجل -أتقولين إن اسمه شير؟- كان يقف خارج المكتب. تذكرته هذا الصباح فقط. كنت أتصل بالوزير حين ربطت الأمر في ذهني».

«هكذا يعرفك إذن!» صاحت تيلي. كانت تُثبّت أزرار سترة بنية من جلد الغزال لها شراريب، زيها في عرض أوكلاهوما القادم.

«لا بد ذلك. ولم تكن فكرة سيئة. أنتِ بمأمن معنا عن أي مكان آخر الآن. لا بد من أنه تبعني حتى الشقة». أوضحت أنتونيا.

«أنا أكرهه»، قلت، مع أن الكلمات ليست وافية.

«أتفهم هذا تمامًا. لكنه أخرجك من القصر وقد يمكنه مساعدتنا في إخراجك من البلد».

«لا!»، صرخت. «لن أذهب معه!»

«بالطبع لن تذهبي معه! لن أفعل بكِ هذا»، قالت أنتونيا وهي تركع أمامي، تتوسل إليّ أن أثق بها. شعرها يؤطر وجهها. «أريده أن يساعدنا في العثور على شهادة الميلاد من بيتك فحسب. قد يمكنه ذلك خلال هذا الأسبوع، ليلة عرض أوكلاهوما.

بدأت تيلي تهمهم، عيناها نصف مغمضتين.

«لقد دعونا أشخاصًا من السفارات الأخرى، والجامعات، والحكومة الجديدة. إنه توقيت غريب لإقامة عرض، لكنني آمل أن نتمكن من استغلاله لصالحنا».

كنت قد وجدت نص عرض أوكلاهوما قبل أن أعرف أن أنتونيا هي المسؤولة عن إنتاج العرض الأمريكي هنا في كابول. أدهشني أن العاملين في السفارة قد يمثلون ويغنون ويرقصون على المسرح أمام أنظار العالم. لم أتخيل أبي أو أيًّا من زملائه يفعل شيئًا كهذا.

«أخبرينا بخطتك يا نيا»، قالت تيلي بهدوء. رفعتُ السترة أمامها ونظرت بإعجاب إلى شغل يديها. «يجب أن نعرفها جيدًا ليمكننا تنفيذها»

ظلت أنتونيا تنظر إليّ حتى وتيلي ترتدي السترة وتغلق أزرارها، وتتحرك يمينًا ويسارًا لتؤرجح الشراريب.

«سأرتب لعقد اجتماعٍ آخر مع الوزير. إن جاء معه الجندي نفسه -شير- لحراسته، سأضغط عليه ليأتينا بشهادة الميلاد ليلة العرض. لن يكون الجنرال هناك تلك الليلة. لأنه أكد حضور العرض».

حدقت إليها مذهولة.

«أعرف أنكِ لا تريدينه أن يدخل بيتك، لكنك رأيت ما حدث حين ذهبنا نحن»، قالت أنتونيا بموضوعية. «لا يوجد حل آخر. الآن أخبريني أين قد تكون شهادة الميلاد تحديدًا».

أخبرتها بالدرج السري في الطاولة المجاورة لفراش أمي، التجويف الرفيع بين الدرج العلوي وسطح الطاولة. ناولتني أنتونيا

دفتـر ملاحظـات أصفـر وطلبـت منــي أن أرسـم خريطـة للبيـت. خرجـت محاولتـي الأولـى فوضـى مـن الخطـوط. لـم تبـد كبيـت فـي أي شــيء. وكانـت المحاولـة التاليـة أسـوأ. كـورت الورقـة فـي يـدي، وضغطـت بسـن القلـم علـى صفحـة جديـدة، عضضـت شـفتي وأنـا أحـاول منـع يـدي مـن الارتعـاش.

راقبتني أنتونيا من أعلى كتفي.

رسـمت خطًـا مسـتقيمًا مـا أمكننـي، ثـم آخـر. ثـم مجموعـة مـن الخطـوط المتوازيـة وعلامـة × كبيـرة فـي مربـع غرفـة نـوم أبـي وأمـي. ثـم دفعـت بالدفتـر علـى المائـدة.

«هــذا جيــد»، قالــت أنتونيــا وهــي تنظــر إلــى الصفحــة. نزعـت الورقـة وطوتهـا ووضعتهـا بيـن صفحـات دفتـر ملاحظاتهـا الخـاص.

«ماما، أريد أن أتحدث معكِ بشأن العرض».

«ما الأمر الآن؟»

«لـن نسـتطيع تركهـا وحدهـا، وأنـا يجـب أن أكـون هنـاك. سيؤدي شـخص آخـر دورك بـدلًا منـك. يجـب أن تظلـي هنـا مـع سـتار».

«ولمــاذا لا نأخذهــا معنــا إلــى العــرض؟» ســألت تيلــي متحيــرة. «بالطبـع سـمعت عـن عبقريـة التنكـر».

«ماما، أرجوكِ»، قالت أنتونيا.

«يمكننـي دعـوة شـخص أعرفـه ليمكـث معهـا فـي أثنـاء غيابنـا». اقترحـت تيلـي.

«لن أثق بأي أحد»، رفضت أنتونيا.

«أنـتِ محقـة»، قالـت تيلـي بمـرح. «اعتـذري إذن إلـى زملائـي فـي العـرض لاضطـراري إلـى التخلـي عنهـم. وللسـفير أيضًـا. ظـل يخبـر

أصدقاءه أن العرض سيتضمن نجمة مسرح حقيقية. أتعرفين أن السفير الصيني سيأتي خصيصًى لرؤيتي؟»

أغمضت نيا عينيها، كأن ذلك يُنهي المحادثة.

«يمكنني البقاء وحدي». قلتُ. «قلتما إن الأمر سيستغرق ساعتين ونصف فحسب. هذا ليس وقتًا طويلًا. سأبقى هنا وأنام».

كنت قد قضيت مددًا وجيزة وحدي في المنزل، حين تكون أنتونيا في العمل وتخرج تيلي لشراء طعام أو سجائر. صارت الشقة بيتا آمنًا لي.

نقرت أنتونيا بطرف قلمها على المائدة بحزم، ثلاث نقرات سريعة ونقرتين ببطء، إيقاع الجدل. كانت تيلي قد قالت كل ما لديها ولا ترغب في قول المزيد. كانتا قد تجادلتا كثيرًا جدًّا بحيث صار يمكنهما الجدل بصمت الآن. بعد ذلك بساعة، قدمت نيا خطة. ستؤدي تيلي دورها، ثم تستأذن لتتصرف مبكرًا وتعود إلى البيت.

ذهبتْ أنتونيا في الليلتين التاليتين إلى بروفات الملابس. مكثت تيلي معي، تقلب صفحات النص وتشكو من القهوة سريعة الذوبان التي جلبتها لها أنتونيا. كانت تقضي النهارات الطويلة تحكي لي قصصًا في الغالب لم تكن لتحكيها في وجود ابنتها. حكت لي عن أنتونيا حين حبست سنجابًا في صندوق حذاء، وحين ركلت أحد زملائها في الصف الرابع الدراسي بين رجليه لمحاولته تقبيلها.

«كنت أحب مراقبتها من الجانب الآخر للشارع وهي تلعب خارج المدرسة. كنت أحب رؤيتها وهي تركل الكرة أو تجلس على

الدكة مع أصدقائها»، قالت تيلي وهي تصب لنفسها كوبًا من الشاي. «كانت تلعب وحدها وتسعد بذلك مثلما تسعد بالصحبة. لم أقض معها وقتًا طويلًا عندما كانت صغيرة. كان لدي عروض في مدن على طول الساحل، وكنت أقضي في الباصات وقتًا أطول مما يقضيه فيها سائقوها أنفسهم».

«ألم تكن تسافر معك؟»

«لا، كانت تمكث في البيت مع أبيها. كان أبًا رائعًا. كان يحب رؤيتي على المسرح الذي بدا أنه المكان الوحيد الذي يمكنه رؤيتي فيه. تحمل وقتًا طويلًا جدا، ظل يعتني بأنتونيا وحده، حتى جاء اليوم الذي لم يستيقظ فيه. ارتدت نيا ملابسها وذهبت إلى المدرسة بنفسها. عادت إلى البيت وحاولت إيقاظه مرة أخرى. ظلت ليومين ترتدي ملابسها وتعد طعامها بنفسها قبل أن تنهار وتنفجر بالبكاء والمعلم يقرأ قصة على الفصل. ظل المعلم معها بعد انصراف التلاميذ واتصلوا بي».

«ماذا حدث؟»

«كانت أزمة قلبية. كانت أنتونيا أصغر منكِ الآن بعامين. حين عدت إلى البيت، وجدت صينيتي طعام كانت قد أعدتهما لأبيها. وكانت قد أطعمت القطة أيضًا وأدخلت البريد». تصاعد البخار من كوب شاي تيلي، رطّب عينيها. «كانت طفلة قوية، مثلكِ تمامًا. كانت وحدها. ظني أنها تتعاطف معكِ بشدة لأنها ترى نفسها فيكِ».

«ماذا يعني تعاطف؟» سألتها.

«أوه، كيف لي وصف التعاطف»، شردت قليلًا، ثم نهضت فجأة. أخرجت من حقيبتها إصبع طلاء شفاه ورسمت به وجهًا عابسًا على خدها. أشارت إلى تقطيبة وجهها بتعبير عن الأسى. «أترين هذا؟ الآن، تعالي وعانقيني».

لففت ذراعيّ حولها فتلامس وجهانا، خدًّا بخد. تراجعت قليلًا وأشارت إلى التقطيبة المطبوعة على خدي.

«هذا»، قالت، بصوت متهدج ونحن الاثنتان نحدق في التقطيبة التي انطبعت على خدي من خدها. «هو التعاطف».

«لكن لماذا نيا غاضبة منكِ؟»

أغمضت عينيها. هالات سوداء خفيفة على جفنيها وأسفل عينيها.

«لقد اعتنيت بها حتى صار عمرها ثلاثة أعوام، كنت أخرج إلى الكواليس بين المشاهد، وكانت تقف هناك مستعدة للقفز بين ذراعيّ. أضواء، كاميرات، رضاعة! بعد ذلك، صار الأمر مريحًا حقًّا. كانت تتناول الهمبرجر مع المخللات، بحق السماء».

تغضن جبينها. كانت كمشكال من المشاعر، تلف وتدور بلا توقف.

«يهب الرب الناس أطفالًا دون أن يتأكد من استعدادهم أولًا. لم أكن ماهرة في فعل كل ما أرادته مني. لم أكن هناك لمساعدتها، ولم أكن أقرب شخص إليها في العالم. سافرتُ عبر العالم الآن لأكون معها، لكن هذا لا يغير شيئًا من الماضي».

رفعت ذراعيها وحركتهما في الهواء كأنها مُنحت لتوها جناحين. ثم تركتهما يسقطان إلى جانبيها وتنهدت.

«إنه أمر معقد، إنجاب الأطفال. يجب أن يكون الأبوان حكيمين وجديرين وأثيرين، لكن الأمر على النقيض حقًا. وأغلب الأوقات، يمكنك الهرب إلى الحفلة التنكرية، ويكون شعورًا رائعًا. لكن بعد ذلك، تتركين خشبة المسرح ويأتي ضوء النهار فيرى العالم كله أن الأمر لم يكن سوى مكياج وديكور سيئين»، قالت والدموع تسيل على خديها فتصبغ بالأحمر مع الطلاء الذي رسمته على وجهها.

بسحر ما قاتم، شاهدت تيلي تتكمش بالندم وتتمدد بالحنان. كانت بعيدة حتى وهي تعانقني. سالت دموعي على خديّ لتفكيري في حب أمي الذي فقدته.

الفصل الثامن عشر

ليلة العرض المسرحي، سمعت أنتونيا تصدر أوامر اللحظات الأخيرة الطارئة؛ إحضار طلاء أسود، ودلو خشبية، وقبعة رعاة بقر. إحدى الممثلات مرتبكة وتحتاج إلى تشجيعها، تخشى أن تنسى حوارها حين يُرفع الستار.

راقبتُ تيلي وهي تطلي وجهها بالكريم، وترش البودرة حول أنفها ووجنتيها، وترسم خطًا بنيًا سميكًا على جفنها السفلي. شدت جلد صدغيها وسبت لظهور التجاعيد حين تركته. طلت شفتيها بطلاء الشفاه نفسه الذي استخدمته لتعلمني معنى التعاطف وقذفت بقبلة نحو المرآة. كانت بمساحيق التجميل الثقيلة تشبه عروسًا أفغانية في حفل زفافها.

«أضواء المسرح»، قالت موضحة. «تجعل المرء يبدو كأنه لا يضع أي مساحيق. إن لم يكن المكياج ثقيلًا حقًا. فهو مضيعة للوقت».

تساءلت إن كان بإمكاني حضور العرض دون أن يلاحظني أحد. باستثناء أبي لم يكن أغلب الرجال يعنون بالنظر إلى مستوى عينيّ. كان أغلب الكبار يعاملونني كما لو كنت طائرًا كناريًا حبيس قفص، يتوقعون مني أن أصدح وأرفرف حين يلمسون القفص بأصابعهم وأن أهدأ وأصمت حين يديرون لي ظهورهم.

لكنني لم أكن طائرًا كناريًا.

وقفت تيلي عند الباب بكامل مكياجها وثوبها على ذراعها.

تحركت أنتونيا في الشقة تسدل الستائر. ذكرتني بالبقاء بعيدًا عن النوافذ وعن السطح كذلك.

«أوك، أوك. لن أذهب إلى البام»، وعدتها. سألت تيلي منزعجة.

«قنبلة؟». تُنطَق كلمة السطح بالدارية ككلمة قنبلة بالإنجليزية.

قالت أنتونيا موضحة: «بل السطح». كنا نتعثر في تلك التقاطعات في محادثاتنا اليومية بلغتين، نملأ الفجوات بكل ما يمكن الوصول إليه.

أغلقت ترياس الباب خلفهما، كما أمرتاني، وانتظرت قليلا حتى خرجتا إلى الشارع لأختلس النظر من النافذة لأراهما تسيران حتى المنعطف. تركت واجهات المحلات الموصدة الشارع هادئًا ومعتمًا.

على صوت تكات الساعة، غيرتُ ملابسي إلى سروال وقميص وجمعت شعري إلى الخلف. ربطت طرحة تحت ذقني وعقدت أربطة حذائي المطاطي بأصابع مرتعشة. راجعت قائمة مهامي، وضعت ليمونة وقطعة خبز في كيس بلاستيكي وسحبت نفسًا عميقًا ثابتًا قبل أن أخرج إلى الشارع.

تمرنت على مشهدي جيدًا. مثل أنتونيا، قضيت اليومين الماضيين أتمرن من أجل الليلة، إنما على كلمات من تأليفي أنا، كما رجوت. لم يلحظني أحد كما لم يلحظ أحد الليمون الذي أحمله، حتى كلاب الشارع لم تُعنَ بتكوير نفسها لدى مروري بها.

حين وقعت عيناي على رجل شرطة عند المنعطف، سلكت شارعًا جانبيًا وعبرت إلى الجانب الآخر من الشارع. أضاف هذا دقائق إلى مساري لكنني كنت عازمة على التصرف بذكاء، وليس بعجلة. كفأر في الظلام، سرت في التيه الطيني لكابول.

وقد أفلحتُ.

وقفت عند ناصية الشارع، أبحث عن علامات على حركة بداخله. هذه المرة لا توجد سيارة تقف في الخارج. لا أحد من الجيران في الخارج أيضًا. كان الجو قارس البرودة بشكل غير معقول، على نحو جعل الجميع يتركون أفنيتهم ويدخلون بيوتهم.

سرت بخطوات محسوبة نحو منزلي، البيت قبل الأخير في صف من البيوت متصلة الأسطح ومتوارية خلف جدران الخصوصية التي تفصل أفنيتها عن الشارع ومشيدة بطوله.

اقتربت بما يكفي لأرى قفل بوابتنا، الذي ظل مكسورًا نحو عام. حتى وإن كانت مقفلة من الداخل كانت تُفتح إن دفعت الباب نحو الأعلى وإلى الداخل في الوقت نفسه.

كنت على مسافة عشرين قدمًا من البوابة حين لاح جندي عند المنعطف. بدا أن قدمي حلقت في الهواء حتى أجبرتها على العودة إلى الأرض مجددًا وواصلت السير. كان أحدنا يتقدم نحو الآخر، وجهًا لوجه، بالكاد استطعت التنفس.

لرعبي، توقف الجندي أمام باب بيتنا مباشرة، وبحركات مسرحية، نظم قدميه وكتفيه في وقفة الحراسة.

لم أبطئ سيري، تسارعت أفكاري وأنا أمر بالجندي أمام بوابتنا. أدعو الله ألا يوقفني، توقفتُ أمام بوابة جيراننا، المجاورة لبوابتنا. وضعتُ يدي على مقبضها ودفعت، انفتحت البوابة إلى الداخل بصرير عالٍ.

ما إن دخلت فناءهم، ألصقت ظهري بجذع شجرة الجوز هناك. حين تأكدت من أن لا أحد سمع صوت فتح البوابة، سرت

على أطراف أصابعي نحو البيت. لاح ضوء من خلف ستارة. أعلن مذيع الراديو عن يوم آخر زاخر بإنجازات النظام الجديد العازم على تحسين أوضاع الشعب.

تسللتُ واختبأت خلف أجمة ورود. كنت في منتصف الفناء لكنني لست في أمان البتة. يجب أن أقفز من فوق الجدار الفاصل بين هذا البيت وبيتي. نظرت إلى قن الدجاج الملتصق بالجدار لأرى إن كان بإمكاني الوقوف عليه دون أن ينهار.

صدرت منه ضجة قوقأة ورفرفة أجنحة كأن الدجاجات تعترض على خطتي.

«أشرف! أخفض صوت هذا الراديو لتسمعني. ألم تطعم الدجاج اليوم؟ لا تتوقع بيضًا من دجاج جائع».

لم يطعم أشرف الدجاج قط. سمعتُ هذا الشجار آلاف المرات من غرفة نومي.

«ظني أنني أعرف من قتل ديكنا»، غمغم أشرف بصوت عالٍ.

«ماذا يعني هذا؟»

انخفض صوت مذيع الراديو. اقتربتُ من قن الدجاج وقطّعت الخبز الذي أحضرته إلى فتات، وألقيت بها من بين الأسلاك. طفقت الدجاجات تنقر الأرض، تحولت ضجتها إلى قوقأة شكر خفيضة. لم أضيع وقتًا، وقفت أعلى القن. انحنى سطحه المصنوع من الخشب الرقائقي قليلًا تحت وزني.

رفعت يدي لأعلى، كورت أصابعي حول حافة الجدار ودفعت نفسي بكل قوتي. أضعفتني الأسابيع الماضية التي قضيتها أترنح في الشقة وألتقط الطعام. كنت ألهث ومرعوبة من أن يراني أحد.

سمعت من خلفي صوت فتح باب.

دفعت نفسي نحو الأعلى بقوة، احتك ساعداي بالجدار وانزلقت قدمي مرتين قبل أن أتمكن من اعتلائه.. تدليتُ بجسدي في فنائنا، نظرتُ إلى الارتفاع العالي من تحتي. قبل مزيد من التفكير أفلتُّ قبضتي وسقطت على الأرض، اندفع الألم في كاحليّ. تكورت وكتمت أنينًا.

على الجانب الآخر من الجدار، كان أشرف يسب الدجاج.

كان بيتنا معتمًا ومخيفًا بشكل غريب. ركزتُ على مهمتي وأنا أمر بحوض زهور أمي وحمام الطيور الحجري وأدخل من الباب الخلفي.

كما توقعتْ أنتونيا، نهب اللصوص أمتعتنا. تناثرتْ الكتب على الأرض، مع أعقاب السجائر ووسادات الكنبة. الرائحة ليست رائحة بيتنا.

وقفتُ أمام أرفف الكتب التي تغطي نصف جدار غرفة معيشتنا، كانت تلك الكتب جزءًا من أبي مثل ذراعه اليسرى. رتبت أمي مجموعة كتبها الأدبية حسب زمن قراءتها إياها. شرحت لي منطقها ذات مرة، وهي تمرر أصابعها على كعوب الكتب.

يمكنني العودة إلى الخلف هكذا، الكتب التي صارت جزءًا مني قبل أن أكون أمًّا والقصص التي قرأتها وأنتِ بين ذراعيّ.

دفعتني الأصوات التي يحملها هواء الليل إلى صعود السلم والتوجه إلى غرفة نوم أبويّ بسرعة. أغلقت الباب خلفي وحبست أنفاسي حتى تأكدت من أن لا أحد في البيت.

لكنني حين استدرت رأيت مشهدًا بمثابة لكمة في المعدة.

سقط الكيس البلاستيكي من يدي وتدحرج الليمون خارجه.

كانت الغرفة منهوبة. أدراج التسريحة مفتوحة كأفواه مشدوهة، الملابس ملقاة على الفراش. صندوق جواهر أمي، قطعة فنية أهداها لها أبي من الهند، منهوب. لحافاهما الكريمي والسماوي متكوران على الأرض وبدا الفراش نفسه معوجًا.

رغم مرور شهر تقريبًا على الانقلاب لم أكن لأدهش لو كنت قد وجدت جثتيهما في تلك الغرفة. بدا لي كأنهما قُتلا مرة ثانية. أردت أن أغادر ولا أعود أبدًا. أن أنظف كل شيء. أن أجمع كل ما في البيت وآخذه معي. أن أنتقم ممن فعل كل هذا. أن أتكور في فراش أبويّ.

لكنني كنت أعرف أنني لن أبقى هنا، سأختنق إن بقيت. وجدت طاولة فراش أمي وخبطتها على جانبيها. ظللت أهزها حتى انفتح الدرج السري ووجدت رزمة الأوراق مربوطة بشريط مطاطي. وضعتها في كيسي بيدين متعرقتين، أدهشني أنهما تعملان.

فتحتُ دولاب أمي، مجموعة ملابسها المختارة بعناية، القطع التي اشترتها من محل الملابس المستعملة، والقطع التي خيطتها بيديها على الطراز الأوروبي، وبلوزات كان أبي قد أهداها إياها؛ ذهب كل شيء. لم يتركوا سوى بنطال جينز، ملقى على الأرض.

نظرتُ إلى الأعلى فرأيت الغلاف الجلدي لألبوم صور. لم أستطِع الوصول إليه حتى حين شببت على أطراف أصابعي. وقفتُ على كرسي التسريحة. لمستْ أصابعي طرفه فدفعته إلى الداخل بعيدا عن متناول يدي تمامًا. غضبتُ ومددتُ جسدي كله

حتى لـم يعد بإمـكان سـمانتي وكتفـي المزيـد مـن التمـدد.

لـم أستسلم. ملليمتـر تلو الآخـر، سـحبتُ الألبـوم إلـى حافـة الـرف وحنيتُ رأسـي وهـو يسـقط عليها. تناثـرت الصـور مـن الألبـوم علـى الأرض. أسـرعتُ أجمعهـا. حتـى وإن كان بأناملـي فقـط، لمحـتُ لقطـات لوجهـي أبـوي، وعينـي أخـي النديتيـن، فانقبضـت عقـدة فـي حلقـي. كـدت أجلـس علـى الأرض وأنفجـر بالبـكاء لـولا أن سـمعت أصواتًـا.

مـا مـن شـك فـي اقترابهـا هـذه المـرة، مـع ذلـك لـم أحـدد مـن أيـن تأتـي ولا أيـن تذهـب. أسـرعتُ أجمـع حفنـة مـن الصـور فـي الكيس.

البوابـة الأماميـة فـخ، مـع الأخـذ فـي الاعتبـار الجنـدي الواقـف هنـاك. علـيّ العـودة عبـر فنـاء أشـرف مجـددًا، لكـن لا يوجـد قـن دجـاج فـي فنائنـا لأتسـلقه. الهـرب يعنـي اتخـاذ مسـار أبـي ليلـة أن لاحـق اللـص. توجهـتُ إلـى السـطح علـى الفـور، دفعـتُ الغطـاء المعدنـي حتـى فتحتـه واستندت بمرفقـي علـى أرض السـطح. دفعـت نفسـي نحـو الأعلـى، بركبـة تلـو الأخـرى. كنـت ألهـث بعنـف وتوقعـت أن يسـمعني أحـد الجيـران ويشـعل أضـواءه.

تسـللت منحنيـة الظهـر نحـو سـطح أشـرف المجـاور. وصلنـي صوتـه مـن الأسـفل. أسـمع خطواتـي؟ أتسـبب وزنـي فـي سـقوط نـدف مـن طـلاء السـقف علـى رؤوسـهم؟ سـرتُ علـى أطـراف أصابعـي حتـى الجانـب الآخـر مـن السـطح.

تدليـت مـن الحافـة براحتيـن متعرقتيـن. هبطـتُ بضجـة مكتومـة فـي كعبـيّ والتـواء فـي معصمـي. سـرى الألـم مـن عظمـة إلـى أخـرى، واشـتعل فـي قفصـي الصـدري.

لـو كانـت أم أشـرف تنظـر إلـى الخـارج حينهـا، لكانـت أقسـمت أنهـا رأت جثـة تسـقط مـن السـماء. لكنهـا لـم تلحـظ شـيئًا. نهضـتُ بصعوبـة بعـد دقائـق. سـاقاي رخوتـان. تسـللتُ مـن خلـف شـجرة الجـوز ثـم إلـى الشـارع.

تتحنـح الجنـدي. كـدت أركض. لكننـي أدركـتُ وأنـا أمـر بـه سـيرًا أنـه كان يسـتند إلـى الحائـط وعينـاه مغمضتـان. لـم يحـرك سـاكنًا.

عـدت إلـى شـقة سـوق الدجـاج بالخطـوات المحسـوبة نفسـها، مثبتـة عينـي علـى الأرض. كنـت علـى مقربـة شـارعين حيـن أوقفنـي ضابـط شـرطة.

«هيـي، أيتهـا الفتـاة الصغيـرة»، صـاح. تظاهـرت أننـي لـم أسـمعه لكنـه صـاح مـرة أخـرى، وأسـرع خطـوه ليلحـق بـي. شـعرت بنقـرة علـى كتفـي. «أأنـتِ صمـاء؟»

«آسـفة جـدًا»، أجبتـه بصـوت بـدا لـي مرتعشًـا. الصـور محشـورة بشـكل مثيـر للفضـول فـي جيـب بنطالـي الخلفـي. تمنيت ألا يلاحظها. «لا بـد أننـي لـم أكـن منتبهـة».

«ألم يتأخر الوقت على وجودك في الخارج وحدك؟»

«أنت محق تمامًا. أنا أفضل الوجود في الفراش».

«أين بيتك؟ أريد أن أراك تدخلينه».

كنت قد استعددت لهذا. حان وقت تجربة أدوات تنكري.

«هذه شجاعة منك يا حضرة الضابط».

«شجاعة؟» سأل مذهولًا.

أومأت له بتأكيد.

«لم يعد أحد يدخل بيتنا. لهذا خرجت في هذا الوقت المتأخر من الليل. لو لم يكن الأمر طارئًا بشدة، لم أكن لأخرج لشراء ليمون». أخرجتُ الليمون من الكيس، حدق إليه كأنه يتوقع أن يفقس.

«ليمون؟»

كان حلقي جافًا. ظننت أنني لن أستطيع النطق.

«أُصيبَ بيتنا بلعنة الجن. حدثت أشياء فظيعة لأصدقائنا وأقاربنا الذين دخلوا بيتنا اليوم. عثرنا على ساحرة لتزيل اللعنة. وكان لدينا كل ما تحتاج إليه ما عدا الليمون».

وضع يديه في خصره.

«لذلك يجب أن أنطلق إلى البيت قبل أن...» هززت رأسي، بأسى. أسقطتُ الليمونات في الكيس الذي يحوي أوراقي وثبتُّ عيني في الأرض.

«هل بيتك قريب؟» سأل بأمل.

«نعم سيدي. عند المنعطف مباشرة».

نظر إلى الشارع، رفع عنقه.

«اركضي إلى هناك إذن، سأراقبك من هنا».

سرت بخطوات ثقيلة، عجزت ساقاي المرتعشتان عن الركض. لم أجرؤ على الالتفات إلى الخلف حتى وصلت إلى المنعطف التالي. كدت أطأ قدم كلب نائم، تعثرتُ لكنني وازنت نفسي. عدت إلى سوق الدجاج ورأيت أضواء الشقة ما زالت مطفأة.

صعدتُ السلم ووجدت الباب كما تركته. كنتُ قد حشرتُ قطعة ورق بين الباب وحلقه لئلا ينغلق القفل.

ألقيتُ بنفسي على الكنبة، والكيس ما زال في يدي. حين هدأتْ أنفاسي، أخرجت رزمة الأوراق. انقطع الشريط المطاطي فسقط الورق في حجري. بحثتُ فوجدت مرادي.

شهادة ميلاد.

ولاية أوكلاهوما - وزارة الصحة

ملف رقم 135-55-027484

اسم أمي في خانة، واسم أبي في أخرى. يوجد عنوان لا يعني لي شيئًا، بيت لم أعش فيه قط. كان وزنها ستة أرطال وعشر أونصات، وُلِدت قبلي بعامين في أمريكا التي لم أرها قط.

الشهادة ممهورة بتوقيعات طويلة بزوايا حادة ودوائر وتقاطعات. تحمل ختمًا أزرق وشعارًا، نجمة بخمس زوايا في دائرة.

آريانا زماني

أختي التي في السماء، فكرت بدموع جديدة تسيل على وجهي، كيف صرتِ أنتِ الوحيدة الباقية لي في تلك اللحظة؟

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل التاسع عشر

ذرعتْ أنتونيا الخطا في الشقة في قميصها بأزراره المغلقة وياقة بكرانيش، تنتفخ تنورتها مع كل استدارة. كانت التنورة طويلة جدًا لدرجة أنها توحي بالطفو.

«أنا فقط لا أصدق أنك فعلت شيئًا ما... خطرًا هكذا. أي شيء قد يحدث لكِ هناك».

«كان يجب أن أبقى في البيت»، تمتمتْ تيلي، وهي تخلع سترتها. سقط زر وتدحرج على الأرض، لم تعن به وهي تلقي بالسترة على الطاولة. «لماذا لم أبق؟»

لم يخفف نجاحي في مهمتي من قلقهما كثيرًا. حدقتا إليّ وأنا أنشر الأوراق على طاولة غرفة المعيشة. شهادة ميلاد أختي الأمريكية، شهادة ميلادي الأفغانية، وشهادة ميلاد فهيم، شهادة تخرُّج أمي في المدرسة العليا، وحجة ملكية البيت باسم أبي.

حكتْ الصور قصتنا. في واحدة أمي بطرحة بيضاء، شفتاها مطليتان بالأحمر القاني، عيناها خجولتان مخفضتان. في صورة أخرى يحمل أبي فهيم على ركبة، فيما أطبع قبلة على رأس أخي. ما زال بإمكاني الشعور بملمس شعره الصغير يدغدغ شفتيّ. جدتي تجلس بفخر على مقعد على رقعة عشب. أمي تجلس متربعة على الأرض وعيناها خلف نظارة شمسية مستديرة. ترتدي ثوبًا صيفيًا بكمين قصيرين وفتحة واسعة عند الياقة.

آلمني النظر إلى الصور. وآلمني أكثر النظر بعيدًا.

«كان يمكن أن يأخذوكِ. كان من الممكن أن يروكِ»، قالت أنتونيا وهي تتجه إلى النافذة. أزاحت الستارة قليلًا ونظرت إلى الشارع يمينًا ويسارًا.

«كنت حريصة. لم يتبعني أحد».

«هل تحدثتِ مع أحد؟» سألتني أنتونيا.

حين لم أجبها على الفور، جلست أمامي.

«أخبريني»، قالت بجدية.

حكيت لها ما حدث مع الشرطي، أكدت أنه لم يسأل عن اسمي ولم يتبعني إلى الشقة. مررت دون أن يلحظني أحد، درت دورة إضافية قبل أن أدخل شارع الدجاج لأتأكد من أن لا أحد يتبعني حقًا.

«لا بد أنكِ كنت مرعوبة!» صاحت تيلي.

هزت أنتونيا رأسها، ثم أمسكت بشهادة ميلادي، بحرص من يمسك بعمل فني.

في الصباح، ارتديتُ سروال جينز، وبلوفر أحمر وقبعة بيسبول بلون سماوي.

«ما رأيك؟» سألت نيا أمها.

«ألن ترسمي عليها بعض النجوم والشرائط؟» سألت تيلي.

تجاهلتها أنتونيا.

«ظني أن هذا يكفي. الآن، أحتاج إلى أيام عدة أخرى فحسب وظني أنني سيكون لدي خطة لمغادرتنا».

نظرت تيلي إلى ابنتها، وضيقت عينيها.

«ماذا تعنين بهذا؟ لدينا خطة بالفعل. إنديجو وباتريشيا خطتنا».

هزت أنتونيا رأسها.

«ليست خطة آمنة. معهما اثنان آخران في السيارة لا أعرفهما، أنا حتى لا أعرف إنديجو وباتريشيا. لم أر سيارتهما. ماذا لو تعطلت على الطريق؟»

«بالحديث عن التعطل»، غمغمت تيلي.

لمعت عينا أنتونيا عليّ كفراشة تخرج من شرنقتها. ذكرتني بأبي، قوية ومجتهدة. يُعتمَد عليهما في الإمساك بالنار لأنهما حريصان في خطوهما. تساءلت إن كان حرص أنتونيا الفطري سيبقينا في الشقة وقتًا أطول قليلًا. تذكرت فهيم حين يختبئ أمام أنظار الجميع، ويداه على عينيه. لم أكن طفلة. عرفت أن الشقة تمنع رؤيتي الخطر لكنها لا تخفي وجودي إلى الأبد.

قلبت تيلي ملعقة من القهوة سريعة الذوبان في كوب ماء مغلي وجلست بروايتها التي تقرؤها. راقبتُ أنتونيا وهي تخط شيئًا ما في دفتر ملاحظاتها وتجري اتصالاتها هناك على السطح.

«لماذا لا تصاحبين رجلًا من المخابرات المركزية؟» قالت تيلي بصوت خفيض.

في ذاك المساء، سمعت النغمة البطيئة للأذان وحاولتُ بجهدي أن أستلهم منه شيئًا. بدا صوت المؤذن متضرعًا أكثر منه متملقًا، بنبرة حزينة. لم أنهض، لكنني كورت يدي تحت البطانية ودعوت الله أن يحفظني وأن يُدخل أسرتي في السماء جنات النعيم، وأن يغفر لي غضبي منه.

إن كان الإيمان طوق نجاة، فقد كان طوقي مملوءًا بالثقوب.

كنت على وشك السقوط في النوم حين سمعت همسهما.

«هل تتخيلين حتى ماذا سيحدث لو اكتشف أحدهم أن أمريكية تعمل في السفارة تُهرِّب فتاة أفغانية من البلد برفقة زوجين هيبيين؟ دعيني أعمل على خطة أفضل».

«لا تكرهي الفكرة لأنها فكرتي، أرجوكِ يا نيا»، قالت تيلي. لم تبد كالمرأة التي ترقص وتهز ردفيها على السطح أو التي تغني مقاطع مسرحية بصوت عال، بل بدت كما تكون حين يزول أحمر شفتيها، أو تنام بفمها نصف مفتوح، أو حين يسري دخان سجائرها المحشوة في تيار دمها. كانت تختلف في المساء، حين تزول رائحة عطر اللافندر الذي تستخدمه، وتفوح منها رائحة عناصر أساسية وعضوية، كرائحة أوراق شجر متساقطة.

«ماما، الأمر لا يتعلق بي وبك، بل بها هي». أصرت أنتونيا.

«ربما هذا حقيقي»، قالت تيلي وبدت متعبة وحائرة. «لكنني أعرف أنك لا تثقين برأيي. ولا ألومك لهذا، لو كان الاعتذار يجدي في أي شيء...»

تهدج صوتها.

«لا يمكنني هذا الآن يا ماما»، قالت أنتونيا بصوت حازم. «لا يمكننا فعل هذا الآن. دعينا نهتم بهذه الفتاة وندع هذا الأمر. نحن بخير، أعدك».

سمعتُ نشيجًا. نحنحة. تنهيدة عميقة. أصوات القلق.

حين فتحتُ عينيّ في الصباح، وجدت أنتونيا تجلس إلى مائدة الإفطار ترشف قهوتها.

«ستارة»، قالت ونهضت لتجلس على الكنبة، شدت على كاحلي برقة. «أريدك أن تثقي بي. سوف أُخرِجك من هنا بأمان. قد

يستغرق الأمر أيامًا قليلة أخرى لكننا سنفعله».

أومأت برأسي لأن هذا كل ما أمكنني.

حين غادرتْ أنتونيا، لفت تيلي ذراعيها حولي. أزاحت خصلات شعري عن صدغيّ.

«دعينا نغتسل ونرتدي ملابسنا»، اقترحتْ. «نحن بحاجة إلى ضوء الشمس».

فعلت كما قالت، ارتديت السروال القصير الأزرق والبلوفر البنفسجي اللذين اشترتهما لي أنتونيا. سرحتُ شعري ببطء، فكرتُ أن عليَّ السيطرة على الموقف. كانت شهادة ميلاد أختي على الرف. أعرف طريقي في شوارع كابول. كنت طفلة لكنني كبيرة بما يكفي للتجول في المدينة دون أن ألفت النظر.

عليك المضي قُدمًا قبل أن تدعي الله أن يوفقك في رحلتك، درج أبي على القول لي: إن أردت أن يحفظني الله، عليّ أن أؤدي دوري. حين فكرت في الهرب من أنتونيا وتيلي والمضي قدمًا وحدي، شعرت بوخزة في قلبي أقوى مما توقعت. لم نكن أقارب بالدم، مع ذلك لم أظن أن هذا مهم في ظل الصراع بين الأم وابنتها.

كذلك، لا أشعر بغربة في هذه الشقة. صارت تيلي بمثابة جدتي، أنا وهي يُربكنا ثقل العالم من حولنا.

«لنتشرّب هذا الصباح الرائع قبل أن ينقضي»، أعلنتْ. كانت قد ارتدت قميصًا بلون أرجواني فاتح وبنطالًا واسعًا بلون سماوي. قلادتها من أزهار مغزولة، بتلات منتفخة تحيط بمراكز فضية مزخرفة. صعدنا السلم إلى السطح. مددتُ ساقيّ وملأت

رئتيّ بالهواء الطلق. لم تكد تمر دقائق قليلة حتى بدأت معدتي بالقرقرة. كلتانا تنسى الأكل عادةً. لم أكن قد تناولت الإفطار وتساءلت إن كانت تيلي جائعة. شخّرت بصوت خفيض، غفت تحت الشمس المتوهجة.

كان في الثلاجة بيض مسلوق، وبعض الخبز المتبقي من أمس. سأعد لها طبقًا هي أيضًا.

هبطت السلم إلى الشقة، مررت بغرفة النوم إلى المطبخ الضيق. كنت أسحب طبقين من خزانة الأطباق حين سمعت صوت فتح باب من خلفي.

هل عادت أنتونيا بالفعل؟

خرجت من المطبخ فوجدت نفسي وجهًا لوجه مع رجل ابتسم بشكل غريب حين رآني، كأن بحثه قد انتهى وقد عثر على مراده. لكنني لم أتوقع أن يُعثَر عليّ. حين لمسني انطلقتْ من حلقي الصرخة التي ظللت أكتمها منذ ليلة الانقلاب، عالية بما يكفي ليتقلب الشهداء في قبورهم.

الفصل العشرون

من حسن حظ إنديجو أنني لم أمسك بالسكين الحادة مجددًا. حدق إلى كسرات الطبق الخزفي الذي سقط من يدي وهز رأسه.

تيلي! أنا صديق تيلي، قال حين صرختُ. ألم تسمعي الطرق؟

كان قد قرر هو وباتريشيا السفر قبل يوم من موعدهما، كما أخبر تيلي حين هبطتُ من السطح. لم يرغب في الرحيل دون أن يودعها. نظرتْ تيلي إليّ.

«ماذا تقولين يا ستار؟ ماذا يقول لكِ قلبك؟» سألتْ وبدت بالقدر نفسه من الاستعداد، سواء للخروج من الباب مع إنديجو أم للعودة إلى السطح واستئناف قيلولتها الصباحية تحت الشمس.

نظرت إلى الرجل الذي لا تثق به نيا وتساءلت إن كانت محقة. كان يشرب كوبًا من الماء قدمته له تيلي. بدا خائفًا جدًّا على أن يكون مخيفًا.

أرادت أنتونيا وضع خطة مُحكَمة. أرادت أن تتعاون مع أشخاص تعرفهم، لكنني كنت قلقة ممّن تعرفهم. كانت تعمل مع الوزارات وتنظم اجتماعات مع مَن نظموا الانقلاب أنفسهم. ماذا لو أخبرهم أحد معارفها بشأني؟

«لنذهب»، قلتُ بحزم، أعرف أنه لا يوجد شيء يدعى خطة محكمة.

تنحنحت تيلي وأخبرت إنديجو أن ينتظر دقائق عدة لنجمع أشياءنا. جلبت لي حقيبة من القماش الخشن وكتبت رسالة إلى أنتونيا. لم نناقش الأمر. غادرنا كأننا كنا في انتظار إنديجو، كأننا نتجه خارج المدينة لقضاء عطلة.

وعد إنديجو بتوصيلنا إلى إسلام آباد. قال إننا سنجد السفارة الأمريكية بسهولة ما إن نصل إلى هناك. بعد ذلك، كما قال، سنكون وحدنا. أومأتْ تيلي.

تساءلتُ ونحن نغادر الشقة إن كنت قد اتخذت القرار السليم. بدت تيلي مرتاحة أكثر منها متوترة. كانت رائحة السيارة سجائر وملاءات فراش مستخدمة. نظرتْ إليّ باتريشيا بسرور لكنها تظاهرت بالنظر من نافذتي إلى شيء ما في الخارج.

«اسمها باتريشيا»، قالت تيلي لباتريشيا وهي تشير إليَّ. وضعتْ يدها على يدي. «يا إلهي، أنتِ ما زلتِ ترتعشين. لا بد أن إنديجو قد أخافك حقًّا هناك».

راحت كابول تتكمش ونحن نتجه جنوبًا، في طريق سافرت عليه من قبل مع أسرتي. كان معنا باتريشيا وزوجان آخران. كانوا جميعًا رحّالة، عرفت لمَ يُدعون هكذا، الأمريكيون والأوروبيون الذين يسافرون برًّا على طول درب متعرج يبدأ من تركيا وينتهي بجاوا في الهند الغربية. يتوقفون في طريقهم في إيران، ولبنان، وأفغانستان، وكشمير، لينهلوا من الثقافات المحلية والحشيش المحلي. يتنزهون عند البحيرات ويشترون طرحًا مطرزة ليعودوا بها. يساومون بفتور يسعد الباعة وأصحاب المحلات.

الزوجان الآخران في السيارة لا يعرفان شيئًا عن موقفي، ظنّا أني حفيدة تيلي، نصف أفغانية ونصف أمريكية، وحذرة جدًّا مع الغرباء. كنا في طريقنا إلى إسلام آباد، قالتْ تيلي، لأنها في حاجة ماسة إلى دواء معين لمرض ما في الدم. ظننتها قصة تمويه ذكية. بعظامِ معصميها وشعري الذهبي الداكن وعينيّ الخضراوين المرقطتين، بدتْ كل منا لائقة بدورها.

ثرثرت باتريشيا مع المرأة الأخرى، التي جعلني شعرها وعيناها أتساءل إن كانت قد طُليت بمجموعة ألوان السماء. بدت كلتاهما أصغر من أنتونيا بسنوات، ربما لأنهما تحملان حقائب ظهر وليس حقيبة ملفات. جلس إنديجو على مقعد السائق، فيما جلس رجل يحمل خريطة نصف مطوية وكراسة صغيرة في حجره على المقعد المجاور، قدمه اليمنى ترتاح على التابلوه.

«خريطة، تحقّق. الحدود الشرقية، تحقق،» قال وهو يصفق بيديه.

«آه، الدليل السياحي المغمور!» سألت تيلي «أيمكنني رؤيته؟»

«بالطبع» قال ومد يده أعلى المقعد. «يستحق كل بنس. به مسارات من إستانبول وحتى كاتاماندو. أخبرنا أن نحمل ما أمكننا من طعام في إستانبول وألا نتوقع أي طعام جيد حتى نصل إلى كابول. كانت تلك نصيحة سديدة جدًا. ما رأيكم يا أصدقاء؟»

«بريي، ذلك الحمام الشعبي في تركيا!» قالت صديقة باتريشيا شاكية. «الحريم؟ أم الحمام؟ ماذا يدعى؟»

«لا أظن أن لديهم حريمًا شعبيًا!» قالت باتريشيا ضاحكة.

«أرأيتِ محظيات هناك؟» سألت تيلي. «تساءلتُ دائمًا ماذا قد يكون الشعور لو كنتُ محظية».

«أنت لا تعرفين شيئًا»، قالت المرأة. «حتى ترين الجلد الميت الذي ظل عليكِ عقدًا من الزمان تزيله عنك امرأة ضخمة بسروال تحتي أحمر».

«لقد أحببتِه. أخبرتِني أنها كانت أفضل هدية عيد ميلاد تلقيتها في حياتك»، قال صاحبها يؤكد.

«حقيقـي جـدًا. فكـرتُ جديًـا فـي تـركك تلـك المـرأة»، قالـت بعينيـن واسـعتين وتطلقـان شـررًا.

أخـذت تيلـي الكتيـب منـه وبـدأت تتصفحـه. نظـرتُ مـن أعلـى كتفهـا، لمحـت تفاصيـل متفرقـة. أشـعل صديـق إنديجـو سـيجارة بقداحـة السـيارة وأدخـل شـريطًا فـي الكاسـيت. بـدأت تيلـي تدنـدن وتتمايـل.

لـم أكن أعـرف الأغنيـة، لكـن الدخـان أخذنـي إلـى البيـت، لليالـي الصاخبـة حيـن كان الأقـارب والأصدقـاء يتجمعـون للاسـتمتاع بالطعـام والموسـيقى. كانـت عمتـي تعـزف بالـدف، فـي حيـن يجلـس زوجهـا متربعًـا علـى الأرض أمـام أرغـن، يمـر الهـواء فـي المنفـاخ ويخـرج منـه بذبذبـات تسـري بيـن الأنابيـب. كان أبـي ينقـر بأطـراف أصابعـه علـى طبلـة، وببطـن يـده يُصـدِر إيقاعًـا عميقًـا. كانـوا جميعًـا هـواة. لـم يدرسـوا الأوتـار أو النغمـات الحـادة أو الطبقـات. لكنهـم كانـوا يشـيعون الطـرب فـي البيـت حتـى السـاعات الأولى مـن الصبـاح.

كانـت أمـي تعـد *المانتـو* فـي هـذه المناسـبات دائمًـا. كنـت فـي الخامسـة مـن عمـري تقريبًـا حيـن سـمحتْ لـي بالمسـاعدة فـي حشـو كريـات العجيـن. أغمـس إصبعـي فـي صحـن مـاء لأبلـل الجوانـب الأربعـة للعجينـة المربعـة. ثـم، نحشـوها فـي منتصفهـا بملعقـة مـن اللحـم المفـروم بالبصـل والبهـارات، ثـم أجمـع الأطـراف معًـا، وأشـكل العجينـة ككريـة مسـتديرة، توضـع الكريـات فـي إنـاء مسـتدير لطهيهـا بالبخـار، تبـدو كمناقيـر فـراخ الطيـور فـي عشـها مرفوعـة نحـو السـماء. لـم تكـن أمـي تحـب الطبـخ لكنهـا كانـت تعـد *المانتـو* مـرة كل أشـهر عـدة، وكانـت تشـتهر بـه.

كوني ذكية في أثناء بذلك الجهد، قالت لي ذات مرة.

ظللتُ دائمًا ابنة أبي المرحة، التي كبرتُ في قاعات القصر. لكن فقدان أسرتي جعلني أعيد التفكير في من أكون. لولا ذراعا أبي الممتدتان، ربما لم أكن لأجرؤ على القفز من فوق الكنبة. ولولا استحسان أمي ربما لم أكن لأجرؤ على الرقص في غرفة معيشتنا. كنت أواجه العالم بجرأة لأنهما سيمسكان بي، مهما كانا بعيدين.

من دونهما، قد لا أغدو سوى رعديدة.

مع ذلك فكرت في أنه، ربما، لو استطعت تصنع شجاعة في هذه اللحظة، سيمكنني تصنعها في أي لحظة أخرى. وربما أتصنع الشجاعة بما يكفي ليمكنني النمو بداخلها.

تلوّى الطريق أمامنا بين الجبال، كقلادة تختفي في شق الصدر. رفعتْ تيلي يدها لتقي عينيها الشمس الساطعة. أغمضتُ عيني، تحول ضوء الشمس داخل جفنيّ إلى آلاف الألوان، تتفجر وتومض كألعاب نارية لا يراها سواي.

تساءلت كم مرة سافر أبي على هذا الطريق دوننا، مع الرئيس داوود خان أو أعضاء هيئته الاستشارية في المأموريات الرسمية. كان يجلب لنا الهدايا من رحلاته دائمًا. قد لا أتعرف على المدن، لكنني أعرف مذاقها. كان مذاق موسكو بطعم رقائق البسكويت أو مكعبات الكاكاو المحشوة باللوز. ومذاق ياغمان، ذات المياه الجبلية المنعشة، كرقائق الثلج. ولقندهار حلاوة تتسلل من بين أسناني بطعم عصير الرمان. وجلال آباد تجعل خديّ ينتفخان ببرتقالها اللاذع. كانت أمي تقطع قشوره إلى شرائط وتغليها مع

أرز أصفر وفستق أخضر طازج وفتات اللوز الأبيض.

تخيلت أمي وظهرها أمام عينيَّ تقف أمام الموقد. يتصاعد البخار إلى وجهها وهي ترفع غطاء الإناء. كانت صورة حية جدًا، حقيقية جدًا. شعرت بالغصة المألوفة في حلقي.

«يا إلهي»، صاحت تيلي. «لا يمكن أن... هل سلكنا ذاك الطريق؟»

عرفت دون أن أنظر ماذا يزعجها. لم يكن الطريق المتعرج الذي نسير عليه، هدية أسفلتية من حكومة ألمانيا الغربية، لذوي القلوب الضعيفة.

إلى يميننا وجوه الجبال الجامدة. قممها أعلى من مستوى نظرنا. حطت عليها الصخور بشكل غير مستقر، مزدانة بالزهور البرية الصفراء ورقع من العشب الأخضر والأصفر. وإلى يسارنا منخفض شديد الانحدار بحيث يُعدّ السقوط منه كالسقوط من فوق حافة العالم. تتحرك السيارات في كلا الاتجاهين في هذا الطريق المتعرج، ويشير بعضها لبعض بتلويحة أو بالبوق.

عبر السماء ظل داكن. خفق طائر ما بجناحيه مرتين ثم حط على السيارة. لم أحدد إن كان صقرًا أم نسرًا أم قطعة انشقت من الجبال لكن السماء أبت أن تتركها للأرض.

تسبب ذلك في سريان رجفة بين الركاب. تكورت باتريشيا في مقعدها، ضغطت وجهها في زجاج النافذة. سكن الهواء. شعرتُ بطنين المحرك في قدمي. مد صديق إنديجو يده ورفع صوت الراديو. صوت المغني كحلم يقظة بصوت عالٍ. ردد الرحالة مع الكورس، الكلمات الوحيدة في الأغنية التي استطعت تمييزها.

أوووه، أريد أن أكون لك كل شيء فحسب!

«خفف السرعة يا حبيبي»، قالت باتريشيا لإنديجو بتملق. «هذا الطريق وحشيّ».

«سوف أفعلها وأصل بنا إلى هناك».

التقت عيناي عينيه في المرآة الخلفية. لا بد أن باتريشيا لاحظت أيضًا. وضعت يدها على كتف إنديجو وهمست بشيء في أذنه.

نظرت بعيدًا، شعرت بأنني أتطفل.

عادت باتريشيا تنظر إليّ. تبتسم بسرور. حينها ظهرت أمامنا شاحنة كبيرة. مالت قليلًا. ظلت حمولتها المربوطة بالحبال على وضعها مع ذلك. انبعث صوت بوقها، حطّم الأغنية. صاح إنديجو وحرك عجلة القيادة يمينًا. مالت السيارة، ارتفعت إطاراتها عن الطريق بالقدر الكافي لتجعل معدتي تعلو وتهبط. شهقتْ تيلي وامتدت يدها إلى صدري لتمنع طيراني من فوق مقعدي. ارتطم رأسي بمقعد باتريشيا الخالي.

احتك الصاج والزجاج بوجه الجبل الجامد.

لمستُ رأسي، طرفتُ بعينيّ لإزالة الارتباك. انكفأتْ باتريشيا بوجهها في المساحة الصغيرة في منتصف السيارة، أطرافها مختفية تحت المقاعد. صاح إنديجو يناديها وهو يفك حزام الأمان. هرع الرجلان والمرأة الأخرى إليها، كتلة أطراف متكورة في فراغ السيارة.

شعرتُ وهم ينادونها بخوف حقيقي من الموت. كان الموت قبل الانقلاب لعبة. كنت أنا وأصدقائي نضحك منه. كان جزءًا من قصصنا المتخيلة. لم أكن أومن به لأنني لم أكن قد رأيته.

إن كانت الشمس تشرق كل يوم، فمن الصعب تخيل أنها لن تأتي يومًا ما.

لكنني الآن وقد رأيت الموت، أعرف أنه شيء ما ذو أنياب.

دفنتُ رأسي في كتف تيلي، لا أريد رؤيتهم يحملون باتريشيا لوضعها على المقعد. حتى حين سمعتُ أنينها، ظللت لا أجرؤ على النظر. حين سبّبت إنديجو تنفس الأخير الصعداء.

«لقد أخفتَني حقًّا يا رجل، أخفتني».

أبقيتُ عينيّ مغمضتين ووجهي في المساحة الصغيرة أسفل عظمة ترقوة تيلي.

تيلي.

تذكرتُ حين ركعت بجانبي على الأرض في شقة أنتونيا. واحتضنتني كأنني ابنتها. وكيف انطلقت ذراعها نحوي لتمنع سقوطي من فوق مقعدي.

لماذا لا تحيطني بهذه الذراع الآن؟

«تيلي؟» قلت وأنا أرفع بصري إليها. رأيت خطًّا قرمزيًّا يسيل من أعلى حاجبها الأيسر، حيث تمزق الجلد. طرفتْ عيناها قليلًا.

«تيلي!» صحتُ مجددًا، بذعر. أمسكتُ بكتفيها.

سقطت أشعة الشمس على رأسها مباشرة، لمع شعرها الفضي. ضغطتُ خدي بخدها. أنا السبب في وجودها هنا على سفح الجبل تنزف.

«سامحيني»، همستُ بالدارية.

أدرت رأسي لأنظر خارج النافذة ورأيت الطائر، رقيب أم نذير، يحلق أعلانا بجناحيه في تحية كاملة.

الفصل الحادي والعشرون

جلستْ تيلي مستندة إلى الجبل وأقسمتْ إنها بخير. وضعتْ صديقة باتريشيا منديلًا مبللًا على جبينها فتوقف النزيف خلال دقائق قليلة. نفختْ تيلي خديها وضغطت أنفها بإصبعها، لكنها شدت على يدي حين لم يضحكني هذا وقالت: «أنا بخير الآن، حقًا».

بدا الجرح سيئًا، لكنه بعيد عن أن يكون مميتًا. أخرج أحدهم ضمادة من حقيبة ظهر وغطّاه بها. تساءلت إن كان سيحتاج إلى خياطة أو مضادات حيوية. لم أرد رؤية رأسها مثل قدمي.

تفقد إنديجو وباتريشيا وصديقاهما مقدمة السيارة وقرروا أن جراحها ليست مميتة أيضًا. تحطم أحد الكشافين. لكننا ما زلنا نهارًا، وسيكفي الكشاف الآخر لإضاءة الطريق ليلًا. انبعج غطاء مقدمة السيارة بشكل جعل من المستحيل فتحه. لكن المحرك عاد يهدر حيًا، فلم ينزعج إنديجو كثيرًا. واصلت السيارات مرورها بنا على الطريق فأشار إنديجو إلى الجميع ليعودوا إلى السيارة.

«نحن مثل كرات البلياردو هنا» قال محاولًا التخفيف من التوتر. لم يضحك أحد، ولا حتى بتوتر.

واصلنا طريقنا بلا موسيقى، وبلا حديث. كانت السيارة قد اهتزت براكبيها. تغيرت كيميائيتها.

خرجنا من الممر الجبلي ورأينا مدينة جلال آباد مترامية الأطراف أمامنا. لا أعرف شوارعها ومبانيها. شاهدتها وأنا طفلة فقط، مع أبويّ.

كان أبـي قـد أشـار إلـى أماكـن مهمـة عـدة بهـا. أضرحـة ملـوك، ومعبـد هندوسـي، وكليـة طـب درس بهـا أحـد أبنـاء عمومتـه. كان يريدنـي أن أصبـح طبيبـة، أيضًـا، حتـى إنـه استـغل اهتمامـي بالنجـوم ليقنعنـي بـأن مصيـري إلـى الطـب.

ألـم أحدّثـك عـن ابـن سـينا عالـم الفلـك. يُدعـى أيضًـا أبـو الطـب الحديـث. مـن كان المعالجـون، مـن هنـا وحتـى أوروبـا، يسـتخدمون وصفاتـه لعـلاج الأمـراض وإنقـاذ حيـوات البشـر.

كان عبقريًا يا بادر. وقد أكد لي المعلمون أنني لست كذلك.

ومـا حاجتـك إلـى المعلميـن لإخبـارك بمـن أنـت؟ ألـم أخبـرك بحكايـة البنـت التـي سـقطت؟

احكها لي مجددًا، ألححت لأن توضيحاته كانت كالمغامرات.

لـو كان ابـن سـينا هنـا لـكان أخبـرك أن تتخيلـي نفسـك تسـقطين. معلقـة فـي الهـواء، تحجـب سـحب كثيفـة عنـك الرؤيـة. أطرافـك ممـدودة ولا تلمـس شـيئًا. لا شـيء يصـل إليـك. لا شـيء يلمسـك. ومـع ذلـك أنـت تعرفيـن أنـك موجـودة. كيـف يمكـن هـذا؟

لـم أرغـب فـي إحباطـه، لكننـي لـم أفهـم تأمـلات ابـن سـينا الفلسـفية تمامًـا. أغمضتُ عينـي، تظاهـرت بأننـي الفتـاة التـي تسـبح فـي الفضـاء. أنـا موجـودة لأننـي هنـا لأقـول هـذا. حتـى وأنـا معلقـة فـي الهـواء، مـا زلـت أفكـر وأتنفـس ومـا زلـت أنـا.

لستِ في حاجة إلى من يؤكد وجودك. أنت ما تؤمنين به.

عبرنـا كوبـري، سـرنا فـي شـوارع تصطـف علـى جانبيهـا الأشـجار والبيـوت. توقفنـا فـي شـارع مزدحـم. لـم تسـتغرق الرحلـة سـاعات عـدة، مـع ذلـك كانـت درجـة الحـرارة أعلـى كثيـرًا مـن كابـول. غـادر

إنديجـو وصديقـه دقائـق عـدة، وعـادا بكيـس برتقـال وخبـز طـازج. بعـد ذلـك بدقائـق قليلـة، كان حِجـر تيلـي ممتلئًـا بكـوم مـن قشـور البرتقـال. بأصابـع وذقـون دبقـة مـن عصـارة البرتقـال، أمكننـا التنفس بسهولة قليـلًا. التقـط إنديجـو وصديقـه صـورًا لكشـك علـى جانـب الطريـق. وقفـت باتريشـيا وصديقتهـا بفتـور لالتقـاط صـورة لهمـا قبـل أن نعـود إلـى السـيارة.

سـلكنا طريقًـا دائريًـا علـى الحـدود الشـرقية للمدينـة إلـى الطريـق السـريع المـؤدي إلـى باكسـتان. لاحـت أمامنـا نقطـة تفتيـش الحـدود. مسـح إنديجـو حاجبـه بظهـر يده.

«الحـدود أمامنـا. هـل لـدى الجميـع كل مـا يحتـاج إليـه؟» سـأل إنديجـو، حـاول أن يبـدو طبيعيًـا.

عبثـت تيلـي فـي حقيبـة يدهـا. أخرجـت جـواز سـفرها وشـهادة ميـلادي. ظلـت تبحـث وهـي تتمتـم لنفسـها.

«هـل كلّ شـيء بخيـر؟» سـألتها باتريشـيا برقـة وهـي تربـت علـى كتفهـا. كانـت قـد فتحـت بلوزتهـا قليـلًا وأرتنـا الكدمـات الطفيفـة أعلـى ذراعهـا.

«يبـدو أننـي لا أجـد جـواز سـفر حفيدتـي. هـذا سـيئ جـدًا»، قالـت تيلـي بدهشـة. «أقسـم أننـي وضعتـه فـي حقيبتـي. تركتـه علـى منضـدة المطبـخ لئـلا أنسـاه. حبيبتـي، ألـم أعطـه لـكِ؟»

نظـرتُ إلـيّ. يدهـا علـى صدغهـا. هـززت رأسـي وتظاهـرت بالبحـث حـول أقدامنـا، كأننـي قـد أجـده بالفعـل.

«مـاذا سنفعل؟» سـألت الأمريكيـة الأخـرى.

«لا أظـن أنهـم سـيعدّونه أمـرًا جلـلًا. سـنخبرهم أننـا أمريكيـون فحسـب». اقتـرح صاحبهـا.

لـم يرغـب أحـد فـي العـودة. كان عبـور الحـدود بـي دون جـواز سـفر يعني إمـا تجربـة حظنـا مـع ضابـط نقطـة التفتيـش أو إخفائـي فـي السـيارة والتسـلل بـي. تجـادل إنديجـو وباتريشـيا وصديقاهمـا الرحالـة الآخـران فـي مخاطـر كل خيـار. لـم تتدخـل تيلـي، كانـت تتمتـم لنفسـها أن عليهـا زيـارة طبيـب فـي إسـلام آبـاد حقًّـا وتشـبك يديهـا معًـا. انكمشـتُ بجانـب جدتـي التـي تنسـى كثيـرًا. لـم يتطلـب الأمـر جهـدًا كبيـرًا للعـب دور الحفيـدة القلقـة.

فـي النهايـة، بقـرار لـم يتخـذه شـخص محـدد، انفتـح البـاب الخلفـي للسـيارة. أزاحـوا الحقائـب جانبـا، ووضعونـي فـي المسـاحة الضيقـة خلـف صـف المقاعـد الأخيـر. كان علـيّ أن أجلـس بـلا حـراك، تذكـرت حيـن دفـع بـي شـير فـي دواسـة سـيارته. حيـن صرنـا بالقـرب مـن نقطـة التفتيـش علـى الحـدود، ربتـت تيلـي علـى رأسـي وقبلـت خـدي قبـل أن يدفنوننـي تحـت الحقائـب.

«يبدو هـذا جنونًـا قليلًا»، قال الرجل لإنديجو.

«لـن يـدوم لأكثـر مـن دقائـق قليلـة. الجنـون هـو أن تكـون قطعـة ورق ذات أهميـة كبـرى».

«إن انتهى بنا الأمر في سجن أفغاني...»

«سـتكون تلـك ترقيـة لـك بالقيـاس إلـى شـقتك فـي بلـدك»، قـال إنديجـو مقاطعًـا صديقـه.

ضحكـوا قليـلًا. تنحنـح أحدهـم. رقـدتُ متكـورة علـى جانبـي، أشـعر بـكل هـزة فـي السـيارة. بعـد دقائـق قليلـة أبطـأت السـيارة

وسمعتُ صوت الراديو. حيًّا إنديجو أحدهم، صوته مبهج كشمس جلال آباد.

أرهفت سمعي أحاول تخيل ما يحدث. لم أسمع صياحًا أو جزعًا. تحركتْ خطوات حول السيارة، اقتربتْ من الباب الخلفي. حبستُ أنفاسي، أدعو اللّه ألا تكون إحدى قدميّ أو رأسي بادية من بين الحقائب القماشية وحقائب الظهر.

«مرحى، مرحى، أمريكيون!» صاح صوت بلكنة. ومضت في ذهني صور لحراس القصر، الزي الرسمي الخائن. سمعت خبطتين عاليتين على مؤخرة السيارة. صاح إنديجو بشيء ما.

لو اضطررت إلى الركض، سأركض. ولو اضطررت إلى القتال سأقاتل. قرع طبل في صدري دون توقف. دار رأسي كأنني أهوي من السماء.

الفصل الثاني والعشرون

«أوه، إنديجو. تبدو كأنك ستتأخر على الغداء»، أنبته تيلي وهي تشد على كتفه. «أتظن أننا لن نصل إلى باكستان؟»

بدوا جميعًا مرهقين. كأن الساعات الخمس التي قضيناها معًا منذ أن غادرنا كابول كانت خمسة أعوام.

في الحقيقة، كانت الدقائق الخمس التي قضيناها على الحدود هي ما استنزفت قوتنا حقًا. سمعت تيلي وأنا في مؤخرة السيارة تتحدث عن حاجتها إلى الهواء الطلق. بدأت تصف حادث احتكاك السيارة بالجبل. ميزتُ في صوتها رعشة خفيفة. كان صوتها قريبًا مني جدًا، على مسافة بوصات قليلة. قالت إن لديها صداعًا رهيبًا وأن عليها زيارة الطبيب ما إن يصلوا إلى باكستان.

هذا كرم بالغ منك، قالت. *كيف عرفت أنني ظمأى*؟

تخيلت الجنود ينظرون إلى شعرها الفضي، الضمادة التي على جبينها. لن يجرؤ أي أفغاني يحترم نفسه على ترك أحد كبار السن منتظرًا أو مضايقته بالأسئلة. حتى أنا أردتُ أن أعرض عليها كرسيًا.

واصلنا الرحلة بصمت. تجنبتُ النظر إلى الآخرين، أشعر أنني أتسبب في متاعب جمة أينما ذهبت.

أوقف إنديجو السيارة أمام السفارة الأمريكية. مبنى طويل من الطوب بطابقين. وقفنا تحت شجرة جرداء في شارع مملوء ببوابات السفارات على كلا الجانبين. تتحرك السيارات والمارة في كلا الاتجاهين في الشارع المصطفة على جانبيه الأشجار.

كانت السفارة محاطة بجدار من الطوب. مدخلها بوابة معدنية رمادية يقف على حراستها شرطيان يبدوان باكستانيين، وعلم أمريكا مرفوعًا عاليًا خلف البوابة بأمتار عدة.

«تذكرا هذه اللحظة لو مررتما بأزمة شك في الذات»، قالت تيلي لإنديجو وباتريشيا. تحدثت كأنها مدربة، تُرسِل بلاعبيها المنهكين إلى الجولة الأخيرة من المباراة. «هذه الفتاة بمنأى عن الخطر لأنكما ساعدتماها. هذه هي حقيقتكما».

لفّت باتريشيا ذراعيها حول تيلي وحولي وضمتنا بقوة. فاجأني الأمر، اندفن وجهي في قميصها القطني الناعم. كانت رائحتها بودرة تَلْك وبخور، ودخان وزهور. أُحرِجتُ قليلًا حين وجدتني أتعلق بها. تركتها ووقفت بجوار تيلي.

بدا الزوجان الآخران مرتاحين لرؤيتنا نذهب، لوحا لنا من داخل السيارة. كانا سيقضيان أسبوعًا في إسلام آباد وربما غامرا بالذهاب إلى الريف. أراد إنديجو أن يصلح السيارة قبل أن يعودوا إلى كابول ثم أدراجهم إلى تركيا. دمعت عينا باتريشيا حين تحدثت عن العودة إلى الولايات المتحدة.

«أنتِ كعكة قوية حقًا»، قال إنديجو لتيلي وهو يعانقها.

«كذلك أنت!» أجابته تيلي مبتهجة. «افخرا بنفسيكما. لم تقتلنا الهيمالايا. لذلك اذهبا وعيشا حياتيكما. ولا تنسيا معانقة والدتيكما. من أجل الرب، أرجوكما احضنا والدتيكما».

هذه المرأة التي لا تعرف الفارق بين جبال الهيمالايا والهندوكش، أنقذتني من الضياع والوحدة. لم أفهم لماذا لا تشعر أنتونيا نحوها بالمثل. كانت تقف هناك، في الشارع المظلل

بالأشجار في إسلام آباد، تُضحك هذين الزوجين اللذين كانا، في الغالب، لا يزالان مضطربين من اقترابهما بشدة من السقوط في هوة عميقة أو الزج بهما في زنزانة رطبة.

لكن شيئًا من ذلك لم يحدث، وكانت تريدهما أن يتذكرا هذا.

«الآن أنا وستار سننطلق لتسوية أمر جواز سفرها. وداعا يا شباب». قالت تيلي وهي تمسك بيدي وتشير برأسها نحو السفارة.

راقبنا السيارة تبتعد، لوحت باتريشيا بيدها من النافذة المفتوحة. كنا وحدنا وعلى أهبة الاستعداد لتنفيذ خطة أنتونيا. أخرجت تيلي منديلًا من حقيبتها وربتت به على أنفها. ضغطتُ يدها قليلًا لأذكّرها أنها ليست وحدها.

وقف الشرطيان بشارتيهما اللامعتين على الرصيف خارج السفارة مباشرة وراقبانا ونحن نقترب. أجبرت قدمي على التقدم نحوهما، ذكرت نفسي بأنني بعيدة عن كابول. كأنني أعبر نهرًا عاصفًا. كل خطوة مغامرة.

رأينا فم الضابط يتحرك. ذابت كلماته في ضجة المرور خلفنا. لم أجرؤ على النظر إلى عينيه. اقتربت بشدة من تيلي وأبقيت عينيّ على زحام المارة السائرين في جميع الاتجاهات.

تبادلت تيلي معه كلمات قليلة وأرته جواز سفرها. خلال لحظة، كنا قد عبرنا البوابة الأمامية وفي طريقنا إلى المبنى الطوبي برفقة ضابط شرطة. وقف في الداخل ثلاثة من الحرس ببنادقهم على أكتافهم، أعينهم خلف النظارات الشمسية. عرفت من وجوههم والأعلام المخيطة بزيهم الرسمي أنهم أمريكيون.

أخـذ جنـدي يجلـس إلـى مكتـب مـن تيلـي جـواز سـفرها وشـهادة ميـلاد أختـي وتفحصهمـا وجهًـا وظهـرًا. ثـم أومـأ نحـو الضمـادة علـى جبيـن تيلـي.

«سيدتي، هل رأى طبيب هذا الجرح؟» سألها.

«إنـه مجـرد خـدش. لدينـا قضايـا أهـم لتناولهـا»، أجابتـه. «ابنتـي، أنتونيـا شـبرد، مسـؤولة خدمـة خارجيـة فـي سـفارة كابـول. اتصلـت ببعـض الأصدقـاء هنـا بخصـوص مشـكلتنا. نحـن بحاجـة إلـى مسـاعدة بخصـوص أوراقنـا».

نظـر إليهـا الجنـدي دقيقـة طويلـة ثـم أجـرى مكالمـة هاتفيـة قبـل أن يقودنـا إلـى رواق طويـل. حمـل حقيبـة تيلـي عنهـا فيمـا احتفظـتُ بحقيبتـي علـى كتفـي، أضغـط وزنهـا علـى بطنـي. وصلنـا إلـى غرفـة ليـس فيهـا سـوى مكتـب صغيـر وطاولـة وكرسـيين فحسـب. أخرجـتْ تيلـي كيـس مقرمشـات مـن حقيبتهـا، ومـع أننـي لـم أكـن جائعـة، تناولتهـا لتهدئـة معدتـي. كنـت متوتـرة لوجـودي فـي مبنـى حكومـي بشـكل لـم أتوقعـه.

«إنهم يتصلون بأنتونيا»، همستْ لي. «ستحل لنا كل شيء».

راقبـتُ الوجـوه بتوتـر شـديد لأفهـم الإنجليزيـة. شـعرتُ أنهـم يتحدثـون بسـرعة مضاعفـة وأغلـب مـا يقولـون لا أفهمـه. وضعـتْ امـرأة زجاجـة عصيـر تفـاح صغيـرة أمامـي وعرضـت علـى تيلـي ضمـادة نظيفـة. شـكرتها تيلـي، لكـن حيـن ذهبـت المـرأة تمتمـت أننـا نطمـع فـي اصطيـاد سـمكة أكبـر».

«سـمكة؟» همسـتُ حائـرة. لكنهـا كانـت تلتفـت إلـى الرجـل الـذي دخـل حينهـا المكتـب مـادًا يـده أمامـه. شـعره بنـي ممـوج ونظارتـه بإطـار مربـع. صافحتـه تيلـي.

«تسرني رؤيتك»، قالتْ. «أرجو أن يكونوا قد أخبروك بمسألة جواز السفر. أتعرف ابنتي، أنتونيا؟»

هم بالتحدث لكنه نظر إليّ وسكت.

«هل يمكننا الخروج إلى الرواق؟» سأل تيلي وهو يمد ذراعه نحو الباب.

«إن كانت أخبارًا جيدة فبالتأكيد»، قالت. ثم نظرت إليّ وأومأت برأسها. لمست كتفي قبل أن تخرج من الغرفة. وقفا خارج الباب مباشرة، حيث ظل بإمكاني رؤيتها تستمع إليه وهي تومئ وتشير إلى شيء ما بعيد. نظرتُ إلى تعبيرات وجهه. إن كان صديق أنتونيا، فلماذا يبدو قلقًا منا جدًّا؟

لمستُ خصري، أستشعر البروز أسفل بنطالي. قبل أن نغادر شقة أنتونيا مع إنديجو، كنت قد أغلقت باب الحمام على نفسي لأستخدم عدة خياطة تيلي التي تحتفظ بها في خزانة الحمام. علمتني أمي خياطة الأزرار في القمصان، وقد تدبرت، بلا جهد يذكر، أن أخيط الخاتم في جيب بنطالي. صار من المعتاد الآن أن أضرب بتعاليم أبويّ عرض الحائط ليمكنني العيش من دونهما.

كنت قد فكرتُ في ترك الخاتم، في وضعه على رف خزانة الأدوية لتجده أنتونيا. كانت في الغالب ستأخذه إلى متحف كابول. لا أعرف إن كانت أيٌّ من قطع آي خانم قد وجدت طريقها إلى هناك أم أنها ما زالت حبيسة قبو القصر. لكن هذا الخاتم صار تميمة بالنسبة إليّ، كأن تلك الحلقة من الذهب العتيق مرصعة بالصخور وليس بالحجارة الكريمة، أتشبث بالخاتم لئلا أشعر بالضياع في مهب الرياح.

وقفتُ ونظرتُ من نافذة المكتب. تيلي والرجل بعيدان عن نظري. لمحت قامات الأشخاص فقط وهم يمرون، بعضهم قريب بما يكفي ليمكنني رؤية أزرار بلوزات لامعة، أو الهيئة العامة لرجل ببذلة. لم يكن في هذا القسم من السفارة جنود، ولم يبدُ أن أحدًا ممن رأيتهم يحمل سلاحًا. كانوا يتحركون بنشاط، وسلاسة.

انفتح الباب وعادت تيلي إلى الغرفة، شفتاها رفيعتان وكتفاها مفرودتان للخلف. أعادت الظرف الذي يحوي شهادة ميلادي إلى حقيبتها. تعبير وجه الرجل الواقف بجوارها جامد وعميق وهو يدس يديه في جيبيه بعمق.

«آريانا، حبيبتي، سنقضي الليلة في المدينة. هذا السيد المحترم، مستر هاريس، تكرم ووجد لنا فندقًا قريبًا لئلا نضطر إلى السير بعيدًا. غدًا» قالت تيلي وهي تحدج الرجل بنظرة. «سيجد لك مستر هاريس جواز سفر جديدًا. إنه يعرف كم نحن متلهفتان للعودة إلى بيتنا».

أومأتُ برأسي، على مضض، أتظاهر بأنني آريانا.

عادة ما يُخطئ الوالدان في أسماء أبنائهم. كان أبي وأمي يخطئان حتى في اسمي أنا وفهيم حين ينادوننا من الفناء. ذات مرة نادت والدة نيلاب أسماء أخواتها الخمس، ورستم، وأخت زوجها قبل أن تتذكر اسم ابنتها.

لكن أبي وأمي لم يدعواني آريانا قط لأن اسمها لم يكن يتردد بطريقة طبيعية. كان اسمها يسبقه ويتبعه دعوات لها، بطرف للأعين كي تحبس الدمع وتنهدات ثقيلة. لكن الآن، بسببي، عاد اسم أختي للتردد بطريقة طبيعية ودون نفحات ذكرى.

«سأفعل كل ما في وسعي»، قال الرجل بحزم. «لكنكما تعرفان التحديات جيدًا، مع ذلك آمل أن أجد لكما إجابات و... لآريانا... قريبًا».

لتظل روحك في النور يا أختي العزيزة. قلتُ في سري.

«بالطبع، سنكون هنا في الصباح. إنه موعد»، قالت تيلي. دست الورقة في حقيبتها. وعدنا أدراجنا بحقيبتينا. رافقنا الجندي نفسه إلى الباب الأمامي، أشار إلى الشرطيين الباكستانيين حارسي البوابة أن يدعانا نخرج. أشارتْ تيلي إلى سيارة أجرة وناولتْ السائق ورقة بعنوان الفندق القريب.

جلستُ هادئة في السيارة. أفكر كيف يمكن تحويل القدر برصاصة أو بشهادة ميلاد، بطابع أو بختم. كنت ما زلت أهوي وأشعر في قاع معدتي بأن هبوطي لن يكون سهلًا. شعرت بكهرباء في الشوارع من حولنا، كسلك عارٍ. انقبضتْ معدتي حين مر رجل بتيشيرت أحمر وبنطال جينز أمام السيارة، في إشارة مرور حمراء، ونظر خطفًا إلى السائق، ليرى من معه.

خلال دقائق قليلة، كانت سيارة التاكسي الصفراء قد غادرت شارع السفارات الهادئ، لكل منها علم مميز يرتفع من مرجها الأمامي، وغرض محدد لغرس نفسها في تربة أجنبية. ارتفعت الأعلام في الهواء كأيدي طلبة أذكياء في طابور إثبات الحضور، أو سياسيين يصوتون لأنفسهم، أو شهود عيان يستعدون للشهادة.

الفصل الثالث والعشرون

حين نجحت تيلي أخيرًا في الاتصال بأنتونيا، بعد ساعتين من المحاولة، ألقتْ بنفسها على المقعد بارتياح. كنا مرهقتين من السفر طوال النهار والساعات التي قضيناها في السفارة.

«نيا، شكرًا للرب. أين كنتِ؟» سألتها وظهرها يستند إلى مخمل المقعد ذي الذراعين.

«أين كنت؟ ماما، أتسألينني أنا بالفعل؟» سمعت صوتها المذهول من حيث أجلس. لم أتظاهر بأنني لا أسمع.

«حبيبتي، لم نقصد إقلاقك. مر بنا إنديجو وكان علينا أن نتخذ قرارًا سريعًا. أنت تحملين أعباء كثيرة بالفعل. لكننا يمكننا تصفية كل هذا لاحقًا حين نجتمع في بلد واحد. في هذه الأثناء، لقد تأكدتُ من أن العاملين في السفارة هنا يعشقون الرسميات بالفعل. ألديك أصدقاء في السفارة الكندية؟ من باب الاحتياط فقط».

لم أسمع رد أنتونيا ولم يبدُ على تيلي أي علامات حين وضعتْ السماعة.

«أتشعرين بتحسن رأسك؟» سألتُها ونحن نرقد على الفراشين التوأمين.

«إلى حد كبير جدًّا»، قالت بمرح، فصدّقتها وغلبني نعاس مفعم بالأمل.

استيقظتُ على سماء بلون وردي مغبر. تطل نافذتنا على مدرسة خالية بملعب كرة قدم صغير وفناء للأرجوحات. لو

كانت نيلاب معي، لكنا تسللنا وقضينا بعض الوقت هناك، ندفع بجسدينا إلى الأمام ونركل بقدمينا الهواء لنرتفع إلى السماء.

«ستار»، قالت تيلي. فاستدرتُ إليها. كانت تجلس على الفراش، خلف رأسها وسادة. «هل نمتِ جيدًا يا عزيزتي؟»

«نعم»، أجبتها قبل أن تعود أفكاري إلى الأمس. «هل سيعطونني جواز سفر اليوم؟»

«تظن نيا أنهم سيفعلون لكن الأمر قد يستغرق وقتًا».

«هل هي غاضبة منا؟» سألتها مهتمة بشعور أنتونيا حقًا.

«لا»، قالت تيلي وهي تسعل. «إنها غاضبة مني أنا. ليس لهذا علاقة بكِ. إنه أنا دائمًا».

مدت يدها إلى علبة مناديل على الطاولة بجوارها. غطت أنفها بمنديل، وتمخَّطت فيه.

«يبدو أنها حساسية لشيء ما في الهواء».

الهواء مختلف هنا. لإسلام آباد رائحة الصناعة والبخور. كنت قد شاهدت الناس، من نافذة التاكسي في رحلتنا القصيرة من السفارة إلى الفندق، يسيرون في الشوارع بين المحلات يحملون أكياسًا تتأرجح إلى جانبهم، بعضهم يرتدي سروالًا وقميصًا وبعضهم يرتدي قمصانًا وبناطيل. كانت مدينة مختلفة، لكنها تسير على إيقاع كابول.

تناولنا إفطارًا سريعًا من البيض المسلوق والخبز في الفندق. جمعت تيلي بلّورات الملح على أطراف أصابعها ولمستها بطرف لسانها.

«تريد أنتونيا أن تلحق بنا لكنها لا يمكنها ترك كابول قبل يومين. أفضل السفر معها بالطبع، لكنني كنت آمل أن نستقل طائرة إلى الولايات المتحدة قبل ذلك».

كرهت شعوري بكوني عبئًا.

كان أبواي في كل رمضان يدفعان للمسجد المحلي مبلغًا مقابل إطعام الأسر الأقل حظًّا منا. ذات يوم، ذهبت مع بابا إلى المسجد، كنا نتحدث عن معنى العطلات.

رجل يمد يده الخالية يتوسل صدقة. وآخر يرتدي خواتم ذهبية سميكة في أصابعه كافة ويحمل طوبة ذهب في راحته. أيهما يتعب أكثر في حمل وزن يده الممدودة؟

ظننت أنني فهمت قصده حينها لكنني لم أفهمه حقًّا حتى الآن.

«لقد أثقلت عليكما كثيرًا»، قلتُ.

هزت تيلي رأسها بقوة.

«لا تفكري هكذا أبدًا. ولا لدقيقة واحدة. أنت لا تعرفين ابنتي جيدًا. نيا لا تفعل سوى ما تريده. أتعرفين لماذا تعمل في كابول؟»

هززت رأسي. ربتت تيلي أنفها.

«اعتدت أن يصلني كل أشهر عدة خطابًا من كابول. نيا لا تخبرني بالكثير عن نفسها. لم تفعل قط. بل تكتب لي عمّن تقابلهم. حين جاء السائق ليقلني من المطار، شعرت بأنني أعرفه بالفعل لأنها كتبت لي عن ذاك الشاب المحترم الذي يرسم طيورًا جميلة بالقلم الرصاص. كتبت لي عن طلبة جامعة كانوا يحضرون لها التوت المجفف ويتحدثون معها بالإنجليزية. أو صاحب المصنع

الذي سألها إن كانت على صلة قرابة بألفيس بريسلي»، ضحكتْ، «ربما كانت تلك الخطابات هي ما دفعت بي لركوب الطائرة والذهاب إليها على الجانب الآخر من العالم. لا أعرف. لكنني متأكدة من أنه لولا وجودي هنا، لكنت قد تلقيت منها خطابًا عن الليلة التي ظهرت فيها أشجع فتاة في العالم عند بابها».

عاهدتُ نفسي حينذاك أن أجد طريقة للتعبير عن شكري لهاتين المرأتين، حتى وإن كنت، في تلك اللحظة، لا أتخيل أن يسعني فعل أي شيء لأي شخص.

عدنا إلى السفارة. لوحت تيلي للشرطيين الواقفين أمام البوابة وأخبرتهما بأننا أُخبِرنا أن نعود اليوم. ابتسمتْ بنفاد صبر كأنها لن تتسامح مع أي طلب للانتظار. تحدث أحدهما مع شخص عبر الجهاز اللاسلكي، ثم قادنا إلى المبنى الذي دخلناه بالأمس. كان الوقت صباحًا وكانت السفارة تعج بالنشاط. يمر في ممراتها أشخاص أكثر من ظهيرة الأمس.

قادنا الرجل نفسه إلى غرفة وأشار إلينا بالجلوس على المقاعد نفسها. خرج وعاد بكوبين من عصير المانجو وطبق بسكويت صغير رفضته بأدب بفضل الإفطار الجيد الذي تناولناه لتونا في الفندق. لم أرغب في قبول ما يقدمونه إن كانوا سيبلغونني بأنهم لا يمكنهم مساعدتي.

«تيلي، كما أخبرتك بالأمس، هذه مسألة معقدة وسوف تأخذ وقتًا لحلها، بشكل رسمي وغير رسمي. شهادة الميلاد ستساعدنا وعامل الظروف المحيطة بالطبع. لكننا ليس لدينا شيء يثبت تصريح الأبوين بالسفر. الأمر ليس بهذه البساطة».

«مستر هاريس. ليو، صديقنا وابن بلدنا. إن ابنتي تتحدث عنك بود شديد. قالت إنك مكافح وشريف. الآن هل تخبرني بأن ابنتي الذكية جدًا كانت مخطئة؟»

«سيدتي»، قال ليو وهو يهز رأسه. «إن أنتونيا من أفضل العاملين لدينا. كنا معًا في المغرب حين عرفتها وعرفت أنني لا يجب أن أواجهها في جدل أبدًا».

كان يعرف قصتي أو نسخة قريبة منها بقدر أكبر مما صرحنا به لأي شخص غيره. أحاطته أنتونيا ببعض التفاصيل بالأمس، بما يكفي لتوريطه في مساعدتنا حتى وإن لم يكن يعرف كيف.

«لو أصدرنا جواز السفر من هنا، قد يوقفونكِ في المطار. سيرفع ضباط الهجرة الباكستانية حواجبهم لرؤيتكما أنتما الاثنتين تسافران معًا ونحن لا نريد لفت الأنظار. يزعم البعض أننا نحشر أنفنا في ما لا يعنينا»، قال مخفضًا صوته لئلا يسمعه أحد.

«كلما طال بقاؤنا هنا زاد احتمال أن نلفت الأنظار. علينا مواصلة التحرك»، قالت تيلي، كأن ليو يمنعها من زيارة الطبيب في موعدها. أطلق ليو نفسًا عميقًا ومرر أصابعه في شعره.

«لا يسير الأمر بهذا الشكل»، قال دون أن يخفي إحباطه. «عليّ الخروج من هنا قليلًا».

لم أعرف إن كان لديه عمل آخر في مكتبه أم أنه أراد أن ينهي المحادثة فحسب. أومأت لي تيلي وتركت كتفيها ترتخيان. تساءلت أي قدر من ثقتها بنفسها حقيقي وأي قدر مفتعل.

امتلأتْ الغرفة بدقات ساعة الحائط تقرض حبل صبرنا.

مضت ساعتان. حاولت ألا أقلق لكن جلد ذراعي كان يقشعر. أخبرت نفسي أن أتنفس، أننا في السفارة الأمريكية ما يعني أننا في الولايات المتحدة نفسها تقريبًا.

وقفت تيلي أمام خريطة عالم كبيرة على الحائط، مررت إصبعها على حدود أفغانستان والبلدان المجاورة لها.

«لم أكن أعرف أن أفغانستان بجوار الصين»، قالت بهدوء.

إن كانت لا تعرف الكثير عن أفغانستان، فأنا أيضًا لا أعرف الكثير عن أمريكا. جلستُ ذات مساء في الشرفة مع أنتونيا وهي تعمل على النص المسرحي الذي سيعرضه الأمريكيون. طلبتُ منها أن تحكي لي قصته، فقالت في البداية إنها قصة حب، ثم عضت شفتيها للحظة وعدّلت وصفها.

«قصتا حب»، قالت. «دارتا منذ أمد بعيد، كان بداية عهد جديد في أمريكا، في أوكلاهوما. حين كانت أرض رعاة البقر والهنود الحمر».

«يوجد هنود في أفغانستان أيضًا. ومعبد هندوسي»، أخبرتها.

«ليسوا كهؤلاء الهنود»، أوضحتْ، ثم أخبرتني أن السكان الأصليين لأمريكا قبل أن تستوطنها أوروبا يُدعون «هنودًا» أيضًا، وأن رعاة البقر الأمريكيين قد حاربوهم على الأرض التي صارت أمريكا.

حين تساءلت لماذا قد يغني الناس ويرقصون حول حرب، تنهدتْ وقالت إنها في الحقيقة قصة عن امرأة تختار زوجًا.

«أنتِ لست متزوجة؟»، سألتُها. ما من أثر لرجل في شقتها. لم أقابل امرأة في سنها بلا زوج أو أطفال. كانت جميلة ولم أفهم لماذا لم يطلب يدها أحد.

هزت رأسها.

«لا أظن أنني قد أكون النصف الآخر لأي شخص. أنا أتنقل من بلد إلى آخر. الرجال لا يحبون الزوجات اللائي لا يمكثن في البيت لاستقبالهم»، أوضحت. «ظني أنهم لهذا يطلبون من النساء تقديم استقالتهن حين يتزوجن».

لم أفكر في أبوي كنصفي كيان واحد من قبل. رأيتهما كأبوين فحسب، كوحدة عضوية تعيش وتتنفس من أجلي. وربما بسببي أيضًا. بدا لي دوما أنني من جلبتهم إلى الحياة وليس العكس.

كان التفكير فيهما كغمر قدميّ في الماء الدافئ. يهدئ جزءًا مني فيسري الألم في جزء آخر من عظامي.

قفزت حين انبعث الصوت العالي لصفارة إنذار، فأغرق أيًّا ما كانت تيلي تحاول قوله لي. اشتعلت أضواء حمراء، كالدخان الذي ابتلع القصر ليلة الانقلاب، وغمرت الغرفة بظلال شبحية سقطت على وجه تيلي وخريطة العالم.

مع ذلك، لم أرَ الخطر.

انفتح باب الغرفة ودخل جنديان، ملثمان وأصابعهما على زنادي السلاحين.

الفصل الرابع والعشرون

كنتُ في حجر أبي وهو يحكي لي تاريخ أفغانستان. كان يحكي القصص بطريقة مذيع الراديو، فيمنح كل شخصية تاريخية صوتها الخاص، نقاط قوتها، ونقاط ضعفها. أخبرني بقصة الإسكندر اليوناني حين جُنّ جنونه بغرام امرأة أفغانية، روكشانا. وفي قصة أخرى، قلّد جنكيز خان المتوحش الذي جاء من الصين، ونظم جيوش المغول في كتائب من عشرة أنفار. ألف كتيبة، ما يزعم البعض أنه أصل تسمية أسلافه، الهزارة.

الحب والحرب طرفا النقيض، قال لي بابا ذات مرة. *لكن الشعر ينجم من تضافرهما. في ظلام الليل، أعلى قمم الجبال، يجتمع المحاربون حول النيران، يعزفون على العود، وينشدون أغاني الحب القديمة كقدم الجبال وسيوفهم مدسوسة تحت أقدامهم.*

حتى في وقت السلم؟

بالنسبة إلى المحارب، وقت السلم ليس سوى تمهيد للحرب.

قادنا الجنديان إلى متاهة من الممرات بالأسفل. أينما نظرت كانوا يغلقون النوافذ، يحشرون الأوراق في الملفات ويتحركون إلى جوف المبنى الكبير.

«هل يخبرنا أحد بما يحدث أرجوكم». صاحت تيلي.

«لنذهب من هنا». قلت لها وأنا أعصر يدها. تتحرك عيناي من الجنديين بجانبنا إلى الجدران والنوافذ من حولنا، أنظر لأرى أيهما سيخذلنا أولاً.

تحركنا ككتلة واحدة منفصلة الأقدام. كنا في غرفة بطاولة طويلة في منتصفها حين سمعنا دوي انفجارات. احتضنتني تيلي بشدة إلى حد أن شعرت بارتفاع وهبوط صدرها. أنفاسها متلاحقة وقصيرة، تتسارع كلما حطم دوي انفجار الصمت القريب. كان معنا أشخاص يحاولون طمأنتنا.

«كل شيء سيكون بخير. نحن خلف جدران أسمنتية وبوابة حديدية. ستسيطر الشرطة على الأمر».

«إنه محق. لا بد أن قوات الدعم قد وصلت الآن».

كان أبي وأمي واثقين مثلهم.

سمعتُ صياحًا يأتي من الخارج. صياح غضب. إلى أي حد وصل الأمر في الشوارع؟ فكرتُ في أنتونيا، تجلس إلى مكتبها في السفارة في كابول. تساءلتُ إن كانت وزملاءها تحت القصف هم أيضًا.

«ماذا يحدث؟» سألتْ تيلي المرأة الواقفة بجوارنا. كانت تعبث بجهاز اتصال لاسلكي، تحاول الاتصال بأحد من الخارج.

«معارضون. طلبة في الغالب. بعضهم لا يرحب بنا هنا»، قالت. لكن بدا أن الصياح يعلو، ووصلت رائحة الدخان إلى الغرفة.

لن أدع شيئًا يحدث لتيلي. سأفعل أي شيء لأنقذ حياتها. تحول المنديل في يدها إلى كتلة مبللة. تحركنا من ممر خلفي إلى سلم هروب. أخذتُ حقيبة تيلي وأمسكت بذراعها بثبات وهي تصعد السلم، ازداد القلق من حولنا حين سمعنا أصوات الشغب.

تكدسنا في مخبأ، غرفة صغيرة مكتظة بخزائن الملفات والكراتين. أغلق الجنود بابًا ثقيلًا مزدوجا خلفنا. للمرة الثانية

في حياتي القصيرة، كنت حبيسة في أثناء هجوم. جاءت التحديثات متقطعة فلم نهدأ إلا قليلًا. هدم المشاغبون قطعة من الجدار وعبروا من أعلى الطوب وحديد التسليح المثنيّ والأسمنت المفتت ليعيثوا فسادًا حول السفارة. أشعلوا النار في المبنى. قال البعض إنها محاولة لإخراجنا بالدخان. هز آخرون رأسهم وقالوا إن الحرس يسيطرون على الأمر تمامًا.

«كل شيء سيكون على ما يرام»، قالت تيلي لي مرات كثيرة لم يمكنني عدها. فكرت في الخاتم المخيط في سروالي ولمسته بقلق.

انفتح باب المخبأ للحظة وأُدخِل جندي أمريكي مجروحًا بطلق ناري. كانت إلى جانبه ممرضة. تلف جرحه بشريط الشاش. ظل سؤالها عن طبيب بلا مجيب.

جفلتُ حين سمعت صوت طرق على معدن خلفي. يوجد في أقصى الغرفة ممر ضيق وسلم خشبي يؤدي إلى فتحة صغيرة في الأعلى. كانت تنفتح للداخل. كان أحدهم يطرق عليها بضربات مصرة وقوية. وقف الجنود على أهبة الاستعداد لإطلاق النيران، بالكاد يطرفون. تجمع العرق على جباههم.

توقف الطرق.

بمرور الساعة الخامسة، كانت تيلي تبكي بهدوء شديد إلى حد أنني لم ألاحظ في البدء. لا أظن أن أحدًا آخر قد لاحظ. ملتُ إليها. كانت الغرفة قد بدأت تختنق بثمانين زوجًا من الرئات تمتص منها الأكسجين ودخان النار المستعرة خارج الجدران مباشرة. حين رفعتُ قدمي، التصق مطاط حذائي بالمشمع الذائب

للأرضية. التقط طرف سجادة اللهب. سمعت صوت فرقعة وفوران ناعم حين سكب رجلًا علبة بيرة على السجادة المحترقة.

هدأ الصياح والانفجارات، لكن الرائحة ساءت؛ مزيج الدخان والخل. شعرت بالاختناق، كأن جميع من في الغرفة يدفعونني في قفصي الصدري. ساءت حال تيلي، تقيأتْ في كيس ورقي، وشحب وجهها تمامًا، تقوقعتْ على الأرض ورأسها بين ركبتيها. ركعتُ بجانبها، ملابسي ملتصقة بجلدي.

كانت الغرفة صامتة تقريبًا. كأن الكلمات ليست مهمة بما يكفي لتبرر استخدام الهواء القليل المتبقي.

«لا يمكننا البقاء هنا»، قلت للا أحد على وجه التحديد. كانت تيلي قد تخطت نقطة التظاهر بالثقة أمامي. لا شك في أن الكبار في الغرفة قد توصلوا إلى هذا الاستنتاج حتى ولو لم أقل شيئًا. لم يصدر عن الجهاز اللا سلكي شيئًا سوى الوشيش. الغرفة معبأة بالدخان. لا أحد سيأتي لإنقاذنا ولدينا جندي واحد فقط يحرس المخبأ من الخارج.

«علينا أن نصعد إلى السطح»، قالت من تحمل الجهاز اللا سلكي. كان المدخل المعتم بالدخان موتًا محتمًا. تعامل الجنديان مع الفتحة المنثنية، بذلا جهدًا مضنيًا لإزاحة قوة لا مرئية. فتحاها أخيرًا بما يسمح فقط بمرور تيار هوائي سرى في الغرفة. أمدتنا الفتحة الهلالية بمنظر ضيق للعالم الخارجي.

لم يستطِع الجندي تمرير أكثر من ذراع.

«إنها مسدودة من الخارج». قال وهو يسحب ذراعه من الفتحة. تبادل الرجلان مكانيهما، ثم صعدت من تحمل الجهاز

اللا سلكي إليهما وأخذت دورها. هبطت السلم، وجهها محمر ومنقطعة النفس.

تركتُ يد تيلي وشققت طريقي بين الأجساد الملتصقة. نادتني تيلي بصوت واهن وأجش. مررتُ بالرجال والنساء الأمريكيين بقمصانهم المبللة ووجوههم الهادئة مع ذلك. سيهلك كل من في الغرفة لو لم نفتح تلك الفتحة.

وضعتُ قدمي على السلم فأحسست بوخزة ألم حادة إلى حد ظننت أن الجرح قد انفتح مجددًا. حين سمع أحد الرجلين شهقتي شدني من كتفي إلى الخلف. سحبت كتفي بعنف وتقدمت إلى الأمام وصعدت لا أعرف إن كان ما على الجانب الآخر من هذه الفتحة أفضل من جحيم هذا الجانب أم أسوأ.

«احترسي...»، قال صوت من خلفي. «لا تبتعدي».

ثنيتُ جسدي في الشكل الهلالي، وخرجت إلى سطح المبنى. نجحت لاهثة في تحرير الغطاء الخارجي من حديد التسليح الذي كان يعوقه.

«انفتحت!» صحت في التجويف في الأسفل. سحبتُ ودفع معي الجنديان. أزحنا الغطاء، وانضم إليّ الأمريكيون على السطح واحدًا تلو الآخر. كانت أرض السفارة محترقة، يتصاعد الدخان من مبانيها، وتلعق ألسنة النيران نوافذها كلها. شعرت أنني أقف على سطح القصر، أشهده يشتعل بالنيران.

ركعتُ إلى جانب باب الفتحة، في انتظار ظهور تيلي. خرجتْ تسعل، وجهها مبقع بالرطوبة وشعرها مشعث.

«تيلـي! هـل أنـتِ بخيـر؟»، قلـت ببلاهـة، اختنقـت كلماتـي كلهـا بالدخـان.

كان علينـا أن نهبط إلـى الأسفل لكننـا كنـا علـى سـطح أعلـى مبنى فـي السـفارة، والنـار أسـفلنا. كنـت مرعوبـة لكننـي لسـت وحيـدة. يركض معـي علـى السـطح ثمانـون أمريكيًا، قفزنـا إلـى سـطح المبنـى المجـاور، وسـرنا مسـافة قصيـرة إلـى سـطح قاعـة الاحتفـالات.

سـاعدني الأمريكيـون فـي نقـل تيلـي مـن مبنـى إلـى آخـر، كان أحدهـم يسـاعدها علـى القفـز مـن سـطح ويتلقاهـا آخـر علـى السـطح الآخـر. رأيـت لمعـة معـدن سـلم طـوارئ بـارز مـن جانـب المبنـى، ومـيـض ضـوء أحمـر خلـف مجموعـة أشـجار. صيحـات بلغـة بـدت أجنبيـة ومألوفـة فـي الوقـت نفسـه.

سـرت فـي أراض محترقـة للمـرة الثانيـة فـي حياتـي، لا أعـرف مـن سـينهار أولًا، شـجاعتي أم ركبتـاي. لا أعـرف أي شـعلة سـتقرر مصيـري وأيهـا سـتحرقني. لا أعـرف إن كان مـا أسـتجير بـه أفضـل ممـا أهـرب منـه أم أسـوأ.

الفصل الخامس والعشرون

«هل ستغادر أنت أيضًا يا ليو؟» قالت تيلي وهي تنزع قطع اللاصق الطبي عن ذراعها. كان الوقت الثالثة صباحًا، في شقة ليو المكونة من ثلاث غرف في حي هادئ. ظل ليو معنا في أثناء الحصار، وبدا واضحًا أنه المسؤول عن أغلب الآخرين في البعثة أيضًا. كنا قد نُقلنا إلى المستشفى مباشرة. حيث جال الأطباء والممرضون على المتعبين والجرحى. أرقدوا تيلي على نقالة بملاءات بيضاء جافة جعلتها تبدو أكثر شحوبًا. وخزوا ذراعها بإبرة ليصبوا المحاليل في عروقها.

نزعتُ الشاش، لكن اللاصق التصق بجلدها الرقيق.

«نحن نرحّل العاملين الثانويين. أنا باق». قال ليو.

بدا مرهقًا. كان قد ذهب إلى السفارة البريطانية حين نقلنا إلى المستشفى. أعلن الجيش في وقت ما عند منتصف الليل أن الشوارع آمنة للتحرك فيها. تجمع الأمريكيون وقسموا أنفسهم إلى مجموعات. تأكد ليو من وجودي أنا وتيلي بين العشرين شخصًا الذين عليه استضافتهم في بيته. حولت زوجته -دون انزعاج من فيضان البشر في غرفة معيشتها- بيتهما إلى مأوى. وزعت المقرمشات وثمرات اليوسفي، والملابس وأكواب المياه. جلسوا جميعًا كتفًا إلى كتف على الكنبة والأرض في غرفة المعيشة، بركبهم مرفوعة ورؤوسهم تستند إلى الحائط.

خرج ليو لدقائق عدة ثم عاد بشعر مبلل وملابس نظيفة. جلس على كرسي في غرفة الجلوس بجوار الهاتف. لم تتوقف المكالمات.

«عذرًا، أي جريدة قلت إنك تعمل فيها؟» سأل ليو وطرف بعينه وهو يسمع إجابة الطرف الآخر. «صحيح، صحيح، أوك».

استمعت إليه يسرد ما حدث. لكنه لم يجب عن جميع الأسئلة. ردد مرارًا وتكرارًا أنه ليس لديه تعليق رسمي.

جلس، ركبتاه بارزتان، ينقر بقلم رصاص على الطاولة.

«كيف سيعود كل هؤلاء إلى بلادهم؟» سألتْ تيلي.

ربتُّ أنفي بقشرة برتقالة للتغلب على رائحة الدخان المنبعثة من شعري وملابسي.

«حوّلت بان أم إحدى رحلاتها من دلهي. ستصل إلى هنا خلال ساعات، وسيذهب الجميع إلى بلادهم. سيرافقنا الجيش الباكستاني إلى هناك»، أوضح ليو.

«دعنا نستقل هذه الطائرة يا ليو». قالت تيلي، بقبس صغير من حماستها التي ظلت لديها حتى الأمس.

نظر ليو إليها بتركيز. أخفض صوته والتفت حوله سريعا ليرى إن كان أحدهم يستمع.

«لم نتحقق من شهادة الميلاد بعد»، ذكرها. «من دون الوثائق...»

«وثائق!» قالت تيلي وسعلتْ. كان جبينها يتعرق وخداها محمران. مسحت أنفها بمنديلها. «أتقول هذا حقًا؟ منذ ساعات قليلة، أنقذتْ هذه الفتاة حياة جميع من كانوا في ذلك المخبأ وأنت متمسك بقطعة ورق... بورقة!»

تحسستُ الخاتم في جيبي. صارت بروزاته مألوفة لي الآن. للأمانة، كان جزء مني يخاف ركوب الطائرة ومغادرة هذه القارة، وللأمانة التامة، كنت بكياني كله أخاف مما سيحدث حين أصل إلى أمريكا. سرى فيّ هذان الخوفان بأطوال موجية متباينة.

لكننـي سـرتُ فـي النيـران مرتيـن حتـى الآن. وقـد عرفـت منذ ليلة الانقـلاب أن علـيَّ المضـيّ قدمًـا، أن علـيَّ مواصلـة السـير علـى أمـل أن يبـارك الله خطـوي. نظـر إلـيَّ ليـو بقلـق وأنـا أقتـرب منـه.

لا تختلـف طريقـة نطـق كلمتـي «شـاهد» و«شـهيد» فـي اللغـة الداريـة، إلا فـي حـرف المـد فحسـب. كورقتـي شـجرة تنمـوان مـن غصـن مشـترك، تلتقطـان الضـوء والمطـر مـن زوايـا مختلفـة، بتغييـر طفيـف فـي الشـفتين، كنـت سـأمسـي شـهيدة. حقًـا، شـعرت أن العالـم مـن حولـي مـا لبـث ينادينـي بهذيـن الاسـمين وينتظـر أن يـرى علـى أيهمـا سـأجيب.

«إن اسـمك ليـو»، قلتُ. «فـي الفلك، هـذا اسـم بـرج الأسـد».

شـير أيضًـا، الجنـدي القاتـل، يدعـى باسـم ملـك الغابـة، الوحـش المفتـرس. كـم عـدد الآبـاء المتفائليـن الذيـن منحـوا أبناءهـم هـذا الاسـم، فقـط ليقضـوا حيـاة كاملـة مـن الخـذلان؟

«هل أنت أسد؟» سألته.

فـرد كتفيـه. نظـر إلـى عينـيّ لأول مـرة منـذ أن قابلتـه. سـقط القلـم الرصـاص مـن بيـن أصابعـه علـى زجـاج الطاولـة مصـدرًا تكـة خفيفـة.

سـالت الدمـوع مـن عينـي وأنـا أشـعر بالطائـرة ترتفـع مـن فـوق أرض المـدرج. شـعرتُ بطفـو فـي عظامـي وثقـل فـي صـدري. كان أبـي قـد جلـب لـي هدايـا متنوعـة مـن رحلاتـه إلـى أماكـن متفرقـة فـي العالـم. كان قـد وعدنـي أنـه يومًـا مـا سيصحبنـي فـي رحلـة بالطائـرة إلـى أماكـن أشـار إليهـا علـى الكـرة الأرضيـة ليمكننـي جمـع كنـزي بنفسـي. كان مـن المفتـرض أن تجعلنـي رحلتـي الأولـى أقـرب إليـه.

ومع أنهما فارقا عالمنا، ما زلت أشعر بخيانتي لهما بتركهما خلفي.

ارتفعتْ الطائرة لأعلى، همهم المحرك أسفلنا، وازدادت السرعة. ولجنا كتلة سحب حجبت الرؤية، ظلت يد تيلي أعلى يدي حتى تجاوزنا القلق. بدا وجهها ذابلًا، نضحت قطرات عرق صغيرة عند منبت شعرها. أقلقني تنفسها المضطرب. كأنها تمنع نفسها من البكاء.

ساد الطائرة صمت كئيب فيما يرتفع الناجون من الموت لأعلى في السماء. نمتُ وأنا أرنو من النافذة إلى السماء الزرقاء الساطعة، فقدتُ شعوري بالزمان والمكان. لا أعرف إن كنت أطير أم أهوي، أطفو أم أغرق. كل ما أعرفه أن لا شيء سيغدو كما كان أبدًا. لدي تجاويف وحواف ومنحنيات وعقد جديدة. أسندتُ رأسي ودعوت الله أن يمنحني أجنحة.

الفصل السادس والعشرون

«حيـن نصـل»، قالـت تيلـي، «سـنخبرهم بأنـك سـتقيمين معـي. ستأتي إلينـا أنتونيـا سـريعًا. حيـن يقابلونـك، ويعرفـون عـن شـجاعتك وذكائـك، سـيبذلون كل مـا فـي وسـعهم لمسـاعدتك».

لـم أعـرف عمّـن تتحـدث بصيغـة الجمـع لكننـي تمنيـت أن يكـون عطفهـم بقـدر عطـف أنتونيـا وتيلـي. شـعرتْ تيلـي بقلقـي فأزاحـت شـعري بعيـدًا عـن وجهـي وضغطـت يـدي. نظـرتْ إلـيّ كمـا كانـت جدتـي تنظـر إلـيّ قبـل أن تتوفـى.

أخرجـتْ مـن حقيبتهـا كتيبًـا وناولتـه لـي لأسـلي نفسـي. كان دليـل السـفر، الحـدود الشـرقية، الـذي أخذتـه مـن صديـق إنديجـو. تصفحتُ أقسـامه، كل منهـا مخصـص لبلـد. تبـدأ الفصـول برسـومات بالحبـر لرجـل ملتـحٍ بعمامـة علـى رأسـه. فـي تركيـا، يحمـل الرجـل المرسـوم قوسًـا بيـن يديـه. فـي إيـران، يجلـس علـى ظهـر حصـان، وفـي أفغانسـتان، يجلـس بجانـب وجهـه وبيـن شـفتيه طـرف نارجيلـة. الصفحـات مزخرفـة برسـومات زهـور طفوليـة، ورقـات شـجر بخمـس أصابـع، وباصـات منمنمـة خلفهـا سـحب الدخـان.

أشرتُ إلى الكلمات التي أجهلها وسـألتُ تيلي ماذا تعني.

«الحوريـات والسـاتير[1] ليسـوا سـوى عصبـة مـن السـكارى»، قالت. «أنـتِ قـدرك أن تكونـي آلهـة خارقـة، مـا يعـد أفضـل بـلا مقارنـة».

أخـذتْ مجلـة مـن جيـب المقعـد أمامهـا وناولتنـي إياهـا بـدلًا

(1) لوحة زيتية رسمها الفنان الفرنسي ويليام بوغيرو عام 1873. (المترجمة).

من الكتيب. تصفحتها حتى رأيتها تغمض عينيها. ثم أخرجت كراستي، وكعادتي، دونت ما قالته تيلي لتوها لأحاول فهمه في ما بعد. كانت ملاحظاتي تتحرك في الزمن إلى الخلف والأمام، تقفز مما أتذكره إلى ما سأستوضحه في ما بعد. جلبت لي مضيفة الطائرة عصير تفاح شربته قبل أن أغفو.

كنا في منتصف طريقنا أعلى الأطلنطي حين بدأتْ تيلي تأن. كان لديها كومة من المناديل المتجعدة محشوة في جيبها، كانت تنشج وتفرغ أنفها. بدا أن مجرد رفعها يدها إلى وجهها يؤلمها. إنها الحساسية، قالت. جلبت لها المضيفة علبة مناديل صغيرة، بظِل اهتمام صادق خلف ابتسامتها.

«سيدتي، هل يمكنني إحضار أي شيء لكِ؟»

«ألديك أي شيء للصداع؟» سألتها تيلي.

ذهبت المضيفة لتتحقق وعادت بزجاجة صغيرة قعقعت وهي تناول تيلي إياها.

«من حسن حظك، الطيار يصاب بنوبات صداع نصفي قاتلة».

«هذا ليس من حسن الحظ!»، قالت تيلي بنعومة وفواصل مطولة بين الكلمات. كانت شاحبة كالقمر.

لم يبارحها صداعها. لم تنل راحة. نهضتُ من مقعدي وطلبتُ من المضيفة كوب ماء بالثلج. كانت الطائرة معتمة حينها، أسدلت ستائر النوافذ ونحن نطير في سماء الليل. عدتُ إلى مقعدي، كدتُ أفقد توازني حين مالت الطائرة قليلاً.

ذُهلتِ حين وصلت إلى مقعدي.

«تيلي!» صحت.

كانت تيلي منكفئة على جانبها، جسدها كله يرتجف كأن جنًّا قد تلبسها. تخشب ظهرها وأطرافها تنتفض بإيقاع سريع. أمسكتُ بكتفيها، أحسست بالاضطراب في جسدها.

«لا! لا! انصرف!» صرختُ في الجن كي يتركها. أردتُ أن أصيح للنجدة لكن إنجليزيتي كلها طارت من ذهني كمناديل ورقية في مهب الريح.

بدأ من حولي يتقلّبون ببطء. ربما حسبوني طفلة انتابني الذعر حين تذكرت الهجوم.

أضاءت اللمبات الخافتة أعلى الرؤوس واحدة تلو الأخرى، من أول نظرة لوجه تيلي، بدأ الصياح. *حالة طارئة*، سمعتُ أحدهم يقول. أزاحوني جانبًا في خضم الحركة، بالكاد أمكنني رؤيتها من خلف مَن تجمعوا حولها، بعضهم ليساعد وبعضهم ليرى ماذا سيزيد اليوم سوءًا حتى.

سألت المضيفة إن كان على متن الطائرة طبيب. لم يجبها أحد. يوجد ممرضة متقاعدة ورجل له أخت مريضة صرع. أرقدوا تيلي في ممر الطائرة، على جانبها، وبحثوا في صندوق الإسعافات الأولية على أي شيء قد يساعد ولو من بعيد. لم يجدوا شيئًا.

وقفت أراقب، أشعر أنني بلا فائدة.

حين توقفت تيلي عن التشنج، أطلقت نفسًا لم أعرف أنني كنت أحبسه. كانت على قيد الحياة. سرعان ما ستحدثني وتذكرني أن بوسع أنتونيا التعامل مع كل شيء وأنني لا يجب أن أقلق بشأن أي شيء.

انتظرتها أن تتحدث مجددًا.

كان تنفسها بطيئًا، ومتقطعًا.

نامت، وهي تئن بوهن. حين حاولت المضيفة والرجل الجالس خلفنا نقلها إلى مقعدها. تلوت قسمات وجهها. ارتفعت يدها إلى عنقها فظننت أنها جُرِحت فيها حين انكفأت على جانبها، ظل رأسها مطرقًا. فيما تهبط الطائرة وتتضح البيوت الصغيرة وشرائط الطرق السريعة، ناديتها. لم أعرف إن كانت تسمعني أم لا.

أمر الطيار الجميع، بمن فيهم أنا، أن نبقى في أماكننا حتى تُنقل تيلي على نقالة في انتظارها على مدرج المطار. رفعها رجلان إلى ظهر عربة الإسعاف.

«سأذهب معها»، قلت بإصرار. لكنهم هزوا رؤوسهم. جزعتُ، هربتُ منهم وركضت خلف الضوء الأحمر الدوار، الذي قزمته الطائرات. انغرست أصابع في ذراعيّ بقوة ثم بقوة أكبر حين صحتُ معترضة.

كنا قد قطعنا كل هذه المسافة. مررنا بالكثير جدًا معًا. كانت قد وعدتني وتشبثت أنا بوعودها حتى وأنا أراقبها تختفي.

الفصل السابع والعشرون

نهاية يوم هي بداية يوم آخر.

«هذا وضع مؤقت»، قالوا لي، هؤلاء الذين لا أعرف أسماءهم. أجلسوني في غرفة خالية وكانوا يدخلون فقط لإعلان أخبار سيئة. لم يكن ذلك هو الترحيب الذي وعدتني به تيلي.

كنت مشوشة من الإرهاق الناجم عن السفر عبر مناطق زمنية مختلفة، فلم أكن أميز إن كان الرجل الذي دخل الآن هو نفسه من دخل من قبل أم آخر غيره. لم تكن هناك ساعة على الحائط ولا نوافذ يمكنني منها رؤية العالم الخارجي. جلب لي رجل يرتدي قميصًا بأزرار خبزًا، دائرة سميكة من العجين مرشوش عليها بذور سوداء. كان الخبز مشطورًا نصفين تنز من بينهما مادة كريمية بيضاء. دفعته بعيدًا، كنت أفقد شهيتي كلما تذكرت تيلي وهي شاحبة وعليلة.

بيديّ أسفل الطاولة، لمست الخاتم المخيط في جيبي. دعوت الله ألا يفتشوني. أنا وهذا الخاتم توأمان ناجيان، آخر آثار إمبراطوريتنا.

حين دخل الغرفة رجلان معًا، دفعت كرسيّي إلى الخلف وهيأت نفسي لأي شيء. كان لديهما بطاقات بلاستيك مشبوكة بجيبي قميصيهما، لكنني لم أستطع التركيز بما يكفي لأقرأ المكتوب عليها. لأحدهما شارب وسالفان يبدوان كصوف الحمل. يحمل في يده اليسرى حافظة. كان الآخر حليقًا تمامًا، لا شعرة واحدة في غير محلها.

«أين تيلي؟» سألتُ. منحتني العزلة وقتًا كافيًا لأحدد مخاوفي وتساؤلاتي، ولترجمة ما قلته إلى الإنجليزية. «أريد أن أذهب إلى تيلي».

تنهد أحدهما بانزعاج. هرش الآخر رأسه وجلس على كرسي معدني أمامي.

«آسف، لكن هذا ليس ممكنًا الآن. إنها مريضة جدًا وفي حاجة إلى رعاية طبية على الفور»، قال، كلماته حازمة وبطيئة. «نريد أن نسألك أسئلة عدة أولًا».

بدأا بسؤالي عن اسمي. آريانا زماني، أخبرتهما. حين سألاني عن تاريخ ميلادي، أخبرتهما باليوم والشهر والسنة المدونة في شهادة ميلاد أختي. ثم سألاني عن اسمي والديّ. أخذت نفسًا طويلًا وعميقًا وتساءلت إن كنت أبوح بالكثير جدًا أم بالقليل جدًا.

ما إن نصل إلى البيت، كانت تيلي قد قالت، كأنني أعود إلى أمريكا ولست أراها أول مرة، *سنخبر الناس بقصتك الحقيقية. لن يكون عليكِ إخفاء أي شيء هناك. ستكونين في أمان.*

وافقتها أنتونيا، حتى وهي تعض شفتها وتبحث عن فجوات خطتنا التي وضعناها لنقلي من كابول إلى الولايات المتحدة، وقد كانت كثيرة. لكن البدائل منعدمة تقريبًا وأخطر حتى، لذلك آل بي الأمر الآن في غرفة بيضاء ومخيفة كالانهيار الثلجي.

«أكنتِ تعرفين أي شيء عن الهجوم على السفارة في إسلام آباد؟»

«كنا هناك»، قلتُ.

كان يهم بطرح سؤال آخر لكن زميله لمسه من مرفقه وهز رأسه.

«هل لنا؟» سألني الرجل ذو الشارب وهو يشير إلى حقيبتي. كانت أسفل الطاولة، حزامها ملفوف حول قدمي كأنها قد تطفو بعيدًا.

تحوي حقيبتي القماشية الصغيرة كل ما أملك: الملابس التي اشترتها لي أنتونيا، دفتر ملاحظاتي، النسخة البالية من دليل الحدود الشرقية ومجموعة الصور التي أخذتها من غرفة نوم والديّ.

«إنها حقيبتي»، قلت كأنه سبب كاف لعدم السماح لهما بالتطفل.

«نعم، حقيبتك»، أجاباني.

أردتُ أن أصيح «شيشم سافيد». أن تدعو شخصًا ما بذي العينين البيضاوين يعدّ تلميحًا إلى افتقاره إلى المنطق والأخلاق. كانت عبارة يحتفظ بها أبي لأكثر السياسيين وقاحة.

«لا». هززت رأسي. نظر أحدهما إلى الآخر، ورفع أحدهما حاجبًا. تحركتْ عيناهما إلى الأرض وأنا أدفع الحقيبة إلى أسفل الكرسي وأزلق قدمي في حزامها. عقدتُ ذراعيّ على صدري.

رفعا كتفيهما كأنهما قررا ترك أمر الحقيبة وواصلا استجوابي. شهادة ميلادي التي أخذوها مني بعد وضعي في تلك الغرفة، وضعها أحدهما الآن أمامي على الطاولة.

«أهذه لك؟» سألني.

أومأت برأسي.

«انظري»، أضاف الآخر. «أنت تفهميننا، صحيح؟ لذلك إليك ما يجب أن تعرفيه. تلك السيدة اللطيفة التي جاءت بك إلى هنا ستواجه مشكلات جمة إن لم تجيبي عن أسئلتنا. قد تكونين مجرد طفلة، لكننا يجب أن نعرف من أنتِ ولماذا جئت إلى هنا. إن لم تتحدثي، سنرسل السيدة إلى السجن بدلًا من المستشفى».

حدجه الآخر بنظرة ثم عاد ينظر إليّ، لكنه لم يقل ما يناقض كلام زميله.

هوى قلبي للتفكير في ما مرت به تيلي من أجلي. من أول اضطرارها إلى البقاء معي في شقة أنتونيا، إلى حادث السيارة في الطريق إلى جلال آباد وحتى الاحتجاز في مخبأ السفارة. كانت هذه المرأة التي لا أعرفها قد صمدت بجانبي كأنها جدتي. كنت أدين لها من صميم قلبي بالفعل. لم أتحمل التفكير في أنها قد تُعاقب لعطفها عليّ، ليس وهي على فراش المرض.

«هذه شهادة ميلادي»، قلت بهدوء وأنا أشير إلى الورقة. «اسما أبي وأمي فيها».

«لقد ولدت هنا إذن. كم مكثت هنا؟»

«عامين»، قلت بغير ثقة.

عاودا الكَرة، سألاني مجددًا الأسئلة نفسها التي لم أجبها من قبل. وهنت مقاومتي شيئًا فشيئًا وأخبرتهما بعنواننا في كابول، وعمل أبي، وأن جديّ توفيا. بدأ أحدهما يدون ملاحظاته. أجبت عن كل أسئلتهما باقتضاب ما أمكنني، لمحدودية إنجليزيتي ولأنني لم أرغب في قول ما يزيد على اللازم.

تحرّي البساطة، قالت لي أنتونيا على الهاتف في إسلام آباد. *أخبريهم بالحقيقة، ما أمكنك. يجب أن يفهموا ما مررت به ليفهموا أهمية بقائك.*

لكن اسمي ليس الحقيقة، أجبتها. كان أبي يحتقر الكاذبين والمخادعين بشدة. *يبدأ فساد أمة بكاملها بكذبة واحدة*، سمعته يردد ذات مرة.

لكن أنتونيا كانت ترى الأمر من منظور مختلف.

الحقائق التي ستقولينها أهم وأكبر بكثير من هذا التغيير الصغير.

تمنيت من صميم قلبي أن أرى أبي وأنتونيا يتناقشان في هذا الأمر معًا.

سألني الرجلان عن صفي الدراسي فتلمست ثغرة في قصتي. ارتبكت كما يرتبك من لم يعتد الكذب. إن أخبرتهما بأنني في الصف الخامس، لن يتوافق مع سني. لكن ماذا لو أخبرتهما أنني في الصف السابع؟ هل سيتصلون بمدرستي؟ تخيلت ناظرة المدرسة تتحدث على الهاتف مع هذين الرجلين، تخبرهما بأنه لا توجد فتاة تدعى آريانا زماني جلست قط في مدرستها.

رأيت مدى سهولة كشفهما كذبي. جلستُ على يديّ لمنعهما من الارتعاش.

قولي الحقيقة، قالت أنتونيا. كما قال بابا.

وهذا ما فعلته. حين قلتُ الأرج، بدا أنهما لم يسمعا به من قبل قط. كان عليّ أن أشرح لهما ماذا يعني الأرج أولًا. حين قلت اسم الرئيس داوود خان، سألني أحدهما كيف أتهجأ الاسم. لكزه

زميلـه فـي مرفقـه وأشـار إليـه أن يـدون فحسـب. واصلـت السـرد كمـا تمرنـت مـع أنتونيـا وتيلـي. أخبرتهمـا بأننـي شـهدت بعينـي مقتـل أسـرتي، وفوجئـت حيـن وجـدت أن بوسـعي التحـدث عـن تلـك اللحظـة دون أن أنهـار علـى الأرض. قلقـتُ قليـلًا مـن أننـي لسـت حزينـة بالقـدر الكافـي. كان مـن الصعـب قيـاس الحـزن إذ كنـت وحـدي تمامًـا.

بكيـتُ، مسـحتُ أنفـي بظهـر يـدي. نهـض أحدهمـا ونظـر حولـه، ثـم ناولنـي منديـلًا ورقيًـا. فشـكرته.

ثـم واصلـت إخبارهمـا بالحقائـق الكبـرى عـن كيـف أخذنـي شـير إلـى أنتونيـا تحـت تهديـد السـلاح، وكيـف عبرنـا أنـا وتيلـي حـدود باكسـتان، وكيـف سـاعدتُ فـي الهـروب مـن فتحـة السـطح بسـفارة إسـلام آبـاد.

تراكمـت صفحـات مـن الملاحظـات، نظـر مـن يـدون إلـى زميلـه ففهمـتُ أنـه لا يهـم فـي شـيء، سـواء أخبرتهمـا بأننـي فـي الصـف الخامـس أم السـابع أم ناظـرة المدرسـة حتـى. أخبرتهمـا بتفاصيـل عـن الانقـلاب، تفاصيـل ليـس لطفـل أن يتخيلهـا. كانـت أنتونيـا محقـة. الحقائـق الكبـرى تطغـى علـى الأكاذيـب الصغيـرة. شـربت المـاء الـذي أحضـراه لـي وتمنيـت أن أخـرج مـن هـذه الغرفـة قريبًـا.

«أسـمعتَ أي شـيء عـن انقـلاب عسـكري هنـاك؟» سـأل أحدهمـا الآخـر.

«لنضـع فـي اعتبارنـا أنهـا مجـرد طفلـة. ليلـة أمـس أخبرتنـي ابنتـي بأنهـا رأت غـزالًا بثـلاث أقـدام يخبـز كعـكًا فـي فنائنـا»، أجابـه الآخـر.

«الآن أريـد الذهـاب إلـى تيلـي»، قلـت، «لا أرغـب فـي شـيء سـوى رؤيتهـا بعينـي وإلـى جانبهـا طبيـب».

«لا»، قال الحليق، وهو ينظر إلى شهادة الميلاد مجددًا. قلبها ورفعها في الضوء، كأنها جوهرة يقيّم درجة نقائها. «ليس هكذا يسير الأمر. لديك قصة قوية بالفعل لكننا علينا التأكُّد منها الآن. ستُرسَلين إلى مكان آخر حتى يمكننا تحديد كل شيء».

الفصل الثامن والعشرون

ذات مرة في كابول، كنت أسير في شارعنا فرأيت أربعة فتيان متجمعين في دائرة. كانوا معروفين بأنهم من مثيري المشكلات، رأيتهم من قبل يضايقون الصغار، ويركلون الكرة نحو بوابة جيراننا ثم يختبئون. سرت نحوهم، أريد أن أرى ما يتحلقون حوله.

كانوا متجمعين حول كلب ضال أسود عيناه داكنتان. ربطوا قائمته الخلفية بحبل وكانوا يتناوبون نكزه بعصا طويلة في صدره البارز وكتفيه المنحنيتين. كان الكلب يعوي بأنين، وهو يحاول قضم الحبل.

دعوه لشأنه! صحت فيهم.

ظلوا يمررون العصا من يد إلى أخرى. إما أنهم لم يسمعونني وإمّا قرروا تجاهلي. لاحظتُ وأنا أقترب منهم أن إحدى قائمتي الكلب الأماميتين ليست سليمة. كانت أقصر من الأخرى، لا تصل إلى الأرض تمامًا. من مظهره، بدا أعجوبة أنه ما زال بإمكانه المقاومة.

تدبر الكلب رغم كربه أن يثير إعصارًا من الغبار وهو يقاوم الحبل فيما يحلق الفتية حول بؤسه.

اندفعتُ أشق دائرتهم وأخذت العصا من يد أحدهم فجأة. كسرتها إلى نصفين ثم إلى نصفين آخرين. تقدم من يمسك بالحبل نحوي.

ماذا تفعلين أيتها الغبية؟ قال بحدة.

كيف لك أن تدعوني بالغبية بوجهك هذا؟ أجبته بأداء أفلام بوليود.

يا لكم من صيادين ماهرين لتتكاثروا على كلب أعرج! ليحفظكم الرب جميعًا، أبطال بلادنا المستقبليون.

لففت الحبل حول يدي. حاول أحدهم أخذه مني، أمسك بساعدي. ابتعدت عنه بحدة لكنني حين أدرت له ظهري، مد يده إلى كتفي، ثم إلى مرفقي. استدرت له ودُستُ على قدمه، فأطلق صيحة ألم. دست على قدمه الأخرى. ضحك أصحابه لرؤيته يتقافز إلى الوراء. سقط على ظهره بعد قفزتين. علقت بسخرية وهو يزحف مبتعدًا.

إن سألك أبوك عن خدوش ركبتيك، لا تنسَ أن تخبره أنك كنت تتعارك مع فتاة.

اختفى الفتية، تركوني أنا والكلب بعينيه الدامعتين في الشارع. أو هكذا ظننت حتى سمعت تصفيقًا بطيئًا وثابتًا. استدرت ورأيت بابا يقف عند باب بيتنا. كم رأى مما حدث؟

أخذ بابا الحبل من يدي وركع على الأرض لينظر في جروح الكلب عن قرب. طرقع بابا بلسانه بشفقة.

إن الإنسان أقسى المخلوقات. قد يطأ أصغر المخلوقات ليعلو بوصات قليلة.

بابا، أأنت غاضب؟ سألته.

بشدة، أجابني. *ومحبط.*

عضضت شفتي، بارتباك.

خرجتُ لأنني سمعت صوت الشجار، رأيتك تدوسين قدم ذاك الفتى. كان ذلك محبِطًا.

لأنني لم يكن عليّ مواجهتهم؟

لأنك لم تحتاجي إلى مساعدة أبيك، قال وهو يقف. الآن لنحرر هذا الكلب المسكين.

نخر الكلب كأنه ضاق بمحادثتنا. عدت خطوة إلى الخلف، مصدومة. هز الكلب رأسه وكشف عن أسنانه الصفراء.

لكنني ساعدته، قلت أشعر بالغدر.

ظل أبي ممسكًا بالحبل بعيدًا عن الكلب بمسافة ذراع.

لا تتوقعي منه الانحناء عند قدميك لأنك أنقذته اليوم. لقد ظل ينقذ نفسه كل يوم طوال حياته.

بينما كنت أتنقل من مكتب إلى آخر، من شخص غريب وغامض إلى آخر، شعرت أنني كذاك الكلب الضال. سألني الرجال والنساء مئات الأسئلة مرارًا وتكرارًا، كانوا كأنهم يلكزونني كالصبي الذي كان ممسكًا بالعصا. قضيت الليلة الأولى في غرفة في المطار حيث ظللت وحدي مددًا طويلة جدًّا حتى خشيت أن يكونوا قد نسوني.

بدأ الصباح بمزيد من الأسئلة.

«أريد أن أرى تيلي، أرجوكم».

في الظهيرة التالية، كنت في سيارة.

«إلى أين نذهب؟» سألت المرأة التي رافقتني خارج مبنى المطار. كانت تعلق على كتفها حقيبة جلدية كبيرة، منتفخة بأوراق ودفتر ملاحظات. هي الأخرى لديها بطاقة اسم مشبوكة

بسترتها. مكتوب عليها آن، خدمة حماية الطفل. الوثائق مهمة جدًا للأمريكيين، على ما يبدو، إلى حد أنهم يشبكونها بملابسهم ليراها العالم بأسره.

«إلى المستشفى»، أجابت آن فارتفعت معنوياتي. أخيرًا، سأعود إلى تيلي. كنت أتوق إلى رؤيتها معافاة بعد أن رأيتهم يرفعونها إلى عربة الإسعاف، بجلدها المرقش.

أعلنت لافتة بلون أزرق داكن يحيط بها أشجار ونباتات صغيرة إلى جانب أحد الشوارع عن المستشفى. قادت آن السيارة إلى مبنى متعدد الطوابق مخصص للسيارات فقط. كانت تلك أول مرة أرى فيها جراجًا وذهلتُ من حجمه. كان المستشفى مبنى مترامي الأطراف بجوار الجراج، يصل بينهما ممر أسمنتي. دخلنا وسرنا في متاهة من الممرات حتى وصلنا إلى عيادة. قدمتْ آن ورقة إلى موظفة الاستقبال. امرأة ترتدي بلوزة بياقة واسعة جدًا إلى حد أن رأيت قمة صدرها. قرأت الورقة وتحدثت مع شخص ما على الهاتف قبل أن تقودني إلى غرفة خلفية.

«سيحضرون تيلي إلى هنا؟» سألتُ آن. «هل سيمكنني رؤيتها الآن؟»

بدت مرتبكة، كأنها لا تعرف كيف تجيب عن سؤالي البسيط.

«نعم، لكن لا».

«لماذا؟»

انفتح الباب. دخل طبيب، ابتسم بمرح. كان معطفه الأبيض ضيقًا على كرشه، بدا أن زرّين سينخلعان. سماعاته الطبية حول عنقه. يرتدي هو الآخر شارة اسم، لكنه مزخرف برسم لفيل.

«آر-يا___نا»، قال وحاجباه مرفوعان بدهشة وهو ينطق مقاطع اسمي بحرص. ينظر إلى الورقة التي تركتها موظفة الاستقبال على المنضد. «مرحبًا آريانا».

صافح آن وجلس على كرسي في مواجهتي. ضيق عينيه وهو ينظر إليّ، كأنه لا يعرف من أين يبدأ.

«أتعرفين لماذا أنتِ هنا؟» سألني.

لم أكن أعرف.

«أريد أن أرى كم أنتِ قوية ومعافاة بدنيًّا. وإن كان بوسعنا مساعدتك، هذا إذن ما سوف نفعله».

لم يبد هذا فظيعًا. ليس بعد، على كل حال.

سألني أسئلة مشابهة كثيرة. أعدت سرد قصتي مرة أخرى. بميكانيكية الآن. وجدت طرائق لتلخيصها في أجزائها الأكثر أهمية، الأجزاء التي تثير النظرات الأشد حزنًا لدى الأمريكيين. أطلق الطبيب تنهيدة طويلة.

كان عطوفًا، صوته ناعم وخفيف. تخيلتُ أحفادًا سعداء عند قدميه، ينعمون بحبه. بدأتُ أسترخي. نظرتُ آن إلى ساعتها. سألني الطبيب إن كنت أتناول أي أدوية وإن كنت قد خضعت لعمليات جراحية في أي من أعضاء جسدي من قبل. إن كنت قد كسرت إحدى عظامي أو مكثت في مستشفى مدة طويلة من قبل، إن كنت قد فقدت الوعي أو نزفت من أنفي أو شعرت بتسارع في دقات قلبي فيما أجلس هادئة. إن كنت أعاني نوبات صداع، وأراد معرفة أحدث الأخبار عن حركة أمعائي. حين لم أفهم كلامه، كان يوضح لي بالإشارة إلى جسده هو. كان الأمر سيبدو مضحكًا في سياق آخر.

«هل جاءك الحيض؟»

ما كان لدي أدنى فكرة عن ماذا يتحدث.

«دورتك. دم»، قال يشير إلى ما بين فخذيه، أسفل معطفه الأبيض. عند ذكره هذا الأمر اندفع الدم إلى وجهي وأخفضتُ رأسي.

«أنا آسف»، قال، لكنني ظللت جامدة. «يجب أن أسأل».

تمنيت أن ينتهي الأمر عند هذا الحد. بعد أن تعريت تمامًا بوابل من الأسئلة، ناولني رداء قطنيًا خفيفًا وأخبرني أن أخلع ملابسي وأرتديه. غادر الطبيب الغرفة. أشارت لي آن أن أخلع ملابسي. حين ترددتُ، وقفتْ. أطعتُ الأمر على مضض إذ أعرف أن آن فقط من يمكنها أخذي إلى تيلي.

عاد الطبيب وواصل فحصه. وضع جرس سماعاته الطبية البارد على صدري وظهري ونظر في أذني وفمي بقلم ضوئي. نقر ركبتيّ ومرفقيّ بمطرقة مطاطية ثم أمرني أن أرقد.

نظرتُ إلى آن. أشارت إلى رأسي أولًا ثم إلى طاولة الفحص. وضع الطبيب يديه الاثنتين على بطني، واحدة أعلى الأخرى، وضغط لأسفل مرات عدة وهو يحركهما لأعلى بوصات عدة في كل مرة. تساءلت إن كان يظن أنني أخبئ شيئًا في جذعي. ثم تحرك إلى نهاية الطاولة وقال إنه يريد أن ينظر إلى شيء ما.

كنت متأكدة تقريبًا أنه قال كلمة «رقيق»، فظننت أن كل شيء بخير. رفع ردائي فأخفضته بيدي الاثنتين وضممت ركبتيّ إلى صدري أحاول الجلوس على الطاولة. نظرتُ إلى آن، لم تتحرك في جلستها، بدت كأنها تعرف جيدًا ماذا سيفعل هذا الطبيب.

«هل آذاك أحد هناك؟» سألني.

«أنتَ، لا!» صحت غاضبة من جرأته على النظر هناك. «أنت، لا!»

«أنت تعرف»، هكذا سمِعها. «أنت تعرف».

نظر إلى آن، التي زمت شفتيها معًا في أول بادرة عطف حقيقي أراها منها. بدا الاثنان غير مدهوشين، كأنهما كانا يأملان إجابة مختلفة.

أخبروني أن أرتدي ملابسي، وأن أبوّل في كوب. ربطوا شريطًا من المطاط حول ذراعي وسحبوا دمًا. ناولني الطبيب مصاصة من الحلوى وربّت على كتفي. جفلتُ أبعد نفسي عنه فتبادل هو وآن نظرة أخرى ذات مغزى.

«على الأقل هي في أمان الآن»، قال الطبيب ما إن ارتديت ملابسي. شكرته آن وقادتني نعود أدراجنا في متاهة الممرات.

«تيلي. أين تيلي؟» قلت حين أدركت أننا نغادر المستشفى.

«ليست هنا»، قالت آن، فتكثفت مشاعري غير المحددة نحوها إلى شيء ما قريب جدًا من الكراهية.

قادت السيارة عشرين دقيقة. رأيت مباني أعلى من أي مبنى رأيته في حياتي ومباني أخرى بدت كأنها ستسقط على الفور عند هبوب أول ريح قوية. مررنا بمتنزه وراف وواجهات محلات مكتظة. حاولتُ قراءة لافتات الطريق، لكنها كانت كثيرة جدًا وكانت عيناي مغبشتين بالدموع. رأيت نساء يدفعن بعربات أطفالهن ورجال في أواسط العمر يهرولون على جانبي الطريق.

انعطفتْ آن في شارع اصطفت على جانبيه بيوت بطابقين، جنبًا إلى جنب. كانت بواباتها الأمامية ونوافذها مكشوفة تمامًا، لا جدران خصوصية لحمايتها من المارة. تذكرت حين أخبرني والداي أن أجزاء من أمريكا تشبه كابول بطريقة ما أو بأخرى. لكنني حتى تلك اللحظة لم أرَ شيئًا من هذا. أوقفتْ آن السيارة أمام بيت أحمر قاتم في فنائه الأمامي الصغير دراجة صدئة.

انفتح الباب الأمامي وخرج رجل مهندم ذو شعر أحمر إلى الشرفة الأمامية. هبط السلم ووقف في الممشى ويداه في خصره، بلمحة نصر في وقفته. بعد ذلك بدقيقة ظهرت امرأة بثوب طويل وواسع ووقفت بجانبه. رفعت يديها أعلى عينيها اتقاءً للشمس. شعرها الذهبي منسدل بحرية على كتفيها. رأيت شفتيهما تتحركان، دون أن ينظر أحدهما إلى الآخر.

«آريانا»، قالت آن كأنها تناولني هدية غالية. «وافقت هذه الأسرة على أخذك... مؤقتًا».

رأيت ستارة نافذة في الطابق العلوي تتحرك. لم أعرف ماذا حركها، لم أر شيئًا آخر في النوافذ الأخرى. لم أفهم لماذا أتوا بي إلى هذا البيت. نظرت في الشارع يمينًا ويسارًا، أبحث عن خيارات أو عن حل للوصول إلى تيلي. تحركتْ الستارة مجددًا. مع ذلك لم أر أحدًا.

كانت البيوت الأمريكية، حتى من دون الجدران الطينية الطويلة لكابول، تحمل أسرارًا.

الفصل التاسع والعشرون

كان اسم المرأة جانيت. واسم زوجها إيفيرت. قدمتنا آن بعضنا إلى بعض ونحن نجلس في مطبخهما. وقفتْ جانيت بظهرها لنا، تفتح إحدى خزانات المطبخ. فرقعة، هسيس، ثم ظهرت ثلاثة أكواب من مياه البرتقال الغازية على الطاولة. وضعتْ الأكواب في منتصف الطاولة، بعيدًا عن متناول الجميع. تسلقتْ الفقاقيع الصغيرة جدران الأكواب الزجاجية من الداخل وانتشرت في المكان رائحة السكرين.

«أين الآخرون؟» سألتْ آن.

«إنهم يحبون اللعب مع أطفال الجيران، خاصة حين يكون الطقس رائعًا»، أجابت جانيت، صوتها منغّم.

ضحكت آن بمرح.

«الطقس رائع في الخارج، أليس كذلك؟ أتمنى أن آخذ يوم عطلة ليمكنني الاستمتاع به. كان أسبوعًا مشحونًا».

فيما تومئ جانيت برأسها أخرجت آن رزمة أوراق ووضعتها على الطاولة أمام إيفيريت.

«أريد أن أشكركما على وقفتكما بجانبنا ومساعدتكما لنا بخصوص طفل آخر»، قالت.

«يسعدنا دائمًا أن نقوم بما يمكننا»، قال إيفيرت. «أنعم الرب علينا بسقف أعلى رأسينا، وطعام وفير، وتعاليمه، كل هذا يجب مشاركته».

أشار إلى لوحة مطرزة على جدار الحائط. أسفل ساعة حائط بعقارب لا تتحرك. كانت كل كلمة مطرزة بلون مختلف فبدا المربع المؤطر من بعيد، كأنه يحوي قوس قزح، لكن الحروف كانت غير متساوية ومكتنزة وكانت ستحوز درجة قليلة من معلمة الخياطة الخاصة بي.

من يؤوي طفلًا فقد آواني، ومن يؤوني فقد آوى من أرسلني.

«أليس هذا جميلًا؟» قالتْ آن بإعجاب. نظرتُ إلى جانيت بابتسامة تساؤل على وجهها. «أهذا عمل يدك؟»

«نعم»، قالت جانيت. «أشعر بهدوء حين أعمل بيديّ».

مال إيفيرت إلى الخلف في كرسيه، شع وجهه بفخر وهو ينظر إلى زوجته.

«جميل حقًّا»، قالت آن. «حسنًا، لنعد إلى موضوع آريانا هنا. كما ذكرت على الهاتف، طرأ هذا الموقف فجأة. وصلت لتوها من باكستان. إنها باكستانية على ما أظن. تتحدث الإنجليزية لكنني لا أعرف إلى أي درجة. لا تأكل كثيرًا ولديها هذه الحقيبة عند قدميها. إنها خالية من الأمراض مع ذلك يبدو أن لديها تاريخًا في الإساءة الجنسية».

أردتُ أن أعترض، لكنني لم أعرف من أين أبدأ. كان كل ما قالته خطأ.

صفق إيفيرت بيديه بصوت عال جدًّا إلى حد جعلني أجفل.

«سنعتني بها جيدًا جدًا»، قال وهو ينظر إليّ باهتمام شديد. «سنجعلها تتحدث الإنجليزية وربما نتعلم منها الباكستانية قليلًا حتى».

هكذا صرت وحدي مع جانيت وإيفيرت. حين غادرت آن، فتحت جانيت زجاجة فارغة وأعادت فيها مياه البرتقال الغازية ثم أعادت الزجاجة إلى الثلاجة. حين سمعتُ وقع خطوات في الأعلى، أخذتُ مقشة من خزانة في الركن وطرقت السقف بطرفها. فتوقف الصوت.

أمرتني أن أضع حذائي في خزانة بجوار الباب الأمامي. قادتني هي وإيفيرت إلى الطابق الأعلى، هزَّا رأسيهما لطريقة استنادي إلى الدرابزين. أمسكت حقيبتي بقوة مع أنهما لم يبد عليهما أدنى اهتمام بها.

كان في الطابق العلوي أربعة أبواب، حمام واحد وثلاث غرف نوم. غرفة نومهما في نهاية الرواق. أخرجتْ جانيت مفتاحًا من جيب ثوبها وفتحت باب غرفة النوم الثانية، على الجانب الآخر من الرواق. في الداخل غرفة نوم بفراشين توأمين. طلاء الجدران بلون أزرق صافٍ ذكرني بعيني تيلي. الفراشان معدّان بعناية، على كل منهما لحاف رفيع محشور في أركانه الأربعة جيدًا. على الحائط لوحة مؤطرة لزهرة وحيدة بطبقات من الأوراق الصفراء الطويلة وعين داكنة في منتصفها. كانت غرفة نظيفة ومضيئة.

«ستقيمين في هذه الغرفة»، أعلنتْ جانيت. «لا ترسمي على الحائط من فضلك، وحافظي عليها مُرتّبة. أتفهمين معنى مُرتّبة؟»

تظاهرتْ بإلقاء أشياء لا مرئية في كل مكان وهي تكشر. ثم استدارت إليّ ورفعت إصبعها في وجهي.

«نظيفة، لا فوضى»، كررتْ وأشارت إلى الدولاب. «ضعي حقيبتك هنا».

لـم أتحـرك. قطبـت وجههـا وحاولـت أخـذ الحقيبـة منـي لكننـي تراجعـت إلـى الخلـف، واحتضنـت الحقيبـة بقـوة.

توقفـتْ. دسـت شـعرها خلـف أذنهـا وتنحنحـتْ. «إيفيـرت»، صاحـت وهـي تنظـر إلـيّ. ظهـر إيفيـرت عنـد البـاب، علـى وجهـه علامـات الاهتمـام.

«هل كل شيء بخير؟» سأل.

«قـد تكـون صمـاء أو بكمـاء. لا تريـد وضـع حقيبتهـا فـي الـدولاب حتى».

هـز رأسـه.

«ربمـا تحتـاج إلـى التعـود علـى الأمـر قليـلًا»، قـال برفـق. دخـل الغرفـة ووضـع ذراعـه حـول زوجتـه، وقادهـا إلـى خـارج. «لنمنحهـا بعـض الوقـت وحدهـا لتعتـاد محيطهـا الجديـد».

ارتحـتُ لرؤيتهمـا يغلقـان البـاب، رغـم انقبـاض معدتـي حيـن سـمعت صـوت تـكات مفتـاح يتحـرك فـي قفـل. حيـن اختفـى وقـع خطواتهمـا، سـرت علـى أطـراف أصابعـي فـي الغرفـة ووضعـت أذنـي علـى الخشـب. لـم أسـمع شـيئًا، أدرت المقبـض. البـاب موصـد. نظـرت خـارج النافـذة. كنـت فـي الطابـق الثانـي بإطلالـة علـى الفنـاء الأمامـي والرصيـف الـذي كـدت أصطـدم بـه وأنـا أترجـل مـن سيـارة آن.

عـدت وجلسـت علـى أحـد الفراشـين، أتسـاءل متـى سـأخرج مـن هـذه الغرفـة.

لـم يكـن فـي الغرفـة سـاعة، لكننـي حسـبت مـن موقـع الشـمس فـي السـماء أن سـاعتين أو ثلاثًـا قـد مضـت. كنـت ظمـأى وجوعانـة قليـلًا

أيضًا لكنني أستطيع النوم. كانت مثانتي الممتلئة هي المشكلة. بدأتُ بطرق الباب، بهدوء في البداية ثم بصوت أعلى حين لم يجبني أحد.

«مرحبًا»، صحتُ. «من فضلكما، أنا في حاجة إلى شيء».

عقدت رجليّ وقبضت كل عضلة من عضلات جسدي. بتحذيرات جانيت لي بخصوص نظافة الغرفة، كنتُ مرعوبة مما قد تفعله إن وجدت رائحة البول في الغرفة. طرقت بصوت أعلى وصحت بإلحاح.

«من فضلكما! مرحبًا؟ أريد أن أذهب إلى الحمام».

فتحت جانيت الباب وأشارت نحو باب الحمام في الرواق. هرولت إليه وأغلقت الباب خلفي، حاولت إغلاق القفل لكنني تركته لشعوري بانقباض حاد أسفل بطني.

كنت أجلس على التواليت حين فتحت جانيت الباب وأدخلت رأسها. ضممت رجلي معًا وشددت طرف قميصي لأسفل نحو ركبتيّ. انثنى جسدي تلقائيًا. رغم حاجتي الشديدة، لم أستطع التبول وهي تحدق إليّ.

«أريد فقط أن أذكرك بأن تكوني نظيفة هنا أيضًا. لا قطرات على الأرض، وامسحي الحوض حين تنتهين. لا تلقي بورق الحمام أو أي شيء غير عادي في التواليت»، قالت. حين سكتت، تحركت عيناها نحو سروالي التحتي المتجمع عند كاحليّ وساقيّ العاريتين. اقتربتْ وحدقت إلى فروة رأسي. فرقتْ شعري بإصبع واحدة معقوفة. «جيد، لا قمل. لكنك في حاجة إلى غسل شعرك جيدًا».

«باب الحمام بلا قفل بالمناسبة»، قالت وهي ترمقني بابتسامة كشفت عن تجويف سن مفقودة. فيما عدا هذا بدت سليمة تمامًا. «من أجل سلامتك بالطبع».

ثم خرجتْ وأغلقت الباب خلفها.

هل أنا مخطئة في حاجتي إلى الخصوصية في هذه اللحظة؟ لماذا كانت أنتونيا وتيلي مختلفتين تمامًا عن هذه المرأة؟

انتهيت بسرعة، غسلت يديّ وشربت بهما متكورتين. تأكدت من ترك الحوض جافًا قبل خروجي. كان باب غرفة النوم مفتوحًا. دخلتها ووجدت حقيبتي ما زالت مكانها على الأرض حيث تركتها. لكنها مفتوحة، أخذت منها ملابسي. لم يبق فيها سوى فرشاة الشعر ودفتر ملاحظاتي، الذي حشرت فيه نسخة دليل الحدود الشرقية.

هبطت درجات السلم بسرعة، بشعور المسلوبة. كان المطبخ خاليًا لكن الباب السلكي الصغير كان مواربا. سرت نحوه ببطء ورأيت جانيت تقف في الفناء الخلفي، تنحني على دلو واسعة بما يكفي ليستحم فيها طفل، مملوءة بالمياه.

خطوت إلى الخارج حافية القدمين وسرت نحوها.

«كانت ملابسك في حاجة إلى غسلها جيدًا. وأنا أغسلها اليوم فقط لأنك جديدة هنا»، قالت. «ويجب غسلها جيدًا ولو مرة واحدة على الأقل».

وقفت حافية القدمين إلى جانب جانيت. كانت تحرك الملابس في المياه بعصا المقشة كأنها ستهرب منها. انبعث من الماء شيء ما لاذع إلى حد أن لسع عينيّ وأنفي بشكل أسوأ من البصل

النـيء. ملـت إلـى المـاء، أريـد أن أرى بنفسـي. كانـت تغـرق مـلابسـي، نـزف قميصـي الأحـمـر لونـه فـي الميـاه الغـائمـة.

تراجعت إلـى الخلف، حيـث الهـواء أقـل قسـوة... عـرفـت أنهـا لـن تتركنـي لشـأنـي.

الفصل الثلاثون

عدت إلى المنزل، عيناي تحرقهما الدموع. من حسن الحظ أنها لم تأخذ ملابسي التي أرتديها وإلا لوجدتْ الخاتم في جيبي. عليّ الآن إيجاد مكان مناسب لإخفائه. ظننت أنني لمحت بجانب عيني إيفيرت يسير في المساحة بين المطبخ وغرفة المعيشة. توقفتُ لأتجنبه وتوجهت نحو السلم حين ابتعد صوت خطواته.

ما إن فتحت باب غرفة النوم حتى سمعت تكة من خلفي. استدرت لأرى فتى وفتاة يراقبانني من باب نصف مفتوح في الرواق. بدت الفتاة أكبر سنًا مني بسنوات عدة ولديها قصّة قصيرة. الفتى أصغر قليلًا، ربما في الصف الدراسي الأول أو الثاني. كانا هما من قالت جانيت إنهما يلعبان مع أطفال الجيران. لم أعرف متى أو كيف عادا إلى البيت دون أن يصدر عنهما أدنى صوت.

«ما اسمك؟» همس الفتى. خداه وأنفه منمشان وشعره بلون غروب الشمس. حين لم أجبه، كرر سؤاله. لم يبد مؤذيًا وكنت في أمس الحاجة إلى التخفيف من شعوري بالوحدة.

«ستا...» توقفتُ، ثم صححت لنفسي. «آريانا».

«آريانا»، قال. «هذا اسم غريب. اسمي جابريل. وهذه شاونا».

التفت جابريل إلى يمينه ويساره كأنه يهم بعبور شارع مزدحم قبل أن يخطو في الرواق.

«سأكون صديقك»، قال جابريل. «لكن بشرط أن تكوني لطيفة. أأنت لطيفة؟»

شعرتُ بأن ألف عام قد مضت منذ أن تحدثت إلى طفل آخر. أومأتُ برأسي، وتمنيتُ أن يواصل كلامه. وقفتْ شاونا عند الباب، تقرص شفتها السفلى بإصبعيها.

«لا تسببي المشكلات»، لم يضيّع جابريل وقتًا في تحذيري. «إنهما لا يحبان الضجة ولا الفوضى. سمعتها تخبرك بهذا بالفعل. لا يحب إيفيرت الحديث عن البيسبول أو السمك. يحبك إن صليت كثيرًا. أيمكنك هذا؟»

أومأتُ برأسي.

«هذا جيد. أهذا هو بيت التبني الأول لك؟»

لم أعرف ما يعنيه بيت التبني، لكنه كان أول أي شيء لي في أمريكا لذلك أومأتُ مجددًا.

«ألا يمكنك التحدث؟» قال وهو يميل برأسه.

«بلى، يمكنني التحدث»، قلتُ أنطق الكلمات بحرص كعادتي، فنظر إليّ بدهشة قائلًا: «أنت تتحدثين بطريقة غريبة».

فردت كتفيّ. كان في نصف عمري لكن تعليقه أحرجني. من حسن حظي، بدا سعيدًا بتحدثه هو أغلب الوقت، أو بالأحرى، بهمسه. كنا نسمع لحن برنامج تليفزيوني، تصفيق جانيت، ضحكاتها الهادئة وطرقاتها، ودندنتها في المطبخ. من جلجلة الأواني والطاسات، خمنت أنها تطبخ. كانت الروائح خفيفة، تبدو أشبه بروائح حديقة عن أي رائحة طعام أعرفها.

سارت شاونا في الرواق، وبمرونة قطة، مرت بي ودخلت الغرفة. جلستْ على كرسي قابل للطي في ركن من الغرفة، شعرها مصفف في ضفيرتين تصلان إلى كتفيها بالكاد. ترتدي ثوبًا بلون

أرجواني فاتحًا وكمين منتفخين مضمومين عند مرفقيها. كان ثوبًا رقيقًا كفراشة، بطرف مؤطر بشريط بلون العاج وياقة مقوسة من الساتان العنابي.

«أنا أنام هنا»، قالت وهي تحرك عينيها بسرعة من السجادة الخشنة إلى الفراش. عيناها واسعتان ومستديرتان، ووجنتاها عاليتان وملكيتان.

تحدثتُ بهدوء. «أهذا فراشك؟»

«يمكنك أخذه إن شئت»، قالت بخبث. «أو يمكنك أخذ الآخر. يسعدني أن أحظى برفيقة في الغرفة. أنا لست مجنونة».

لم أتحرك نحو أيٍّ من الفراشين.

أمسكتُ طرف إحدى ضفيرتيها، مررت أصابعها في طرف الضفيرة وهي تراقبني. كان جابريل قد دخل حينذاك وراح يتطلع إليّ بفضول لا خجل فيه جعلت حرارة حمراء تسري في عنقي.

«كم عمرك؟» سألتني شاونا.

«اثنا عشر عاما»، أجبتها، أترجم سن أختي إلى الإنجليزية. تستغرق إجابة الأسئلة البسيطة وقتًا وجهدًا إضافيين، كأنني أتحرك في الماء.

«أوه، وأنا أيضًا»، قالتْ، «لكنني سأتم الثالثة عشرة خلال شهرين».

لم نسمع وقع خطوات جانيت وهي تصعد السلم. وقفتْ عند الباب، تجفف يدها بمنشفة وتبتسم بسرور.

«راينا»، قالت، ففهمت أنها تحاول نطق اسمي. «أنتِ في حاجة إلى الاستحمام. شاونا، ناوليها منشفة وعلميها كيف تستحم جيدا من فضلك. لا يمكنها تناول العشاء معنا هكذا».

كانـت مخطئـة بشـأن اسـمي لكنهـا محقـة بشـأن حاجتـي إلـى الاسـتحمام. مـع ذلـك، كنـت مرعوبـة مـن خلـع ملابسـي فـي هـذا البيـت الجديـد، حتـى وإن كنـت خلـف بـاب مغلـق. نظـرتُ إلـى شـاونا لكنهـا كانـت تسـحب منشـفة مـن درج.

خرجـتْ شـاونا مـن الغرفـة وأشـارتْ جانيـت إلـيَّ أن أتبعهـا. عـاد جابريـل إلـى الغرفـة الأخـرى، مـارًا بجانيـت دون أن ينظـر إليهـا. كنـت منتبهـة لـكل التفاتـة، ولـكل رد فعـل. لـم يصـح فـيّ أحـد أو ينهرنـي أو يهددنـي. يمكننـي البقـاء هنـا، علـى مـا أظـن، وسـرعان مـا سـتأتي تيلـي لأخـذي. لـم أكـن أريـد شـيئًا سـوى الركـض وإلقـاء نفسـي فـي حضنهـا.

أدارتْ شاونا الصنبور ووضعت إصبعها تحت المياه المتدفقة.

«بعمـق ذراعـك فقـط»، قالـت وهـي تقيـس بيدهـا حافـة البانيـو لتوضـح مسـتوى الميـاه المسـموح بـه. ثـم أشـارت إلـى قطعـة صابـون علـى طبـق خزفـي علـى ركـن منـه. كانـت تهـم بالخـروج مـن الحمـام حيـن أوقفتُهـا.

«مـن فضلـك، كيـف أقفـل البـاب؟» سـألتها بصـوت خفيـض. فهـزت رأسـها بأسـف قائلـة: «لا تقلقـي، لـن يدخـل إلـى هنـا»، قالـت وهـي تبتعـد، فتركتنـي أتسـاءل إن كانـت تتحـدث عـن جابريـل أم إيفيـرت. خلعتُ ملابسـي كلهـا مـا عـدا سـروالي التحتـي فـي ركـن خلـف البـاب مباشـرة. حتـى لـو دخـل أحـد، فلـن يرانـي. قلبـت جيبـي وقرضـت الخيـط بأسـناني لأحـرر الخاتـم. فتحـت خزانـة الحمـام بصريـر. كانـت خاليـة وليسـت مكانًـا جيـدًا لإخفـاء أي شـيء. إلـى جانـب الصنبـور علـى الحـوض حاويـة صابـون سـائل، وإلـى جانبـه الآخـر

مرطبان زجاجي مملوء بكرات قطنية كبيرة. دسست الخاتم بين الكرات القطنية وتأكدت من أنه غير مرئي.

ألصقتُ أذني بالباب. لم أسمع خطوات في الرواق، أسرعت إلى البانيو وأسدلت ستارته. انزلقت في الماء البارد وأخذت أفرك ذراعيّ ورجليّ بالصابون. كنت أغسل كتفي حين انفتح باب الحمام.

«لننظفك»، قالت جانيت بسعادة.

لففتُ ذراعيّ حول ركبتيّ. أزاحت جانيت ستارة البانيو ورأتني بسروالي التحتي.

«حسنًا، الحياء شيء جيد لكنه ليس عمليًا في البانيو». سرت في جسدي رعشة من التيار المندفع من باب الحمام المفتوح وبدا أن الماء يزداد برودة.

«يارينا»، قالت جانيت، ثم حاولت مجددًا. «مم... أرايانا؟ ماذا لو ندعوكِ آنا؟ هذا أسهل كثيرًا».

اقشعر جلدي.

«اجلسي في الحوض وإلا ستلقي حتفك من البرد. حمام دافئ وفرك جيد سيجعلانك شخصًا جديدًا تمامًا».

ابتسمتْ برقة، أمالت رأسها جانبًا، لكن عينيها الثابتتين ومنظر فكها حذراني من المقاومة. صبت الشامبو على رأسي وراقبتني وأنا أغسل شعري. أبعدتْ يديّ عن رأسي بتأفف وغرزت أصابعها في شعري، تحك فروة رأسي. ثم ناولتني منشفة من قماش يشبه ما كانت أمي تشتغله بالإبرة وأمرتني أن أفرك جلدي بها جيدًا جدًا. منذ ولادتي لم يرني أحد عارية تمامًا سوى أمي.

« لا داعـي لقـول هـذا، لكـن عليـكِ تنظيـف أعضائـك الأنثويـة أيضًـا »، قالـت وهـي تشـير بإصبعهـا نحـو جسـدي بشـكل عـام.

خرجـتُ مـن الحمـام، محمـرّة ومنزعجـة لأسـباب أخـرى غيـر الفـرك. ارتديـت ثوبًـا جلبتـه لـي، يشـبه ثـوب شـاونا تمامًـا. كانـت قد أخـذتْ ملابسـي التـي خلعتهـا، كمـا توقعـت.

نادتنـا لتنـاول العشـاء حيـن بـدأت السـماء تتلـون بغـروب برتقالـي. تبعـتُ شـاونا وجابريـل نهبـط السـلم وإلـى المطبـخ حيـث لـكل منـا كرسـي إلـى المائـدة، أدوات مائـدة، أطبـاق وأكـواب مرتبـة بنظـام كملامـح الوجـه.

«لنحنِ رؤوسـنا ونتلُ صلاة»، قـال إيفيـرت ويـداه مضمومتـان معًـا وصـوت يـزداد عمقًـا. «ليباركنـا الـرب...»

تململ جابريـل فـي جلسـته ونظـر نحـوي خطفًـا، حـرك أصابـع يديـه المضمومتيـن. أبقـت شـاونا رأسـها محنيًـا، كتفاهـا مسـحوبتان إلـى الخلـف بشـكل فطـري. قلدتهـا مدركـة أن هـذا وضـع الصـلاة. كانـت أسـرتي تصلـي وقـت الوجبـات أيضًـا، مـع أننـا كنـا ننظـر إلـى أعلـى وليس إلـى أسـفل ونكور راحتينـا بـدلًا مـن ضمهـا، كأن نِعم الله ستسـقط مـن السـماء كنـدف الثلـج.

كانـت الوجبـة ملونـة: شـرائح الطماطـم والفلفـل الأخضـر مرصوصـة علـى شـكل دائـرة، صـدور الدجـاج بلـون عسـل النحـل، ذرة وقطـع خبـز وصحـن معكرونـة. غـرف إيفيـرت لنفسـه، وكذلـك جانيـت. انتظـرتُ، ولاحظـت بـلا اهتمـام أن الطعـام يبـدو نيئًـا أو علـى الأقـل لـم يُسـوَ جيـدًا.

«الآن، الأطفـال»، قالـت جانيـت. الأطفـال يأكلـون بعـد الكبـار

دائمًا في منزل عمتي. كانت تقلق من أن يجد الأعمام الأطباق خالية من اللحم فيظنون أنها مضيفة سيئة.

مددت يدي إلى الذرة، فوجئت حين شعرت بخشونتها في يدي. رفعت جانيت مغرفة معدنية في الهواء كالصولجان، بدا أنها ظهرت من الفراغ.

«المعكرونة للأطفال. الطفل كائن بسيط ويحتاج إلى أطعمة بسيطة. لا نريدك أن تمرضي في أول يوم لكِ هنا»، قالت وهي تنظر إلى إيفيريت الذي أومأ باستحسان.

أخفضتُ بصري لأخفي الدموع التي ملأت عينيّ. شعرت بيد على ذقني فأدركت أنه جابريل. يمسك بمغرفة المعكرونة، تحركتْ عيناه إلى طبقه ليريني ما غرفه لنفسه ولاحظت أن شاونا قد غرفت لنفسها القدر نفسه. أخذتُ منه المغرفة بيد مرتعشة وغرفت لنفسي القدر نفسه الذي غرفته لنفسها. ألقى الوهج البليد لضوء السقف ظلالًا أسفل عيني شاونا. حيث رأيت من قبل وجنتين عاليتين، رأيت الآن خدين غائرين. كانت شفتاها رفيعتين. تقاسيم حادة لم ألحظها في البدء.

مضغت ببطء، محاطة بغرباء لديهم مخاوفهم وعاداتهم الغريبة الخاصة بهم. تساءلت لماذا يسود هذا الملجأ شعور خانق.

دعوت الله أن تكون الليلة بلا قمر، كي أرى في الظلام لمعان النجوم.

الفصل الحادي والثلاثون

حين كنت في الثامنة من عمري، كنت ونيلاب نتسابق في حدائق الأرج. لم تكن ترحب دائمًا بالسباق معي. كنت أحب الركض، يفتتني الشعور بالخفة. كان أيضًا مهارة ضرورية، وإلا ستعرف أمي أنني تسكعت في طريقي إلى البيت من المدرسة أو يدرك أبي أن نظارته مفقودة قبل أن أعيدها إلى مكتبه.

إن لديك عظام طائر وهذا ليس عدلًا، قالت صديقتي.

هذا سخف. إن الطيور يركضون بشكل سيئ، أجبتها رغم إعجابي بالفكرة الخارقة أن عظامي قد تحمل نعمة الطيران.

كنا قبل أيام قليلة من الانقلاب الربيعي، وقد حددت مسارًا دائريًا، أعرف أنه جزء من اللعبة. كان يدور حول حمام سباحة مستطيل وفدان من العشب الأخضر. ثم بأشجار الفواكه على الحدود الغربية، ثم حول المبنى الذي كان ثكنات الجيش في ما مضى، ثم يعود مرة أخرى إلى نقطة الانطلاق.

كان القصر في فوضى، يستعد الجميع للاحتفال بعيد النيروز، سواء في البيت أم مع الأحبة. تزداد ثمار المشمش المجفف والفاكهة المتجعدة لشجرة القيقب حجمًا حين تُنقع في الماء عن حجمها الحقيقي عندما قُطفت. يُغلى الزبيب الأخضر والأسود في أوانٍ طويلة، يرشح حلاوته في منقوع الفواكه السبع بكثافة شديدة تجعله يُعدّ مرة واحدة فقط بمناسبة العام الجديد. أكوام من الفستق والبندق واللوز مبللة في صحون واسعة، لتطرية قشورها وجعل تقشيرها أسهل. البندق هو الأصعب في تقشيره،

وكانت أمي تقسم كل عام إنها لن تعد شراب الفواكه السبع مرة أخرى أبدًا.

رغم الجو الاحتفالي، لم ترغب نيلاب في اللعب. لم يكن الفائز في ألعابنا وسباقاتنا ينال جائزة أو كأسًا، بل له بدلًا من ذلك أن يحكم بعقوبة على الخاسر. في تاريخي كفائزة، حكمت على نيلاب بالسير بقدم واحدة فقط طوال يوم كامل. ظنت هي أنها تنتقم مني حين حكمت عليّ أن أسير بحذاء محشو بقشور برتقال طوال يوم كامل أيضًا، لكنني، أحبطّتُها حين انتهى بي اليوم بكعبين ناعمين لهما رائحة البرتقال.

وافقتْ نيلاب على السباق أخيرًا، ربما فكرت في عقوبة ذكية ما تفرضها عليَّ. بدأنا من عند نقطة الانطلاق، على عدِّها. انطلقت بكل قوتي لكن نيلاب نظّمت سرعتها. لم تكن في عقبي مباشرة لكنها قريبة إلى حد معقول. أردتُ أن أطيل المسافة بيني وبينها، لأفوز بأكثر من خطوات قليلة. رفعتُ ذراعيّ إلى جانبيّ وملتُ برأسي إلى الأمام في الهواء. حين عبرتُ الفدان الأخضر، نظرت خطفًا من أعلى كتفي. كانت تبتسم، قريبة مني أكثر مما توقعتُ.

فيما أدور حول المبنى، اختفت نيلاب عن ناظري لوهلة. قررتُ فجأة القفز من أعلى صف شجيرات بدلًا من الدوران حوله. كان بارتفاع الخصر تقريبًا وكنت متأكدة من أن بمقدوري القفز من أعلاه.

لكنني كنت مخطئة.

وقفتْ نيلاب أعلاي، تلهث ومرعوبة من رؤيتي أنزف. تلطخ قميصي ببقع حمراء. جرحت حاجبي الأيسر حيث اصطدم وجهي بصخرة. أخذني بابا إلى المستشفى حيث خيط لي طبيب الجرح.

إنه كبير جدًا! قلت لبابا باكية قبل أن نرى الطبيب، حين رأيت انعكاسي في باب زجاجي.

الجرح شق يدخل منه النور إليك، قال بابا بهدوء. أتذكرين كلمات الرومي؟

كنت أتذكر بيت الشعر بالفعل لكنني لم أعترف له أنني لم أفهم معناه تمامًا. لم أرد أن يظن أبي أني بلهاء.

حين يزول الألم ويلتئم الجلد وتُجبَر العظام المكسورة، تحدث المعجزة. إنها نعمة، قال موضحًا، *لا ينالها إلا الجرحى*. أنا لا أتمنى لك الجرح أبدًا، ستارة حبيبتي الشقيّة. لكنني بالتأكيد أتمنى لك النور.

سقطت شاونا في النوم قبلي. تكورت كل منا على جانبها على فراشين متوازيين تفصل بينهما أقدام قليلة، كان ظهري لها. ازدادت أنفاسها طولًا وبطئًا كليالي الشتاء. تمنيت أن يجعلني إيقاعها أنعس أنا الأخرى. لكن أضواء متقطعة كانت تظهر من النافذة فظل جفناي المثقلان يطرفان وينفتحان. حين غفوت أخيرًا، سقطت في كابوس مرعب كنت فيه مختبئة في قبو القصر وشخص ما يبحث عني بمصباح يدوي. تقلبتُ فصرت أواجه شاونا وراقبت رقص الأضواء على ورق الحائط المخطط كشاشة عرض.

سمعت صوت إطفاء التلفاز ثم وقع خطوات تصعد السلم. انفتح باب بعيد بصرير وسمعت صوت إيفيريت.

«سأعود لألقي نظرة عليهم. في الغالب أزاحوا أغطيتهم، إنهم ينامون بشكل سيئ».

دخل إيفيرت الغرفة وجلس على حافة فراش شاونا. راقبته من تحت شبكة أهدابي، لا أريده أن يعرف أنني ما زلت مستيقظة. حلقت يده أعلى منحنى فخذها، تحركت إلى أسفل قدميها ثم إلى أعلى مجددًا، كأنه يرسم تكوينها في الهواء. مال إليها وسمعته يأخذ نفسًا عميقًا. لمست أصابعه شعرها برقة شديدة.

شد الغطاء عن كتفيها. رأيت جفنيها ينضغطان بقوة حينها، لكنها لم تتقلب. تغضن جبينها. ثم اختفت يداه عن ناظري وهو يسوي أطراف الغطاء من أركانه الأربعة التي كانت في وضعها تمامًا قبل دخوله.

ند عن شاونا تذمر خافت فكتم فمها بيده. تصلبت عضلاتي. أكان يؤذيها أم يهدئها؟ شعرت بغباء لأنني لا أعرف الفارق، لحيرتي إزاء أمر مهم جدًّا كهذا.

فتحت شاونا عينيها للحظة، كرفرفة واحدة لجناحي طائر. وأغمضتهما فورا. لم أعرف حتى إن كانت قد رأتني أم لا. أغمضتُ عيني، أنا أيضًا، مثل فهيم وهو يلعب الغماية.

لكنني لم أكن طفلة. بل كنت جبانة.

لم تصرخ شاونا. لم تبكِ. لم تركل برجليها أو تعض أو تحتج بكلمة واحدة. ربما كنت أنتظر منها أن تؤكد لي أي شيء. دار رأسي.

أن تجهل شيئًا هو أمر مريح كمنامة من الصوف في ليلة باردة.

في الصباح، تجنبتْ شاونا النظر إليّ وتجنبت أنا النظر إليها. تحدثتْ بمرح، لكن صوتها كان يرتعش كخيط سائب. ملأت الصمت بثرثرة عن خلية النحل التي وجدوها ذات مرة تحت العوارض الخشبية وهي تسوي ملاءة الفراش، وترتب الوسائد والغطاء بعناية شديدة ليبدو من المستحيل التفكير في أن جسدًا، وليس اثنين، قد اضطجع عليه من قبل. أخذتْ ملابس من درج وحملتها على صدرها وهي تسير إلى الحمام.

«الأفضل أن تستحمي وترتدي ملابسك أنتِ أيضًا»، قالتْ. «اليوم الأحد ومِس جانيت تحب الذهاب إلى الكنيسة مبكرًا. سأعد الفطور للجميع في السابعة والنصف تمامًا. يمكنك المساعدة إن أردتِ».

يهز الكبار رؤوسهم حين يصر الصغار على وجود وحش مرعب في الدولاب فيما يكشف الضوء عن لا شيء. لكن المخاوف اللا عقلانية ميدان للتمرين. تلك الانقباضة في المعدة، ذاك النبض المتسارع، تلك القشعريرة؛ كلها نبضات كهربية تجعل الطفل يدرك الخطر. لكنها لا تعلمه الركض.

تبعتُ شاونا إلى المطبخ. كسرتْ بيضات عدة في صحن وأشارت لي إلى خزانة الأطباق. جاءتْ جانيت، ترتدي ثوبًا أخضر فاتحًا برسومات خضراء داكنة.

«صباح الخير، مِس جانيت»، قالت شاونا.

نظرتُ جانيت إليّ بتوقع، فكررت كالببغاء: «صباح الخير مِس جانيت».

«جيد»، قالت دون أن ترد التحية. شعرها مصفف بعناية للخلف في كعكة، وترتدي سوارًا من اللؤلؤ في معصمها. كنت قد ارتديت عقد أمي اللؤلؤ مرات أكثر مما تعرف أمي نفسها، لذلك عرفت أن لآلئ سوار جانيت لم ترَ البحر قط. أردت أن أقول هذا بصوت عالٍ لكنني سكتُّ.

«مس جانيت»، قلت بدلًا من هذا وأنا أقترب منها بتردد.

«نعم آنا؟» أجابتني. لم آبه بالتصحيح لها.

«أريد أن أرى مس تيلي أرجوكِ. إنها في المستشفى». كنت سأوضح لها المزيد لو لم تحول انتباهها إلى التقويم الزمني المعلق على الحائط.

«أنا لا أعرف من هي مس تيلي، عزيزتي. يؤسفني أنها في المستشفى. ظني أنه سيكون رائعًا أن نصلي من أجلها في الكنيسة هذا الصباح».

كنت أحاول التفكير في رد حين جاء إيفيرت بربطة عنق خضراء وقميص أبيض بكمين قصيرين. بنطاله مكوي بطية حادة كالنصل تسري بطوله. كان شعره مفروقًا من المنتصف ويلمع لمعة خاصة. بدا أنه بذل جهدًا كبيرًا لتثبيت كل خصلة مكانها. تخيلته يعاني أمام المرآة وهو ينظر في صورته المهندمة جيدًا.

حيته شاونا كما حيت جانيت. بالكاد نظر إليها وهو يرد تحيتها. قلدتُها، كما فعل جابريل الذي اندفع إلى المطبخ مرتديًا قميصه بالمقلوب.

«صباح الخير يا أسرة»، قال إيفيرت وهو يتنفس بعمق. «لا يوجد أفضل من إفطار جيد لنبدأ به يوم الأحد».

كنت أتوقع ما حدث بعد ذلك، استمتعتْ جانيت وإيفيرت بالبيض المقلي وشرائح البرتقال والخبز والمربى، في حين تناولنا نحن شرائح من الخبز الأبيض كانت ستظل ملتصقة بسقف حلقي طوال النهار لو لم أجرع كوب الماء ليمكنني ابتلاعها.

أنهينا نحن الصغار غسيل الأطباق، ثم حشرانا في سيارتهما. لم أخبرهما بأنني لست مسيحية خوفًا من أن يقررا بقائي في البيت مع إيفيرت أو يعاقبانني لعدم الطاعة. كذلك كان لديَّ فضول أيضًا. قالت أمي إنها رأت في الكنيسة التي زارتها في أوكلاهوما أجمل نافذة زجاجية رأتها في حياتها، كانت مزخرفة وملونة كالمساجد التي نذهب إليها في العطلات.

عبأتْ رائحة كولونيا إيفيرت السيارة، رائحة بخور قوية. نظرتْ جانيت إلينا من أعلى كتفها.

«جابريل، ارفع زجاج نافذتك. هذه الريح ستنكش شعرك. ستبدو ككلب راعٍ وليس كفتى صغير».

أطاعها جابريل، فتكثفت رائحة الكولونيا. آلمني رأسي وفكرتُ في أنها ستكون كارثة لو تقيأت على المقعد الخلفي لسيارة إيفيرت.

كانت الكنيسة مبنى من الطوب بسقف مائل مزخرف، لها برج واحد بنوافذ صغيرة تطل على الخلف وصليب معدني ضخم ينتصب على المرج الأمامي. يعرف جانيت وإيفيرت الكثيرين هناك، كانا يصافحان ويعانقان المصلين الآخرين خارج الأبواب

الخشبية الثقيلة. وجدتني أسير مفتونة نحو المدخل أمام شاونا وجابريل.

جلسنا على دكة طويلة في الصف الثالث من الأمام. كانت رائحة الكنيسة معتدلة أكثر من رائحة كولونيا إيفيرت، لكنها بعيدة؛ كرائحة زهور بين صفحات كتاب قديم. توجد مئات الشموع المتوهجة في أوانٍ زجاجية قصيرة. حتى نقاط النار الصغيرة تلك أقلقتني فأشحت ببصري بعيدًا.

لفتت نظري نافذة زجاجية ملونة. بدت كقوس قزح تكسّر فجمع أحدهم كسراته على شكل صليب. لم أفهم كلمة مما قاله القس. ما كنت أفهم صلواتنا التي نتلوها بالعربية أيضًا. ظللنا هناك لساعات. رفع القس يده، فحنى الجميع رؤوسهم كما تنحني ألسنة لهب شموع لتيار هواء.

ظللت أحدق إلى النافذة طوال وقت القداس، أقتفي أثر كل لون وأحصي عدد درجات الأزرق وأنشغل بمهمة عدّ الكسرات التي جمعت معًا لتكوين هذا الجمال.

حين نادى القس اسم إيفيرت، تظاهرتْ جانيت بالدهشة باعتدال. ضغطتْ يد إيفيرت برقة. بدا إيفيرت محرجًا تقريبًا وتساءلت ماذا قال القس عنه. وقف، مضطرًا، يحاول كبح ابتسامة. أبقى رأسه مخفضًا. صفق الحاضرون بأدب. آمين، سمعتهم يقولون، فتذكرت «آمين» التي نرددها. همستْ جانيت بكلمات شكر جزيل للجالسين بالقرب منها.

في الخارج، تحت شمس الضحى، انتظرت أنا وشاونا وجابريل فيما يتلكأ جانيت وإيفيرت ليصافحا الآخرين ويسألان عن

أطفالهم. أشارا نحونا وشع وجهاهما فخرًا كأنهما فرغا لتوهما من نحت ثلاثتنا من كتلة خشب واحدة.

«هذه هي الحال كل يوم أحد»، همستْ لي شاونا، تجيب سؤالا لم أسأله.

«أريد الذهاب إلى الحمام»، قال جابريل وهو ينقل وزنه من قدم إلى أخرى.

«أخبرتك ألا تشرب ماءً هذا الصباح»، أنّبته شاونا.

«كنت ظمآنًا»، قال مكشرًا. «وأنتِ شربتِ ماءً. لقد رأيتك».

«لكنني أستطيع التحمل. أنت لا تستطيع التحمل».

تقدم جابريل خطوة نحو جانيت. رددتْ شاونا شيئًا ما بهمس.

«ما المشكلة؟» سألتُ شاونا.

هزت شاونا رأسها وجابريل يشد جانيت من كم سترتها. احتدّت زاويتا فم جانيت بشدة، ضيقت عينيها وهي تنظر إلى جابريل.

«إنهما لا يحبان مقاطعتهما»، قالت شاونا وتنهدت.

قربت جانيت شفتيها من أذن جابريل. كورت يدها على أذنه اليمنى، كأنها تمنع طيران رسالتها إلى الجانب الآخر من رأسه. أومأ جابريل برأسه بتخشُّب. تراجع خطوة إلى الخلف وعاد أدراجه. لم تعن شاونا بسؤاله عمَّ قالته له جانيت. عض شفتيه. رأيت يديه الصغيرتين تقبضان خاصرته. التفتُّ إلى شاونا لكنها أسكتتني قبل أن أتحدث.

«سيسوء الأمر».

بدا جابريل كأنه على وشك الانفجار. كان وجهه يزداد حمرة وهما يقوداننا إلى السيارة لنعود إلى المنزل. سارت جانيت بهدوء شديد إلى حد تأكدت من أن جابريل لم يخبرها بحاجته الشديدة إلى دخول الحمام.

لكن ما إن صارت السيارة على الطريق وبدأت الكنيسة تتكمش في المرآة الخلفية، أهبطت جانيت واقي الشمس العلوي أمامها. كان به مرآة صغيرة رأينا فيها غضبها.

«لماذا لا يمكننا حضور القداس دون أن نشعر بالتهديد من أن تبلل سروالك؟» سألت، بغضب.

«كنت أريد دخول الحمام»، قال جابريل باكيًا.

«كم ساعة تنام ليلًا؟ عشر ساعات؟ اثنتي عشرة؟» صاح إيفيرت. انفجر صوته في الفراغ الصغير للسيارة. نظرتُ إلى شاونا التي وضعت يدها على رجل جابريل. كان رأسها مخفضًا كأنها ما زالت تصلي. «إن كنت تستطيع إمساك نفسك طوال الليل، كيف لا يمكنك إمساك نفسك مدة قداس بسيط؟»

انعطف يسارًا بحدة، عبر حارتين ودخل إلى ساحة انتظار مفروشة بالحصى أمام مبنى طويل من الطوب. مالت شاونا على كتفي اليسرى حتى اعتدلت السيارة وتوقفت فجأة. رغم زحام الطريق، كانت ساحة الانتظار خالية.

كانت دموع جابريل تسيل على خديه. نشج وقدماه تنقران الأرض بسرعة وهو يشبك يديه الاثنتين بقوة بين رجليه.

«اذهب. اخرج من السيارة إن كنت في حاجة ماسة هكذا». قال إيفيرت ببرود ويداه على عجلة القيادة. «وقف حيث يمكننا رؤيتك».

فتح جابريل الباب وترجل من السيارة. ركض نحو ركن من الساحة، فأهبط إيفيرت زجاج نافذته وصاح: «حيث يمكننا رؤيتك، قلت لك!» لوح بإصبعه نحو مقدمة السيارة. عاد جابريل يركض نحو السيارة. كانت رؤيته وهو يعاني مؤلمة لكن النظر بعيدا كان صعب أيضًا. استأت بشدة من هذا الأمر، لكنني أدركت في ما بعد أن الجميع بهذه الفظاعة، قد يتسببون في وقوع حادث آخر ليلقوا نظرة جيدة على الحادث الواقع بالفعل.

وقف جابريل أمام السيارة. عبثت يداه بسحاب بنطاله. كان يكافح بدموعه وأصابعه المرتعشة.

«ظننته مستعجلًا»، تنهد إيفيرت. شخص ببصره في الأفق للحظة، كأنه يفكر في الأمر مليًا. ثم، ودون أن يردد كلمة أخرى، ضرب عجلة القيادة بيده وانطلق بوق السيارة فجفلنا أنا وشاونا في مكانينا. حتى جانيت بدت منزعجة.

أطلق جابريل نحيبًا. تحول نشيجه إلى بكاء هادئ ورأيت بقعة داكنة على مقدمة بنطاله، وأصابعه ما زالت تعالج السحاب. أفرغ مثانته ثم عاد إلى السيارة. كان يبكي بهدوء لكنه ينشج رغمًا عنه.

«قذر كعادتك»، قال إيفيريت حين جلس جابريل في المقعد الخلفي.

«شاونا»، قالت جانيت. «دعي جابريل يجلس على سترتك. لا نريد بولًا على المقاعد. لم أكن أعرف أننا سنذهب إلى تمرينات التغوط حين تبنيناه...»

جلس جابريل على سترة شاونا، عيناه دامعتان وكسيرتان. اختلطت رائحة الكولونيا برائحة البول فازدادت سوءًا. حين

وصلنا إلى المنزل. أمرتنا جانيت أن نغير ملابس الكنيسة. ذهب جابريل ببنطاله المبلل إلى الحوض في غرفة الغسيل. وقف على كرسي ودعكه بمسحوق غسيل مطهر، غمره في الماء الساخن ودعكه أكثر. كان يميل إلى الحوض العميق بشدة إلى حد بدا أنه قد يسقط فيه، وفي الحقيقة، بدا أنه يرحب بالاختفاء في المياه القذرة.

أُرسِلنا إلى الفناء الخلفي حيث أرتني شاونا كيف أنزع العشب من الأرض دون أن أتلف الجذور. ارتدت جانيت قفازي بستنة وراحت تزيل الأعشاب الضارة من أحواض الزهور أمام المنزل. أوكلتنا نحن بالفناء الخلفي.

أدفأت شمس الظهيرة بشرتي. تجمعت حبات العرق أسفل عنقي وعلى جبيني. ركعنا على ركبنا، نسمع صداح الطيور البعيدة وأصوات أطفال يلعبون في مكان ما بعيد عن أنظارنا. عمل جابريل بيننا، وملأت شاونا الصمت بمحادثات قصيرة عن موضوعات بدا أنها تتلقاها من السماء.

«هل تظنان أنه توجد أرانب تعيش هنا في الخلف؟ أنا لم أرَ واحدًا قط لكن هذا لا يعني أنها ليست موجودة. لكنني رأيت جرذ الأرض ذات مرة».

لم يقل جابريل شيئًا. تمنيت لو يمكنني الترويح عنه قليلًا.

«أنت سريع»، أخبرته وأنا أنظر إلى كومة العشب أمام قدميه. مسح أنفه بظهر كفه. كان صغيرًا جدًّا لكنه أكبر من أخي.

«لا، لست سريعًا»، تمتم. «ربما ستغضب مني لهذا أيضًا».

نظـرتُ إلـى الأكـوام الثـلاث التـي جمعناهـا، متباينـة بشـكل قـد يثيـر مشـكلات. أخـذتُ بعضًـا مـن كومتـي وأضفتـه إلـى كومتـه، صـارت الكومتـان متسـاويتين فـي الحجـم. أمسـكت شـاونا العشـب بيدهـا اليمنـى، ألقتـه فـي كومـة جابريـل، ثـم أضافـت بعضًـا مـن كومتهـا فـي لحظـة تواطـؤ لذيـذة.

«تظـن أن أزهارهـا لا تنمـو لأن الغـزلان تأكلهـا. لكننـي أظـن أن الأزهـار لا تنمـو لأنهـا لا تريـد النظـر إليهـا»، قالـت شـاونا. بصـوت زادتـه السـخرية حِـدة. «أوه، أيتهـا الـورود! أرجـوك انمِـي والعبـي معـي! أيتهـا الزنابـق، أيـن أنـتِ؟»

تغضنـت زاويتـا عينـي جابريـل. لمعـت أسـنانه اللؤلؤيـة الضئيلـة وهـو يضحـك.

فـي تلـك السـاعة، حتـى ونحـن نكـدح، عـاد كل منـا إلـى أصلـه المختلـف. كلمـا حفرنـا بعمـق، اقتربنـا مـن أنفسـنا الحقيقيـة. أزلنـا الثـرى عـن الديـدان والخنافـس وعشـرات مـن المخلوقـات الضعيفـة الأخـرى. بلـل العشـب ركبنـا. أدفـأت الشـمس فـروة رؤوسـنا. وخزتنـا أشـواك الزهـور البريـة لكننـا لـم ننـزف لأننـا، فـي تلـك السـاعة المشـرقة، شـعرنا بأننـا أطفـال الـرب.

الفصل الثاني والثلاثون

آلمني ظهري من الانحناء مدة ساعة في الفناء. تقلبت في الفراش دون أن أجد وضعًا مريحًا. ستذهب شاونا وجابريل إلى المدرسة في الصباح. أفتقدهما بالفعل. غسلتُ أسناني جيدًا وأخذت وقتًا طويلًا في الحمام. لم أرد العودة إلى غرفة النوم المظلمة. حين مرت جانيت بالغرفة، مدت يدها وأطفأت النور.

«شاونا؟»

«نعم؟»

مكتبة
t.me/soramnqraa

«ألست نائمة؟»

«لا».

حِرتُ في ما أريد أن أسألها عنه. كنت أخشى الأسئلة، أخشى من طرحها لئلا ينتهي الأمر بمزيد من الأسئلة لي.

«كم من الوقت ظللت هنا؟»

«أتعنين في هذا المنزل؟»

«نعم».

«عامًا واحدًا»، قالت، بصوت كسير. «إنه ليس مكانًا جيدًا. لكنني لم أذهب إلى مكان جيد منذ وقت طويل».

أرعبني هذا. ماذا لو استغرقت تيلي وقتًا طويلًا جدًّا لتتعافى؟ هل سينقلونني إلى مكان آخر أسوأ من هذا؟ هل سيجلس إيفيريت على حافة فراشي أنا الأخرى؟

قبل أن أسأل أي أسئلة أخرى، تقلبت شاونا وأدارت ظهرها لي. أرهفت سمعي في هدأة الليل، أحاول أن أتخيل أين قد يكون

جانيت وإيفيرت في المنزل وماذا يفعلان. سمعت صوتيهما في المطبخ.

فكرت في الكنيسة وأدركت أنني شردت تمامًا في تلك النافذة الزجاجية الملونة لأنني كنت أفكر في أمي. أردت أن أشعر بما شعرت به حين جلست في كنيسة أمريكية لأول مرة، تراقب أشعة الضوء الملونة تغمر عباد الرب. هل صلت في الكنيسة؟ لماذا لم أسألها عن هذا؟

سقطت في النوم وأنا أبكي. تساءلت إن كنت قد تصرفت بشكل سليم أم خاطئ حين حنيت رأسي في أثناء القداس. كنت قد صليت للرب الواحد الذي أعرفه. دعوته أن يشفي تيلي وأن تأتي إليّ أنتونيا لتأخذني وأن يعتني بأبوي وأخي. لكنني لم أشعر بشيء، ولا أدنى قدر من الراحة التي تبعثها الصلاة إلى جانب أمي أو سماع تلاوتها القرآن. فكرت في أنني، ربما، بعيدة جدًا عن البيت ليسمعني الرب.

في الصباح، استعدت شاونا وجابريل إلى الذهاب إلى المدرسة. كنت ما زلت في الفراش حين صعدت شاونا مرة أخرى.

«الوقت تأخر جدًا، لقد أخبرت جانيت أنك ستغتسلين وترتدين ملابسك لذلك أسرعي أرجوكِ».

شددت الغطاء أعلى وجهي، لا أريدها أن تراني.

«آريانا؟» قالت برقة. «ألن تنهضي؟ سيغضبان».

شعرت باهتمام حقيقي في صوتها، حتى وإن لم يلمس قلبي بشكل خاص هذا الصباح.

«أرجوك. ما زلت... ما زال عليكِ أن تنهضي».

ربما بسببها، سرت بتثاقل إلى الحمام حيث اغتسلت وغيرت ملابسي. تناولنا الإفطار معًا، حبوب جافة وشريحة تفاح واحدة لكل منا. رغم جوعي منذ أويت إلى الفراش ليلة أمس، لم ألمس الطعام.

«لماذا لا تأكلين يا آنا؟» سألتْ جانيت وهي تقف فوقي ويداها في خصرها. «نحن لا نتسامح مع التبذير هنا. بالتأكيد يمكنك فهم هذا، وقد جئتِ من ذلك المكان الذي جئتِ منه».

تناولتُ كرهًا نصف ملعقة حبوب. عانقني جابريل قبل أن يغادر. تطلع إليّ بعينين يملؤهما الأمل، ذكّرني بدودة الأرض التي وجدها، والصخرة التي وجدتها شاونا والتي تلمع بخطوط من الذهب والفضة. وضعتْها شاونا في جيبها لتسأل عنها معلم العلوم في المدرسة ليؤكد لها أنها كنز. كانت تلك الساعة الثمينة قد مضى عليها زمن طويل. ليلة كاملة من النوم المتقطع.

«انظري أسفل فراشي. لدي شيء مميز هناك. يمكنك أخذ واحدة إن شئتِ»، قالت شاونا لي حين تأكدت أن جانيت ليست قريبة لتسمعها.

أومأتُ برأسي وتمتمت بشيء ما. غادرا. راقبتهما من نافذة غرفة النوم وحقيبتا ظهريهما تتقافزان مع كل خطوة، انعطفا وتركاني وحدي مع جانيت. كان إيفيرت قد خرج مبكرًا في الصباح ليساعد في شيء ما في الكنيسة. تساءلت إن كان قد ارتدى قميصه ذا الكمين القصيرين كما فعل بالأمس أم سيرتدي شيئًا آخر ليخفي الخدوش التي آمل أن أكون قد تركتها على

ساعديه ليلة أمس... تساءلتُ إن كان الرب في الكنيسة سيعرف سبب تلك الخدوش.

صبت جانيت لنفسها كوب قهوة بالكريمة، تحركت الملعقة المعدنية داخل الكوب لتمزج بين الظلام والنور في شيء واحد.

«أنا في انتظار مكالمة من آن»، قالت، كأنني سألتها. «سنلحقك بالمدرسة قريبًا. حتى ذلك الحين لديَّ هنا كتب رائعة يمكنك قراءتها للمساعدة في توجيهك».

عدتُ ببطء إلى الطابق الأعلى. أشعر بالثقل والغرابة في هذا البيت كأنني فيل.

جلستُ على فراشي، أنظر إلى فراش شاونا، لحافها مشدود بعناية من أطرافه الأربعة. ركعتُ على الأرض ونظرت أسفل الفراش، شممت رائحة أسطوانة معدنية صغيرة. سحبتها إلى الضوء ووجدت أنها لفة حلوى مستديرة، من النوع الذي يحتفظ به إيفيرت في جيب سترته وكان يتناولها في السيارة ونحن في طريقنا إلى الكنيسة صباح أمس.

تركت اللفة وعدت أبحث أسفل الفراش. ضممت ركبتي إلى صدري واستندت إلى الطاولة المجاورة للفراش، أراقب حبيبات التراب تطفو في ضوء الشمس. كانت جانيت تدندن في الطابق السفلي لحنًا خفيفًا ومرحًا.

حسبت أنني رأيت درجات الظلام كافة منذ الانقلاب لكنني كنت مخطئة.

كان أبي قد قرأ لي ملحمة شاهنامة في أجزاء، مقاطع عن ملوك ومليكات ومخلوقات غامضة بأجنحة. في اليوم الأربعين

من حياتي، حملني أبي بين ذراعيه. متخمة بلبن أمي وأرتدي ثوبًا ورديًا من الصوف صنعته لي جدتي، رأى أبي الشبه الصادم بيني وبين رودابه، ابنة ملك كابول في الشاهنامة. كنت أشبهها بأهداب تشبه جناحي غراب نوحي ووجه مضيء كالقمر.

أيجعلك هذا ملكًا يا بابا؟

التاج لن يلائم رأسًا مربعًا مثل رأسي، أجابني وهو ينقر رأسه بمفاصل أصابعه. ضحكتُ لأنه يصنع أكثر الوجوه إضحاكًا حين يتحدث عن نفسه. *كذلك، التيجان تأتي وتذهب رغم أنف الرجال.* تنحنح ثم ألقى بيت شعر من الشاهنامة، بيت شعر لم أكن لأفهمه تمامًا حتى حين ظننت أنني فهمته أخيرًا:

قد ينعم رجل في السرور قبل أن يسقط في حفرة لم يرها من قبل قط

ويُرفع آخر منها ليوضع على العرش ويكلل بتاج مرصع بالحجارة الكريمة

بين المد والجزر لا حرج على العالم في شيء.

لأنه هو من يوزع السرور والهموم.

وقفتُ. شعرت بهواء منعش يعبر وجهي. النافذة مفتوحة، لا شيء بيني وبين السماء. سحبت رأسي إلى الخلف وأخذت نفسًا عميقًا، للهواء مذاق حلو كشذا حدائق القصر ومنعش للروح كنفسي الأول الذي تنفسته على سطح السفارة في إسلام آباد.

لقد قطعتُ كل تلك المسافة، فكرتُ. ربما ليست كافية. رفعتُ رجلًا واحدة على إطار النافذة ثم الأخرى، وجلستُ على الإطار الرفيع.

نقر كعباي الجدار الخارجي للمنزل. شعرت بدغدغة في باطن قدمي حيث [illegible] جلد سُمكًا. لم يكن ألمًا، بل إدراكًا حسيًّا جديدًا. كان جسدي واعيًا بشكل لم أشعر به من قبل قط. بدت يداي صغيرتين بشكل مستحيل. شعرتُ بأنفاسي تتحرر وعظامي مسامية وهشة. شعرتُ بأنني عشت ألف عام وأتوق إلى الراحة.

لم أسمع رنين جرس الباب أو تحية جانيت الودودة. لم أسمع وقع الخطوات التي تصعد السلم. لم أسمع حتى النداء باسم أختي. بكل الأخطاء في مقاطعه.

لقد قطعتُ كل تلك المسافة. ربما عليّ المواصلة إلى أبعد قليلًا.

ترنحتُ، كما لو كنت أعلى سطح في كابول والغرفة معبأة بالدخان المُر للرغبة والكره، حين نشبت الخطيئة والعزلة أنيابهما في لحمي، حين امتدت ذراعاي بحثًا عن الملجأ والثأر معًا.

تقت إلى نبوءات أبي البلّورية وتركتُ يداي إطارَ النافذة.

تلقفينني، صحتُ أخاطب الريح، أخاطب الحرية في تيارها.

تلقفينني!

الجزء الثاني

الفصل الثالث والثلاثون

يونيو 2008

كان بوسع نيا تقديم بعض التقارير إلى رؤسائها في وزارة الخارجية والعودة إلى كابول أو إلى منصب آخر. كان بوسعها تصديق أن التبني أفضل لتربية طفلة بالنسبة إلى امرأة قررت بالفعل أن الحياة الأسرية ليست لها.

لكنها لم تترك الأمر. لأنها من النوع الذي يركض نحو النار، رغم كل شيء. طالبت أنتونيا بحضانتي، بكل جروحي ومخاوفي ونوبات انفجاري.

قد توصف سنواتنا معًا بأي شيء ما عدا أنها سهلة.

بدأنا من الصفر في كوخ تيلي خارج أنابوليس. حدقتُ إلى الصور الفوتوغرافية المعلقة على زهور ورق الحائط، تيلي ونيا في أعمار مختلفة. كانت توجد صور لوالد نيا أيضًا، يُعلِّم نيا كيف تمسك بخيط الصنارة أو جالسا إلى مكتب وأصابعه تحلق أعلى آلة كاتبة. في تلك الأثناء كانت نيا تنكب على أعمال ورقية وتظل تروح وتجيء وهي تتحدث عبر الهاتف مع محامٍ. حاولتُ إخفاء عينيها الحمراوين. كانت تأخذ الهاتف إلى غرفة أخرى. ظلت تستعير من المكتبة العامة كتبا عن التربية والفقدان. لكن جدران بيت تيلي كانت رفيعة. كان بوسع كل منا سماع بكاء الأخرى. وكانت إحدانا تراقب الأخرى وهي تلتقط الطعام قسرًا.

سواء بالدم أم النار، أو على نحو افتراضي، الأمومة ليست سهلة.

ولا أخالني اعتبرتها أمي في أي لحظة. لم أنادها «مادر» بالطبع. لكنها عند نقطة ما في طريقنا معًا، صارت «ماما»، لقبًا فريدًا وصعب المنال.

بعد نحو عام من وصولي إلى الولايات المتحدة، أخذتني ماما إلى طبيب نفسي. كان في تلك الغرفة الصغيرة المؤطرة بالخشب وفي ركن منها مجموعة من المكعبات ودميتان بشعر أشقر، أن تحدث معي أحد عن وقائع عامي العاشر. في تلك الغرفة، وأنتونيا على الجانب الآخر من باب من الخشب الرقائقي، طُلِب مني التحدث عن حوادث معينة ظلت تجعل أسناني تصطك في أثناء نومي، وتجعلني أقيء حين أشم رائحة بول.

بعد الزيارة الخامسة، توسلتُ إلى ماما ألا أذهب مرة أخرى. كانت نوبات الصداع تنتابني بتكرارية وقوة مضاعفتين. تقلصت شهيتي، وتبدد تركيزي. كنت متوترة كالخيط المشدود، اهتزُّ لأضعف لمسة.

أوقفتْ ماما زيارات الطبيب. كانت بالكاد يمكنها تحمل كلفتها في جميع الأحوال. أجبِرت على أخذ إجازة من عملها إلى أن يمكنهم إعادة تعيينها. منذ عشر سنوات فقط، كان النساء يُجبَرن على تقديم استقالتهن حين يتزوجن؛ ما يجعل موقف الأم العزباء أضعف بكثير. اقترح عليها رؤساؤها أن تترك العمل في وزارة الخارجية وتغامر في القطاع الخاص. في أحيان أخرى كثيرة كانوا يقترحون عليها إيجاد زوج.

لكنها، حتى وإن أرادت، ما كانت لتذهب للبحث عن الحب والزواج وأنا أحتاج إليها بشدة.

الحزن كالقطران، وكنت مغطاة به، من رأسي حتى أخمص قدمي. كان كل شيء يلتصق بي، نظرة جانبية، عبارة لم أفهمها، رؤية فتاة تركض إلى ذراعي أمها. بدا أحيانًا كطبقة حماية، إن حاولت نزعها عني، سينسلخ لحمي معها.

كان أمامي الكثير لفهمه. في ذهني، أنا ستارة وعمري عشرة أعوام. لكنني أمام هذا العالم الجديد، أنا آريانا وعمري اثنا عشر عامًا. وفي الحقيقة، لم أستطع حمل هويتين وجنسيتين. نجوتُ بتركي ستارة، أضفتها إلى تعداد الجثث في الانقلاب على القصر. دفنتُ الأسرة التي فقدتُها، الطفولة التي قضيتُها.

صرتُ آريانا. أخبرنا العالم أن ماما تبنتني وأننا لا نعرف سوى القليل عن أصولي. كنت حين أردد هذا يتذكر الناس شيئًا ما عليهم عمله أو يتحدثون عن الطقس. قليلون من يطرحون مزيدًا من الأسئلة.

تعلمت تناول أطعمة جديدة. التحدث بكلمات جديدة. أن أنام الليل، بالكاد، وأن أتجاوز نوبات الصداع الحاد.

أخذت اسم ماما الأخير وصرت آريانا شبرد بشكل رسمي، الفتاة التي سقطت من السماء.

صارت ماما معالجتي النفسية، ومعلمتي، وولية أمري. أحضرتْ أوراقًا وألوان ماء. جلسنا على دكة وحاولنا إعادة خلق أسطول الأشرعة البيضاء في خليج تشيسابيك المتلألئ. صعدنا التلال في الخريف وجمعنا أوراق شجر بلون الغروب ووضعناها

بين صفحات الكتب. أشعلنا نارًا وجلسنا نشاهد ألبومات تيلي، قصاصات من جرائد بصور لها في ملابس وعروض متنوعة. قلّ شعوري بالوحدة. بدأت أستيقظ بقدر أكبر من الراحة. قضيتُ أوقاتًا أقل في غرفة مظلمة في انتظار سريان مفعول المسكن للتغلب على الطرق في رأسي.

لاحظت ماما الفارق أيضًا. كانت حين لا يمكننا صعود التلال تصر على السير مسافات طويلة.

«أتريدين أن نتسابق؟» سألتني بمرح ذات يوم. كان طريق المشاة ممتدًا أمامنا طويلًا وخاليًا، وضعتْ يديها في خاصرتها وتظاهرت بالإهانة. «أتحسبينني سريعة؟»

بدأتْ بهرولة بطيئة.

فانطلقت أنا في الركض سريعًا.

صرت أركض يوميا بعد ذلك، رغم الألم الذي شعرت به في باطن قدمي حين يصطدم جلدها السميك بالأسمنت. ركضتُ لأعود الفتاة التي اعتادت اعتبار العالم مكانها. لأتأكد من أن لا شيء يقيد كاحليّ. كنت بعد كل جولة أميل إلى الأمام بيديّ على فخذي وأسحب الهواء بجرعات طويلة وثقيلة حتى يزول الشعور بالاحتراق من رئتيّ... كنت قد عشت حتى ذلك الحين دون أن أقدر نعمة أنه يمكنني التقاط أنفاسي.

في أحد الأيام، أجلستني ماما وأخبرتني أنها تلقت عرضًا بمنصب في تركيا.

اندفعت من الباب وركضت في الشارع. كان صدري يشتعل بالنار، والدموع تسيل على وجهي. مررت بالمدرسة حيث سخر

منـي الأطفـال حيـن زل لسـاني وقلـت «الجبـر» بـدلًا مـن «الجِبـرا» فـي حصـة الرياضيـات. ظنـوا أننـي المخطئـة فـي نطقهـا.

«الجبـر» تعنـي ضـم الأجـزاء المكسـورة معًـا، هكـذا علمنـي أبـي. كانـت الكلمـة تسـتخدم للتعبيـر عـن عـلاج العظـام المكسـورة، ثـم أُسـتخدمت فيمـا بعـد لوصـف المعـادلات الرياضيـة.

كنـت مـا زلـت متغيـرًا مجهـولًا، سـتقف وحيـدة وغيـر محـددة. لـو تركتنـي مامـا الآن، لا أعـرف كيـف سـأنجو. بالطبـع لـن أعـود إلـى إيفيـرت وجانيـت. ضغطـت رأسـي بيـدي أحـاول اسـتجماع نفسـي.

«آريانـا!» صاحـت مامـا لاهثـة ومحمـرة الوجـه. كانـت قـد لحقـت بـي.

«أنـتِ تريديـن تَركـي!» صحـتُ فيهـا. كنـت أراقبهـا جيـدًا، دون أن تلاحظنـي. رأيـت الإرهـاق، والإحبـاط، والسـخط فـي وجههـا. عرفـت أنهـا تشـعر أحيانًـا بالنـدم علـى جعلـي مشـكلتها. ظللـت وقتًـا طويـلًا أتوقـع رؤيـة أحـد موظفـي الخدمـة الاجتماعيـة يجلـس فـي غرفـة المعيشـة مسـتعدًا لنقلـي إلـى بيـت جديـد.

«لا، لا! لـن أتـركك أبـدًا!» قالـت وهـي تركـع علـى العشـب. «سـأذهب فقـط فـي حـال سـمحوا بذهابـك معـي. هـذا مـا أردت أن أسـألك عنـه».

ركعـت أمامهـا. حيـن أمكننـا التقـاط أنفاسـنا، نهضنـا وعدنـا إلـى البيـت.

بعـد ذلـك بشـهرين. حزمنـا حقائبنـا واسـتقللنا طائـرة بجـوازي سـفرنا الأمريكييـن.

قضينا السنوات الأربع التالية في ثلاثة بلدان مختلفة، برحلات جانبية إلى قارات مختلفة. في اللحظات التي انفتح فيها قلبي للرب، شكرته على رسمه لي هذا المسار للاختفاء والوجود. على منحي فرصة أن أكون أمريكية دون العيش تحت المجهر الأمريكي.

تأرجح عالمي بين الروعة والعذاب مرارًا.

ركضتُ بطول خليج البوسفور وظهري لجبال الدولوميت المكسوة بالجليد. ركضتُ حول الميتاد ديل موندو [مدينة وسط العالم في الإكوادور]، واستكشفت شوارع القاهرة. أدركتُ وأنا أقف على ضفة نهر النيل أن على النهر أن يجري في اتجاه واحد إن أراد أن يجد بحرًا، كان حينها قد قررت ترك اسمي القديم وعالمي الماضي خلفي.

ركضتُ من كل ما شهدته. ركضتُ رغم كل ما عانيته. ركضتُ ضد الريح، وأحيانًا معها. ركضتُ في مسارات محددة وأحيانًا غير محددة. قست المسافات وركضتُ أميالًا كاملة، أربعة أو خمسة أو ثمانية، دون ترك أدنى أثر على الأرض.

نظرتُ إلى هاتفي، لا رسائل، ما يعني أن المرأة التي أجريت لها الجراحة اليوم بحال جيدة، كما يفترض بمعلمة روضة أطفال مصابة بالسرطان.

حين نظرنا في صور الأشعة، إلى التكوينات والأنماط المدورة على الشاشة بالأبيض والأسود، كانت تبذل جهدها لئلا تنهار.

هذا كله كثير عليكِ. ما الذي يقلقك أكثر من أي شيء آخر؟ سألتُ، كعادتي مع مرضاي دائمًا.

ترددتْ. غضت بصرها وهي تبوح بما يدور في ذهنها.

ما زال بإمكاني إنجاب أطفال، صحيح؟ أعني، في ما بعد. في وقت ما.

قضينا عشرين دقيقة نناقش خيارات التخصيب. لم نناقش فرص بقائها على قيد الحياة للأعوام الخمسة القادمة.

أتمنى ألا أجلس معها يومًا ما لتلك المحادثة الأخرى. المحادثة التي سأصارحها فيها بأن أي شيء يمكنني فعله قد يضرها بقدر ما سيساعدها. تشبه هذه المحادثات أن تمنح شخصًا ما كرة من الطين وتخبره أن يشكّلها كما يحلو له. البعض يحدق إلى الكتلة وقتًا طويلًا ثم يعيدونها لأنهم لا يعرفون ماذا يفعلون بها. آخرون يبدون كأن لديهم فكرة ما في أذهانهم لكنهم لا يمكنهم قرص أو ضغط الكرة لتشكيلها كما يتصورون. والجميع تقريبًا يدركون أنها ليست كرة من الطين بل كرة من الفضلات التي لا يرغبون في حملها.

أريد أن أقاوم، يقول البعض. ما يعني أن أقطع جرحًا أوسع، أعمق، أغامر بقدر أكبر لإبقائهم على قيد الحياة كي يتلقوا زيارة أخيرة من أخت تعيش في مسقط الرأس، أو لرؤية أول حفيد، أو لحضور مباراة مهمة حتى. خطوط النهاية اختراعات واهية. آخرون يستمعون جيدًا للخيارات التي أعرضها عليهم، يشكرونني على وقتي، ويطلبون من أبنائهم أو أزواجهم ذوي الأعين الدامعة أن يعيدوهم إلى البيت.

وأنا أضع هاتفي في جيبي، أسمع رنينه. رسالة نصية.

مضت ثلاثة أيام، آريانا. أرجوك قولي نعم. أعدك أنه لن يكون أخطر قرار تتخذينه اليوم حتى.

حلقت أصابعي أعلى الهاتف. أريد أن أرد لكنني لا أجد ردًا. وهذه هي المشكلة.

أعدت الهاتف إلى جيبي وبدأت أهرول ببطء. هواء المساء هادئ، بالكاد يهمس وهو يمر بأوراق الشجر.

أعرف أنه مضت ثلاثة أيام.

أصل إلى لافتة نصف الميل. اللافتات مربعات حمراء صغيرة مثبتة على دعامة السور الخشبية. كان الأخضر لونًا أفضل. طبيعي جدًا ليعرفه حتى الأطفال الذين لم يدخلوا المدرسة بعد. الأخضر يعني تحرك. الأحمر يعني قف.

تحرك.

قف.

لو كانت الحياة تأتي بإشارات مرور أو لافتات أميال، لكنت استطعت الرد على آدم الآن والركض دون تلك الأفكار التي تطرق رأسي.

لكن الحياة لا تأتي بإشارات مرور ولافتات أميال.

أصل إلى لافتة الميل وأجمع شعري إلى الخلف بقوة. لا أتردد في غرفة العمليات، حتى في أشد المواقف حساسية. يوجد خط رفيع بين الحرص والتردد وقد وجدت أن التردد يؤخر ما ينبغي فعله فحسب. التردد يعني أنني لم أنجز فرضي المنزلي.

دعانا ابن عم آدم لحضور حفل زفافه، الذي سيعقد بعد أسبوعين تقريبًا. كنت قد خططت لقضاء العطلة في بيت على البحيرة، أستمع إلى صوت الجداجد وأتشبّع بسحر انعكاس نور القمر على صفحة المياه. يظن آدم أن علينا تعديل جدولنا والاحتفال مع أسرته في مطعم بولاية كونيكتيكت.

لا أعرف كيف أخبره بأنني أُلاقي صعوبة ما مؤخرًا، شيء ما لم أشعر به منذ وقت.. يجعلني أتشبث بروتيني المعتاد وأرغب في البقاء في بيتي حتى مرور تلك الموجة.

أركض ميلي الثاني، ثم الثالث والرابع فيما يتحول الغسق إلى ليل. تسقط الأضواء من أعلى الأشجار على جانبي الطريق، تلقي بظلال شبحية على الأرض. لكنني أركض ليلًا ليستحيل تحديد إن كان الملح على وجهي من العرق أم من الدموع. لأثبت أنني لا أخاف ما قد يكون متواريًا خلف الأجمات. لا أنظر من أعلى كتفي. أركض أسرع فقط، وبقوة.

عازمة على إثبات نفسي للظلام.

الفصل الرابع والثلاثون

يجهز الفريقُ الطبي الغرفةَ لمقابلة المريض التالي، فتاة في التاسعة عشرة من عمرها مصابة بسرطان في المبيض، أصبُّ لنفسي كوب قهوة في غرفة استراحة الأطباء الخالية حيث، لأول مرة، لا يعرض التلفاز قناة إخبارية تبث طوال الأربع والعشرين ساعة.

كيف تفعلها؟ تسأل مضيفة البرنامج الحواري ضيفها، مغني روك لم أسمع عنه من قبل تعرّض في طفولته لإساءة بدنية مريعة على يد أبيه. كان أبوه يحرص على ضربه في أجزاء جسده التي تغطيها ملابسه فقط. حتى بعد موت أبيه، ظل يحتفظ بسنوات الإساءة سرًّا.

ألقيت نفسي على كرسي وأدرته لأواجه التلفاز.

بعد النجاة من خبرة بهذا القبح، كيف يمكنك الاستيقاظ يوميًا وتأليف موسيقى؟ كيف تقف على خشبة المسرح؟

يطرق المغني برأسه.

أحتفظ بكل هذا في صندوق، على ما أظن. لا أدعه يعوق الأمور الأكثر أهمية.

أقلب قهوتي. ترفض كتل القشدة المجففة الذوبان فيها.

قد يكون بعض من جمهورك ضحايا أيضًا. قد يتساءل بعضهم كيف تعاملت مع الصدمة.

يتحدث المغني عن المنظمة غير الهادفة للربح التي أنشأها لعلاج الضحايا بالفن. ليس بوسع الجميع فعل هذا بالطبع.

بعضهم بالكاد يمكنه فتح زجاجة كلونوبين[1].

أتراودك كوابيس أو ذكريات؟ تسأل المضيفة فيما يرشف المغني رشفة طويلة من كوب الماء في يده.

يأز جهاز مناداتي في خاصرتي قبل أن يجيب. غرفة العمليات جاهزة.

أنزع قفازاتي المعقمة وكمامتي عن وجهي. ما زالت مريضتي نائمة ومتصلة بأجهزة العناية لكن تأثير البنج سيزول خلال نصف ساعة وسيمكنني إحاطتها علمًا بالأخبار الجيدة، أن العملية سارت على نحو جيد وأن جرحها سيلتئم دون أن يترك ندبة.

بعد أن تقضي مدة التعافي، سأحيطها بالأخبار السيئة.

الورم الذي استأصلته في طريقه إلى معمل التحاليل حيث سيُقطع إلى شرائح رفيعة، وتحليله وفحصه بالمجهر. خلال أيام قليلة، سأتلقى تقريرًا من طبيب التحاليل يؤكد شكوكي بأن الورم قد نشب بمخالبه بالفعل في أعضاء أخرى سليمة.

«كيف حالك؟» سألتها في وقت لاحق من اليوم، حين مررت بغرفة الإفاقة. وجهها شاحب وعيناها زائغتان من أثر البنج.

«تعبانة»، تقول لكنها تبتسم. «كأنني كنت أركض في ماراثون».

أمها إلى جانبها الآن. جاءت بالطائرة من شيكاغو وتبدو شاكرة بفتور لأن ابنتها يمكنها المزاح في تلك اللحظة. أتركهما للراحة التي لا مثيل لها والتي تجلبها إحداهما للأخرى.. ستحتاجان إليّ أكثر لاحقًا.

---

(1) عقار لعلاج بعض الاضطرابات النفسية والعصبية. (المترجمة).

أغـادر المستشـفى وأسـتقل القطـار إلـى مانهاتـن لمقابلـة مامـا علـى العشـاء. جـاءت مـن أجـل غـداء رسـمي. لا أتذكـر بخصـوص أي قضيـة مـن قضاياهـا الكثيـرة، أو مـع مَـن مِـن معارفهـا الكثيريـن. تحققـت مـن سـاعتي واسـتقللت قطـارًا إلـى وسـط المدينـة لمقابلتهـا فـي مطعمهـا الهنـدي المفضـل. مامـا تفضـل الطعـام الحـار الليلـة.

«مرحبًـا حلوتـي!» تقـول، يـرن جـرس البـاب لـدى دخولـي إلـى المطعـم. نتعانـق وتقبلنـي علـى خـدي كأننـي مـا زلـت فتـاة صغيـرة.

«هل انتظرتِ طويلًا؟» سألتها.

«دخلـت لتـوي لكننـي طلبـت بعـض الباكـورا ريثمـا تأتيـن. خمنـت أنـك سـتصلين جائعـة».

«تخمين سليم، أنا أتضور جوعًا».

مـن يرانـي أنـا ومامـا وهـي تغرقنـي بحنانهـا لـن يصـدق أنهـا لـم تكـن تنـوي إنجـاب أطفـال.

«كيـف حـال دايـو؟ لـم أسـمعك تتحدثيـن عنهـا منـذ مـدة طويلـة»، تقـول مـا إن طلبنـا الطعـام. يسـرها دائمًـا أن أقضـي الوقـت مـع صديقتـي المقربـة. قضـت وقتًـا طويـلًا فـي انتظـار رؤيتـي آنـس لصحبـة مـا فـي الحيـاة. وفيمـا عداهـا هـي، كانـت دايـو الشـخص الوحيـد الـذي يعـرف شـيئًا عـن ماضـيّ.

«إنهـا بخيـر. مشـغولة كعادتهـا. كيـف كان الغـداء الرسـمي؟» أسـألها. الباكـورا أمامنـا الآن ولا نضيـع وقتًـا فـي التهامهـا.

«ممـم»، تقـول وهـي تمسـح صلصـة التمـر هنـدي عـن شـفتيها بمنديـل ورقـي. «مميـزة. لقـد حقـق برنامـج التطعيـم نجاحًـا باهـرًا فـي بعـض المناطـق الريفيـة فـي باكسـتان».

في العادة، لا أدع ذكر باكستان يغرقني في الماضي. لكنني اليوم، وأنا أستمتع برائحة الكمون في هواء المطعم، أجد ذهني يعود إلى تلك الأيام المشحونة مع تيلي.

«باكستان»، كررتُ.

ترفع بصرها إليّ. ترفع حاجبًا وتنتظر.

«لا أصدق أن ثلاثين عامًا قد مضت منذ باكستان»، قلت رغم وعيي الكامل بقدر الابتذال في تأملي في مرور الزمن.

«صعب جدًا تصديق ذلك»، قالت ماما ووضعت منديلها في حجرها. «كانت تيلي ستفخر حقا لرؤية ما حققتِه منذ ذلك الحين».

تيلي. لا يمكنني تخيل ما مرت به ماما منذ لحظة اكتشافها رحيلي أنا وتيلي مع إنديجو في سيارته المكتظة بالرحالة وحتى لحظة تلقيها المكالمة الهاتفية من واشنطن بخبر وفاة تيلي. رغم نقلها مباشرة من مدرج الطائرات إلى المستشفى، لم تنجُ. كانت قد عرفت عن إصابتها بالسرطان قبل أشهر من سفرها إلى أفغانستان، أخبرتني ماما بذلك حين كنت في المدرسة العليا.

حين أفكر في تلك الايام، أدرك أنني كنت أعرف حينها أنها ليست بخير.

لم يكن قبل عامي الثالث في كلية الطب -حين بدأت قضاء الوقت في المستشفى أكثر من أي مكان آخر- أن عرفت كم الأمراض التي لها روائح خاصة. عرفت حينها أيضًا أن لدي حاسة نادرة تلتقطها. بعض الروائح واضحة، طاغية حتى، كرائحة السمك النتن لالتهاب المهبل الجرثومي... وأخرى أكثر رقة

كرائحة الفاكهة في أنفاس مرضى السكرى. توقعت عددًا لا بأس به من حالات الحمل، لمريضات وممرضات، قبل وقت طويل من استدارة بطونهن. كنت أشم عينات البول قبل إرسالها إلى المعمل وأقضي دقائق إضافية إلى جانب فراش المريض لصقل مهاراتي.

كنت وأنا ما زلت متمرنة أعتني بمريضة ضمدتُّ لها قدمها المكسورة فحسب حين شممت رائحة شيء ما عضوي وملوث قليلًا، مزيج من رائحة الطحالب والعفن. لم يكن عليّ سوى التأكد من أن أصابع قدمها بلون وردي ويصل إليها الدم، لكنني بدلًا من ذلك سألتها إن كان بإمكاني إجراء فحوصات أخرى.

دوّرت عينيها. أخذتْ أنفاسًا عميقة إلى حد أن قيّمت حالة رئتيها. ليكن، قالت. لكن بعيدًا عن كاحلي وإلا ستدينين لي بجرعة مورفين إضافية.

بعد ذلك بدقائق، مررت بأصابعي على عقدة صغيرة أسفل ثديها الأيسر. تحسستها مجددًا، لأتأكد.

مرت بيننا لحظة فهم.

سأتزوج خلال ثلاثة أشهر، قالت، كأنها تعترض.

لم أتعلم الصوغ السليم للكلمات المستخدمة في تلك اللحظات الثقيلة.

دقات الساعة إيقاعها ثابت لكن الزمن يتمتع بمرونة. كانت الأسابيع القصيرة التي قضيتها مع تيلي عمرًا كاملًا من الأغاني، والتضامن، والأسى.

«أفكر في تيلي كثيرًا»، قلتُ لماما. «أتمنى لو كنت استطعت فعل شيء لمساعدتها».

«لم يكن من شيء يمكنك فعله. كانت مصابة بالتهاب السحايا. أنت تعرفين جيدًا جدًّا قدر الخطر».

«التهاب السحايا؟»

أومأت ماما برأسها.

«لم تخبريني بهذا قط. قلتِ إنها كانت مصابة بالسرطان».

«حسنًا، كنت طفلة حين تحدثنا عن هذا، وليس طبيبة. ربما لهذا لم أكن محددة».

حادث الجبال في طريقنا إلى جلال آباد.

أنف تيلي النازف في إسلام آباد.

«كان يجب أن أعرف»، قلت وأنا أجمع القطع معًا أخيرًا. يبدو أنها أصيبت بكسر في الجمجمة في حادث السيارة، وفتح صدع صغير في الجدار يعني دخول الميكروبات. بينما كنا في مخبأ السفارة، محاطين بالنيران، كانت تلك الميكروبات تشعل النار في الغشاء المحيط بدماغ تيلي وعمودها الفقري. لا بد أنها تألمت بشدة وقتًا طويلًا قبل ركوبنا الطائرة ومغادرة باكستان.

تألمت بشدة وأنا أفهم. مزق نياط قلبي مجددًا فحسب.

«ما الأمر يا آريانا؟» من حقها أن تعرف. أخبرتُها بنظريتي.

«فهمتُ»، قالت وطرفت بعينيها الدامعتين وهي تنظر في قائمة الطعام. «هذا منطقي».

كانت أنتونيا قد جزعت حين سمعت عن أحداث الشغب في سفارة إسلام آباد. كانت على وشك استقلال الباص لمقابلتنا هناك حين سمعت بخطط الترحيل. بدأت، حين عادت إلى أمريكا، ترتيبات جنازة تيلي، والبحث عني.

«أنا آسفة»، قلتُ.

«آريانا»، قالت بنبرة تأنيب في صوتها. «لا شيء من هذا خطؤك. أنا وماما كنا كبارًا. اتخذت كل منا قرارها الخاص. أرادتْ ماما أن تُخرِجك من البلد. كان ذلك مهمًّا عندها كما كان مهمًّا عندك. وإن لم تكن قد استقلت تلك الطائرة بكِ، الرب وحده يعلم كيف ومتى كان سيمكنني إخراجك من باكستان حتى بكل معارفي».

أغلقتْ قائمة الطعام وزمت شفتيها.

«بدوتِ ذلك اليوم كأنك كنت ستقفزين»، قالت برقة. «حين دخلتُ تلك الغرفة ورأيتك تقفين عند النافذة المفتوحة، ذُعرت. وتلك المرأة، بدت لطيفة، كانت تعبث بكوب قهوتها في المطبخ فحسب. كوب قهوتها اللعين».

جفلتُ للذكرى.

«نحن جميعًا نصل إلى مصائرنا يا آريانا». قالت.

ذلك اليوم، لم أسمع باب الغرفة ينفتح. أسرعتْ أنتونيا ولفّتني بذراعيها قبل أن ألحظ وجودها. سقطتُ إلى الخلف، في حضنها. لا أعرف كم بقينا على أرض تلك الغرفة أم إن كانت جانيت قد جاءت لترانا أم لا.

استغرق الأمر يومين كاملين لتستعيدني أنتونيا. اعترضتْ جانيت وإيفيرت حين عرفا أن أنتونيا ليست متزوجة لكنهما تخليا عن الأمر سريعًا.

كنت قد قضيت مع ماما شهرًا قبل أن أذهب إليها باكية، أتوسل إليها أن تحضر جابريل وشاونا ليعيشا معنا. في البداية ظنتني

أفتقدهما، حتى أمكنني إخبارها بما حدث في ذلك المنزل. أتذكر الفاصل الزمني الطويل قبل أن يشحب وجهها تمامًا دلالة الفهم. لم تجلبهما ليعيشا معنا لكنها فتحت نارا مستعرة على نظام التبني وتأكدت من نزعهما من حضانة جانيت وإيفيرت. بعد ذلك بسنوات عديدة خطر لي أنه لا يوجد ضمان حقيقي بأن جابريل وشاونا قد آل بهما الأمر في النهاية إلى مكان أفضل.

«ما زال قلقي عذابًا حين أفكر»، قالت ماما بصوت رقيق كجناح فراشة. «فيمَ كنت تفكرين وأنت تقفين هناك ذلك اليوم».

حتى الآن، لست متأكدة. أعرف أنني كنت أتوق إلى الهروب من تلك الغرفة وذلك المنزل وربما حتى من رأسي نفسه. أردتُ أن أطير، أن أشعر بخفتي في السماء العالية، ولو للحظة واحدة فقط.

الفصل الخامس والثلاثون

يشبك آدم ذراعه بذراعي. نسير في شارعي المتحول. شهدت كثيرًا من التغيرات منذ أن أقمت هنا، صار المتجر الخيري محل عصائر على منضدته الرخاميّة عشب القمح ينمو في أصص صغيرة. استأجرتْ امرأتان محل البقالة الكائن عند المنعطف وحولتاه إلى استوديو يوجا حيث تُحيي نساءٌ بسراويل وردية ضيقة الشمسَ. حل محل المطعم الجامايكي مقهى مجهز بمدفأة حقيقية، وإنترنت مجاني، وبركة مياه للكلاب الصغيرة.

يعرف أنني أفتقد الشارع القديم. كان المتجر الخيري كأنه سوق من عالم قديم، بأرففه الملأى بضروريات وأشياء مصنوعة يدويًا. في كل مرة دخلت فيها محل البقالة، كان صاحبه يصيح «دكتورة!» ويقبض على صدره بألم مصطَنع. كنت أذهب إلى محله أكثر مما أحتاج، ومع ذلك لم يمكنه تجديد عقد الإيجار.

تعودتُ أنا وآدم العالم الجديد وقررنا أن المقهى هو التغيير المفضل لدينا، خاصة حين يكون المقعدان المجاوران للنافذة شاغرين.

ظللت أواعده عامًا تقريبًا لكننا نسكن على طرفي المدينة ونعمل ساعات عدة لا تترك لنا وقتًا طويلًا للعب، لذلك فالعام ليس بعام حقًا. يعمل في الاقتصاد، على نهج أبيه. أحببت إعجابه بأبيه. ذكرتني محادثاتهما بأبي وهو يحدثني عن عمله كأنني متمرنة شابة.

قابلته في محل كتب بمطار شيكاغو. كنت أمسك كتاب رحلات في يد وكتابًا عن شركات الأدوية الكبرى في الأخرى حين اقترب مني.

قواد وعالم الطب، قال وهو ينقر على زجاجة الحبوب البرتقالية على غلاف الكتاب.

التفتُّ فالتقتْ عينانا.

حسنًا، إذن. قطبت للتفكير في ما قد أكونه أنا في سياق هذا الوصف.

أُسقِط في يده. أغمض عينيه لوهلة ثم نظر إليّ، وهو يميل برأسه.

أنتِ لستِ...

شخصًا متسامحًا؟

كُنت سأقول جراحة، **قال وهو يشير إلى فمه.** *أترين، لدي هذا اللسان أحتاج إلى قطعه.*

سألني عن موعد طائرتي وإن كان لدي الوقت ليدعوني إلى كوب قهوة. قلت لا لكنني وجدته بعد ذلك يقف عند بوابة الركوب. كنا على متن الطائرة نفسها، يتجه كل منا إلى بيته في نيويورك سيتي. كان عائدًا من لقاء لم شمل زملاء الكلية وكنت عائدة من مؤتمر طبي قدمت فيه عرضًا.

أدار محادثات سلسة. كان ذكيًا وخفيف الظل. جعلني أضحك وبدا محرجًا حقًا من تعليقه في محل الكتب. كان منبهرًا بعملي لكنه لم يخبرني أنه كان بإمكانه الالتحاق بكلية الطب إن أراد أو يشيد بمزايا عمله. بدا مستريحًا.

صعدنا إلى الطائرة وجلس على مقعده خلف مقعدي بخمسة صفوف. شعرت بعينيه على مؤخرة رأسي. ما إن بدؤوا إغلاق الأبواب، نهض ليسير في الممر وطلب من الرجل الجالس بجانبي أن يبدلا مكانيهما إن لم يكن لديه مانع.

نحن زملاء دراسة قديمان ولم يرَ أحدنا الآخر منذ سنوات، قال للرجل الذي رفع كتفيه ووافق. جلست أنا وآدم كتفًا إلى كتف، على ارتفاع آلاف الأقدام من الأرض، نثرثر حول أماكننا المفضلة في نيويورك سيتي، الحال المتردية لنظام التأمين الصحي، واحتمالية إيجاد حياة على كواكب أخرى في العقود القليلة القادمة.

آريانا، قال ونحن نسير في ممرات مطار لاجارديا. *أرجوك أخبريني أنك تحبين القهوة.*

واعدتُ قبل آدم عددًا قليلا من الشبان. لم تترك لي الدراسة ولا الإقامة وقتًا ولا طاقة كافيين. نادرًا ما تجاوزت الموعد الثالث مع أي منهم. كنت دائمًا، في منتصف الموعد الثاني تقريبًا، أجدني أدرج في ذهني قائمة بكل شيء سيسعدني فعله بدلًا من اضطراري إلى إجراء محادثات قصيرة وتناول رقائق التورتيلا.

فاجأني آدم. اقترح في موعدنا الثاني أن نذهب للعب البولينج رغم كونه لاعبًا سيئًا جدًا. تحول الموعدان إلى أربعة، ثم ثمانية. لم يكن بحاجة إلى معرفة كل شيء عني دفعة واحدة. أخبرته بأن ماما قد تبنتني وأنا صغيرة جدًا. وعن عملها في وزارة الخارجية وعن الأماكن الكثيرة التي زرتها معها. أحبّ الاستماع إليَّ أحكي عن عملها وأحببتُ إعجابه بها.

شقته في الجانب الغربي العلوي من مانهاتن. شقتي الصغيرة في كوينز. يستغرق الخمسون ميلا بيننا ساعة بالقطار تقريبًا، ثلاثة قطارات أنفاق بحد أدنى. ثم علينا ترتيب جدولي عملنا، معركة ساعات العمل. أعمل في العيادة أو المستشفى لنحو ستين ساعة في الأسبوع. يعمل آدم نحو خمسين ساعة في الأسبوع وفي العادة يقضي ساعات سعيدة أو عشاءات عمل. لكننا وجدنا لعلاقتنا روتينًا، فكنا نستغل كل ما يمكن أن يقدمه أحدنا للآخر أفضل استغلال.

كان أحيانًا كل ما يمكن لأحدنا تقديمه للآخر هو الصبر. أخبرته بأنني لم أفكر في الزواج قط، وهو أمر صحيح. كنت أتذرع بعملي لكن الأمر أكثر من ذلك بكثير. يظن أنني سأستسلم في النهاية لأن هذا ما يفعله من في سننا. ومع أن أغلب أصدقائه صاروا آباء الآن، فإنه لا يريد إنجاب أطفال. ما يناسبني. لم أفكر قط في إنجاب طفل إلى هذا العالم، ليس بكل حوافي الحادة وزواياي القاتمة. تقبلت منذ مدة طويلة كوني الخاتمة، آخر فصيلتي.

«أريد أن أحدثك عن شيء ما»، يقول آدم بعد أن نضع قهوتينا على الطاولة الشطرنجية المصقولة بيننا.

«الزفاف، أعرف».

أكره جعله ينتظر وقتًا طويلًا. سافرنا معًا مرة واحدة فقط حتى الآن، في عطلة أسبوعية طويلة إلى جزر الباهاما حيث أقنعني بممارسة الغطس. ظل يذهب إلى هناك منذ مراهقته، وقال إنني أبدو ماهرة بشكل فطري. كنت آخذ أنفاسًا طويلة

وبطيئة لكنني ظللتُ أشعر باختناق. يتحرك كل شيء تحت الماء ببطء. كنت أستغرق وقتًا طويلًا جدًّا لأرى من أو ما الذي خلفي أو إن كنت وحدي. حين صعدنا إلى السطح ضحك آدم وأخبرني أنه أيضًا استغرق مرتين أو ثلاثًا قبل أن يعتاد الأمر.

«ليس عن الزفاف»، يقول. «سنذهب معًا إلى الزفاف. لقد فوّتِّ الموعد النهائي للاعتذار، وفي هذه الحال فالرد المفترض هو نعم. لذلك سنذهب».

«لا يوجد رد مفترض على دعوة للزفاف»، أعترض.

لا تتطلب هذه الرحلة أسطوانة أكسجين، لكنها تتضمن الاندماج مع عائلته لعطلة أسبوعية طويلة في كونيكتيكت. لا شك في أنني سأسمع الكثير عن مرفق أبيه الذي أصيب في أثناء لعبه التنس، وستضغط أمه على يدي لتخبرني أنني أعمل أكثر من أي شابة في سني تعرفها.

«سيتزوج ابن عمي بامرأة اضطرّ إلى إثنائها عن فكرة زفاف قوطي قاتم. ستجعلينني أبدو رائعًا وسيحبك الجميع. لكننا سنتحدث عن هذا لاحقًا. أردت محادثتك بخصوص شيء ما آخر».

أكور يديّ حول كوب القهوة وأميل إلى الخلف في مقعدي.

«أنا أسمعك. ما الأمر؟»

«حسنًا»، يقول، «أنت تعرفين أنني ظللت أعمل على لفت اهتمام أعضاء الجمعية العامة لإلقاء الضوء على تشريعات البنوك التي ساهم مكتبنا في وضعها خلال العام الماضي. لا يمكنني جعل أي منهم يعرض أي شيء في جلسة».

أومئ برأسي.

«لقد أدركتُ أنني لا أريد طلب شيء من أحد. أريد أن أجلس لأنجز الأمر بنفسي. سوف أترشح».

أطرف بعيني مرتين قبل أن أجد صوتي.

«ماذا تعني بالترشح؟»

«أعني الترشح لمقعد. الترشح في الانتخابات».

«كانت الانتخابات منذ شهر مضى. أتعني بعد عامين من الآن؟»

أومأ برأسه، كأنني قلت شيئًا ما مشجعًا.

«بالضبط. لقد حصل العضو الحالي على مقعده بشق الأنفس. ولم يواجه سوى قليل من المنافسين، لكن لا أحد منهم خطر. تحدثت في الأمر مع عدد من أصدقاء أبي، بعضهم سياسي، ويظنون أنني لو نظمت جولاتي في الدوائر السليمة، سيمكنني الفوز».

«آدم»، أقول ببطء. «هذه مسألة كبيرة بالفعل... ومثيرة».

يأخذ في تحديد الخطوات الآتية. اتفقَ بالفعل مع شخص يمكنه إدارة حملته الانتخابية. أذهلني كم ما حدث منذ آخر مرة رأيته فيها، منذ أسبوع فقط.

«إنه أمر كبير بالفعل. أعني، لقد ظلّ الأمر يشغلني جزئيًا مدة طويلة حتى الآن، لكن الانتظار لن يغير شيئًا. ظني أن هذا هو الوقت المناسب».

لا يمكنني قول شيء، ما يعد غريبًا عليّ.

يتحدث عن التواقيع، وجامعي التمويلات، والمطويات، وترشيحات الحزب، وصانعي الملوك.

تتكون عقدة صغيرة في معدتي، في حجم حصوة. أتململ في جلستي وأحاول التركيز على ما يقوله.

«يمكنني أن أكون هذا الرجل»، يقول بثقة.

أنظر إليه كأنني أراه لأول مرة وأحاول تصوره سياسيًا. يدهشني أنني لم أر الأمر من قبل. إنه مرتاح في بذلته، وشخصيته بالطبع يمكنها إدارة غرفة كاملة. حين يلتقي شخصًا ما مصادفة يتذكر اسمه ومدرسته ومشروبه المفضل. يجعل الناس يشعرون بأهميتهم خلال الدقائق القليلة التي يدردش فيها معهم.

«بالطبع يمكنك. ستكون رائعًا. ستكون رائعًا. أنا لا أعرف لماذا فاجأني الأمر».

«أعرف أن السياسة ليست من مفضلاتك، آري، لكنك ستستمتعين بمقعد في الصفوف الأولى لمشاهدة العملية السياسية ورؤية كيف تعمل الحكومة». يقول وهو يضع يديه على يدي ويقبل شفتي. ألمس خده وأضحك معه، أريد عيش هذه اللحظة بشكل صحيح.

يسألني عن كيف كان أسبوعي، وعن حالة المريضة التي حكيت له عنها. إنه بهذا اللطف، يتذكر تفاصيل قلتها عرضًا. يسمع كل ما أقوله. لا يفقد اهتمامه حين أشكو من الألواح الإلكترونية الجديدة في المستشفى أو من قط الجيران الذي تسلل من الحاجز الممزق لنافذة غرفة نومي للمرة الثالثة خلال هذا الشهر.

نغادر المقهى. يشعّ آدم بطاقة جديدة، يريد مشاركة سروره لكنني لا يمكنني منع نفسي من الشعور بالصدمة. نحن لسنا

متزوجين، وحتى وإن كنا، لم أكن لأجرؤ على منعه. كل منا يسير في دربه بطريقته. أنا لدي استوديو صغير باسمي، وهو لديه شقة منحها له أبوه، يدع كل منا الآخر يحتفظ بطموحاته واستقلاله، حتى وإن أبقانا هذا في منطقتين مختلفتين.

لقد نقشت حياتي في الصخر، والنقش على الصخر ليس سهلًا...

إنه مساء الجمعة وليس لدينا عمل غدًا لذلك يبيت آدم ليلته معي. يطلب طعامًا تايلانديًا فيما أخرج أنا لأركض. نشاهد فيلمًا معًا وأراه يتابع بتركيز مطاردة السيارات على شاشة التلفاز، قدماه مرفوعتان على الطاولة. قدماي مكورتان تحتي، أخفي جرح باطن قدمي كما أخفي الصندوق الصغير في دولابي.

مع أنني أريد البوح له بكل شيء، لكن هذا لن يكون الليلة. أحسده لتعبير وجهه، قدرته على تركيز انتباهه كاملًا في اتجاه واحد. لا أشعر هكذا إلا في غرفة العمليات. يشتت القلق أفكاري في أي مكان آخر.

أغط في النوم ورأسي على كتفه، ملتُ إليه، رغم شعوري بأننا سنقضي الليلة نحلم في اتجاهين متناقضين.

الفصل السادس والثلاثون

«وهذا في مدرسة فتيات واحدة. لو تحقق هذا النموذج في مدارس أخرى، حسنًا، احسبيها أنتِ بنفسك».

ماما أقل متقاعدة تقاعدًا، لهذا يمكنني الاتصال بها في السابعة صباحًا لأدردش معها في أثناء استعدادي للذهاب إلى العيادة... لا تلعب البوكر ولا تشاهد برامج الألعاب. قد لا يمكنها الاحتفاظ بنبتة سليمة لأكثر من ثمان وأربعين ساعة لكنها بمقدورها جعل مئات الأسر يبقين على فتياتهن في المدراس بعد بلوغهن سن الحيض. تتطوع وتهتم بقضايا كثيرة لكنها ما زالت تجد الوقت للاطمئنان عليّ.

«على كل حال، هذا ما لدي أنا. كيف حال الأمور عندك على الجانب الآخر؟»

«جيدة بما يكفي»، أجبتها. أرتدي سروالًا أسود وبلوزة خضراء. «العمل كثير. وكان آدم هنا الليلة الماضية. كان لديه أخبار كبيرة لي».

ومضت أضواء في عيني. أخرجتُ من حقيبتي زجاجة برتقالية وابتعلت حبتين بيضاوين بجرعة ماء. ليس لديَّ الوقت للصداع النصفي اليوم.

«أوه، حقًا؟ ما الأمر؟»

ماما معجبة بآدم. لم تحبه بعد، لكنني أظن أنها تنتظر مني أن أعلن أنني سأظل أحبه إلى الأبد قبل أن تعِد هي بالمثل. لكنني أقلق أحيانا أنني، دون موافقتها الصريحة، قد لا أفعل ذلك أبدًا.

«يريد أن يترشح لانتخابات المجلس التشريعي. سيعلن هذا رسميًا في نهاية الأسبوع القادم».

«حسنًا، هذه ليست مفاجأة كبرى»، تقول ماما.

«ماذا تعنين؟» أشغل مكبر الصوت لأجمع شعري في كعكة وأثبت الخصل الفالتة بمثبِّت للشعر.

«لديه كل مستلزمات السياسي. خلفية قانونية، علاقات أسرية، أصدقاء أثرياء. ناهيك بطريقة تصفيفه شعره. إن لديه شعر مترشح سياسي».

يسهل بالفعل تخيل آدم وهو يصافح الناس ويقبل الصغار، يقف أمام منصة ويرسم لجمهوره ابتسامة الفوز. لو كنت قد تركت نفسي، لرأيت هذا أنا الأخرى.

«شعر مترشح؟ ماما، أنتِ فظيعة. ألديك أي هواجس أخرى تودين مشاركتها معي؟»

«سأتحقق من بلّورتي السحرية وأعود إليك لاحقًا. لكن أخبريني آريانا كيف تشعرين حيال هذا؟»

«لا أعرف. أقصد، إنه قراره، ومساره المهني».

أرتدي حذاء من الجلد المدبوغ بكعب مسطح. أتحقق من وجود شارتي في حقيبتي.

«آريانا»، تقول ماما. «هذا أكثر من مجرد قراره. إن ترشح في الانتخابات، فهذا يعني أنك معه أيضًا. سيريد الناس معرفة كل شيء عنه أولًا لكنهم ثم سيريدون مقابلة نصفه الآخر الرائع والمتحقق أيضًا. هل تحدث معكِ عن هذا؟»

أسكت، ما يجيب سؤالها. لم أحسب أن ترشحه سيؤثر فيّ إلا بتقليل وقتنا معًا.

«فكري في الأمر فحسب، حددي أين تقفين وناقشي الأمر معه»، نصحتْني. «وإن لم يكن الوقت مناسبًا لمجيئي وبقائي معك، دعيني أعرف. يمكنني وضع خطط أخرى».

تعيش ماما خارج المدينة على مبعدة ساعتين، في بلدة غريبة حيث يمكن للأطفال التجول على عربات التبن في الشتاء وقطف الفراولة في الصيف. فيها شارع رئيس واحد ومحل شطائر حيث يعرف الجميع بعضهم بعضًا بالأسماء. انتقلتْ إلى هناك من أجل الليالي الهادئة، والغزلان التي ترعى في فنائها الخلفي، وبلّورات الثلج التي تتكون على أفاريز البيت في الشتاء.

والمسافة بيننا لا تعدو مدة قصيرة في القطار، ما يريح كلًّا منا.

«ماما، لا تكوني سخيفة. أنا لا أطيق انتظار مجيئك. لقد وضعت خططًا لنا لمساء الخميس بالفعل».

ستأتي ماما إلى المدينة لحضور حفل تقاعد أحد أصدقائها لكنه سيكون عيد ميلادها أيضًا. حصلتُ على تذكرتين لنا لمشاهدة معالجة جديدة لعرض أوكلاهوما، ما أدهشها. كانت قد لاحظت شرودي المتزايد مؤخرا وحنيني إلى لحظات لم أفكر فيها منذ سنوات. جعلتني الراحة البادية في صوتها أتساءل إن كانت قد ظنتني لست بحال جيدة حتى قررت باختياري أن أجلس في مسرح لمشاهدة مسرحية موسيقية تذكرني بالليلة التي تسللت فيها إلى منزل والدي الخالي في كابول.

كان لديها سبب للقلق.

حين كنت في الرابعة عشرة من عمري، كنا نعيش في إستانبول. عقدتْ أنتونيا صداقات مع دائرة صغيرة من المتحدثين بالإنجليزية لديهم أطفال. ومع أنني كنت أشعر بالتوتر وأنا مع أشخاص من سني، بذلت جهدي للاندماج من أجلها. لم أرد أن يتساءل أصدقاؤها عن خطب ابنتها المتبناة. لذلك كنت أضحك للنكات، وأتبادل الأساور، وأغني عيد ميلاد سعيد، ما كان يستنزف طاقتي إلى حد كبير.

ذات ليلة، كنت واحدة من أربع فتيات دُعين للاحتفال بعيد ميلاد فتاة بريطانية تدعى كاتي. كان مساء الجمعة وكنا نجلس معًا في غرفتها نستمع إلى نيرفانا. كانت كاتي وصديقاتها اللاتي دعتهن من الفتيات الطيبات في مدرستنا الدولية، من يرضيهن زجاجة طلاء أظافر بلون قزحيّ. كنت حينها قد فقدت غرابة لكنتي تقريبًا وأبدو وأنا أتحدث كفتاة أمريكية عادية، ببعض الصعوبة مع العامية.

صاحت أم كاتي تنادينا من أسفل لتناول البيتزا التي أعدتها في البيت. هبطنا السلم المفروش بالسجاد على كعوبنا، تلتمع أصابع أقدامنا بطلائها الحديث. كان والد كاتي، رجل أعمال بريطاني، مضطجعًا على الكنبة في الغرفة المجاورة يشاهد فيلمًا قديمًا. أخذتْ كل منا قطعة بيتزا ودخلنا إلى غرفة الجلوس.

كانت الممثلة نحيلة وشقراء، شعرها معقوص للخلف بشريط أسود. ترتدي بلوزة بلون قشر البيض وياقتها بكرانيش وأزرارها بطول ظهرها. تتمايل تنورتها السوداء الطويلة وهي تسير. تتحدث بلكنة روسية لفتت سمعي.

عن ماذا هذا الفيلم مستر شيبمان؟، سألت إحدى الفتيات.

أنستازيا رومانوف، قال بصوت خفيض دون أن تتحرك عيناه عن الشاشة. *الناجية الوحيدة من عائلة ملكية*.

«بابا هل تشاهد فيلم أميرات حقًا؟» قالت كاتي تغيظه وهي تجلس على الأرض متربعة وفي يدها شريحة بيتزا متكورة. فعلنا جميعنا كما فعلت فتاة عيد الميلاد.

كان الفيلم عن امرأة تدّعي أنها الأميرة أنستازيا، الناجية الوحيدة من آل رومانوف الذين أُعدِموا في أثناء الثورة الروسية. لم يكن باستطاعة أحد التأكد من هويتها لأنهم كانوا قد احتجزوا جميع آل رومانوف في أعماق القصر ثم أعدموهم رميًا بالرصاص بعد أشهر من الأسر.

تأكدتُ أن لا أحد يلاحظ رعشة يديّ، أو عدم تناولي قضمة أخرى من قطعة البيتزا التي أمسكها بيدي. ذهبتُ إلى الحمام، فتحت الصنبور وضغطتُ بمنشفة على فمي لأكتم بكائي.

قبل أن تلحظ الفتيات غيابي. كنت أركض بالفعل في شوارع إستانبول لأعود بين ذراعي أنتونيا. أصلحت ماما كل شيء في مكالمة هاتفية. كانت حينها قد صارت بارعة جدًا في تفسير سلوكياتي الغريبة.

عذبتني قصة أنستازيا رومانوف. أردت معرفة كل شيء عنها. أسرتني قصتها.

عام 1918، بعد أشهر من الأسر في القصر، أَعدَم البلاشفةُ جميع أفراد عائلة رومانوف. دارت الشائعات بأن أنستازيا رومانوف، الدوقة الكبرى ابنة السبعة عشر عامًا، قد نجت من

كتيبة الإعدام وهربت من القصر. بمرور السنوات، ظهر عدد من الشابات يزعمن أنهن أنستازيا. امرأة انتحارية، أنقذوها من الغرق في قناة في برلين، وعاشت في ملجأ لعامين قبل أن تعلن أنها أنستازيا الدوقة الكبرى، وصلت إلى نيويورك سيتي عام 1928. قدمت ندوب جسدها إثباتًا، زاعمة أنها الندوب التي أحدثها فيها البلاشفة.

أذكر أنني تفحصت جسدي حين قرأت هذا، فكرت أنه ليس به علامة واحدة تثبت هويتي، وأنني لو حكيت لأحد قصتي، قد يراني مخبولة أنا الأخرى.

بعد عام من فقداني أسرتي، كان عالم جيولوجيا قد عثر على بقايا أسرة رومانوف. كانت الجثث قد دُفنت وأعيد نبشها وحُرقت وأُغرقت بحامض الكبريتيك قبل دفنها مجددًا. لكنه بدلًا من الإعلان عن كشفه، أجرى الجيولوجي اختبارات عدة قليلة على العظام ودفنها مرة أخرى.. حتى بعد مرور ستة عقود، كان ثمة مخاوف من أن يؤدي الكشف عن الحقيقة إلى العقاب.

لم يكن حتى عام 1991، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، أن سمحت الحكومة بالبحث عن الجثث مرة أخرى. كنت متمرنة في قسم الجراحة حين نُبِشت قبورهم للمرة الثانية. كنت في معمل التحاليل أنظر في شرائح الأورام بعد أن قرأت عن دفن عائلة رومانوف في كاتدرائية بيتر وبول وإعلانهم قديسين. لم أستطع رؤية الشرائح جيدًا رغم كل محاولاتي تعديل عدسة المجهر.

رغم وجود شخصين من عائلة رومانوف ما زالا مجهولين، لكن العالم عرف أخيرًا بما حدث لهم.

كنت سعيدة من أجل موتى رومانوف، وأحسدهم أيضًا.

كان حريًا بي التوقف عن تتبع قصتهم حينها. لكن الإنترنت صار صندوق حياتي الذي يمكنني الحفر فيه بحثًا عن الماضي؛ ماضيّ وماضي أنستازيا.

لم أجد على الإنترنت الكثير عما حدث في الأرج تلك الليلة. أكثره تخمينات لا تذكر أسماء قتلى سوى الرئيس داوود وأخيه. بحثتُ عن اسمي والديّ، اسم أخي واسمي. لم أجد شيئًا. لا أحد يبحث عني ولم يكتب أحد شيئًا عن أبي. ورغم علمي أنه لا بد أن أحدًا يعرف أين دُفنوا. لم أجد ولو معلومة صغيرة عن الأمر.

لم أجد سوى سطر وحيد في نقاش على أحد المنتديات عن قتل عمي بعد الغزو السوفيتي. في ما عدا هذا لم يكن من أدنى ذكر لأحد من أفراد عائلتي.

لم أبحث عن أخبار عائلتي فحسب. كنت أتفحص الجرائد والمواقع بحثًا عن أي أخبار جديدة عن مسقط رأسي. ظللت أفعل هذا حتى وأنا أتكيف على الحياة مع ماما. كانت كل معلومة جيدة صغيرة، بلا استثناء، تجعلني أتمنى لو كان بإمكاني الالتفات ومشاركتها مع أبوي، لأعرف رد فعلهما وما يظنان.

بكيتُ حين قرأت عن الغزو السوفيتي. استولتْ حكومة شيوعية على كابول. تعرفت على الرجل الذي ترأس اللجنة الشيوعية. كنت قد رأيته في بعض المناسبات وأتذكر قول أبي عنه إنه من العار أن يكون لديه أصدقاء قليلون. لم يستمر لا هو ولا اللجنة الشيوعية. هتف الناس لعودة الله، لتحرير أفغانستان من

السوفيت. لبّى المجاهدون النداء، وكذلك هوليوود. وقف رامبو، بعضلاته المفتولة وأسلحته المزيّتة جنبًا إلى جنب مع المقاتلين من أجل الحرية.

لم ينته الأمر حين خرج آخر جندي روسي يعرج من أراضي أفغانستان. تمزق البلد تحت حكم الميليشيات. في ذلك المستنقع ظهرت طالبان المتشددة.

لم تلق تلك الأخبار، على فظاعتها، كثيرًا من حبر الصحافة. بدا أن لا أحد يهتم بالأمر كثيرًا. باتت الحرب الباردة ظاهرة الثمانينيات ولم تعد مثيرة للاهتمام بعد انهيار الاتحاد السوفيتي. عاد رامبو إلى موطنه، بعد أن أنجز المهمة.

لم يهتم الأمريكان بكهوف أفغانستان مجددًا حتى أحداث الحادي عشر من سبتمبر. لم أستطع الابتعاد عن القنوات الإخبارية حينها، رجل حبيس كهوف تورا بورا، غارات جوية أعلى القرى النائية، تحرير الفتيات. بالطبع، قُتِل بعض المدنيين، لكنهم في الغالب ليسوا كثيرين. من لديه الوقت لهذه الحسابات؟ الأهم هو الجدات اللاتي سرن على أقدامهن أميالًا لاختيار رئيسهن التالي بأصابع مغمورة في الحبر.

حين قرأت عن حقائب النقود التي أرسلتها المخابرات المركزية الأمريكية للرئيس الجديد للبلاد، كدت أسمع صوت أبي: *الفساد لا ينتشر دون تعاون.*

تطغى عليّ بلدي، قصتي. كنت أحيانًا أقضي الليل كله حتى الصباح على مواقع الإنترنت أحاول إيجاد منطق ما للحرب والسياسة. بدا من الأفضل أن أركز طاقتي على حدوتة الأميرات،

فاتخذت من أنستازيا رومانوف خيارًا أكثر حفاظًا على الصحة، كتناول الشيبس بدلًا من البطاطس المقلية باعتباها وجبة سريعة.

في النهاية، هدأ هوسي بالأمر. كنت قد قرأت كل ما هنالك لقراءته عن مصير عائلتها حين عادت قصتها إلى الطفو على السطح مؤخرًا فقط. كنت قد توقفت تمامًا عن النبش في قصتها حتى الصيف الماضي. كنتُ في استراحة الأطباء، أُملي تقريرًا عن آخر الجراحات التي أجريتها على الهاتف، حين خطر لي فجأة أن أكتب أنستازيا رومانوف في خانة البحث على متصفحي.

اكتُشفت جثث جديدة، إنهم المفقودون. أكدت تحاليل الحمض النووي أنهما الطفلان المفقودان لعائلة رومانوف، كل مجموعة من البقايا لطفل منهما. لم تهرب أنستازيا.

خرجت من استراحة الأطباء واتصلت بماما.

لم تنجُ، قلت لها فجأة. *لقد وجدوا جثثًا أخرى.*

أي جثث؟ عمّن تتحدثين؟

أنستازيا

سكتت ماما.

رومانوف. أنستازيا رومانوف.

ظلت صامتة.

أسمعتنِي؟ الأمر مؤكد الآن. لم تهرب قط. طوال ذلك الوقت، ظل الناس يتساءلون...

آريانا، اسمعيني. كان صوتها باردًا وخفيضًا. بدا كأنها تحاول مد يدها عبر الهاتف لتهدئتي. *أنتِ لستِ أنستازيا. أنت أنت.. وأنتِ هنا.*

بالطبع، قلت أعي جنوني فجأة. شعرت بحرارة تسري في عنقي وأنا أحاول استعادة هدوئي. *أعرف. ظننت فقط أن الأمر مشوق.*

إن تحركت الآن سأكون عندك خلال...

ماما، أنا بخير حقًا. وفي جميع الأحوال، سأقابل دايو الليلة، قلت لها بصوت استطعت تكوينه جيدًا، مبتهجًا بما يكفي لطمأنتها وإنما ليس إلى الحد الذي يجعلها ترتاب.

ألهمت أنستازيا رومانوف كتبًا، وأفلامًا، وأصحاب نظرية المؤامرة، ومحتالين. بذل أشخاص المال والجهد للتحقيق في مصيرها. هل كانوا يأملون في العثور عليها أم في إثبات نيل الرصاص والأنصال منها؟ أي حقيقة مثيرة من هاتين الحقيقتين كانوا يريدون سماعها؟

ثم يوجد السؤال الأقتم، الذي كنت متأكدة من أنني الوحيدة التي أفكر فيه. السؤال الذي أفكر فيه وأنا وحدي فقط. لو كانت أنستازيا قد نجت، فهل تمنت لو أنها لم تنج؟

الفصل السابع والثلاثون

«لماذا علينا أن نخبرها؟»

تقول ابنة مريضتي بصوت تآمري، وهي تحاول إبقاء تعبيرات وجهها موضوعية. طلبت منها لتوي أن تترجم لأمها أن سرطان البنكرياس ينتشر سريعًا.

تراقبنا أمها، واهنة ومنحنية الظهر قليلًا، بأدنى قدر من الاهتمام.

«لا أستطيع أن أكذب عليها، هذا غير أخلاقي». أقول.

«لكنها لم تسأل عن انتشاره في أعضاء أخرى. لذلك فلن يُعدّ كذبًا»، تتوسل الابنة إليّ. يغدو الناس خبراء في الجدل حين يوشكون أن يفقدوا أحد أحبائهم.

«هذا أكبر من احتمالك لسماعه ولترجمته لأمك أيضًا، لذلك أعتقد أن الأفضل أن نأتي بمترجم فوري رسمي»، أقول لها برقة. لم ترغب الابنة، شابة في العشرين من عمرها، في وقوف شخص غريب في الغرفة في أثناء تلك المحادثة. لم تكن تعرف أن هذا يعني أن عليها أن تصف لأمها آليات وفاتها، النهارات القصيرة القليلة المتبقية لها. إلى جانبها حقيبة كبيرة تحوي ملفّ مرض أمها وزجاجات الفيتامينات، ومضادات الأكسدة ومسحوق الكركم وزيت نوع ما من الخضراوات شائع في موطنها، حيث لا أحد يصاب بهذا النوع من السرطان.

تركتْ هذه الابنة عملها لتكون هنا. تغيبت أيامًا عدة عن عملها لتظل مع أمها التي عملت خادمة في البيوت لتأتي لابنتها

بملابس كملابس زميلاتها في الدراسة، وألواح تزلج مثلهن، والآلة الحاسبة باهظة الثمن التي تحتاج إليها لمادة الرياضيات.

وضعتْ مريضتي يدها على كتف ابنتها. قالت لها كلمات قليلة. هزت ابنتها رأسها وابتسمت. نظرتْ الأم إليّ ثم عادت تنظر إلى ابنتها. تبادلتا كلمات أخرى قليلة فتحول وجه الابنة ببطء.

لم تأت مريضتي إلى هنا اليوم لتكتشف شيئًا لم تكن تعرفه. بل جاءت لتسمعه ابنتها، مني. الحقيقة خلف الألم في عظامها، والثقل في خطواتها.

نظرت إليّ المرأة في ردائها الطبي بتوسُّل، تجعد جلد يدها الرقيق وهي تواسي ابنتها.

أخبرتُ الابنة أنني أعرف كم تحب أمها.

«لقد فعلت كل شيء من أجلي»، قالت الابنة بصوت كسير. بدت عاجزة، كأن كلماتها لا تفي أمها حقها.

إيجاد الكلمات المناسبة كاقتطاف الزهور من أجمة متشابكة.

«كانت تضع الأولوية لحاجاتك، دعينا نعمل الآن على تلبية حاجاتها وأمنياتها».

يؤخرني الوقت الإضافي الذي أقضيه معهما، دقائق قليلة، عن موعدي التالي. هذا كتأثير الدومينو، يحدث رغمًا عني لأن التعاطف لا يسهل تقنينه. أندفع من غرفة إلى أخرى، أتفقد الجراح وصور الأشعة، أقرر خطط العلاج، أعرض على أحد المرضى إجراء عملية جراحية وعلى آخر عناقًا.

جلست إلى مكتبي لأوقع بعض الأوراق حين رأيت ورقة صفراء صغيرة ملصقة على شاشة حاسوبي. عنوان موقع إلكتروني بتوقيع لاسي، مساعدتي، ووجه مبتسم أسفله.

جعلنـي الفضـول أكتـب عنـوان الموقـع علـى متصفحـي لأجـد أن إحـدى مريضاتـي قـد حولـت مدونتهـا عـن الطعـام إلـى مدونـة عـن رحلتهـا مـن التشـخيص إلـى التعافـي. كتبـت فـي أحـد المنشـورات عن زيارتهـا الأولـى لـي حيـن فاجأتهـا بالسـؤال عـن عملهـا وأسـرتها قبـل أن أسـألها عـن شـكواها. تذكرتُهـا وهـي تومـئ برأسـها وتعـض شـفتها فـي آخـر زيـارة لهـا. اسـتغرقني الأمـر وقتًـا لجعلهـا تتحـدث. نشـرتْ صـورًا لهـا مـع أسـرتها، كتلـة متشـابكة مـن الأطـراف والابتسـامات علـى كنبـة قديمـة. أغلقـتُ المتصفـح. العيـادة لا تنقصهـا الفوضـى. غرفـة العمليـات مجـال خـالٍ مـن الميكروبـات والعواطـف. يجـب قبـل أن أضـع المشـرط علـى الجلـد، أن أرتـدي القفـازات والمئـزر، وغطـاء رأسـي وكمامتـي. المرضـى يتحولـون أيضًـا، يُغطـون بالمـلاءات الزرقـاء المعقمـة تمامًـا فـي مـا عـدا مربـع محـدد مـن جلـد مكشـوف.

رن هـاتفي.

«كيـف الحـال دايو؟»

«ضغـط دمـي»، أجابتـي. كانـت تسـبقني بعاميـن فـي الإقامـة، نحـن الشـابتان الوحيدتـان فـي البرنامـج. تخصصـت فـي أمـراض الصـدر فـي حيـن تخصصـت أنـا فـي علـم الأورام.

«مـا الأمـر الآن؟» قلـت سـعيدة لسـماع صوتهـا. لا تغضـب دون سـبب أبـدًا، كذلـك لا تغضـب دون أن تتخـذ تحـركًا أيضًـا.

«أرسلتُ إليـك للتـو شـيئًا مـا تلقيتـه من مقيمـة في الطـوارئ، كانـت توصّل أنبوبًـا لمريض فـي حالـة حرجـة حيـن أخبرهـا شـخص مـا أنهـا تبـدو مثيـرة وهـي تقـوم بهـذا». حيَّـت شـخصًا مـا بمـرح قبـل أن تعـاود

حديثها معي من حيث توقفتُ. «وهذا الشخص -مصادفة- هو الطبيب المعالج المشرف عليها. هذا محض هراء».

«تمامًا. أنا واثقة بأنك أسديتها النصح السليم بالفعل. متى عطلتك الأسبوع المقبل؟ أنت مدينة ببعض التاكو».

«لقد مل الجميع من نصحي. التبليغ عن هذا الأمر لا يرضي أحدًا. عمومًا، اتصلي بي حين يمر بائع التاكو ببيتكم»، قالت وأنهتْ الاتصال.

بدأت علاقتي بدايو، التي هاجرت أسرتها من نيجيريا حين كانت في السادسة عشرة من عمرها راعيةً، لكنها غدت أكثر بكثير حين انفجرت المدينة.

كنت قد قضت شهرين من زمالتي، وساعة واحدة في عملية استئصال قولون جزئي حين دخل أحد الفنيين غرفة العمليات وأعلن اشتعال أحد برجي مركز التجارة العالمي بالنيران. منذ تلك اللحظة، بدأت الأخبار تتدفق إلى الغرفة مع مرور كل دقيقة. حين سمعتُ أخبار انفجار البرج الثاني بطائرة ثانية، رأيت الأرج في ذهني. تردد في ذهني أزيز الطائرات الحربية وهي تقصف القصر. جعلتْ رائحة الجلد المعالَج بالكيّ دقات قلبي تتسارع. لو كان أحد من الفريق الطبي الموجود في الغرفة حينها لاحظ علاماتي الحيوية لكان عرض عليّ أن أجلس.

لكنني تدربت جيدًا على تجاوز النيران والرماد. ركزت على العملية ولم أدع عينيّ تذهبان إلى أي مكان آخر خارج الميدان الجراحي، المكسو بالأزرق. جلت جولاتي في الطابق، تفقدتُ مرضاي وراجعت المعامل وبذلت جهدي لئلا أنظر خارج النافذة.

يقف رجل عند باب غرفته في المستشفى، يستند على حامل محاليل. ينظر إلى استراحة الممرضات الخالية. ظهرت ممرضة شابة من الغرفة المجاورة، بزي منشى وحذاء أبيض خفيف.

أرجوكِ، قال الرجل، الذي يرتدي مئزرًا رماديًا خفيفًا، ناحبًا. كان يستند إلى حامل المحاليل بيد ويضغط على بطنه بالأخرى. *أنا لم آخذ أي شيء خلال ثلاثة أيام. ألا يمكنك إعطائي أي شيء؟*

لم يتغير شيء في مجالنا. الجرح والألم، الموت والحياة، واصلت جميعها كالمعتاد.

أُغلِقت المدينة في الخارج، تحولت الأعين كلها إلى الأخبار. مكثتُ في المستشفى، ليس فقط للعناية بمرضى الجراحات بالأعلى، بل لتقديم العون إذا اقتضى الأمر. ولم أكن وحدي في هذا.

سرتُ في قسم الطوارئ حيث الأطباء والممرضين بجوار النقالات أو حول شاشات التلفاز لمشاهدة ما يحدث على مسافة محطات مترو قليلة من المستشفى. أُعِدت الغرف والمستلزمات لفيض المرضى الذي كان الجميع يتوقع وصولهم سريعًا. بعدد العاملين في هذين المبنيين، كانت كل مستشفيات نيويورك على أهبة الاستعداد.

لم نتعامل مع جرح واحد.

كان جميع من في البرجين أو حولهما إما نجوا دون أن يمسهم ضرر، وإما ماتوا في موقع الحدث. لم يكن من شيء في ما بينهما.

ما إن عادت شبكات الهواتف للعمل، كنت أتلقى مكالمة من ماما كل ساعتين. هذا ما قد تفعله طالما ليست في موقع الحدث، تقييم المخاطر، جمع المعلومات، ونشر الخطط.

خلال الأسابيع التالية، أعلن عن هويات وجنسيات مرتكبي الهجوم. خمسة عشر من مجمل تسعة عشر منهم سعوديون. لا أحد أفغانيًا لكن الشائعات قالت إن أسامة بن لادن يختبئ في كهوف أفغانستان. التفتت رؤوس العالم كله نحو وطني. ظهر في نشرات الأخبار بالمساء نساء محجبات من الرأس حتى أخمص القدم بشادوريهات زرقاء فاتحة، يرتجفن تحت العصا المرفوعة لرجل بلحية طويلة.

أينما نظرت أجد اسم بلدي، صار مميزًا ومعروفًا بشكله وحدوده على الخريطة. ظللت سنوات أتفحص الجرائد بحثًا عن أخبار عنه. صار الآن بلدًا لا أعرفه، سواء بالصور أم بالمبادئ.

أردت أن أصرخ، أن أختبئ. أن أخبر الناس أن الأمر كان مختلفًا.

بعد أربع عشرة ساعة من العمل الشاق في المستشفى، قضيت أغلبها واقفة على قدمي لم أرد شيئًا سوى أخذ حمام ساخن. غشيت سحب رمادية كثيفة بمزاج كئيب على مدينة في الحِداد أساسًا. ارتديتُ سترة سوداء ثقيلة. كنت عند الأبواب الدوارة، على وشك مغادرة مبنى المستشفى، حين أدركت أنني نسيت مظلتي في غرفة الاستدعاء. كنت بحاجة شديدة إلى العودة إلى البيت فدسست يدي في جيبي ورفعت قلنسوة سترتي الثقيلة أعلى رأسي.

استقللت القطار إلى البيت. وأنا أقف عند المنعطف، أرسلت إلى دايو رسالة لأسألها إن كانت تريد بوريتوس أو سلطة أم طعامًا تايلانديًا. تقيم على مسافة أربع كتل سكنية من شقتي فحسب، لذلك نلتقي كلما سمح جدولانا. ما إن ضغطت زر الإرسال سمعت شخصًا ما يصيح نحوي في الشارع.

وقف ثلاثة رجال على الجانب الآخر من الطريق، شعورهم مبللة بالمطر. شعرت بأعينهم عليّ فعدت أنظر في هاتفي. يتصرف كثير من الرجال بشكل سيئ في مترو الأنفاق أو في الشوارع، يعبرون عن آرائهم غير المرغوب فيها بخصوص هيئتي، يقترحون عليّ الابتسام، أو يطلبون رشفة من قهوتي.

أولئك الثلاثة لديهم شيء مختلف لإعلانه.

سنفجر قومك كلهم لنعيدهم إلى العصر الحجري.

اذهبي إلى الجحيم خارج هذا البلد.

شعرت أن سترتي قد تبخرت. أردت أن أدير لهم ظهري لكنني خشيت أن يأتوا خلفي. وإن عبرت الشارع إلى الجانب الآخر حيث يقفون...

تغير الضوء.

كانوا مقبلين نحوي. وقفتُ ساكنة. تنهمر قطرات الماء على وجهي وتبلل سترتي. وقفتُ ثابتة، لكن ليس عن شجاعة.

حين اقتربوا بما يكفي رأيتهم رجالًا عاديين، رفع أحدهم يده كأنها مسدس وسددها نحو رأسي مباشرة.

جميعكم.

ترنحت خطوة للخلف، اصطدمت بسلة ملأى بمظلات مكسورة. كانوا قد ابتعدوا مسافة معقولة بالفعل حين سحبت إحدى المظلات وقبضت عليها بقوة. نظرت حولي لكنني لم أعرف هل رأى أحد ما أو سمع أي شيء مما حدث.

بالمظلة المكسورة في يدي، واصلتُ السير إلى البيت، اندفعتُ في الركض للحظات وأنا أنظر من أعلى كتفي.

لم ألحظ ارتعاشي إلا وأنا أحاول دس المفتاح في باب البناية. أخذتُ نفسًا عميقًا ورفعت بصري، رأيت انعكاسي في الزجاج. كانت عيناي متسعتين ووجهي شاحبًا. التصقت القلنسوة الصوف برأسي.

أعرف لماذا استهدفوني.

لقد رأوني كشيء ما لست عليه، مسلمة متدينة. لكنهم رأوني أيضًا كما كنت.

أز هاتفي. رسالة من دايو، تقول إنها ستهتم بأمر الطعام. أرسلتُ لها أن عليّ التحضير لمحاضرة. لنرتب لعشاء في وقت آخر، وعدتها.

حشرت سترتي المبللة في الخزانة المجاورة لباب الشقة وألقيت بالمظلة على الأرض. انهرتُ على الكنبة ثم انزلقت منها على الأرض. كنت غاضبة من نفسي لشعوري بالعجز.

أغمضتُ عيني ورأيت المسدس مسددًا إلى أسرتي. الانفجارات، رائحة الذخيرة، الضجة المكتومة لسقوط أجسادهم على الأرض. انبعث كل شيء مجددًا وانتشر أمامي على الأرض.

لم أسمع دايو تناديني. تراجعت حين لمستني، دفعتُ بالكنبة إلى الخلف وأنا أنتفض. تراجعتْ دايو فورًا كأنها لمست موقدًا ساخنًا.

آريانا! ما خطبك؟

طوال السنوات التي عرفتني فيها، وراقبنا فيها الناس يحيون ويموتون من حولنا، لم تكن قد رأتني على هذه الحال من قبل قط. أزاحتْ الطاولة جانبًا وجلست قبالتي.

أنا لن أذهب إلى أي مكان.

وقد وفتْ بوعدها، ظلت على الأرض معي حتى تمكنت من استعادة صوابي. عبثتْ في حقيبتها وأخرجت منديلًا، ناولتني إياه لأفرغ فيه أنفي. أخبرتها بقلنسوتي التي بدت كالحجاب وبما قاله لي الرجال. تنهدتْ.

إنهم حمقى، قالت بسخط. *ظلت عائلتي في نيجيريا تتصل بي بلا انقطاع.* أخبرتْ خالتي أمي أنه عليّ العودة إلى الوطن فورًا. وهي نفسها من رفضت ترك بيتها في أثناء الحرب الأهلية.

تنفستُ ببطء ولاحظت كيسًا أبيض على الطاولة، طلبت دايو الطعام فيما كنت في القطار وجلبته من المطعم في طريقها إلى شقتي. لم يكن من عادتي إلغاء مواعيدنا في اللحظة الأخيرة لذلك جاءت لتتفقدني.

لقد تغلبوا عليكِ حقًا، قالت وأنا أنهض. *لماذا حدث هذا في ظنك؟*

لا أعرف، قلت. لم أنم جيدًا. كانت رائحة المدينة كالقار. شهدت وفاة مريضين هذا الأسبوع. كان بوسعي تقديم آلاف الأسباب لحساسيتي.

لكنها كانت سترى الحقيقة مع ذلك، كنت، حتى تلك اللحظة، قد أخبرتها بما أخبرت به الجميع عن ماضيّ.

سأظلّ هنا، يمكنك التحدث معي أو تجاهلي أو الذهاب للنوم إن شئت لكنني لن أتركك وحدك هكذا، قالت.

كان من السهل إخبارها بكل شيء. أعرف أن عائلتها قد شهدت حربًا أيضًا. والآن نشهد نحن الاثنتان أسوأ حدث في تاريخ مدينة نيويورك. لم أكن لأصدمها بما رأيته. تكورت على أريكتي، وأخبرتها بأنني كنت في كابوس رأيت فيه برجين عاليين ينهاران على أسرتي المفقودة وأنا أراقب من سطح مستشفى مهجور. ثم أخبرتها بكل شيء.

كان هذا منذ وقت طويل جدًا. لا أعرف لماذا أبكي بسببه اليوم.

إنه البرق والرعد، قالت دايو. *تعرفين ما يحدث في العاصفة؟ ترين البرق أولًا ثم تسمعين الرعد. بعد البرق تحبسين أنفاسك وتعدين الثواني ثم تسمعين الرعد. لا تسمعين الرعد إلا في ما بعد.*

جلسنا معًا، شاهدنا في الأخبار إعادة لخطاب جورج بوش وهو يشرح للأمريكيين دوافع الإرهابيين للهجوم: *إنهم يكرهون حريتنا.*

أطفأتُ دايو التلفاز وذهبت إلى مشغل الأقراص المدمجة، ملأت الشقة بموسيقى يوتو. لكنها لم تكن كافية لإغراق أصوات العالم في الخارج.

لن ننسى، أقسمت المدينة.

لن ننسى، تردد الصدى في البلاد.

الفصل الثامن والثلاثون

«طق طق»، قالت مساعدتي بنبرة منغمة وهي تمد عنقها في غرفة مكتبي. «علّقت لتوي اللوح على الحامل. الغرفة رقم 3 جاهزة لك يا دوك».

«حسنًا. شكرًا لاسي».

تأرجح شعرها المجموع في ذيل أرنب وهي تخب السير في الممر. «أو ربما كانت غرفة 4»، صاحتْ.

في العشرين من عمرها وبشخصية شروق الشمس، لكن دون أيّ من سطوعها. ذهبتْ قبل أن أتمكن من الاعتراض.

أمسكت اللوح الذي تركته لي ووجدتها مريضة كنت قد أجريت لها جراحة منذ عامين. كانت قد تعافت جيدًا ولم تعد تأتي سوى مرة كل ستة أشهر. ظلت صور أشعتها وتحاليل الدم خالية من أي سوء، لذلك ستكون هذه زيارة سارة.

فتحت الباب بابتسامة لكنني توقفت فجأة حين رأيت رجلًا يجلس على مقعد ويحدق إلى طاولة الفحص. وجهه غائر وشعيرات ذقنه مزيج من الفضي والأسود. بشرته سمراء وعيناه داكنتان. قميصه ذو الياقة وبنطاله الأسود واسعان عليه ويجلس وحده، كلاهما علامة سيئة.

حين رآني، فرد ظهره وهم بالنهوض.

«تفضل»، قلت وأنا أشير له ليظل جالسًا. ليس لدي شيء عنه في لوحي لذلك لا أدعوه باسمه. خطأ بسيط مثل الدخول إلى الغرفة الخطأ قد يتسبب في هدم ثقة المريض وجعل البداية

سيئة، لذلك جلست على الكرسي الدوار وأدرته لنجلس وجهًا لوجه. يغطي طرف معطفي الأبيض ركبتي. «شكرًا لك لانتظارك. كيف حالك اليوم؟»

نظر إليّ في عينيّ.

«بخير، شكرًا لك»، قال بلكنة إنجليزية. إيراني، على ما أظن. ذات مرة فاجأت إحدى الممرضات حين نظرت إلى غرفة الانتظار وخمنت بشكل صحيح أن أحد المرضى من قرغيزستان. أخبرتني حينها بأنني لو تركت الطب يومًا ما يمكنني العمل في المخابرات المركزية أو في السيرك.

«أنا دكتورة شبرد. حدثني عن نفسك».

نظر إليّ حينها، كما يفعل البعض، ممن يرون شيئًا ما في وجهي لا يتناسب تمامًا مع اسمي.

«ماذا تعمل؟» سألته أدفع بالمحادثة إلى الأمام.

«أعمل في جراج».

تخيلته في زي العمل، يجلس في كشك ويتناول بطاقات الائتمان من السائقين. تخيلته يجول في ساحة خافتة الإضاءة فتسارعت دقات قلبي فجأة. لكن عينيّ تفعلان هذا أحيانًا، ترى أشخاصًا لا يمكن أن أراهم بالفعل. في العادة يمكنني استعادة تفكيري العقلاني لكن ليس الآن. ليس هذه المرة.

عدت بالكرسي للخلف بوصات قليلة وأمعنت في النظر إلى وجهه ويديه.

مستحيل.

تتحنح واستعد ليخبرني بالمزيد لكنني نهضت. غمغمت بشيء ما مثل عذرًا وفتحت الباب، عبثت يدي بالمقبض كأنه ساخن جدًا، كأن غرفة المكتب قد اشتعلت بالنيران. ومضت شرارات حمراء في مجال رؤيتي.

لم أتنفس إلا حين صرت على الجانب الآخر من الباب. سرت متعثرة لأجلس أمام حاسوب.

قد أكون مخطئة. ثلاثون عامًا وآلاف الأميال تمتد بين ذلك الحين والآن. ظللت خلال تلك السنوات، مع أنني كنت مجهولة لمن رآني وأنا في العاشرة من عمري، أتلفت حولي. وصلت إلى هذا البلد محررة من وهم القصص ذات النهايات السعيدة.

دخلت إلى الحاسوب ونظرت في قائمة أسماء اليوم. فرأيت اسمه.

أستند بظهري على المقعد. تند عني ضحكة يتعذر تفسيرها. لا يجب أن أدهش. الهرمونات تعلو وتهبط في دوائر. الأرض تدور حول محورها مرارًا وتكرارًا وتتحرك في مسار إهليجي حول الشمس. كل ما يتحرك تقريبًا ينتهي حيث بدأ.

تخيلت هذه اللحظة. كنت أخشاها أيضًا. بحثت عنه على الإنترنت حتى، لكنني لم أصل إلى شيء بالاسم الأول فقط. تخيلت آلاف السيناريوهات المختلفة التي قد نلتقي فيها مجددًا، لكن ولا واحد منها مثل هذا.

عبدول شير نابي. اتخذ لقبًا لم يكن له في كابول، لكنني لا أشك في أنه هو. شير، الحارس الذي سدد سلاحه نحو أسرتي، يجلس في غرفة كشف صغيرة، في انتظاري لفحصه.

أرتعش، قليلًا فقط. تبدو جدران العيادة كأنها على وشك الانهيار.

أتنفس بعمق. كنت قد استعددت لهذا، لا أعرف متى، أم إن كان الأمر سيحدث من الأساس. يمكنني الوقوف أمامه الآن كشخص بالغ، كشخص لا يمكنه إسكاته بفوهة مسدس. لثلاثة عقود، ظللت أريد محاسبته. ظللت أتمنى الفرصة ليجيبني عن أسئلتي.

هل سحبت الزناد؟ أين أخذت جثثهم؟

أقف، على استعداد للسير إلى الغرفة واعتصاره لاستخراج الأجوبة منه. لكن لمحة شك ومضت في ذهني. لا مجال للخطأ هنا، خاصة هنا. لكن مجرد رؤية اسمه على شاشة الكمبيوتر. يمكنني تقريبًا الشعور بيده تكتم فمي.

أسير إلى غرفة الكشف، آخذ نفسًا عميقًا وأستجمع نفسي. أنا هنا لطرح الأسئلة. مكتبة سُر مَن قرأ

«آسفة بشأن هذا مستر نابي»، أنطق اسمه كأنني لم أولد بلسان يمكنه نطق هذا النوع من المد. «كان لدي شيء ما طارئ. هل تأتي إلى طاولة الفحص من فضلك؟».

ينهض ويجلس على طرف الطاولة. أظل واقفة.

«تعمل في جراج إذن؟»

«نعم، ظللت مع الشركة نفسها عشر سنوات»، قال بلمحة فخر.

«هذه مدة طويلة. ماذا كنت تعمل قبل ذلك؟» أسأله، ألقي بفتات الخبز.

«قبل هذا، كنت حارس أمن مبنى إداري. ثلاثون طابقًا»، يقول وهو يرسم خطًا من حِجره إلى السقف ليوضح ارتفاع المبنى، ومن ثم، أهمية عمله. أومئ بتقدير. «لكنني الآن، تنتابني الآلام يوميًا»، يقول وهو يشير إلى قفصه الصدري.. يخبرني أن طبيبه طلب منه عمل أشعة مقطعية أظهرت أن الأمر ليس مجرد حموضة.

«هل فقدت وزنًا؟»

أومأ برأسه.

«من قبل كنت ثمانين كيلوغرامًا. أما الآن فوزني سبعون».

يمنعه الألم من تناول الطعام، مع أنه لا يشعر بالجوع في جميع الأحوال. ظل يتقيأ أيضًا. ترسل الفوضى التي تنمو بداخله جزيئات في هواء الغرفة، رائحة معدنية ولحمية.

«من يعيش معك مستر نابي؟»

ارتفع حاجباه الكثان.

«زوجتي»، يقول. «وابنة واحدة».

«هل لديك أبناء آخرون؟»

«اثنان آخران»، قال ثم زم شفتيه، كأنه لن يبوح بشيء آخر عنهما.

أتذكر الأطفال وهم يحدقون إليّ، اشمئزاز ابنه من الدم على ملابسي. لا بد أن ذلك الفتى قد صار رجلًا الآن.

«هل معك أحد منهم هنا اليوم؟»

هز رأسه.

«لا، أنا أقود بنفسي... لا مشكلة»، قال كأنني أسأل عن وسيلة انتقاله.

نادرًا ما يأتي الأبناء مع أبويهم. في العادة من يأتي البنات والأزواج الذين يساعدون في ترتيب المواعيد والرعاية الطبية. أحيانًا أجد أحد الأحباء يختار الجلوس في غرفة الانتظار ويحتاج إلى دعوته لدخول غرفة الكشف لأنهم بلا شك سيشاركون في الرعاية الطبية.

من غير المعتاد أن يأتي رب أسرة وحده تمامًا.

«أتعرف أسرتك أنك هنا؟» سألته.

«أخبرتهم أنني ذاهب إلى فحص معتاد»، يقول. لم يخبرهم بشيء بعد.

أتوقف.

«مستر نابي»، قلت وأنا أبذل جهدي لأبدو فضولية ولست اتهامية. «من أين أنت؟»

«أفغانستان»، قال. «لكنني هنا منذ وقت طويل. خمسة عشر عامًا. لم أواجه مثل هذه المشكلة من قبل».

هذه المشكلة هي سرطان في المعدة. انتشر في أنسجة أخرى. غريب كما يبدو، يمكن تصنيف السرطان طبقًا لدرجات معينة، وهذه أسوؤها. أخبره بأنه سيخضع للجراحة والعلاج الكيماوي، وربما بالإشعاع أيضًا. أخبره بأننا سنكون بحاجة إلى مزيد من الأشعة قبل العملية، وأن عليه أن يأتي بأحد أفراد أسرته معه حين يعاود الزيارة في الأسبوع المقبل. علينا التحرك سريعًا. أراقب رد فعله.

وجهه جاد، رابط الجأش. أعرف بالفعل أنه لن يخبر أحدًا بهذا، لا زوجته ولا أبناءه، لأنه إن لم يكن باستطاعته السيطرة على انتشار السرطان في جسده، فعلى الأقل سيمكنه السيطرة على انتشار الأخبار عنه في أسرته.

لن أواجهه اليوم. أريده أن يثق بي، أن يعود إليّ وحينها سنتحدث .

قابلت آدم في محطة مترو الأنفاق. لففت ذراعيّ حوله. لفتة عاطفية بسيطة، لكنني استغرقت زمنًا طويلًا لأجعلها تبدو عفوية.

«يوم شاق؟» سألني وهو يقبلني على خدّي.

«شهدت أصعب منه»، أجبته وأنا أتشمم رائحة عطره. لا أكرهها في العادة، لكنها اليوم تُزيد الطرق في رأسي. أضغط على يده قبل أن أبتعد عنه قليلًا.

ذات مرة، في أثناء وردية ليل خلال مدة إقامتي، دخلت إلى غرفة الأطباء حيث كان زميلان مقيمان يتحدثان باهتمام عن تفاصيل موقع يحدد قواعد المواعدة.

نحن نستخدم اللوغاريتمات لاتخاذ قرارات طبية سليمة. إن أتيحت لنا لوغاريتمات للمواعدة، يمكننا صنع علاقات أكثر صحة، قال جابرييل.

العلاقات كلها تدور على الإنترنت الآن، في جميع الأحوال. تجدين من *تبحثين عنه على الشبكة ثم تضغطين لتذهبي إلى موقعنا لئلا تفسدي الأمر*، أجاب سيرجي.

على سبيل المثال، قال جابريل وهو ينظر في ملاحظاته.

يجب الإعلان عن الزواج السابق في الموعد الأول. أما الخطبة السابقة ففي الموعد الثالث. لكن الشخير في أثناء النوم؟

الموعد الرابع، أجاب سيرجي.

الشخير العادي أم الضجة التي تصنعها القنوات الهوائية؟ سألته. *بعد أن تشاركت معك غرفة استدعاء واحدة، يجب أن أقول إن قنواتك الهوائية في حاجة إلى الضخ.*

اللعنة، آريانا.

لا تُدعى ملكة الثلج بلا سبب. ضحك جابريل. كان ذلك أفضل من أن أُدعى هورمونية. *والإعلان عن الأطفال في الموعد الأول بالطبع.*

ماذا لو لم يكن لك الحق في الحضانة؟

الموعد الأول، أصر.

صارت قائمة الإفصاحات طويلة ومعقدة: القيادة في أثناء السكر، الغش في امتحان، وديعة في البنك، خلل في السيارة، خبرة إدمان سابقة، الجينات المتنحية غير المرغوب فيها، بثور الحمى، والولع بالأفلام الإباحية.

لم نحدد في أي موعد يمكن الإفصاح عن ماضٍ مثل ماضيّ. لم نقترب من الأمر حتى.

لا توجد لحظة مناسبة لذكر ماضٍ قاتم أبدًا. ستفسد أمسية جيدة. ستدمر ليلة سيئة تمامًا. كنت متأكدة من أن ما لديّ سيصيب آدم بالرعب وأنه سيهرب قبل أن يمكنني التحكم في شياطيني وترك نفسي للغرق في هذه العلاقة بعينين مفتوحتين على وسعهما. كنت في حاجة إلى وقت.

في البدء، كان الوقت مبكرًا لإخباره. وفي لمح البصر، صار الوقت متأخرًا جدًّا.

«دعينا نتناول شيئًا ما ويمكنك حينها التنفيس عمّا بكِ»، يقترح آدم. نتوقف قبل التوجه إلى شقتي، في محلين مختلفين لإحضار عشائنا: سلطات معتادة، كيكة شكولاتة عضوية، وزجاجة نبيذ. يُعد آدم المائدة وأنا أخرج فتّاحة زجاجات النبيذ من الدرج. «ماذا استأصلت في غرفة العمليات اليوم إذن؟»

آدم مولع باستخدام المصطلحات الطبية. ويعرف أن أسوأ أيامي تلك التي يحدث فيها شيء ما خطأ في غرفة العمليات. أمر ليس معتادًا لكنه يحدث. للأورام أوردة دموية متفرعة كثيرة. تؤثر شهور العلاج الكيماوي في وظائف الأعضاء. تختبئ الخلايا السرطانية في الأوعية والعقد الليمفاوية، بعيدًا عن الأنظار. وحتى وإن لم يكن المرض خطئي أنا، أشعر بمسؤوليتي تجاه أقل تعقيد.

«لديّ معلمة الروضة تلك المصابة بسرطان الثدي. ظلت تفوت جلسات العلاج الكيماوي لأن تأمينها الصحي لا يغطيها كلها.. محض هراء. تنتابها الآن نوبات صداع. أرسلناها لعمل أشعة على الرأس.. لدي شعور سيئ حقًّا عمَّا سنجده».

«هذه جريمة».

«نعم. لكن لا أحد يمكنه الزج بشركة التأمين في السجن».

«ألديها أطفال؟»

«فتاتان صغيرتان. بالطبع. يتطوع ثلاثتهن في ملجأ الحيوانات معًا. بالطبع. بأمانة، أفضل وقاية من السرطان هي أن تكون أحمقَ. الحمقى محصّنون تمامًا».

«هل توجد دراسات تدعم هذه النظرية؟» يفتح أطباق السلطات ويُخرج شوكتين من الدرج.

«من سيعرض هذه المنحة؟ لا توجد هيئة وطنية للحمقى».

يضحك بصوت عالٍ فأشعر بدفء لا يمكن إنكاره حين أنظر إليه، قميصه الأزرق بلون سماء الليل خارج بنطاله وكماه مشمران. غيّر بنطاله بالفعل وارتدى بنطالاً قصيرًا فضفاضًا. وجودي معه يعني تذوق حياة بدت دائمًا بعيدة المنال، حياة يعززها المستقبل، ولا يُثقلها الماضي.

بإمكاني قضاء حياة رائعة معه. لكن هذا لن يحدث ما لم أبُح له بسري. أخبرت نفسي آلاف المرات بأنه سيظل يحبني حتى بعد أن يعرف كل شيء لأن هذا لا يغير شيئًا فيّ.

ومن حقه أن يعرف.

وضع كأسين على المائدة وراقبني وأنا أصب السائل القرمزي فيهما.

«نخب أروع امرأة»، يقول برقة، ويرفع كأسه اللامعة كملك.

«لأنني لم أسكب قطرة واحدة؟»

يُسقط رأسه فأزم شفتيّ. ليست تلك أول مرة أفعل فيها هذا. آخذ لحظة حب دافئة وأُلقي بها في الماء البارد.

حين كنت في المدرسة العليا، ألمحت ماما إلى إمكانية منح العلاج النفسي فرصة أخرى. رفضتُ رغم علمي بأن شيئًا ما فيّ خطأ. ثم درستُ في الكلية مواد عدة في الطب النفسي ساعدتني على تحديد الأمر. غطت محاضرة واحدة في كلية الطب موضوعات الصدمة واضطرابات ما بعد الصدمة وطرائق

العلاج. لمن لم يتخصصوا في الطب النفسي كان هذا هو كل شيء.

عرفت مرضي جيدًا. عرفتُ لماذا أدفع بالرجال بعيدًا ولماذا أضطرب لسماع قرع الطبل أو لشم رائحة عطر أمي. قرأت عن العلاج أيضًا. عرفت عن العلاج المعرفي السلوكي وإزالة التحسس والأدوية المتاحة. لكنني كنت قد سمعتُ أن استمارة الترخيص الطبية تسأل عن تاريخ الصحة النفسية. وإن وطأت بقدمي غرفة طبيب نفسي، أو تناولت مضادات اكتئاب مدة أسبوع، قد لا يمنحونني رخصتي. قد أغامر بمساري المهني إن تحدثت عن مشاعري مع أحد.

ظللت أقوم بما ينبغي وحدي وظننتُ أنني أحرز تقدمًا.

«آسفة يا حبيبي»، أقول وأنا أقبله. «ألا تسامح صاحبتك المتهكمة؟»

ينظر إليّ، وجهه غائر.

«لماذا تفعلين هذا؟ أنا لا أفهم. طلبت منك أن تكفي عن هذا وها نحن أولاء مجددًا».

«كانت مزحة صغيرة».

«إنها كلها مزح صغيرة. كل شيء مزحة صغيرة». انفجر فجأة.

«آدم، لقد كنا نعد المائدة. لم نكن وسط عشاء على ضوء الشموع».

«فكري فقط كم ظللنا معًا وأنتِ.. ما زلت تعاملين كلمة أحبك كأنها قنبلة نووية. إنها كلمة بسيطة يا آري، كلمة بسيطة يمكنها تغيير كل شيء».

«أنت تعرف أنني أحبك. وتعرف أيضًا أنني لست من النوع الذي يعبر عن حبه كل خمس دقائق».

أطلق صيحة اعتراض قصيرة. وضع يديه الاثنتين على منضدة المطبخ وهز رأسه.

«إنها ليست وشاحًا من الكشمير يا آريانا. تخرجينه لارتدائه في المناسبات الخاصة فقط...»

«ستأكله العثة وسأظل وحيدة وسأشعر بالبرد. أنا أتفهم انزعاجك»، أقول في محاولة لإيجاد مخرج من هذا الموقف.

«لا تخاطبيني هكذا»، قال يحذرني. «اللعنة، يُفترض أن يدور هذا بالعكس. لستُ أنا الصاحبة الكئيبة».

رفعتُ يديّ لأعلى باستسلام. لو عبرت له عن حبي الآن، سيقول إنه بناء على طلبه. وإن لم أفعل، سأظل الفاترة عاطفيًا. لا أحب محاصرتي في الركن هكذا.

«أنت محق يا آدم. أنت القادر عاطفيًا هنا، وقد نجحت بلا أدنى شك في إثبات أنني... عاهرة قاسية. فهمت قصدك».

منذ ساعة واحدة فقط، كنت أفكر في أنه ربما حان الوقت لأخبره أخيرًا بالحقيقة عن طفولتي وربما أيضًا عن رؤيتي شير. منذ ساعة واحدة فقط، كنت أحبه.

«هذا بسببك، لقد بذلت جهدًا كبيرًا في هذا وأريد أن أعرف أنني أسير نحو شيء ما في المقابل. لذلك لا تنسي كيف وصلنا إلى هذا».

«وصلنا إلى هذا لأنك قررت التصرف بصفتك مساهمًا في شركة وليس بصفتك صاحبًا». أجبته.

يهدأ حينها، وأهدأ أنا أيضًا. يشتغل مكيف الهواء، همهمة المحرك والمروحة، فات أوان تبريدنا. إنه شجار دار بيننا من قبل لكنه الليلة يبدو مختلفًا بشكل ما، يبدو أثقل.

«لن نتشاجر هكذا مجددًا»، قال.

«لا، لن يحدث»، وافقته من الجانب الآخر من المائدة، بيننا كأسَا نبيذ لم نلمسهما.

الفصل التاسع والثلاثون

الكتب خيط رفيع يربطني بأبوي. أن أكون قارئة يعني أن أكون مثلهما. كذلك يريحني أن أكون بين الكتب والقراء.

خلال مدة إقامتي في المستشفى، كنت أذاكر في كافتيريا متجر للكتب، حيث كان عدد من النساء يلتقين شهريًا في نادٍ للقراءة. كنّ يضعن كتبهن التي استعرنها من المكتبة والآيس كريم بالتوت الأزرق على الطاولة. بدأت أتابعهن بأذني وأدركت أن الكتب التي يقرأنها ليست سوى حجة للتحدث عن حياتهن. كل شخصية، كل قلب جريح، كل انعطافة للقدر، تذكرهن بحكاية عن حماة قاسية، أب زير نساء، أو ابن عم صارح أبويه المتزمتين بشأن شذوذه. بدا ذلك أشبه بجلسات علاج جماعية وليس نقاشًا عن الكتب.

لم أكن لأنضم إلى نادي قراءة قط.

منذ نحو عام، بدأت حضور ندوات عن كتب. حيث يمكنني الجلوس والاستماع أو التعليق بشكل مجهول أو لا شيء على الإطلاق.

متجر الكتب الذي سأذهب إليه هذا المساء في منتصف كتلة سكنية في وسط المدينة، بين محل عناية بالأظافر ومغسلة ملابس. أمر بطاولة أحدث الإصدارات ورف أفضل المبيعات، التقطت نسخة من الكتاب الذي سيناقش الليلة وأنا في طريقي. في الطرف البعيد من المتجر، بخلفية رف الكتّاب المحليين، يجلس الكاتب وصاحبة المتجر إلى منصة صغيرة. جلست على أحد الكراسي القابلة للطيّ في الخلف.

كلاي بورتر مراسل حرب قضى وقتًا بين الميليشيات في أفغانستان. أنظر إلى ساعتي. تأخر آدم. طلبت منه أن ينضم إليّ الليلة بأمل أن تكون الندوة بداية جيدة لمحادثة طويلة متأخرة معه. سنستمع إلى كلاي بورتر يحكي خبرته في أفغانستان ثم ربما نتناول كوبي كاكاو ساخنين من محل الشكولاتة في نهاية الشارع حيث سأخبره بما لا يعرفه.

عدلت صاحبة المتجر إطار نظارتها الأحمر بلون الياقوت وهي تبتسم للجمهور الصغير. أمسك كلاي بورتر ميكروفونه، تركه يتدلى بين ركبتيه فيما تسرد صاحبة المتجر سيرته المهنية من بطاقة كبيرة.

«كأي حديث عن الحرب، هذا الكتاب قاس»، تبدأ. «لكنه أيضًا بورتريه للشجاعة؛ الرجال والنساء في الزي الرسمي والمدنيون من خلفهم. وأنت، أيضًا. باختيارك، وضعت نفسك في الصفوف الأمامية. أكانت تلك شجاعة؟»

يفكر قبل أن يجيبها.

«انظري، كان توجد أخطار، لكنني كنت أتمتع بحماية أكثر من المدنيين. كذلك لم أكن مستهدفًا مثل الجنود»، يقول. «مع ذلك لم أكن لأدعو هذا شجاعة. كنت بالتأكيد أشعر بالخوف. وظني أن جميع من ذكرتهم شعروا كذلك أيضًا. هذا ما يجعل الأمر يبدو شجاعة، على ما أظن. أما الآن، فالشجاعة دون خوف؟ هذا مجرد ادّعاء».

سألته عن الأشخاص الذين تعرف عليهم في أثناء الرحلة. كان بعض الجنود يعدّونه صديقًا حميمًا. إحدى النساء تزعم

أنها تعرضت لاعتداء جنسي في عملها. أبلغت عن الأمر لكن لم يحدث شيء، رغم وجود شاهد يؤكد مزاعمها. بعد ذلك بستة أشهر، تم تخفيض رتبة رئيستها، لسرقة هاتف محمول. قال جندي آخر في رحلته الثانية أنه سعيد تقريبًا لعودته إلى الحرب. لم يعد مثلما كان في البيت، كان قلقًا ومتوترًا وهو مع صاحبته. لكنه لم يخبر أحدًا بذلك خشية تصنيفه غير اللائق للخدمة.

أنا متأكد من أنني غير لائق لأي عمل آخر. على الأقل أنا هنا لست وحدي، أخبر كلاي.

جلس آدم على الكرسي الخالي بجواري. أخذ الكتاب من يدي، تطلع إلى الغلاف الخلفي وأعاده إليّ.

«شكرا لإجابتك عن سؤالي»، قالت المرأة، فمها قريب جدًا من الميكروفون. من حيث نجلس، على مبعدة ستة صفوف للخلف، لا أرى سوى شعرها المجعد. «أيمكنك إخبارنا بما جعلك ترغب في معايشة هذه الحرب عن قرب؟»

ظلت تمسك بالميكروفون حتى أشارت لها المضيفة أن تعيده إلى المنصة.

«الأمر أنني»، قال كلاي، عيناه تمسحان الأرض أمامه وهو يستجمع أفكاره. يرتدي سترة رياضية سوداء وتيشيرتًا رماديًا مرقشًا. يُظلل وجهه المثلث لحية بشعيرات عمرها نحو يومين. عيناه داكنتان، تُظللها الخطوط. بدا مسنًا بما يكفي ليعد متمرّسًا لكنه شاب بما يكفي ليظل أمامه المزيد ليحققه.

«ظني أن بعضَنا لا يمكنه إشاحة بصره بعيدًا. نظل نحاول إيجاد منطق للأمر كله. هذا حقيقي. كُتب التاريخ تُنقَّح لتقدم

نسخًا مختصرة من القصة. يسقط حاكم عن العرش، ليجلس عليه حاكم آخر. لكن الجنود والمدنيين يعيشون الحرب ويعانون الخسائر. أنا أكتب عن الزوج الذي عاد إلى زوجته في ميتشجان في نعش ملفوف بالعلم، وعن الأطفال الأفغانيين الذين لقوا حتفهم في القصف الجوي الأمريكي».

سرت همهمة انزعاج في الغرفة. هز آدم رأسه، لا أعرف إن كان مستاء لما حدث للأطفال أم من مذهب كلاي.

«ألا تظن أننا بذلنا كل ما في وسعنا لتنظيف بلدان العالم الثالث تلك؟» يسأل رجل أشعث. تساءلت إن كان قد أتى لنقاش الكتاب أم انضم إليه مصادفة وهو في طريقه لتصفح المجلات. «لقد خلّصناها من طالبان. عليها الآن التعامل مع مشكلاتها الخاصة».

تنهد كلاي ببطء، كأنه أجاب عن هذا السؤال مرات عدة من قبل. «أنا أفهم وجهة نظرك»، قال. «حقًّا... لكن الأمر أكثر تعقيدًا».

لا أسير إلى الميكروفون. لا أعنى حتى برفع يدي.

«يقول الناس «العالم الثالث» ويظنون أنه يعني البلدان التي ليس فيها شبكة إنترنت أو طرق مرصوفة فحسب»، أقول، «لكن العالم الثالث مصطلح في الحرب الباردة. بلدان الناتو هي العالم الأول، والكتلة الشيوعية هي العالم الثاني. والعالم الثالث هو مجال تصارع هذين الطرفين. لذلك فالفوضى في أفغانستان هي في الحقيقة مشكلة العالمين الأول والثاني».

هز الرجل رأسه.

«لم نكن في حرب قبل أحداث الحادي عشر من سبتمبر. نحن لم نصنع طالبان. كانوا هناك بالفعل».

يلاحظ آدم اقترابي بكرسيّ إلى الأمام. يضع يده على ركبتي، تخبرني عيناه أن أهدأ.

أبدو عاجزة تمامًا عن إمساك لساني اليوم.

«ظلت الولايات المتحدة ترحب دائمًا بمنح المال والسلاح لأي طرف يقاتل الشيوعيين الملحدين. أي طرف. لم تواجه الولايات المتحدة طالبان إلا بعد أحداث سبتمبر. حينها فقط اعتبرتها عدوًّا».

غمغم الرجل بشيء ما. عدت إلى الخلف في كرسيّ، قلبي يدق بسرعة. المساحة بيني وبين آدم ملحوظة. عاد إلى الخلف في جلسته فابتعد أكثر.

«ماذا قالت؟» سأل كلاي وهو يشير إليّ مبتسمًا.

«بالفعل»، قالت صاحبة المكتبة وانتقلت إلى بطاقتها التالية. «للصراع في أفغانستان مستويات عديدة. لنواصل تقدمنا ونتحدث عن بعض المفاجآت التي قابلتك في كابول. لم نسمع قط عن الاستراحات. حدّثنا عن الميراج».

يأزّ هاتف آدم، يضيء برسالتين جديدتين.

«عليّ أن أردّ على هذا. لن أتأخر»، همس لي وخرج من المكتبة.

حين انتهى النقاش، يجلس كلاي بورتر إلى طاولة قريبة من المنضدة ليوقع نسخ كتابه. يصطف أمامه ثلاثة أشخاص ليوقع

لهم على نسخهم. تحوم امرأة خلف كلاي، تشكر صاحبة المكتبة على تنظيم الندوة. أقف في الصف للدفع مقابل نسختي حين يقترب مني كلاي.

«شكرًا لمحاولتك تحريك النقاش قليلًا»، يقول وهو يدس كتابه وقلمه في حقيبته.

«لديّ عادة سيئة تجعلني أقول ما أفكر فيه»، أجيبه.

«الأمانة؟ نعم، ستحرمك من وظائف كثيرة جدًّا».

حين أبتسم، يُضيق عيناه قليلًا. أدير ظهري له، تفاديًا للسؤال القادم.

«أأنتِ أفغانية؟» يسألني. أُخِذت. ظننته سيسألني من أين أنا، ولن يحدد هويتي.

«أيبدو لك الجميع أفغانًا الآن؟» أسأله بضحكة متوترة قليلًا.

تنظر المرأة التي تتحدث مع صاحبة المكتبة إلى كلاي دون أن توقف محادثتها. شعرها بني طويل وملابسها أنيقة، كأنها خرجت من كتالوج بيت أزياء شهير. تنظر إليّ ثم إليه بفضول.

«شكرًا على كل حال. كان ذلك عظيمًا»، أظل مكاني وأستدير لأناول بطاقة ائتماني للمسؤول عن ماكينة الدفع.

«ما عملك؟ إن سمحتِ لي بالسؤال؟» يسألني بنبرة طبيعية.

«أنا طبيبة».

«في أي تخصص؟»

«الجراحة».

تنضم إلينا ذات الشعر الطويل، زوجته أو صاحبته، بفضول.

«أرجو أن تكوني قد استمتعت بالنقاش»، تبادرني ببهجة.

«سيلينا، هذه...» ينظر إليّ لأُكمل له تقدمته.

«آريانا»، أقول. «وأنا أتطلع إلى قراءة الكتاب. تسعدني مقابلتكما».

أدس إيصالي في حقيبتي.

«أتريدينه أن يوقع لك كتابك؟ أنت لا تمانع كلاي، أليس كذلك؟»

أستدير إليه، لأن رفض عرضها سيكون وقاحة متناهية. يسحب قلمًا من حقيبته ويأخذ الكتاب من يدي. يفتحه ويخط شيئًا ما على صفحة العنوان.

«أقلتِ إنك جراحة؟ لكم أحب هذا!» تقول سيلينا. لديها عينان أودري هيبورن، مرحة ودافئة. «تعرّض أبي لحادث سيارة منذ ثلاثة أشهر مضت، أفاق ليجد أن جرّاحة امرأة قد خاطت له كبده على نحو خاطئ. وصلتْ به الذكورية أن طلب أن يعيد إصلاح الخطأ جراح ذكر. كانت تلك المرأة من أنقذت حياته».

«يسعدني أنه تعافى»، أقول. قابلت رجالًا مثل أبيها. ونساء أيضًا عبّرن عن عدم ثقتهن بامرأة جراحة. يمكنني تحمل العنصريين الصريحين أكثر من هؤلاء الذين لا يبوحون بانحيازاتهم.

يغلق كلاي الكتاب ويعيده إليّ.

«تسعدني مقابلتك جدًا دكتورة»، يقول.

أفتح باب المكتبة، وأسمع سيلينا تقترح عليه تناول السوشي. أخرج إلى الرصيف وأبحث عن آدم، يقف عند زاوية المبنى، هاتفه ملتصق بأذنه، يدور على عقبيه ويُقبل نحوي. أسمع محادثته وهو يقترب.

«لم تقترب حتى يا أخي. يجب أن ترسل لي عشرة أشخاص وعلى الأقل ضابط أركان واحد بكلب كبير. عمومًا، يجب أن أذهب الآن، نعم، في ما بعد»، قال وأنهى الاتصال.

«سمعت قائمة أمنياتك لأعياد الميلاد»، أقول في محاولة لأبدو طبيعية.

«جمع التمويلات الأسبوع القادم. وهو مدين لي بخدمة في جميع الأحوال»، يقول ثم يقترح أن نذهب إلى مطعم قريب. يسألني متى ستصل ماما إلى المدينة، مع أنني متأكدة من أنه لم ينس. ظل كلانا يسير على أطراف أصابعه منذ ليلتنا الأخيرة معًا، كأننا نخشى إيقاظ جدل نائم. «اسمعي، آريانا، لقد ظللت أفكر، كثيرًا بالفعل».

أتوقف عن السير. كلماته كنفير بوق قبل إعلان ما. يقف بظهره لمحل العناية بالأظافر. على واجهة المحل ملصق لأصابع أقدام مطلية بطلاء لامع، ووردة حمراء ملقاة عند القدمين. خلفية مبتذلة جدًّا إلى حد كدت أن أطلب منه أن نقف في مكان آخر.

«أنت رائعة وأنا أحبك. كل ما أريده أن تخبريني بأن هذه الجدران لن تظل بيننا إلى الأبد».

ليس مخطئًا في طلبه هذا. إن أردت إنجاح هذه العلاقة، أو أي علاقة، فعليّ أن أجد طريقة لأكون أكثر انفتاحًا. ولا يمكنني الاعتماد على ندوة عن كتاب لتنجَز لي المهمة، ولا يمكنني تحديد اللحظة المناسبة بدقة.

«نحن رائعان معًا»، أقول له. «والجدران ليست رائعة. أفهم هذا. لذلك سأعمل على هذه المسألة».

أردت أن أخبره بأن عبارة الصاحبة الكئيبة قد آلمتني لكنني أحجمت. لا أحب الرثاء للذات. لم أحب رد فعله لكنه محق. أنا في أرض جديدة بهذه العلاقة وسأجعل الأمر يفلح.

أطلق تنهيدة.

«هذا كل ما أريد سماعه يا آري»، قال وواصل سيره قبل أن يمكنني لف ذراعي حوله. «غدًا يوم كبير. سنعلن عن الحملة رسميًا. وجدت مدير حملة شرس. إنه حصان رابح».

«هذا رائع»، أقول من قلبي.

تتركنا النادلة بعد أن تسجل طلبنا، أرشف من كوب الماء وأخبره بأنني كنت أتمنى أن يسمع مزيدًا من النقاش عن الكتاب.

«نعم، أنت تعرفينني. أنا أفضل مشاهدة الفيلم. وقد كنتِ حادة قليلًا مع ذاك الرجل هناك. لا مزيد من مشاهدة الأفلام الوثائقية لكِ».

تكثّفت حبات الماء على كوب الماء من الخارج. لن يعرف، أخبر نفسي.

تذكرت حين رأيته يلقي خطاب الإشبين في حفل زفاف صديقه في نيوجيرسي. كنت قد ألقيت كثيرًا من المحاضرات في غرف ملأى بالأطباء دون عناء يذكر، لكن إلقاء خطبة في مناسبة مهمة كهذه كان سيصيبني بالهلع. لم يكن آدم متوترًا. عبر حلبة الرقص بأريحية لم أعهدها فيه وباختيال لم ألحظه من قبل. أمسك الميكروفون، وتحدث عن المرات التي ضلا فيها طريقهما وهما يقودان إلى مونتريال، وحين كان مريضًا كالكلب وأحضر له صديقه علبة حساء شعيرية بالدجاج منتهية الصلاحية. بعد

تصفيق قليل من الحضور وعناق من العريس، عاد إلى كرسيه بجانبي، وجهه يشع سرورًا.

ظللت طوال وقت العشاء، وفي طريقي إلى البيت وحدي، أتساءل لماذا أجد صعوبة في إخبار شخص واحد فقط بقصتي. خاصة أن هذا الشخص هو آدم.

الفصل الأربعون

كان آدم قد عاد لتوه إلى الطاولة. جدولا عملينا لا يلتقيان هذه الأيام، فلم نعد نلتقي إلا في أوقات الوجبات. كان يدردش مع صاحب المطعم، يسأله عمَّ يواجهه من مشكلات بصفته صاحب مشروع صغير ويمنحه بطاقة عمل برائحة النعناع المنعش. يموج بطاقة جديدة، صار يشبه قليلًا الرجل الذي حاول أن يبيع لي بوليصة تأمين ضد الإعاقة. أحتفظُ بهذه الملحوظة لنفسي.

«لا أعرف كيف تفعل هذا»، أبادره حين يجلس ويشير إلى النادل ليحضر الفاتورة. «يمكنك إدارة محادثة مع أي شخص».

«هذا ليس سحرًا. أخبرته بأن عمي يدير مطعما في كونيكتيكت وأنني أعرف صعوبة هذا الأمر».

«أتعرف صعوبة إدارة مطعم؟»

«يجب أن أعرف. لم يبدُ عمي سعيدًا قط»، يقول. «ظني أن المطعم هو ما كان يحزنه».

«كلام معقول»، قلت ورفعت كتفي. «هل تسير الأمور جيدًا إذن؟»

«مضى أسبوع دون فضائح كبرى»، قال «كان يجب أن تري كيف شواني فيجو على النار قبل أن ينضم إلى الحملة. جعلني أقسم على الكتاب المقدس إنني لا أخفي أي جثث في الدولاب. حدثته عن حفلة الكلية الوحيدة تلك وعن تدخين الحشيش لكنه قال إن هذه أمور بسيطة».

«لا شيء لتقلق بشأنه إذن».

«نعم، سيبحثون، لكنهم لن يجدوا شيئًا».

«أتظنهم سيحفرون بعمق حقًّا؟»

«هذا يعتمد على حدة السباق. لقد أقسمت على نظافة جميع من حولي أيضًا، فإن كان لديكِ أي فوضى جانبية غير قانونية، فأنا لا أعرف ماذا أقول».

تنقبض معدتي لمزاحه. لا يمكنني تصفية ذهني على العشاء. أحتاج إلى بعض الهدوء للتفكير في طريقة لتناول هذا الأمر. يقترح آدم أن نسير بعد العشاء. في الخارج، أجمع شعري إلى الخلف بلا عناية وأدس الخصلات الطويلة خلف أذنيّ. أشعر بانتعاش لهواء المساء على عنقي. يتفقد آدم هاتفه وينقر ردودًا عدة. من المبهر رؤية ما حققه في وقت قصير كهذا، كيف يتصرف بطبيعية شديدة في كل شيء.

تجولنا في متنزه براينت، مررنا برجلين يلعبان الشطرنج وأم تلاحق صغيرها الضاحك. وقف آدم ورفع هاتفه أمامه. وضع ذراعه على كتفي والتقط صورة لنا. قبّل خدي وقادني إلى دكة شاغرة.

قفزتِ السناجب وتراكضت عند أقدامنا. رقدت ثلة من المراهقين على العشب، أطرافهم كوكبة مثيرة للفضول. مرت بهم امرأة ترتدي حجابًا بصحبة زوجها.

«آريانا»، قال. «أريد أن أحدثك محادثة حقيقية».

«حسنًا، بالطبع. عن ماذا تريد أن تتحدث؟»

أخذ نفسًا عميقًا.

«ظللت أبحث عن أفضل طريقة لفعل هذا. ظني أننا في حاجة إلى أفق ما. لقد ظللنا يرقص أحدنا حول الآخر مدة وربما علينا الآن التقدم تلك الخطوة إلى الأمام».

لا يمكن أن يكون قصده هو ما أفهمه. ينظر أحدنا إلى الآخر وجهًا لوجه، كل منا بقدم واحدة على الأرض. ذراعه تتدلى على مسند الدكة.

«لست متأكدة مما تعنيه بالخطوة التالية»، أقول. لم أتوقع هذه المحادثة.

«نحن كبار. لكل منا مهنته. أنا أبدأ فصلًا مهمًا حقا من حياتي وأريدك أن تكوني معي فيه، بشكل رسمي. لكنني قبل أن أصل إلى هذا، لأجعل من نفسي أحمق كبيرًا، فكرت في أنه سيكون من الأسلم أن أسألك عن شعورك حيال هذا».

«آدم، الآن؟ أعني، لقد دارت بيننا محادثة قاسية حقًا تلك الليلة».

«لسنا بحاجة إلى العودة إليها»، يقول بحزم.

«بالطبع، لكن... واو. حبيبي. أنا فخورة جدًا بما تفعله، وسعيدة من أجلك. نعم، أريد أن أكون معك فيه».

يميل ليقترب مني، يضع يده على يدي وردد أدفأ كلمات سمعتها منه من قبل.

«أريد أن أستيقظ كل يوم لأجدك معي. لا أريد أن أرسل إليك رسائل نصية لأعرف ماذا تفعلين. أريد أن أكون أكثر من موعد في حياتك. أعرف أن طلب أكثر من هذا كثير عليك لكنني أعتقد أننا نستحق محاولة حقيقية. رسميًا».

رسميًا؟ كان يجب أن أطير فرحًا. لكنني لدي الكثير جدًا مما أود أن أخبره به الليلة. لم أكن لأترك شيئًا دون أن أخبره به.

لكن كيف أخبره بأنني أحيانًا أغرق في أحزاني؟ أنني أحلم أن أجد يومًا ما المكان الذي دُفِنت فيه أسرتي لأضع الزهور على قبورهم؟ أنني أخفيت عنه كل هذا حتى الآن؟

وإن كان قد غير رأيه بخصوص الزواج، فما رأيه الآن بخصوص إنجاب أطفال؟ أيظن أنني سأغير رأيي بخصوص هذا أنا الأخرى؟ أعرف بالفعل أنني لن أغير رأيي. لا طفل يتمنى أن أكون أمه، ليس بحياتي وحوافي الحادة. أفكر في أمي وأعرف أنني لن أكون مثلها في شيء لا في حضورها ولا صبرها ولا رقتها. لا طفل يستحق أقل من ذلك.

كنت قد فكرت كثيرًا في ارتباط أمي الشديد بنا، خاصة بعد أن فقدتْ أختي. كان جرحها باديًا. وقد عرفت ماذا رأيت في وجهها في تلك اللحظة الأخيرة، كانت تفقدنا. كان الحزن سيقتلها لو لم يقتلها الرصاص.

الأطفال يجب ألا يموتوا ومع ذلك يموتون، بطرائق كثيرة ومختلفة. رأيت ما فعله هذا بأمي. لا أريد أن أعيش بهذا الاحتمال معلقًا أعلاي كسيف دموقليس. لا أريد أن أعرف إن كان سيمكنني البقاء بعد هبوط السيف أم لا.

«دعيني أسمعها منكِ إذن، آري. أأنت على استعداد لهذا؟ هل أجدد عقد شقتي أم لا؟»

أقرب وجهي إلى وجهه، أضع يدي على خده. عيناه تشعان سرورًا.

«لم أتوقع هذا»، أقول له. «إن رأسي يدور قليلًا الآن، بصراحة، وإنما بطريقة جيدة. امنحني وقتًا قليلًا لأرتب أفكاري. أيمكنك المبيت معي الليلة؟»

هز رأسه لكنه بدا سعيدًا.

«يجب أن أذهب إلى المكتب مبكرًا غدًا. ماذا عن الغد؟»

أخبرته بأنني سأنهي عملي غدا مبكرًا إن سارت العمليات الجراحية بلا مشكلات. ظلت رعشة فرح بيننا بقية الليلة فيما نفسح المجال لإمكانات جديدة.

عدت إلى بيتي بالقطار في التاسعة مساء. تأخر الوقت على الذهاب للركض. يجب أن أستيقظ مبكرًا، لأنظر في صور الأشعة قبل دخول غرفة العمليات في الصباح. تميل عربة القطار، فيميل الركاب نحو بعضهم قليلًا.

يفتح الراكب إلى جانبي جريدته. أرى عنوان خبر عن عضو في مجلس المدينة مدينًا بألفي دولار مقابل تذاكر انتظار سيارته.

أي عالم يهم آدم بدخوله؟ هل يمكن تفادي جميع مشكلات الحياة العامة؟ هل ستُلقى الأضواء عليّ أنا أيضًا؟ عقدتُ رجليّ وطويت ذراعي على حقيبتي. لم يلحظ أحد في القطار قلقي. الناس مشغولون جدًا ليلاحظوني، أُخبر نفسي.

لا يمكنني انتظار اللحظة المناسبة لأبوح لآدم بما أكتمه عنه. يمكنني البدء بأبوي وأخي. يمكنني البدء بالسنوات المزدانة بزهور الحدائق والموسيقى المنبعثة من النوافذ المفتوحة. إن بدأتُ من هناك، ربما أمكنني الوصول إلى البقية.

أعرف جيدًا أنني سأحتفظ لنفسي ببعض التفاصيل.

لا يمكنني إخباره بأنني في بعض الليالي أشعر بجرحي داخلي جافًا ومكتملًا جدًا إلى حد أن أفكر في فتح صدري بالمشرط لاستئصاله. لا يمكنني إخباره بأنني أركض لأذكر نفسي بأنني لست مقيدة، أو أنني أتمنى أحيانًا لو كنت قد حلقت نحو الصحبة المقدسة للنجوم أعلى القصر بدلًا من الهروب إلى قبوه وحدي.

عدتُ أنا وأنتونيا إلى الولايات المتحدة في آخر عامين لي في المدرسة العليا. كانت الفتيات حينها لديهن صديقات مقربات ودوائر اجتماعية. حين تقربت مني فتاة تدعى مارتين، كنتُ شاكرة. كانت هي الأخرى غريبة بشكل ما، بسبب معاناتها من حساسية مزمنة، فكان البقاء معها يعني البقاء مع كرات المناديل المجعدة وتفريغ الأنف بشكل دائم. قالت مارتين إننا ليس علينا انتظار فتى ما ليمنحنا الإذن بحضور حفل التخرج، واقترحت أن نذهب معًا. أعجبني منطقها ووافقت على أن أكون موعدها.

اشترينا ثوبين طويلين وفضفاضين وحذاءين بكعب عالٍ أمكننا بالكاد السير بهما. من حسن حظنا أن أمها كانت تعمل في صالون للشعر. فظلت شهرًا كاملًا تجرب علينا تسريحات الشعر ودرجات ألوان ظلال الجفون حتى تلك العطلة الأسبوعية في شهر مايو. كانت أنتونيا ستقودنا بالسيارة إلى هناك، ووالد مارتين سيعيدنا. قبل ثلاثة أيام من الحفل، جاءت مارتين لتبلغني أن أحد الفتية الكبار قد دعاها لحضور الحفل معه. انتظرتها أن تخبرني بأنها اعتذرت إليه لأن لديها موعدًا بالفعل. لكنها حين رفعت بصرها إليّ، عرفتُ.

كان أمرًا بسيطًا وتافهًا ويجب ألا يزعجني، لكنني تغيبت عن المدرسة للأيام الثلاثة المتبقية على الحفل ومكثت في البيت حزينة لاكتشافي فظاعة شخصية مارتين وأتساءل كيف سمحت لنفسي بالفرح بشيء غبي مثل ذلك الحفل. عدتُ إلى المدرسة في الأسبوع التالي لحفل التخرج. تجنبتني مارتين، في الغالب خافت من وجهي المتجهم وطريقة صفقي باب خزانتي بقوة في الفواصل ما بين الحصص.

قضت أنتونيا تلك الليالي، وليالي أخرى كثيرة، تنزع الشوك من روحي.

أنتِ تفتقدينهم، قالت. *هذا حزن والحزن من الحب. الحب شمس والحزن هو الظل الذي تلقي به. الحب أوبرا والحزن هو صدى الصوت. لا يمكنك نيل أحدهما دون الآخر. لكنك بعد الحزن، ستجدين طريق العودة إلى الحب. أنتِ لم تمنحي نفسك الفرصة لهذا، لكن يجب عليك... بطريقتك الخاصة. لذلك ابكي، اصرخي، اركضي، نامي، صلي، أو اكتبي خواطر عن الحب في الرمال. لكن احزني، كي يمكنك العودة إلى الحب، لأنه أفضل مكان توجدين فيه.*

أغسل أسناني وأرتدي منامتي وأنا أفكر في كلمات ماما. صدمتني حينها، أن ربطت رد فعلي على موضوع الحفل بالثقب في قلبي.

في العقد الأخير، مع العناية بالمرضى، عرفتُ الكثير عن الافتقاد. ترقد الأمهات على النقالات، يتشربن وجوه أبنائهن ما أمكنهن. يجلس الأزواج في غرف الانتظار بأكواب القهوة التي

بردت منذ وقت طويل. يظهر الإخوة يحملون دُمى دببة من محل الهدايا، يتمنون لو يرجعون إلى السنوات الماضية.

يبدأ الافتقاد قبل أن يغادر أي شخص.

أتقلّب على جانبيّ وأعصر عينيّ بقوة لئلا أرى نور القمر الباهت.

الفصل الحادي والأربعون

في القطار رقم 7 متوجهة إلى البيت. تمر إصبعي على طرف ورقة مربعة دوّنت فيها عنوانًا فيما كنت أراجع صور الأشعة وجدول المواعيد القادمة. سيعود شير إلى العيادة خلال يومين ليسمع شرحي لأفضل طريقة ممكنة لإبقائه على قيد الحياة، محادثة قد لا أكون مؤهلة لها مع هذه الحالة. حين يصل القطار إلى محطتي لا أنهض، بل أجلس وأراقب الأبواب تنغلق والمباني الطويلة تتغبش فيما تزداد سرعة القطار. يتوغل القطار رقم 7 في أعماق المنطقة التي تشبه عالمًا مضغوطًا في كبسولة.

امسّد زاويتي فكي، أشعر بانقباض عضلات وجهي. يزداد الجزّ على أسناني قوة. أخبرني آدم من قبل أنه يشبه احتكاك أظافر بلوح طباشيري. في صباي، حاولت ماما دعك ظهري لي قبل النوم، قرأت لي قصصًا هادئة، جعلتني أتناول علاجًا للطفيليات حتى. لم يفلح شيء في إيقاف الجزّ. حين كسرتُ سنًا، طلبت لي ماما واقي أسنان صُنِع خصيصًى لي، لم يُوقف الجز لكنه منعني من كسر أسنان أخرى. حاولت ألا أدع آدم يراني وأنا أرتديه، ما اعتبره هو غرورًا.

تتفتح الأبواب فأنهض وأترجل، يدفعني زحام البشر في هرولتهم إلى صالة رياضية، إلى زوج، إلى مراهق يفضل مشاهدة التلفاز على إنجاز فروضه المدرسية. أبتعد عن المحطة، يخبو طنين وقعقعة القطار من خلفي. لم أجلب مظلة، ما يضمن سقوط المطر. بدأت السماء تمطر رذاذًا خفيفًا. تسقط قطرات

دافئة على شعري وعلى الرصيف الأسمنتي. يزداد وزن ملابسي، بلوزة سوداء بثلاثة أزرار حمراء. أرفع ملفي البلاستيك، المملوء بأوراق ما زال عليّ مراجعتها، أعلى كتفي اليمنى.

سأذهب إليهم في النهاية.

أتابع بعيني مقدمة حذائي تعلو وتهبط.

يقطن كثير من زملائي خارج المدينة. لديهم سيارات وفناءات أمامية وخزانات عند الأبواب. أنا أفضل الزحام، آثار الأقدام الصغيرة. حين أشتاق إلى الهواء والبراح أستقل القطار المتجه خارج المدينة لزيارة ماما، نشتري الكوسا والطماطم الشهيرة من أكشاك أمام المزارع، ونتمشى في الشارع الرئيس. من شرفتها، تبدو السماء كصفحة في كتاب عن الفلك. شاركتها كثيرًا من تنفس ذاك الهواء المنعش.

لم أخبرها بشأن شير بعد. إن أخبرتها ستتصرف معي بعقلانية وحمائية، وقد قررتُ ألا أدع التفكير العقلاني يعوق طريقي الآن. أكتم كمًّا كبيرًا جدًّا من الأسرار هذه الأيام. سأصلح كل هذا سريعًا.

جئت إلى هذه المنطقة مرة من قبل، للبحث عن سارٍ لحضور زفاف زميلة لي في الكلية. تجولت بين المحلات، تنبعث موسيقى بوليوود إلى الشوارع كأننا في كابول. نظرت إلى أحد محلات الدجاج المشوي فرأيت رجلًا، إنه أفغاني بلا شك، يناول زبونًا لفة ورقية بيضاء.

منذ عقود مضت، اخترع هوراس بولارد، ابن سباك زنجي وأم بورتوريكية، الخلطة السرية لدجاج كنساس، لتنافس الخلطة السرية لدجاج كنتاكي بنكهة بورتوريكية، تقول الإشاعات إنه

حـرص علـى بيـع سلسـلة محلاتـه لأفغـان لأنهـم تصـدّوا لأعـلام الشـيوعية الحمـراء.

تجلّـت الحـرب البـاردة، مقليـة جيـدًا بكثيـر مـن الزيـت، فـي شـارعي هـارلـم وفلاتبـوش. صـار الأفغـان، بملابسـهم المبقّعـة، جنـود الرأسـمالية والحلـم الأمريكـي. راقبـت أعدادهـم تتضاعـف، فـرت أسـر كثيـرة مـن الحـرب لتسـتقر علـى السـاحل الشـرقي.

فـي العـام الـذي قضينـاه فـي إسـتانبول، سـألتني مامـا إن كنـت أود حضـور احتفـال كـردي بعيـد النيـروز. لـم أسـتطع رفـض فرصـة حضـور أحـد احتفـالات طفولتـي. شـاهدنا جـدات بصـدور عامـرة يصطففـن جنبًـا إلـى جنـب فـي أثـواب بيضـاء مزدانـة بكـرات ملونـة، يرقصـن معًـا بانسـجام. رأيـت رجـالًا يقفـزون مـن أعلـى النـار، فيمـا يهلـل لهـم إخوانهـم وأصدقـاؤهـم. غنـى أحـد الأجـداد مـوالًا شـعبيًا وأصابعـه تداعـب أوتـار طنبـورة.

ذكرنـي كل هـذا بالوطـن إلـى حـد أن أغمضـت عينـي وأنـا أسـتمع، بدّلـتُ الأغانـي الكرديـة بتلـك المكنونـة فـي قلبـي. شـعرتُ بـالأرض تنبـض بمئـات الأشـخاص المتجمعيـن لاسـتقبال عـام جديـد.

لكننـي حيـن فتحـت عينـي، رأيـت ثلـة مـن رجـال الشـرطة التركيـة فـي خوذاتهـم يقتربـون مـن الحفـل. أمسـكتُ يـد مامـا فنظـرتُ إلـى حيـث أنظـر. هـوت الهـراوات علـى ظهـور الكهـول مـن الرجـال والنسـاء فـي سـتراتهم المطـرزة، الحكومـة تريـد وصـم التقاليـد الكرديـة. مـلأ الصـراخ أذنـي ونحـن نهـرع إلـى زقـاق ضيـق، فنُسـقِط فـي طريقنـا طاولـة لعـرض الأوانـي النحاسـية. لـم نتحـدث إلا حيـن ركبنـا سـيارة أجـرة مـن الجانـب الآخـر مـن الطريـق.

غضبت ماما من نفسها بشدة لأنها لم تتوقع تلك الهجمة. لم يتوقعها أحد. لا أحد يمكنه توقع رد فعل الأتراك. تخلينا عن الشعور بالحنين بعد هذا الحادث. أخبرتُ نفسي أن الأمر سيكون سهلًا بمضي الوقت.

لكنني ما زلت أحنُّ إلى قومي. ظللت أراقب وطني من بعيد وهو يغرق في الحرب الأهلية، ويعاود الطفو على السطح بوجه أصولي جديد. رأيتُ صورًا لرجال يحملون صواريخ على أكتافهم وتخيلتُ أسقفًا تنهار، ورأيت الناجين الحفاة يركضون نحو الحدود. تنتصب أذناي حين أسمع لغتي الأم. قلبت الإنترنت بحثًا عن الأغاني الأفغانية القديمة، وأتحدث مع نفسي، وأنا وحدي في الشقة، بالدارية.

أنظر إلى المباني السكنية وأتساءل كم عدد النوافذ التي تخص أشخاصًا كانوا هم أيضًا أشخاصًا آخرين في ما مضى.

أجلس على طوار واطئ أمام إحدى البنايات وأنظر إلى مبنى بستة طوابق على الجانب الآخر من الشارع. لمدخله جدران من زجاج وفيه مقعدان أسودان ونبتة فيكس صناعية.

يواصل الرذاذ سقوطه برقة بينما أنتظر.

يرن هاتفي. إن أجبت مكالمة ماما، سأفقد قوة أعصابي. أخبرها بأنني ما زلت في العمل وأعيد هاتفي إلى جيبي.

يدخل أشخاص ويخرجون، أحدق إلى وجوههم وأنا أستعيد السنين.

بعد ساعة، أعبر الشارع وأقف أمام المبنى. أمرر أصابعي على الدليل، لوح رمادي بعشرات المفاتيح. نابي شقة رقم 5 ب.

تأتـي امـرأة وهـي تتحـدث فـي الهاتـف.

«نعـم، نعـم. لكـن الأطفـال لـن يشـاهدوا الفيلـم. مامـا، هـذه ليسـت فكـرة جيـدة»، تقـول بانزعـاج. أتراجـع خطـوة إلـى الـوراء لأفسـح لهـا.

«أتريديـن الدخـول؟» سـألتني وهـي تحـرك الهاتـف بعيـدًا عـن فمهـا. أقصـر منـي ببوصـات قليلـة، تحمـل حقيبتي تسـوق على ذراعها ولديهـا لكنـة ملحوظـة بالـكاد. عدّلـت قلنسـوة معطفهـا المطـري قبـل أن تُخـرِج المفاتيـح مـن جيبهـا.

«لا، شكرا»، أقول مبتسمة. «أنا في انتظار نزول شخص ما».

أومـأتْ برأسـها، فتحـت البـاب وتوجهـت نحـو المصعـد فتضخـم صـدى صوتهـا بيـن الأرضيـة البـلاط والجـدران.

«مـادر جـان»، تقـول بالداريـة. «أيمكننـا أن نتحـدث فـي هـذا خـلال دقيقـة واحـدة وجهًـا لوجـه؟ أنـا فـي المدخـل الآن».

لا يمكننـي منـع نفسـي مـن الالتفات للنظـر إليهـا مـرة أخيـرة. لا بـد أنهـا شـعرت بـي لأنهـا التفتـت إلـى الخلـف هـي الأخـرى. طرفتُ بعينـي ونظـرت بعيـدًا. فـي حيـاة مختلفـة، ربمـا كنـت سـأتصرف مثلمـا تتصـرف هـي الآن تمامًـا، أسـأل أمـي إن كان بوسـعنا تأجيـل النقـاش حتـى أصعـد إليهـا.

لكـن ابنـة شـير وأنـا قضينـا حياتيـن مختلفتيـن تمامًـا. لا أتوقـع منهـا أن تتعـرف علـيّ. لا أعـرف مـاذا أخبرهـا والداهـا عنـي حيـن تركـت شـقتهم.

أنظـر فـي اتجـاه الشـارع، أتظاهـر بتفقُّـد هاتفـي. أسـمع قعقعـة وأتخيلهـا تختفـي خلـف بـاب المصعـد، تصعـد إلـى الطابـق الخامـس وتتجـه إلـى شـقة أتخيلهـا نسـخة طبـق الأصل مـن شـقتهم فـي كابـول.

«هـذه ليسـت كابـول»، أهمـس لنفسـي لأمنعهـا مـن السـقوط فـي الماضـي برعونـة. لكننـي، بينمـا يتوقـف القطـار فـي المحطـة بصريـر مكابحـه، أفكـر فـي المسـارات التـي رسـمت خطًّـا مباشـرًا بيـن بيتـي وشـقة شـير. جعلتنـي رؤيتـه أميـل نحـو سـنواتي الأولـى هنـا. نومـي المتقطـع. ضجـري مـن المحادثـات. لـم يعـد الركـض يجلـب لـي الراحـة التـي اعتدتهـا.

أيًّـا كان مـا سـيأتي فهـو إمـا سـيمنحني الإجابـات التـي ظللـت أنتظرهـا وإمّـا سـيحررني نهائيًّـا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل الثاني والأربعون

يعود شير إلى العيادة اليوم، خططتُ للموعد بأدق التفاصيل. وضعته في نهاية القائمة كي لا يقلقني انتظار مرضى آخرين. طلبت من المساعدة إدخاله أبعد غرفة عن الاستقبال لئلا يسمع أحد محادثتنا. رفعت شعري لأزداد طولًا قليلًا.

أز هاتفي برسالة من آدم.

صباح الخير، هل نمتِ جيدًا؟

إطلاقًا، لكنني أحتفظ بهذا لنفسي.

صباح الخير. استيقظتُ مبكرًا.

في العادة لا يستيقظ في هذه الساعة المبكرة. إنه بومة ليلية، يعمل بمشروبات الطاقة واقتراب المواعيد النهائية.

ليس تمامًا. ظللت ساهرًا حتى الصباح مع فريق العمل. خرجنا بأفكار رائعة.

جميل! سأسمعها لاحقًا. نم قليلًا قبل أي شيء.

أحمل حقيبتي وأغلق باب شقتي خلفي. إضاءة الرواق خافتة وأنا أسير إلى المصعد. تخبرني رائحة القهوة أن أحد الجيران على الأقل قد استيقظ.

أضغط زر استدعاء المصعد وينحبس نفسي حين أرى انعكاس صورتي على بابه. أرتدي بلوزة زيتونية محشورة في تنورة بنية داكنة. سترتي الصوفية لها أزرار خشبية وقلادتي الذهبية تعكس الضوء.

لا يجب أن يدهشني شبهي بأمي. فأنا أشتري الملابس التي تذكرني بها. أثواب وتنورات يمكنني تعليقها في دولابي لأتخيل

نفسي طفلة تنظر إلى ملابس أمها. لدي ملابس تشبه كل ملابسها التي ترتديها في الصور الفوتوغرافية التي سُرقت من بيتنا في كابول.

يضيق صدري. كأنني أجلس على فوهة بركان تصلني حرارتها. تحركت خطوة جانبًا وأمسكت هاتفي لألهي نفسي. لم ينم آدم بعد، على ما يبدو.

قابلت فريق التمويل أمس. الأمور تسير بشكل جيد. الدولارات تنهمر علينا لكن علينا توسيع الدائرة. كنت أريد التحدث معك عن هذا. الليلة ربما؟

شعرت بتخشب. سيتطلب الأمر مني جهدًا كبيرًا لأعتاد عالم آدم الجديد، وأولوياته. اجتماعات ومجاملات والشرب مع الممولين، المقابلات وصوره على المطويات. تساءلت عمَّ كان أبي سيقوله حول هذا العالم، عالم المال والقصص التي تدير الرؤوس. حين سأخبر آدم بكل شيء، سيعرف لماذا ظللت أتحاشى جميع المناحي السياسية حتى الآن.

نسي أيضًا أن ماما ستصل إلى المدينة اليوم.

سآخذ ماما إلى عرض أوكلاهوما الليلة، أتذكر؟ اتصل بي في ما بعد. تهانيّ على الدولارات!

أُدير عينيّ، *تهانيّ على الدولارات؟* تبدو عبارة سخيفة وأنا أحدق إليها في الشاشة. لم أحتفل بالمال قط، لكن ليس بإمكاني مسحها، أضع الهاتف وأخرج بطاقة ركوب المترو.

يسير العمل في العيادة بإيقاع محموم. أتحقق من الجدول كلما سنحت لي الفرصة لأتأكد من أنه لم يتصل لإلغاء موعده. شعر

لاسي وردي باهت عند الأطراف. ترتدي نظارة بإطار بنفسجي. حين تناولني اللوح، أنظر إليها فأرى نظارتها بلا عدسات.

«لاسي، إن نظارتك... مفقودة؟» أقول مذهولة.

ضحكتْ ولمست حافة الإطار، ثم ضغطت بإصبعها على شفتيها كأنه سر بيننا. أحسدها على الخفة التي تقضي بها يومها.

لا أتناول غداء. أرى المرضى واحدًا تلو الآخر، أسرة تلو الأخرى. أرشف من كوب القهوة الثالث وأشعر بقلبي يكاد يقفز من صدري وأنا جالسة مع أربعيني مصاب بورم يسد أمعاءه الدقيقة. يعمل مرشدًا في متحف. تحمل زوجته ابنتهما البالغة من العمر شهر واحد فقط بين ذراعيها. يتحرك فم الرضيعة بحركة الامتصاص وهي نائمة، وتملأ الغرفة، رغم صغر حجمها، بالرائحة المميزة للرضّع؛ بودرة التلك واللبن. تبدو زوجته كمن لم تنم أيامًا. تهدهد طفلتها وهي تقربها من صدرها، كأن السرطان قد يقفز عن طاولة الفحص ويتوغل في جلدها الوردي. أعرف أن هذه هي آخر مرة سيأتيان بها إلى العيادة.

امرأة خمسينية، نحاتة ومعلمة رقص. تقلّص حضورها قليلًا عمّا كان عليه في آخر زيارة لها، كأنها بللت طينتها على عجلة الفخار، وأعادت تشكيل نفسها بأصابعها إلى شيء ما جديد. كنت قد فحصتها منذ ثلاثة أشهر، لكنها اتصلتْ في اليوم المقرر لإجراء العملية الجراحية، وقالت إنها ستجرب المعالَجة المثلية التي اقترحها عليها صديقها.

«تسعدني رؤيتك مجددًا».

«لا أعرف كيف حدث هذا. لقد بحثتُ كثيرًا، ظننت أنه أفضل»، تقول بصوت خفيض.

«هذا ليس خطأك. لا شيء من هذا خطؤك»، أقول. حتى المدخنين الشرهين يُفاجَؤون بإصابتهم بالسرطان. لا أحد ممن فحصتهم كان يتوقعه.

«أعرف. الجميع مصابٌ به الآن»، تقول. «أظن أنه في طعامنا. نحشو به أفواهنا ونتساءل كيف وصل إلينا. لماذا لا يجرون أبحاثًا في هذا الأمر؟»

«نحن لا نعرف جميع الأجوبة»، اعترفت لها.

أوجه دفة الحديث إلى مرضها وعلاجها، واعية لحقيقة أنها قد تكون محقة. وأن عملي يشبه قليلًا محاولة تفريغ المحيط بدلو وحيدة.

أشعر طوال الوقت بدقات الساعة. شير مريضي التالي.

تناولني لاسي ملفه.

«في رداء كما طلبتِ. ظني أنكِ لن تقضي وقتًا طويلًا. إنه ليس ثرثارًا»، تقول.

أقف خارج الغرفة لوهلة. حين أدخل يفرد شير ظهره. يجلس على طاولة الفحص، تتدلى رجلاه من جانبها، فخذاه نحيلتان ومعروقتان. لم تتقدم به السن على نحو جيد. أتخيله يقف أمام مصعد بنايته السكنية، يتنفس مزيجًا من رائحة العرق والبهارات وعادم السيارات.

«مرحبًا مستر نابي»، أقول وأنا أغلق الباب خلفي، أرى أنه ليس وحده. تجلس المرأة التي رأيتها أمام بنايته على المقعد،

عاقدة رجليها. حقيبة يدها وملابس أبيها مطوية بعناية على المقعد المجاور لها.

«مرحبًا، أنا دكتورة شبرد»، أقول. لا أمد يدي لها لأصافحها كما أفعل عادة. «ما قرابتك بمستر نابي؟»

«أنا ابنته»، قالت وهي تنظر إليه. لم تتعرف عليّ من لقائنا في البهو.

يغمغم شير بتحية ما لكنني لا أسمعه من صخب أفكاري. أزيح الكرسي ذا العجلات جانبًا، لن أجلس اليوم. لن أترك شيئًا يعوقني.

«لقد ذكرك أبوك في زيارته الأخيرة»، أقول وأنا أضع ملفه على المنضدة. «من الجيد أنك هنا اليوم».

تومئ برأسها.

«كنت سآتي معه آخر مرة لو كنت أعرف. إنه لا يخبرنا... لم يخبرنا بموعد الطبيب».

«هذا ليس خطأك»، أخبرتها. «لدينا الكثير لنتحدث بشأنه، جيد وسيئ. لقد راجعت صور الأشعة على الجزء العلوي».

ينقبض فكه وينظر إلى ابنته من جانب عينه. تتململ في جلستها، تحاول اتخاذ الوضع الصحيح لاستقبال ما سأخبرها به.

«لكنه قال إن الألم في ظهره. أليس بسبب الحموضة؟»

أميل إل[illegible] المنضد. أشعر بالشفقة نحوها، رغم كل شيء.

«ألم يناقش معكِ تشخيصه؟»

تنظر إليه مجددًا لكنه يرفع حاجبًا نحوي. يريدني أنا أن أخبرها. أمنحها دقيقة لتتماسك. الجميع يستحق هذا.

«لديه سرطان في المعدة»، أوضح لها فيشحب وجهها لكلماتي. «وقد انتشر خارجها».

تثبت قدميها على الأرض، وتطرف عيناها بسرعة.

«هل أنت متأكدة؟ لا أظن أن... لقد أقلع عن التدخين منذ مدة طويلة»، قالت في محاولة لإشراكه في الحديث. «منذ كم سنة؟»

«التدخين ليس سببًا لجميع حالات السرطان»، أجيبها. في العادة أتعاطف أكثر مع المرضى. لا أحب كوني طبيبة باردة الآن، لكن هذه الغرفة ملأى بالأحداث. «مستر نابي، ستكون في حاجة إلى إجراء جراحة. يمكنني استئصال أغلب الورم».

أراجع التفاصيل، التي سينسيان نصفها. تبدو كلمات مثل العلاج بالكيماوي والإشعاع كقنابل نووية ونهاية العالم في غرفة كهذه. أدرج لهما مخاطر العلاج ومنافعه، الأمر الذي يشبه وضع فيلين على طرفي أرجوحة.

«أمامكما وقت للتفكير في الأمر لكنني لا أوصي بتأجيل القرار وقتًا طويلًا. كلما أسرعنا في التحرك كانت النتائج أفضل».

«هل ستجرين أنتِ الجراحة؟» يسألني.

«نعم»، أجيبه مع أنني فكرت أن أحيله إلى زميل لي ما إن تنتهي الزيارة.

يربت على شعره بباطن يده ويتنحنح. « لو لم أجرِ هذه الجراحة؟» قال بهدوء، «ماذا سيحدث؟»

«بابا!» اغرورقت عينا ابنته بالدموع. صوتها همس خشن وهي تتوسل إلى أبيها: «أرجوك».

«إنه سؤال طبيعي. لو قررت عدم إجراء الجراحة، سيواصل السرطان انتشاره. ستزداد صعوبة تناول الطعام. ستظل تفقد وزنك وتزداد ضعفًا. وسيظل السرطان ينتشر».

سال الدمع من عيني ابنته. ندت عنها أنَّة صغيرة.

«كم لدينا من الوقت؟ بالجراحة ودونها؟»

«يصعب التحديد. دون جراحة، ربما ثلاثة أشهر. وبالجراحة لدينا -ربما- عام أو اثنان. الأمر يتوقف على استجابة الورم للعلاج بالكيماوي والإشعاع أيضًا».

يملأ تنفسه الصمت.

«ما الذي يقلقك أكثر من أي شيء؟» سألته، تلقائيًا. لم أنس من كنت حين عرفته أول مرة، ولا أستطيع أن أنسى من أنا وأنا أقف أمامه الآن. وأريد أن أعرف كل شيء عنه، بما في ذلك مخاوفه التي يكتمها.

«لا أريد»، يقول وهو يهز رأسه ويشير إلى فمه المفتوح، ومعدته، وجانبيه. «لا أريد أنبوبًا، الأنبوب، الأنبوب والأجهزة».

تغمغم ابنته بشيء ما همسًا.

«أنا أتألم»، يعترف، «ولا أريد أن أتألم أكثر».

«مفهوم»، أقول. «لدينا أدوية عدة يمكنها علاج ألمك. يبدو أنك تعرف جيدًا العلاج الذي تريده. أخبرني، ماذا كنت تعمل قبل أن تأتي إلى هذا البلد؟

هذه ليست كابول التي تعرفينها، كان قد قال تلك الليلة التي أخذني فيها إلى أنتونيا.

«كان جنرالًا برتبة عالية»، تجيبني ابنته، بصوت مختنق.

«عسكري»، أقول لأخلع عن كتافيته النجوم بكلمة واحدة.

«فهمت. وأين كان هذا؟»

«في كابول، أفغانستان»، تجيبني ابنته لكنني أظل أنظر إلى شير.

«إن ما حدث هناك عار»، أقول وأنا أهز رأسي. «هل كنت في الجيش حين بدأ كل شيء؟»

«أنت تعرفين بلدي». يقول وهو يميل برأسه، بفضول.

«تاريخ مهم. أرأيت بداية كل شيء عام 78؟» أسأله

يطلق تنهيدة طويلة ويومئ برأسه.

تنبعث موسيقى خفيضة من حقيبة ابنته. تخرج هاتفها وتجيب.

«نعم، مادر»، تقول بالدارية. «نحن نتحدث مع الطبيبة الآن. لا يمكنني محادثتها الآن مادر، حسنًا، لكن بسرعة».

تخرج من الغرفة والهاتف على أذنها.

تساءلت إن كان سيتحدث بحرية أكبر بعد خروج ابنته، وإن كانت تعرف أي نوع من الرجال هو حقًا. يعتدل في جلسته على طاولة الفحص. يتجعد المفرش تحت فخذيه، ليجعل تململه كله واضحًا.

«دكتورة، من أين أنت؟» يسألني.

أجبته بابتسامة ضيقة. ليس من حقه أن يسألني، وبالتأكيد ليس عن حياتي الخاصة. أشعر بقدر ضئيل من الرضا لتجاهلي سؤاله.

«كان بلدًا جميلًا حينها، أليس كذلك؟»

كاد صوتي يتهدج. أركز على تنفسي وأنا في انتظار رده.

«نعم، لكن الناس»، قال بأسى. «الناس يضيعونه».

كنت قد أنشأت حسابات مزيفة للدخول إلى غرف الدردشة ومنتديات النقاش لأستمع إلى مَن يذكرونني بوالديّ، إلى مَن يحتفظون بصور فوتوغرافية بالأبيض والأسود لعروض الأزياء في كابول، ومعامل فيها نساء يحملن الأنابيب. ينشرون لقطات لهيبيين من الغرب وهنود يقضون عطلاتهم في كابول. جاؤوا من أجل العنب اللؤلؤي، والكباب المرشوش بالسماق، والبحيرات البلّورية وأضرحة الشفاء.

ينظر خارج نافذة غرفة الفحص.

أتذكر الليلة التي دفعني فيها من خلف رأسي وضغط وجهي بزجاج نافذة السيارة.

لقد مات أهلك. انتهت كابول التي تعرفينها.

«لا بد أن الانقلاب كان مدة ملأى بالخطر، خاصة بالنسبة إليك كجنرال».

يرفع كتفيه.

«ذهب كل هذا الآن. انتهى».

أتنحنح.

«لقد قرأت عمّا حدث في القصر. كان انقلابًا، صحيح؟ ماذا حدث لمن كانوا هناك تلك الليلة؟»

يحدق إلى حامل ورق المناشف أمامه. أو ربما في الرسم التوضيحي للجهاز الهضمي بجانبه. يمتصه ثقب ما أسود في مكان ما في الجدار ببطء وثبات.

«وألم يكن انقلابًا عسكريًا؟ انقلب الجيش على الرئيس. ظن كل من كانوا في القصر أن الحرس هناك لحمايتهم. هل فهمت الأمر بشكل صحيح؟»

يحمر ثقبا أنفه، تلمع عيناه، لقد أمسكتُ بطرف خيط.

«أنا رجل واحد. لا يمكنني حمل سلاح»، يرفع يديه ليبين مدى ضعفهما أمام الطوفان. تهدج صوته وكاد ينكسر تمامًا.

«كان يوجد أشخاص أبرياء هناك. أشخاص وثقوا بك. أشخاص عاملوك بعطف».

تعود ابنته إلى الغرفة. تنظر إلى وجهه لوهلة وتنزعج.

«بادر؟ ماذا يحدث؟ هل هو بخير؟»

لا أنظر بعيدًا عنه. إنه ينهار وأريد أن أسمع كل كلمة يتفوه بها.

«من يمكنه وقف الطوفان»، يسأل ثم يتحول للحديث بالدارية. «من يمكنه وقف الطوفان؟ إنه طوفان الله. أنا لا شيء. والله هو الله».

«أوه، بادر»، تبكي ابنته، تظنه يرثي مستقبله في حين كان ينعى ماضيه. «الله رحيم، سيخفف عنك».

أحاطته بذراعيها.

تسيل الدموع على خديه، يمسحها براحتيه الشاحبتين.

تدس ابنته هاتفها في جيبها الخلفي وتنشج بصوت عالٍ. تعود إلى كرسيها وتبحث في حقيبتها حتى تجد كيس مناديل. في خطتي المدروسة، لم أتوقع شعوري لرؤيتي ابنته معه. أريد أن

أميل إليه وأضغط عليه ليجيبني. أريد أن ألصق به دور الخائن الذي أداه في تلك الليلة.

أتقدم نحوه خطوة، أميل إليه بشدة وأتذكر ليلة أن حملني إلى السيارة وأخبرني أن أتظاهر بأنني نائمة.

«ستخبرني أين دفنوا؟» أهمس في أذنه بالدارية، بصوت متكسِّر. «ستخبرني بكل شيء».

أخرج من الغرفة وأغلق الباب خلفي. أسمعه يزمجر ويغص حلقي إلى حد الاختناق.

«لهذا إذن أحضرتني إلى هنا اليوم»، قال بصوت يبدو مستمتعًا تقريبًا.

«الجميع في انتظار أن تعتم السماء بالغيوم الثقيلة لكن ها هو ذا يوم القيامة. لم أتوقع قط أن أهرب منه. لم أفعل قط».

«بادر، ماذا تقول؟» صاحتْ ابنته بنحيب.

آخذ حقيبتي من مكتبي وأتسلل من الباب الخلفي للعيادة قبل أن ترى لاسي أو أي شخص آخر دموعي. لم يعد أسدًا. وأنا لم أعد تلك الطفلة الصغيرة.

أذوب في الزحام في الخارج، في صخب المدينة التي علمتني ألا أنسى.

الفصل الثالث والأربعون

لا أعرف شعوري عن مواجهتي له. أنا مزلزلة ومنتصرة ومتوترة وأشعر بالعار قليلًا أيضًا.

لكن هذا لا يهم. لقد انتظرت هذا اليوم وقتًا طويلًا جدًّا، وكنت أشك في أنه سيأتي. لا يمكنني فقدان السيطرة الآن، ليس وقد سنحت لي الفرصة أخيرًا لجعله يعترف بما فعله.

لا أريد الثأر. ولا أصدق وهم الختام أيضًا. لا أتوقع أن اعترافه، أيًّا كان، سيخفف من آلامي. لا أريد سوى تسجيل حقيقي للتاريخ. تقرير حقيقي عن تلك الليلة. أريد شواهد قبور لأسرتي كي يعرف العالم أنهم عاشوا وماتوا.

الحقيقة مهمة.

أرتدي بنطالًا واسعًا وبلوزة زمردية. أفتح صندوق جواهري لأختار قلادة، ربما التي أهداني إياها آدم في عيد ميلادي. أضعها على عنقي وأتجاهل رعشة يدي الخفيفة وأنا أنظر إلى نفسي في المرآة.

يبدو أن شيئًا ما خطأ، أعيد القلادة وأجرب قلادتين أخريين. لا واحدة منهما.

أفتح الدرج السفلي للصندوق وآخذ الخاتم الملفوف. مضى عام تقريبًا منذ أن نظرت إليه. ومضت عقود منذ أن ارتديته. لم أعد طفلة الآن ولا أريد أن أتلف شيئًا ما ينبغي وضعه في المتحف.

ما زال الفيروز والعقيق يلمعان كما كانا حين رأيتهما أول مرة يُذهلان غرفة ملأى بمن جاؤوا يحتفلون بكنوز آي خانوم.

ذات ليلة كنت أقرأ لأتمكن من النوم حين عرفت أن والدة أنستازيا، إمبراطورة روسيا، أمرت بناتها بخياطة مجموعة جواهرهن، ما يناهز عشرين رطلًا من الألماس والأحجار الكريمة، في مشدات صدورهن. في المحاولة الأولى لإعدام الأسرة رميًا بالرصاص، ارتدّ الرصاص الموجه إلى الفتيات عنهن بسبب تلك الأحجار الخبيئة. حين هدأ الغبار ولاحت الفتيات، واقفات، دون أن يمسسهن أذى، أمام الجنود، لا بد أنها كانت لحظة ارتباك مقدس. تخيلت شعور الفتيات والجنود بأنهم يشهدون معجزة.

لكن هذا لم ينقذهن من الموت، تقدم الجنود إلى الأمام قليلًا ليقتلوا الفتيات من مسافة أقصر، سحقوا جماجمهن وعجنوا وجوههن بمؤخرة أسلحتهم، غرسوا حرابهم في مشدات صدورهن وفي أجسادهن. آل الأمر بالجواهر، بطريقة ما، في المزادات والمتاحف في أنحاء أوروبا وواشنطن دي سي. للجواهر -عادة- رحلات مثيرة.

حملت أنا هذا الخاتم عبر العالم. ارتديته حين كنت في العاشرة من عمري، كما قد يرتدي أحد الناجين من سفينة غارقة سترة إنقاذ. ربما أخطأت في هذا. ربما لم ينقذني على الإطلاق.

بمضي الزمن، شعرت بوزنه يزداد في يديّ. يبدو الآن ثقيلًا جدًّا إلى حد أن أتساءل كيف رفعته بيدي وأنا طفلة. خططت عشرات المرات على الأقل أن أعيده إلى المتحف، بشكل مجهول،

كامرأة بائسة تترك وليدها عند مخفر الإطفاء. لكنني لم أستطع رؤيته في ملجأ الكنوز المسلوبة. تطفو التماثيل والمنحوتات والأبنية الحجرية على السطح من بلدان تعاني الإبادة الجماعية. ترحب المتاحف بها بشدة، دون أن تثقل على من يبيعها بالأسئلة.

من يجد شيئًا فهو له، يصيح الأطفال في الملاعب المشمسة.

من يجد شيئًا فهو له، يهمس آباؤهم في قاعات عرض المقتنيات.

أعرف من صميم قلبي أن هذا الخاتم ينتمي أكثر إلى مكان اكتشافه، إلى رفات المرأة التي ارتدته في إصبعها يومًا ما. كيف لي أن أودعه في أي مكان آخر؟

قبل أن يثبت تحليل الحمض النووي أن عائلة رومانوف قد أبيدت على بكرة أبيها تلك الليلة، كانت عشرات النساء قد زعمن أنهن أنستازيا أو إحدى أخواتها. لو لم يكن ذلك لإرث الجواهر، أشك في أن أحدًا قد يعترف طوعًا بانتمائه إلى عائلة رومانوف التعسة. أُرسلت امرأتان زعمت كل منهما أنها الدوقة الكبرى إلى دير للراهبات في جبال الأورال. ماتتا بعد سنوات، كُتب على شاهدي قبريهما أسماء الأخوات رومانوف، نُقش كذبهما على الحجر.

سيكون الاسم على شاهد قبري أنا أيضًا كذبًا.

يزعجني هذا ولم أحدد بعد كيف سأصلحه دون قلب حياتي رأسًا على عقب.

أراد الناس أن يصدقوا أن أنستازيا قد نجت بطريقة ما. لكنها لم تنجُ. ويمكنني القول بيقين شديد الآن أن نجاتها بحياتها لم

تكن مهمة. بعد أن امتلأت رئتاها بدخان الأسلحة، بعد أن رأت أعين أهلها تفارق الحياة، سيكون الفارق ضئيلًا بين العيش خمس دقائق أخرى أو خمسة عقود.

«هل أنت مستعدة؟» تسألني ماما وهي تطرق باب غرفة نومي.

«دقيقتان»، أقول وأعيد الخاتم إلى مكانه قبل أن تراه ماما وتتساءل عمَّ جعلني أُخرجه الليلة.

في الطريق إلى المسرح، نتحدث عن حملة آدم الانتخابية. تقول إنها تتابعه على الفيسبوك الذي يستخدمه آدم للتشبيك، وتستخدمه هي للتواصل مع أصدقائها ومعارفها في جميع أنحاء العالم. أظل أنا بمنأى تمامًا حتى حين كنت أبحث عن شير أو أفراد عائلتي، ظللت دائمًا مذعورة من أن يجدني أحد.

تمتد مواجهتي مع شير إلى طرف لساني لكنني لا أخبر ماما بها، ما زلت قلقة من تدخلها، وأريد أن أتعامل مع الأمر وحدي. كان شير قد خرج من الغرفة دون أن يرتدي ملابسه بعد أن غادرتُ. اتصلتْ بي لاسي، شعرتْ أن عليها إخباري بأنه كان يرتعش منفعلًا جدًّا حين خرج من الغرفة.

«لم أرَ في حياتي مريضًا يخاف الموت مثله». علّقتْ لاسي.

«بمناسبة الحديث عن آدم»، تقول ماما وتهمزني. «هل يوجد شيء تريدين إخباري به عنكما أنتما الاثنين؟»

«ماذا تعنين؟» أسألها والقطار يتوقف. أنظر إلى الركاب الجدد، أتساءل إن كنت سألتقي مصادفة أحدَ أفراد أسرة شير ولا أعرف إن كنت سأتعرف عليهم أم لا.

تـزم شـفتيها، تمـد يدهـا فـي حقيبتهـا وتخـرج هاتفهـا. بنقـرات قليلـة تدخـل علـى حسـاب آدم. تناولنـي هاتفهـا لألقـي نظـرة عـن قـرب.

«رأيتُ هذا في وقت سابق اليوم»، تقول.

نشـر آدم صورتنـا معًـا فـي متنـزه براينـت. قطـع الصـورة بشـكل جعـل ابتسـامتي خجولـة ومرحـة، واسـتخدم تقنيـة جعلـت الصـورة تبـدو دافئـة ومـن زمـن مـاضٍ، عنونهـا بشـكل لا يشـبهه فـي شـيء كصاحـب، ويشـبهه فـي كل شـيء كسياسـي.

موعـد فـي النهـار مـع حبـي الوحيـد. هـذه المـرأة تعـرف أهميـة التأميـن الصحـي وتنقـذ حيـاة البشـر يوميًـا. كانت اليوم مع أم مريضة بالسـرطان لا ترغـب فـي شـيء سـوى أن تعيش لتـرى أطفالهـا الثلاثـة يكبـرون. الأم فـي معركـة مـع شـركة التأميـن الصحـي أيضًـا، تكافـح ليمكنهـا نيـل الأدويـة التـي تحتـاج إليهـا لتعيـش.

مـن حسـن حظـي أن هـذه الطبيبـة لا تحتـاج إلـى مشـرط كـي تنقـذ حياتـي. عليهـا فقـط أن تقـول نعـم فـي اللحظـة المناسـبة.

ذيّـل العنـوان بعـدد هائـل مـن هاشـتاغات عـن التأميـن الصحـي والمجلـس المحلـي. ذكـر أيضًـا عـددًا مـن الطبيبـات والجراحيـن. وبالطبـع هاشـتاغ #قل__نعم__لآدم.

شعرتُ بالقرف.

لا أصدق أنـه خـان ثقتـي. لا أصـدق أنـه نشـر معلومـات خاصـة بمريـض لـي معرِّضـا عملـي للخطـر. يُذهلنـي ذلـك لأنـه يعـرف الخصوصيـة والقانـون. ويعـرف أننـي لا أشـارك حياتـي الشـخصية علـى الإنترنـت حيث قـد يصـل إليهـا مديـرو المستشـفى والمرضـى.

«لماذا قد يفعل هذا؟»

تطلق ماما تنهيدة ثقيلة.

«عليكما التحدث عن الحدود. أو ربما عن الحدود الجديدة»، تقول. «لكن الأمر سيظهر طالما استمرت الحملة، وأمامنا مسافة طويلة ما بين الآن والانتخابات».

أعض شفتي، أُمسِك هاتفي وأكتب رسالة سريعة لآدم.

يجب أن تمسح صورتنا معًا التي نشرتها على الفيسبوك، إنها انتهاك لقوانين خصوصية المريض ومساءلة التأمين الصحي.

«يا إلهي، ماذا في السياسة يجعل الأشخاص يفقدون صوابهم؟» تسأل ماما.

تضحك.

«يظنون أن الغاية تبرر الوسيلة»، أقول.

أظل أحاول الوثوق بآدم بقصص صغيرة من الحياة اليومية. إنه انتهاك من جانبي أنا الأخرى، أعرف هذا، لكن من الصعب الاحتفاظ بكل ما أراه في العمل مكتومًا بداخلي.

هل يعني هذا أنني لا أستطيع الوثوق به؟ وهل غيرته الحملة أم بيّنت ما كانه طوال الوقت فحسب، أفكر في وضعه يده بحرص على ركبتي ونحن في المكتبة، في الصورة الوردية التي نشرها على الفيسبوك، رغبته المفاجئة في الارتباط الرسمي، أو في استعراضه على الأقل. لا يسعني سوى الشعور بأنه يخطو إلى واقع جديد.

تنظر ماما إلى ساعتها فأتذكر بسعادة أنّنا في طريقنا لرؤية عرض جديد لأوكلاهوما. أخبر نفسي ألا أفكر في منشور آدم

أو في شير وأن أركز على العرض. ندخل المسرح المعتم ونأخذ تذكرتينا من امرأة سمينة في شباك التذاكر. بجانبها كلب مالطي بعينين داكنتين يرتدي التوكسيدو ويجلس على كرسي المخرج يراقب بيع التذاكر. انبهرتْ ماما بسلوك الكلب المهذب والتقطت له صورة.

مقعدانا إلى يسار المسرح. نجلس قبل إطفاء الأضواء تمامًا ورنين مثلث يعلن عن بدء العرض. تريح ماما ذراعها على المسند الفاصل بيننا وتبتسم.

«لا أصدق أنك تفعلين هذا يا آري. لم يكن عليكِ حقًّا»، تقول. تزداد شبهًا بتيلي هذه الأيام، خاصة بعد أن توقفتْ عن قص شعرها منذ شهور. «مع ذلك، إن أردت المغادرة في أي لحظة، انهضي فقط وأنا سأتبعك».

«أنا بخير ماما. بل أتوق إلى رؤية العرض». أخبرتها بصدق. كانت تيلي قد قرأت لي مشاهد منه فحسب. لم أكن قد سمعت الموسيقى ولم أشاهد العرض في كابول.

لكن الكتب الكثيرة التي قرأتها ماما عن الحزن والصدمة جعلتها حريصة بشأن محفزات الخبرات الماضية.

تتحرك شفتاها بخفة شديدة في مشهد الافتتاح مع الفقرات الموسيقية، تنزلق الكلمات من طرف لسانها كأنها ظلت تتمرن عليها طوال الأسبوع الماضي. للموسيقى هذه القدرة الإعجازية. تكمن الأغاني في صندوق أسود في ركن ما من قرن آمون. ثم بعد عقود، بتحفيز ما من كلمة أو صورة أو ملحوظة، تعاود التحليق إلينا بسرعة منحرفة.

شعرت بهذا الفيض حين اكتشفت الموسيقى الأفغانية على الإنترنت. غمرت موسيقى طفولتي الغرفة وجرفتني نحو الماضي. وجدتني أغني كلمات لم أكن أعرف أنني أذكرها، أدندن ألحانًا لم أسمعها منذ فقدت أسرتي. لم أتركها. سمعتُ الأغنية الثانية والثالثة قبل أن تنتهي الأولى. كنت أقفز من ذكرى إلى أخرى: أغنية العيد، أغنية حفل النيروز، أغنية زفاف. كألم عضلاتي بعد الركض طويلًا، كانت الموسيقى تؤلم قلبي بعد وقت طويل من سماعها.

يبدو أن ماما تشعر بالألم نفسه.

يأز هاتفي. أفتح حقيبتي لأقرأ رسالة آدم دون أن أخرج الهاتف منها.

سأمسحها. هل لي أن أخبر أحدًا بوجودك حتى؟

أنقر ردًّا.

لو سقطتْ شجرة في غابة، ولم ينشر أحد عن ذلك على الفيسبوك، فهل الشجرة حقيقية؟

تتوقف إصبعي أعلى زر الإرسال، أعيد التفكير في الرد بهدوء. ربما أبالغ قليلًا حين يتعلق الأمر بخصوصيتي. لن يتعرف عليّ أحد من صورتي، وليس لدى آدم فكرة عن سبب حساسيتي المفرطة في جميع الأحوال.

أمسح الرد، وأجيبه برد أكثر عقلانية.

دعنا لا نناقش الأمر بالرسائل. أنا في المسرح الآن. ماذا عن الغد؟

سأخبره بكل شيء. هذا هو الحل الوحيد ليفهم.

يضج المسرح بالتصفيق. أغلق حقيبتي وأحاول التركيز على العرض. يعود ذهني رغمًا عني إلى ما حدث مع شير وابنته. أتساءل إن كان قد عرفني أو إن كان قد أخبر عائلته بأي شيء.

أشاهد الممثلين يتحركون على المسرح بأداء مبالغ فيه. الأغاني سعيدة ومحفزة وتتردد بتشدق غربي لم يعد يريكني الآن مثلما حدث وأنا صغيرة. رعاة بقر بستراتهم وسراويلهم ونساء بمشدات صدور يخبطون الأرض بأحذيتهم احتفالًا بالحدود الجديدة. حبال الصيد وأكياس خفق الزبدة، والبنادق في جميع الأركان، عرض أمريكي جدًّا.

لماذا لا نسبح جميعًا معًا؟ في فارس، بلدي، الاستحمام حدث جماعي، يغني ممثل بحاجبين يرقصان كحاجبي غروتشو ماركس[1]. يلعب شخصية علي حكيم، بائع متجول فارسي يُحب الغزل. يخبر لوري أن النساء في فارس يسبحن عاريات. لا بد أن ماما أحست ببرد فعلي. مالت إليّ تنتظر تعليقي.

«لا أتخيل وجود كثير من الإيرانيين في أوكلاهوما منذ مئة عام»، أهمس لها. «ولماذا عليه أن يكون بذيئًا هكذا؟»

تفتح ماما فمها لتتكلم لكنها تسكت فجأة. تعقد حاجبيها وتنظر إلى المسرح بتركيز. أشاهد بقية العرض ببرود قليلًا. كان عليّ الاحتفاظ بتعليقاتي إلى حين عودتنا إلى البيت.

في أثناء الاستراحة، ونحن نقف في صف دخول الحمام، تهز ماما رأسها.

---

(1) فنان كوميدي وإذاعي أمريكي مشهور توفي عام 1977. (المترجمة).

«أوافقك، شخصية البائع المتجول مثيرة للفضول. لا أعرف كيف كتبها روجرز وهامرشتاين. الأمر مختلف الآن. حين مثلنا العرض في كابول، لم أظن أن أحدًا سيدهش. كان مجرد ضحك جيد».

«هل لعب أفغاني شخصيته؟»

«لا»، تقول وتحاول أن تتذكر. «أذكر أنني حاولت إقناع سائقي أن يؤدي الدور. جاء إلى بروفة واحدة فقط وقرأ السطور لكنه اعتذر. يبدو أن زوجته أخبرته أن يترك خشبة المسرح لمن يبدو نجم أفلام أكثر منه».

«كان سيختنق وهو يردد تلك العبارة عن استحمام النساء وهن عاريات».

«ظني ذلك»، وافقتني. «كان منصور رجلًا جيدًا، مغنيًا بشعًا لكنه رجل طيب».

ينفتح الباب وتوجد أخيرًا مساحة كافية لي ولماما لدخول حمام السيدات. تقف امرأتان بشعر رمادي عند الحوضين. واحدة تلمس طلاء شفتيها والأخرى تنفض قطرات ماء من أصابعها. صوت تدفق مياه السيفون.

تدخل ماما أحد الحمامات بينما أنتظر دخول الآخر. أسمع امرأة من خلفي تتحدث بالروسية. أتذكر كل حلوى الشكولاتة بالليمون بأغلفتها المبهرة، كنوز صغيرة من أرض المطرقة والمنجل. كنت أتناولها وأنا أرتدي قماش الداينم الأمريكي.

أتذكر سعادة أبي لرؤيته تنافس الروس والأمريكان على الاستثمار في البلد.

يدخل دولار، فيدخل روبلان. يبني أحدهما جامعة، فيبني الآخر نفقًا. أخبرت الأمريكان يومًا أن الروس يخططون لمشروع

ري في أحد الأقاليم، فطلبوا في اليوم التالي عقد اجتماع معي لمناقشة بناء طريق سريع عبر البلد. يتنافسان كأخوين كأننا لعبتهما المفضلة.

بعد ذلك بسنوات، عرفت أن تلك التنافسية الأخوية تُدعى أيضًا الحرب الباردة وأن الجميع من ريجان إلى روكي بالبوا[1] شاركوا فيها.

أتذكر قول أمي ليلة حفل آي خانوم حين سألتها عن وجود الروس والأمريكان معًا.

إنهما أعقل من جلب شجاراتهم المدرسية إلى بيتنا، فقد رأى شعبنا ما يكفي.

في طريقنا إلى مقعدينا يرن هاتفي. ليس آدم هذه المرة. إنه عامل الاتصالات. أشير إلى ماما بهاتفي وأتسلل خارج المسرح والأضواء تنطفئ.

«مرحبًا دكتورة شبرد. آسف جدًّا على إزعاج أمسيتك». صوت رجل. مرح جدًّا بشكل يؤكد أنه ليس قريبًا من الساحل الشرقي. «لكنني لدي سيد محترم من مرضاك يقول إنه في حاجة طارئة إلى التحدث معكِ. سأكون أمينًا، ربما لم أفهم كل ما قال تمامًا. إن لقبه نا...»

«شكرًا لك لإخباري»، أقول باقتضاب. ألتفت لأنظر خلفي. لهذه المكالمة تأثير اقتحام المنزل. «ليلة سعيدة».

«لكن دكتورة»، قال الرجل قبل أن أنهي الاتصال. «ألا تريدين معرفة اسمه ورقمه؟»

(1) شخصية ملاكم بطل سلسلة أفلام أمريكية شهيرة باسم روكي. (المترجمة).

الفصل الرابع والأربعون

لن أتصل بشير. أريد أن أنظر إلى عينيه مباشرة في أثناء محادثتنا القادمة، أن أرى عينيه تضيقان وتتسعان، أن أرى انتظام عضلات وجهه في تعبير يمكنني تحديده بنفسي.

أرقد على الكنبة. تركتُ فراشي لماما، لأن مكتبي وحاسوبي في غرفة الجلوس. أدخل إلى نظام المستشفى مرة أخيرة قبل أن أنهي الليلة. تقع عيناي على انخفاض في مستوى الكالسيوم فأتصل بالممرضة.

«كنت لتوي سأتصل بكِ»، تقول، «يقول إنه لا يتألم لكنه يريد شيئًا ما ليعينه على النوم».

ليس من السهل النوم بأسلاك المحاليل والمنبهات والأغطية الخشنة. أصف له شيئًا يعينه على نوم ليلة وأرقد في فراشي. بعينين مغمضتين، أعيد اليوم في ذهني. أتقلب على جانبيّ وأرى منشور آدم عن مريضتي. أتأفف بإحباط وأخرج هاتفي لأقرأ حتى النوم.

قرابة الواحدة صباحًا، يتصل عامل الاتصالات مجددًا. أجيب بسرعة وبصوت خفيض لئلا أوقظ ماما.

«إنه الرجل نفسه يا دكتورة. لا يريد إخباري بشيء. يقول إنه في حاجة ماسة إلى الحديث معكِ حقًا».

يُمليني رقم هاتف شير.

«أتعرفين يا دكتورة، لم تكن خالتي ريجينا تذهب لتفقد صندوق بريدها دون موافقة طبيبها على ذلك. كانت أمي تمزح قائلة إن

البعض يدعون أنفسهم مرضى ليتعامل معهم الآخرون بصبر[1]».

أبتسمُ في الظلام وأشكره على توصيل الرسالة.

أضع هاتفي على الطاولة وأغمض عيني مجددًا لكنني كمن يحاول اصطياد شرغوف من بركة ماء.

شير لا يمكنه النوم هو الآخر. أتساءل إن كانت زوجته تراقبه وهو يروح ويجيء في الشقة أم أنها تعلمت منذ وقت طويل أن تنام في أثناء نوبات قلقه الليلية. لا يعنيني ماذا تظن أو تعرف، حقًا. على مدار السنوات، كنت قد قررت أن أركز جهدي كله على الرجل الذي كان بمقدوره إنقاذنا لكنه لم يفعل.

الساعة الثالثة صباحًا، مبكرًا جدًا عليّ الذهاب إلى المستشفى ولست في مزاج للركض الآن. أمرر أصابعي في شعري، ناقمة على شير لأنه سلبني النوم.

يوجد كوب ماء على الطاولة المجاورة لي. قطعة صناعية بسطح منبثق. مصنّعة من خشب المانجو الخام، ومدهونة بلون بني ذهبي فاتح يدع الحبيبات تخبر قصتها. أرى ريشًا وتموجات مرقطة، وبقعًا كجلد الفهد وضفائر متموجة. أفتح الفتحة العلوية وأخرج كتاب كلاي بورتر. أضيء نور المصباح وأبدأ القراءة.

في الفصل الأول، يصف كلاي أفغانستان قبل الحرب. يكتب عن الأغصان المثقلة بالجواهر لأشجار الخوخ والكمثرى والبرتقال. عن نساء يعتمرن قبعات تشبه خلايا النحل وهيبيين أوروبيين في سترات بشرّابات ومعاطف من صوف الحمل يبحثون عن التنوير

(1) التشابه في الإنجليزية بين كلمة مريض patient وكلمة صبر patience. (المترجمة).

في قرى أفغانستان. خلق نافذة تطل على العالم الذي يعيش في ذاكرتي، لكنه لا يقرب العالم الذي تصوره نشرات الأخبار.

لا بد أن صوره هدأتني حتى النوم لأنني حين فتحت عينيّ، رأيت الضوء الوردي للفجر قد زال ليفسح مجالًا للشمس التي اعتلت عرش السماء. انزلق الكتاب من بين يدي، انتشرت صفحاته على صدري كأن قلبي يرغب في قراءتها هو الآخر.

آخذ حمامًا سريعًا، ألف المنشفة حولي وأذهب إلى غرفة النوم بسرعة وهدوء لآخذ ملابسي. ماما مستيقظة، تجلس على جانب الفراش بقدميها على الأرض.

«صباح الخير حبيبتي»، تقول، ما زالت تبدو ناعسة.

«آسفة على إيقاظك. نامي مجددًا، ما زال الوقت مبكرًا». أقول لها.

تهز رأسها ثم تقف وترفع ذراعيها أعلى رأسها.

«لا يبدو أنك نمت جيدًا ليلة أمس»، تقول. «سمعت رنين هاتفك مرات عدة. هل كل شيء بخير؟»

أرتدي ملابسي الداخلية ثم أضع ذراعي في سترتي.

«إنه مريض جديد. قلق جدًا»، أقول. بوسعي إخبارها الآن. بوسعي إخبارها بكل شيء وسوف تحرص على أنني لن أفعل شيئًا طائشًا ومدمرًا. لكنني لا أقول شيئًا.

«هل أنت متأكدة من أن هذا هو كل شيء، آريانا؟ أنت تبدين...» تختار كلماتها بعناية، كأنها تتحرك في منجم.

بوسعها دائمًا معرفة متى يبدأ رأسي بالدوران في هذا الاتجاه الخطر. لا يمكنني الاختباء منها تمامًا. أنهي ارتداء ملابسي قبل أن أواجهها.

«أريد أن أعطي الخاتم لمتحف».

تدهش بشدة. تجلس على حافة الفراش وتعقد رجليها، يصل طرف قميص نومها إلى ركبتيها بالكاد.

«الخاتم؟»

«نعم، الخاتم»، أؤكد لها. «لا أظن أنه يجب أن يظل معي الآن. ربما لم يكن عليّ أخذه من البدء».

«لا أعرف. لكن أي متحف؟»

«متحف كابول»، أجيب. «قرأت عنه وقد ظلت اليونسكو تستعيد مئات القطع من جميع أنحاء العالم. كانوا يبيعونها في السوق السوداء. ظني أنه حان الوقت لإعادة هذا الخاتم».

تزم شفتيها ويبدو على وجهها التركيز الشديد.

«منذ متى وأنت تفكرين في هذا؟» تسألني. تعني منذ متى وأنا أحتفظ بهذه الفكرة لنفسي.

«ليس منذ وقت طويل. لا أعرف حتى كيف سأفعل هذا. لنتحدث عن هذا الأمر في ما بعد»، قلت أريد أن أطمئنها. «لكن هذا سيكون على العشاء، لأن اليوم سيكون حافلًا».

تعودت على جدول عملي، الأيام التي تبدأ مبكرًا وتستمر أحيانًا حتى اليوم التالي. سيجتمع أصدقاؤها الليلة لحفل التقاعد في جميع الأحوال. أشعر وأنا أغادرها بأسئلتها تتبعني. أفكر في إخبارها مرة أخرى أنني بخير، لكنني أعرف أنني كلما حاولت إقناعها، سيقل تصديقها لي. يجب أن أتعلم الكذب بشكل أفضل حقًّا.

أصل إلى المستشفى وأرتدي بذلة العمليات. أتفقد اللوح في مكتب استقبال غرفة العمليات لأرى إن كنت في غرفتي المعتادة.

«دكتورة شبرد. يوجد مريض يريد أن يتحدث إليكِ»، تخبرني إينيز، ممرضة الجراحة. تبقّى لها عام واحد قبل التقاعد، وقد وعدها نصف الجراحين أن يتقاعدوا معها. لا أحد أفضل منها.

«أنا في طريقي إلى الرعاية الآن»، قلت وأنا أمسك غطاء رأس منتفخًا.

«ليس في الرعاية. بل في الاستقبال. إنه ليس من المرضى المدرجين في جدول اليوم»، قالت وهي تضع يدها في خصرها. «يرفض التحدث إلى أحد آخر غيرك. لذلك، أنت تعرفين، اتصلت بفرد من الأمن ليكون في الجوار. لا أريد أن ينتهي بنا الأمر في نشرة الأخبار».

شير هنا.

أذهب إلى الاستقبال. يجلس أقارب المرضى في تجمعات، يثرثرون أو يلعبون بهواتفهم. تجلس امرأة قرب النافذة تخيط شيئًا ما. يشغل ثلاثة مرضى مقصورات الاستقبال لتوقيع استمارات الموافقة ولف أربطة المستشفى حول معاصمهم. يختفون جميعًا عن نظري حين أرى شير يقف في أحد الأركان، إلى يساره صف من النوافذ. أزرار قميصه ليست مغلقة بعناية، وياقته معوجة. أتخشب لكنني لا أتردد في سيري من خلف المنضدة لمواجهته. تجعلنا البوصتان الزائدتان في حذائي المطاطي وكذلك الانحناء في كتفيه، نقف بأعيننا متواجهة.

«أتواجه مشكلات في النوم؟» أقول بأفضل دارية يمكنني التحدث بها.

«هل أنت الفتاة؟» يسألني، صوته أجش لكنه خفيض. يبحث في وجهي عن إجابة.

«لدي أسئلة بسيطة جدًّا لك»، أواصل باللهجة نفسها التي تحدثت بها ليلة الانقلاب. «من الذي قتل أسرتي وأين دفنت جثثهم؟»

يلين وجهه، يزول العبوس وتتغضن زاويتا عينيه بالضحك. لا أتحرك، حتى والغضب يمور بداخلي.

«أنتِ الفتاة»، يقول بالدارية. يوجد سرور في صوته الواهن. «عرفتُ أنها ستساعدني في إنقاذك. كنتِ عازمة على...»

صار ظلًّا لما كان عليه حينذاك، الرجل الذي أسرني في بيته، دفعني تحت تهديد السلاح ليلًا. أنا قريبة منه بما يكفي لأرى الاختلاج الخفيف حول عينيه، لشم رائحة اقتراب المرء من إتمام قرن من عمره، والرائحة الأبعد للسرطان الذي سيمنعه من ذلك.

«أنتَ لم تنقذني»، انفجرتُ فيه وأنا أضع يدي في خاصرتي. «أنت خائن. وجهت سلاحك نحو من كان عليك حمايتهم. نحو حكومتك. نحو من وثقوا بك».

أريد قول المزيد لكن داريتي جافة ولا أريد أن أتلعثم أمامه.

«كنتُ أنفذ الأوامر. وكانت الأوامر من أجل مستقبل أفضل لبلادنا»، يُصر. «كنتِ طفلة. لم تكوني لتفهمي».

«أنا كنت طفلة. لكنك بالتأكيد لم تكن كذلك». أقول. فيطرف بعينيه ببطء. «كنت رجلًا جبانًا، وحتى الآن، ليست لديك الشجاعة للاعتراف بذنوبك».

تجمع لعابه في زاويتي فمه وهو يحاول إيجاد كلمات. رأيت من جانب عيني حارس أمن يقترب. يتحرك ببطء، يدرس الموقف.

«بعد كل هذه السنوات، ما زلت...» يقول شير ناحبًا.

«بعد كل هذه السنوات، ما زلت لم تجب سؤالي»، أقول بصوت ما زال بإمكاني السيطرة عليه. قد يتجمد من حولنا ذهولًا إن فهموا عن ماذا نتحدث.

«هل قتلت أسرتي؟ أبي وأمي - المرأة التي كانت تعطف عليك - وأخي الذي لم يكد يقف على قدميه. أكان يهدد مستقبل البلد بشدة؟ هل قتلته هو أيضًا؟»

«وما الفارق؟» يقول بهدوء. تتحرك يده إلى بطنه وتسيل دموعه ببؤس. «لقد مات من مات. ومن قتلهم سيموت قريبًا. الأحياء فقط من يمكنهم الوقوف والخضوع للمساءلة».

«إنه فارق بقدر العالم كله. إنه الفارق بين النعيم والجحيم»، أقول.

«النعيم والجحيم»، يردد متهكمًا. «كأنهما مكانان مختلفان. كأننا أنا وأنت لم نقف في كل منهما بالفعل!»

يتقدم حارس الأمن منا خطوتين أخريين. شفتاه مضغوطتان، وجبينه معقود.

«أأنت الممرضة التي اتصلت؟» يسألني. ينفخ صدره ويتخذ موضعًا يجعل شارته الذهبية تتدخل أولًا في الحديث بيني وبين شير. يذكرني بفتى صغير يرتدي بذلة بطل خارق. «أكل شيء بخير هنا؟»

تند عن شير قوقأة حزينة. يستدير نحو الباب، لم يتخفف من أدنى قدر من العذاب الذي جاء به. يصل إلى الباب تقريبًا

حين يستدير ويشير إليّ بإصبعه قائلًا: «إنها ليست ممرضة، إنها طبيبة»، يلقي بالكلمات كنقرات أصابع على الآلة الكاتبة. ثم يغادر.

تتبعني النظرات الفضولية وأنا أتراجع خلف الأبواب الثقيلة لقسم الجراحة. سيفترضون، أعرف. سيخمن بعضهم أنه مريض يائس وأنا جراحة بقلب بارد. سيظن آخرون أنه عجوز فقد عقله بشكل خطر. ربما جميعهم محقّون.

أردت أن أضربه في صدره وأطالبه بإجابات. أن أصيح في العالم أنه قاتل. أن أرفع صورة أبي وأمي وأخي الذي لم يتم عامه الثالث الذين فقدوا حياتهم من أجل رجال يسعون للسلطة. كان كل يوم يمر عليّ وأنا أفتقدهم لأن شير انقلب علينا، لأنه لم يعن بتحذير أمي.

أفرك يديّ بشدة في الأحواض العميقة. أغرس شعيرات الفرشاة في جلدي. تحرر قدمي الجريحة الدواسة وأرفع يديّ إلى أعلى، بذراعين مثنيتين. تنزلق المياه على ساعديّ وتتقاطر من مرفقي كالدموع.

يريد شير أن يعدّني من الأحياء ليريح ضميره لكنني لست متأكدة من هذا.

الفصل الخامس والأربعون

ألغيت آخر جراحة لأن المريضة نسيت أن تتوقف عن تناول الأسبرين مدة أسبوع قبل الجراحة كما طلبت منها. البشر مخلوقات عجيبة. ننسى التوقف عن تناول الأدوية بقدر ما ننسى تناولها. نكره التمارين. ونشعر بتحسن حين نمارسها.

أريد أن أتقدم إلى الأمام.

وأظل ألتفت خلفي.

أستقل القطار المتجه إلى وسط المدينة لمقابلة آدم على العشاء. معي كتاب كلاي بورتر. لغته ثرية كلغة الأدب. يرسم لوحات لأشخاص معيبين ويملؤها بالأمل. يحكي عن فتى في السابعة من عمره يعمل في ورشة أبيه، يُقطّع ألواح الصفيح إلى أقراص مستديرة بإزميل ومطرقة وبوسعي تقريبًا سماع الطرق.

أتساءل ماذا رأى كلاي في أفغانستان. ربما مر ببيتنا، بمدرستي، أو بالقصر بمبانيه وأراضيه. أكتب ملحوظة لأبحث عن مقالاته الأخرى حين أعود إلى البيت. لأقرأ ملاحظاته عن وطني.

وطني السري.

لكنني وصلت إلى محطتي. فأعيد الكتاب إلى حقيبتي وأرتدي قفازيّ قبل أن أترجل من القطار. انخفضت درجة الحرارة نحو عشر درجات منذ هذا الصباح. تسطع واجهات المحلات بخيوط الأضواء البيضاء وأغصان التنوب. سنلتقي في مطعم بيروفي على مبعدة ثلاثة مبانٍ من المحطة. أحد أماكننا المعتادة في

منتصف الطريق بيننا، ولديه قائمة طعام قليلة الأصناف لكن الطعام جيد جدًّا ولم أمل منه بعد.

يلف آدم ذراعيه حولي ويقبلني قبل أن ندخل. يُجلسنا النادل إلى طاولة في أحد الأركان. يظهر كوبي ماء، كل منهما بثلج كثير جدًّا. آدم في مزاج مرح، يدهشني ذلك تقريبًا في ظل رسائلنا النصية. أتساءل إن كنت قد حمّلت الأمر أكثر مما يحتمل.

«أخبريني إذن»، يقول، «ماذا حدث معك اليوم؟»

«هل أنت في مزاج جيد لتسمع عن الأمعاء الدقيقة؟»

«ربما لا»، يعترف. كان ذات مرة يفسح لنفسه مكانًا ليعمل في شقتي فوجد أحد كتب التشريح، مجموعة صور فوتوغرافية لجثث مُشرّحة. خلال دقائق، كان يحني ظهره على التواليت. «أشعر فقط كلما رأيتك أن لدينا الكثير لنحكيه».

«لن ينتهي بي الأمر في منشور على وسائل التواصل الاجتماعي مرة أخرى، أليس كذلك؟»

يهز رأسه قائلًا:

«انظري، لقد مسحته. وضعت صورة لي مع كلب أخي».

«لماذا لم تضع صورة لك ما هامستره؟»

«الكلاب تُدرّ أصواتًا أكثر».

«والأمر كله يتعلق بالأصوات».

«الأمر كله يتعلق بالناس»، يُصر. «لهذا أُعجب الناسُ بما نشرته عن مريضتك. لأنه عن الناس».

آخذ نفسًا عميقًا. يجب أن يعرف قصتي كاملة وهذه هي اللحظة المناسبة تمامًا. أشعر بخفقان في معدتي، دغدغة محرجة تقريبًا للأعصاب.

يأتي نادلنا ويقلب صفحة في دفتره الصغير. شعره مفروق ومدهون بعناية بمثبت للشعر، لا خصلة واحدة في غير مكانها. يسأل إن كان عليه تقديم بعض المقبلات كبداية.

«سنتناول السيفيتشي»، يقول آدم. «أتريدين شيئًا آخر آري؟»

«السيفيتشي جيد».

ما زال آدم ينظر إلى القائمة.

«لماذا لا نطلب الآن أيضًا؟ هل قررت ماذا ستطلبين؟»

نطلب المقبلات. ينقر النادل بقلمه ويضعه في جيب قميصه قبل أن ينصرف.

«يسعدني أننا استطعنا أن نلتقي الليلة»، التحدث وجهًا لوجه أسهل كثيرًا من الرسائل. انظري، كان عليّ مناقشة أمر هذا المنشور معك أولًا لكنك لن تصدقي كم الإعجابات التي نالها».

«إعجابات». رددتُ.

«لقد زاد متابعيّ بنسبة خمسة وأربعين في المئة. ظن البعض أنكِ لاتينية ما يعد خطأ سعيدًا بالنسبة إلي، مع اعتبار التركيبة السكانية في المنطقة. ومسألة التأمين الصحي، كانت كالذهب أيضًا. لدى الجميع أقرباء مصابون بالسرطان. كان مؤثرًا حقًّا».

أرى الآن ما يفعله بوضوح تام. كان يجب أن أراه منذ وقت طويل.

«أنا أطلب منكِ فقط أن تفكري في مساعدتي في بعض النقاط. سيكون من العار ألا نستخدم ما لدينا، وسيمكننا تنفيذ الأمر دون انتهاك قانون المعلومات والمساءلة أو أيًّا كان اسمه».

أرشف من كوب الماء رشفة طويلة وبطيئة وأهز رأسي.

«إنـه ليـس القانـون فقـط. أنـت تعـرف أنني أحـب الخصوصيـة يـا آدم».

يتنهد، يزم شفتيه بحدة.

«حسنًا، حسنًا، لننسَ هذا».

يـدوّر نادلنـا طبـق السيفيتشـي فـي الفضـاء أعلـى طاولتنـا ثـم يضعـه عليهـا بحمـاس. آخذ القضمـة الأولـى، تركنـي الغـداء جائعة.

«لكننـي أريـدك أن تكونـي جـزءًا من هذا. توجد طرائق للمسـاعدة. ظللـت أعمـل علـى قائمـة اتصالاتـي ليمكننـي عـرض بعـض الأرقـام الجيـدة لجمـع التمويـلات لكننـي يجـب أن أوسـع الدائـرة».

«هـذا مـا أردت التحـدث عنـه ذاك اليـوم»، أقـول وأتذكـر الرسـالة عـن الـدولارات.

«حسـنًا. إذن، إليـك الأمـر»، قـال بابتسـامة مرتبكـة. «أيمكنـك توصيلـي بزملائك؟ المديريـن التنفيذييـن في المستشـفى، الجراحين النجـوم... علـيّ تقديـم الحملـة لهـم وأنـا متأكـد مـن أنـه بإمكانـي الفـوز بهـم فـي قضايـا الرعايـة الصحيـة. أنـا علـى يقيـن أن بعضهـم سـيرحب بصديـق برلمانـي مسـتقبلي».

«أتريدنـي أن أطلـب مـن أصدقائـي منحـك مـالًا؟» أسـأله مأخوذة. «لا يمكننـي أن أطلـب منهـم هـذا».

«ولـمَ لا؟ هكـذا تسـير الأمـور يـا آري. بعضهـم قـد فعل هـذا بالفعل لسياسـيين آخريـن. يمكننـي اسـتخدام مسـاعدتك فـي التقـرب منهـم. معرفـة القضايـا التـي تهمهـم بصفتهـم أطبـاء، وكيفيـة حثهـم علـى دعمـي فـي الانتخابـات؟».

أتـرك شـوكتي.

«آدم، أنا لم أطلب هذا، ولا أريد أن أشارك فيه. لا، لن أكون شارة التركيبة السكانية على ذراعك ولن أتوسل إلى أصدقائي من أجلك».

ينظر إليّ لوهلة، ثم يعود إلى الخلف في جلسته. يداه على جانبي الطاولة، كأنه قد يندفع إلى الخلف لو لم يتشبث بها.

«واو»، يقول أخيرًا. «هذا دعم لا يُصدّق منكِ».

«أأنت جاد؟ لم ترغب في الذهاب معي إلى حفل العام الماضي، لكنك تريد الآن أن تتودد إلى زملائي في العمل؟ أنت تطلب مني أن أفعل أشياء تسبب لي الحرج، على أقل تقدير. هذا أمر كبير ومن السيئ جدًا أنك لا تراه هكذا».

«سيكون جيدًا لنا نحن الاثنين يا آريانا. يمكننا التعرف على من يمكنهم تحريك الأمور، الأشخاص المهمّين في هذه المدينة. الوصول إلى هناك يتطلب منا الخروج من نطاق راحتنا. وليس من السيئ جدًا محاولة التقدم على منافسيّ».

«وأنت تفعل هذا من أجلنا نحن الاثنين لكنك لا تتكبد عناء سؤالي إن كنت أريد التعامل مع هؤلاء المهمين. لم تسألني إن كنت أريد أيًا من هذا».

ينقر بأصابعه على الطاولة. لا يلمس الطبق.

تمر مدة صمت طويلة.

«لماذا طرأ أمر الزواج الآن فقط؟ هل يتعلق الأمر بعقد شقتك حقًا أم بالحملة؟» سألته.

«بربك يا آريانا»، يقول، «أأنت جادة؟»

يعرف من تعبير وجهي أنني جادة. ومن طريقته في تجنب الإجابة، أرى أنني محقة.

«آريانا، كوني ذكية»، يقول بصوت خفيض. «الاستراتيجية ليست خطيئة. الناس يصوتون لمن يحبونهم. نحن من النوع الذين يحبهم الناس. وقد كنا نسير في هذا الاتجاه بالفعل، أليس كذلك؟»

أطرقُ برأسي. أرى الآن بوضوح شديد كأن حجابًا قد انزاح عن عيني. عند نقطة ما في طريقنا، صرت بيدقًا في لعبة لم أرغب في المشاركة فيها. أرفع منديلي من فوق حجري وأضعه على الطاولة. أفتح حقيبتي وأخرج منها ورقتين بعشرين دولارًا. أضعهما على المائدة وأنهض، أرتدي معطفي فيما يحدق آدم إلى النقود التي تركتها على المائدة.

«ربما كنّا كذلك»، أقول. وبتلك الكلمات الثلاث الصغيرة، أغير كل شيء.

الفصل السادس والأربعون

تُدفئ شمس الظهيرة وجهينا، حتى قبل أعياد الميلاد بأيام عدة. اقترحت ماما ونحن نتناول الإفطار أن نذهب إلى حديقة جزيرة راندال. إنه السبت الأول الذي آخذه إجازة منذ أسبوعين ولا أريد تضييعه داخل البيت.

نظارتها الشمسية كبيرة ومستديرة، وجنتاها عاليتان. تسير ويداها مدسوستان في جيبيها. تقسم أن اليوجا هي ما أبقت على قامتها مفرودة وأصدقها. هي السبب في أن ظللت أنوي البدء بممارسة اليوجا طوال الأعوام الخمسة الماضية.

«بوابة الجحيم»، تقول ماما ضاحكة ونحن نسير على الطريق الأسفلتي. «كان هذا اسم هذه المساحة المائية، أتعرفين لماذا؟»

«ربما لغرق عدد لا بأس به من السفن في محاولة الوصول إلى هنا».

«حقيقي، لكن هذا ليس سبب التسمية»، أجابت. «إنه الاسم الألماني للمضيق الساطع أو شيء ما كهذا». نسير في الممشى بمحاذاة حافة البحيرة.

«بوابة الجحيم المسكينة. طريق مائي بريء باسم سيئ».

«ليس بريئًا تمامًا، إنها قبر مائي للكثيرين». تبتعد السحب الرقيقة عن الشمس. تقول ماما وهي تقي عينيها من السطوع المنعكس على الماء. «لقد قصفوا المضيق بكم هائل إلى حد السخف من المتفجرات منذ أكثر من مئة عام. شعر جميع من في برينستون ونيوجيرسي بالانفجار. ثم استخدموا الأنقاض لصنع تلك البحيرة الصغيرة».

في عامي الثاني في مدرسة أمريكية، تعلمت كلمة أنقاض. اختلط نطقها بالإنجليزية عليّ بـ«الروبل»، اسم العملة الروسية، ضحكتْ معلمة الإنجليزية حينها. ظلت تقلب صفحات كتاب حتى وصلت إلى صورة فوتوغرافية مغبشة لطفل رث الثياب يقف أعلى كومة حِجارة في بولندا في أثناء الحرب العالمية الثانية.

أنقاض، قالت بمرح شديد، كأنها تعلن عن كعكة عيد ميلاد. ليس روبل! *هذه* أنقاض.

عدتُ إلى البيت مبكرًا ذاك اليوم، بعد أن قضيت نصف ساعة على فراش في روضة الأطفال بألم في معدتي.

يسعدني أنني لم أعد أتأثر بالكلمات كما كنت من قبل.

«كيف كانت ليلتك أمس؟» أسأل ماما.

تضحك.

«بالحديث عن سوء الحظ»، تقول بمرح، ثم تدس يديها في جيبيها وتكور كتفيها للأمام. «ذكريات كثيرة جدًّا، ليلة أمس. عصابة نساء لا يحببن الجلوس بهدوء ومراقبة الغروب. أتتذكرين مارتين؟ إنها من اقترحت التمشية في حديقة جزيرة راندال. أخبرتنا بقصص عن ملاجئ المجانين ودور الأيتام التي كانت هنا. نقلوا المقابر من حديقة براينت وماديسون سكوير إلى هنا. أعادوا دفن آلاف الجثث».

أرى بعيني خيالي أكوام التراب المحفورة وشواهد القبور المائلة. أشك في أن شير سيعود إلى العيادة. سيكون عليّ إيجاد طريقة أخرى لدفعه لإجابتي.

تُقاطِع ماما أفكاري الشاردة.

«هل ستخبرينني في أي وقت من الأوقات بما حدث بينك وبين آدم؟» تتحرك شفتاها جانبًا وهي تخفض نظارتها الشمسية بما يكفي فقط لأرى عينيها. «حبيبتي، لقد ظللت أحدق إلى هذا الوجه سنوات. أعرف جيدًا حين يُزعجك شيء ما».

وكعرض صور قديمة في حفل تقاعد، تضربني موجة حنين، اللحظات الدافئة لحياتينا والطريقة العنيفة التي صرنا بها أمًّا وابنة. لا أتخيل أين كنت أو ماذا سأكون لو لم تأخذني.

«لقد انفصلنا».

«فهمت»، أجابت تتجنب الحكم على أي شيء كعادتها دائمًا.

«لا أحب أن أكون زوجة رجل سياسي. وبالطبع لا أحب أن أكون طُعمًا في صنارة»، أوضح.

«أوه، آري، أنا آسفة جدًّا».

«لم أذهب للقائه بنية الانفصال. لكن طريقته في النظر إليّ كشيء مناسب لحملته، لم أستطع تحملها فحسب».

أسمع غمغمة طفل من بعيد. تسير أسرة حول المنعطف، عربة الطفل يدفعها زوجان يرتديان معاطف منتفخة. في تقديري أن خلق لحظة كهذه يتطلب ما يربو على ألف معجزة.

«والآن، بعد أن فكرتِ بهدوء قليلًا، أما زلت تشعرين بالشعور نفسه؟»

«نعم»، أجبتها دون تردد. «ظني أنني لا أحب العلاقات. ربما سيناسبني الزواج بعملي».

«إنهـا طريقـة للحيـاة»، تقـول مامـا. «لكننـي لا أعـرف إن كنـت أوصـي بهـا أم لا».

عقـدت مامـا علاقـات عـدة خـلال السـنين الماضيـة، لـم تصـل بواحـدة منهـا إلـى مرحلـة النضـج. ظللـت دائمًـا أعتقـد أننـي السـبب فـي ذلـك.

«أنا آسفة»، أقول. «لولا وجودي...»

«لـولا وجـودك يـا آريانـا، لظللـت أركـض فـي دوائـر مفرغـة. أنـت لـم تعوقينـي عـن قصـة حـب رومانسـية. لـم أرغـب قـط فـي مسـؤولية زوج وأسـرة. لـم أرغـب فـي أن أكـون تيلـي. لذلـك اختـرت مسـارًا مهنيًـا يضمـن لـي ألا أفسـد حيـاة أي زوج أو طفـل».

يحزننـي أنهـا لا تؤمـن بنفسـها بقـدر مـا تسـتحق وأنهـا تشـعر بـأذى مـن ناحيـة تيلـي. لكنهـا مثلـي الأعلـى أيضًـا. هـي مـن علمتنـي أن ألقـي بنفسـي فـي عملـي.

«آريانـا، أنـا لـن أسـتطيع مـلء فـراغ القطـع المفقـودة فـي حياتـك أبـدًا. عرفـت هـذا دائمًـا. كانـت الثقـوب كبيـرة جـدًا علـيّ لأفكـر حتـى فـي الاقتـراب منهـا. لكنـك أنـتِ... أنـت مـلأت فراغًـا عملاقًـا فـي حياتـي بالفعـل، وجعلتنـي أشـدّ الأمهـات فخـرًا. لقـد حظيـت بالكثيـر جـدًا بسـببك، الكثيـر جـدًا مـن الفـرص والخبـرات».

أشـعر بضيـق فـي صـدري. تُغبـش الدمـوع رؤيتـي وتحـول العالـم إلـى دوامـات مـن الرمـادي والأزرق.

ألـف ذراعـي حولهـا فأشـم رائحـة عطرهـا الخفيـف. حتـى فـي منتصـف الشـتاء، تفـوح منهـا رائحـة الزهـور والفواكـه المجففـة.

«أنا أحبّك يا ماما»، قلت وحلقي يغص. أحاطتني بذراعيها بقوة، كما تفعل دائمًا. ظلت دائمًا تخبرني ألا أحذو حذوها. ما انفكت تلمّح وتقولها مباشرة إنني سأكون أمًّا رائعة. كلما أخبرتها بأنني لست مناسبة للأمومة، تبدو كأنني أخبرها بمأساة. حتى الآن، أرى أنها ما زالت يحدوها الأمل.

نسير ببطء، يثقل تاريخ الحديقة قدميّ. ربما كان آلاف البشر المتضررين، جرحى الحرب، الأيتام والمرضى النفسيين، يريدون أن يسمع أحد ما قصصهم.

تتنحنح، «يوجد شيء ما أريد إخبارك به»، تقول، «لقد شكلت الحكومة الأفغانية لجنة للبحث عن جثث من قُتِلوا في الثورة. إنهم يبحثون رسميًا الآن مع أنهم ليس لديهم كثير من المعلومات. بعد ثلاثين عامًا، كل من كانوا يعرفون شيئًا إما ماتوا وإما رحلوا وإما خائفون».

فوجئت بهذه الأخبار. طوال بحثي الذي ظللت عاكفة عليه لم أقرأ شيئًا عن هذا.

«أين سمعتِ بهذا؟» سألتها. «ولماذا لم تخبريني؟»

«لم أرغب في إقلاقك به. سمعت عنه من أحد زملائي في السفارة سابقًا. إن وجدوا أي شيء، سأخبرك. لم أرغب في رفع آمالك».

«من زميلك هذا؟ هل يعرف إن كانوا قد وجدوا شيئًا؟»

«لا، لم يسمع شيئًا ولم يكن ليسمع شيئًا مباشرة، بل يعرف أشخاصًا يسربون له المعلومات. لكن ربما أسفرت التحقيقات عن شيء ما. لقد مضى وقت طويل بما يكفي».

أنظر إليها.

«ماما، من زميلك هذا؟»

تنظر إليّ ثم إلى المياه ثم إليّ مجددًا.

«ليو».

ليو هاريس، من سفارة إسلام آباد. لم تذكره ماما منذ مدة. أتذكر حين قابلته أنا وتيلي. تحول من تأجيل طلبنا جواز سفر إلى مرافقتنا إلى مدرج الطائرات لنركب طائرة حولت رحلتها. أتذكره وهو يراقبنا نصعد إلى الطائرة. يداه في خاصرته وقميصه مبلل بالعرق.

«كان يعمل مع المخابرات المركزية، أليس كذلك؟» قلت. لا أعرف لماذا سألت بهذه الطريقة، كأنني أعرف الإجابة بالفعل. لم يخطر لي قط أن ليو أي شيء أكثر من موظف في الخارجية.

تنظر ماما إلى الأرض.

«لم يكن بمقدوره البوح لي بالكثير حينذاك، لكنه الآن يستطيع مشاركتي القليل».

«هل كان متورطًا؟ هل كان يعرف ماذا سيحدث؟» سألتها.

«لا، لا، لم يكن يعرف. وليس متورطًا. ليس حينها. في ما بعد». قالت بصوت ينخفض. «في ما بعد، تغيرت أشياء. ظني أنه ساعد في توصيل نقود وإمدادات للمجاهدين وحشد الدعم من أوزباكستان».

أوزباكستان. في الغالب أرسلت المخابرات المركزية سلاحًا ومصاحف إلى الأوزباكستانيين. ظن المدير أن إثارة حماستهم الدينية ستلهمهم لقتال الشيوعيين الملحدين بقوة أكبر.

مما رأيته، تُفضل المخابرات المركزية السرية الشديدة بخصوص الانتخابات التي تعيد تنظيمها، والديكتاتوريات التي تضعها وتخلعها، والنزاعات التي تُشعلها. لكنها بطريقة ما، حين تمضي عقود عدة على الأمر، يُعاد فتح الملفات مجددًا، يعرفون أن الغضب والصدمة سيكونان قد هدأا كثيرًا بمضي الوقت الطويل.

قضيت وقتًا أطول مما يمكنني الاعتراف به في الاطلاع على تقارير المخابرات المرفوع عنها السرية عن أفغانستان، ملخصات عن الدعم الشعبي للرئيس داوود خان والوزراء الذين قد لا يدينون له بالولاء التام. ملخصات عن قواعد الطيران التي يأمل السوفيت بناءها على أرض أفغانستان، ومقالات من الصحف عن الانقلاب. ميزتُ أسماء عدة في الوثائق لكنني لم أعثر على ذكر لأبي قط، ما أخبرني بأن المخابرات المركزية لم تحدد المستشارين المقربين من الرئيس.

«لا أصدق أنك لم تخبريني قط بهذا». أقول.

«كان لديّ شكوكي لكنني لم أكن متأكدة»، تجيبني ببطء. «ولم أرغب في التسبب له في أي مشكلات».

«لا. التسبب في المشكلات من عمله هو».

تنضغط شفتيها في خط رفيع. ترتعش لنسمة هواء بارد داعبت شعرينا وعينينا.

«إنه أمر معقد»، تقول.

أنا أمريكية الآن، لكنني أرى بوضوح أثر تدخل المخابرات المركزية في جميع أنحاء العالم. مع ذلك أنا شاكرة لعدم رؤيتي

وطني في حرب تلو الأخرى، أن أنتونيا أمي، وأنني هنا استطعت أن أغدو طبيبة كما كان أبي يتمنى لي. بالطبع، لقد نجوت هنا. لكن ربما لم أكن لأحتاج إلى إنقاذ لو لم يخش أمثال ليو من زحف الشيوعيين.

«أنت محقة»، أجيبها، «إنه أمر معقد بالفعل».

أومأت برأسها.

«ربما توجد طريقة للمساعدة في التحقيقات»، أقول لها. يسيل البرد أنفي. «لقد وجدته».

«وجدتِ من؟» تسألني وهي تناولني منديلًا أخرجته من جيبها.

«أو أنه وجدني، في الحقيقة. بعد كل تلك السنوات. لم يعرفني حتى».

تتوقف ماما عن السير لتواجهني.

«آريانا، عن ماذا تتحدثين؟»

«الحارس، شير. جاء ليراني في العيادة مريضًا. واجهته».

ينقبض فكها. لا أعرف إن كانت مذهولة لظهوره أم لأنني لم أخبرها على الفور. أخبرتُها بأدق التفاصيل عن لقائي به مرتين، واعترفت لها بذهابي إلى عنوانه حتى. «ظل الوحش يعيش حياته ببساطة. لم يُحاسب قط على ما فعله تلك الليلة».

«آريانا. لا أظن أنها فكرة جيدة أن تكوني على اتصال به. وبالتأكيد أن تكوني طبيبته».

كما توقعتْ. ماما عقلانية وحمائية.

«أعرف. لكنه قد يكون فرصتي الوحيدة للعثور على أسرتي. لأعرف من قتلهم».

بدت حائرة تمامًا.

«انظري. أعرف أنه من الصعب التفكير في الأمر بهذه الطريقة لكنه أخرجك من هناك تلك الليلة. وخاطر بشدة ليسلمك إليّ».

هذه ليست أول مرة تحاول فيها إقناعي بالنظر إلى الأمر من هذه الزاوية.

أتذكر كيف كان شير ينظر إليّ في المستشفى، كيف صحح لحارس الأمن الذي ظن أنني ممرضة. لكنني ما زلت غاضبة.

«لست مهتمة بكوني توبته»، حمل صوتي نسائم الجنوب. «سأجعله يخبرني بكل شيء».

حلق سرب من طيور النورس ببطونها المستديرة أعلى المياه، ثم عادت إلى اليابسة تبحث عن طعام.

«ماذا لو لم يكن يعرف الإجابات التي تبحثين عنها؟»

«بل يعرف. يجب أن يعرف»، أقول بإصرار. «وإلا لماذا سيظهر في حياتي الآن؟ من المستحيل أن يكون العالم بهذه السادية».

لا أجرؤ على لوم الرب، حتى ولو لم أكن متدينة. أحيانًا أندم على إفلات الإيمان الذي تربيت عليه مني كخيط الحرير. تمسكت بالجوهر فقط، أن الله هو الخالق وأن الجنة والنار حق.

الحاجة ليست أم الاختراع فحسب، بل أم الإيمان أيضًا.

بقيّته، الصوم، والصلاة، والمناسبات الدينية، لا تعني شيئًا دون أسرتي أو مجتمع حتى. في نشأتي مع ماما شعرت بميلها نحو كنيسة الموحدين، مذهب في الغالب أدت إليه الحاجة أيضًا.

«ماذا لو تحدثت أنا معه؟» تقترح. «ربما أمكنني استجوابه. ما رأيك؟»

لم تدهش حين هززت رأسي. سأجعله يجيبني، ولو اضطررت إلى خوض الأخطار لتحقيق هذا.

في هذا العالم أناس يعودون إلى قبور مائية؛ أطباء مرهقون، صحفيون يلقون حتفهم تحت القصف، وأطفال حروب. هؤلاء هم من يرغبون في عبور بوابة الجحيم لإثبات أن الحياة والفقدان وجهان لعملة واحدة، تُغرِق سفنًا وتنقذ أخرى.

الفصل السابع والأربعون

أحلم بأنه الشتاء. أقف على طوار في هدأة الليل أراقب ذوبان ندف الثلج المخملية الغزيرة على الأرض الأسمنتية، على زجاج السيارات والدكك المطلية. أنا في التاسعة من عمري بكدمات سعيدة على ساقيّ وشرائط حريرية في شعري. ألتقط الثلج المتساقط على لساني إذ يبدو تركه يسقط على الأرض أشد الأفعال جنونًا.

أظل أغفو وأستيقظ طوال الليل، فأقرر الخروج للركض في الرابعة صباحًا. كسا الثلج المدينة بين عشية وضحاها.

حين أعود أجد ماما في غرفة المعيشة. «أنتِ مستيقظة»، أقول. قدماها في الهواء وتوازن جسدها على كتفيها. «تصحيح، أنت مقلوبة رأسا على عقب». عادت قدماها إلى الأرض بحركة مِقص سلسلة. جلست متربعة، وجهها محمرّ.

«أنتِ تحرجين الشابات العشرينيّات في الاستوديو على الجانب الآخر من الشارع».

التصقت خصلات شعرها المبتلة بجبينها.

«أوه، لا أظن أنني أشبه كثيرًا الفتيات ذوات البشرة البراقة هؤلاء»، قالت وهي تلف منشفة حول عنقها. تشير إلى كتاب كلاي بورتر على الطاولة. «أهذا ما تقرئينه الآن؟»

«نعم، لقد تحدث مع الناس في وسط المدينة»، أخبرها وأنا أصب كوب ماء وأحاول إنهاء فكرتي قبل أن أرشف منه. «طريقته في الكتابة عن المتضررين من الحرب، الأطفال وهم يتسابقون

لصعود كومة من الأنقاض. الأمر كأنه، كأنه يعرض الزهرة النامية من بين شقوق الأسمنت».

تمسك ماما الكتاب وتنظر إلى غلافه الخلفي.

«سوف أنظر في مقالاته الأخرى. أتساءل إن كان قد سمع أي شيء عن التحقيق أو القبور فيما كان هناك». أقول.

«ربما». تغمغم.

آخذ حمامًا وأعود إلى غرفة المعيشة لأجدها أمام حاسوبها المحمول، يعكس وجهها الوهج الأبيض للشاشة.

«حسنًا، يبدو أن مستر كلاي بورتر لا ينام كثيرًا هو الآخر»، تقول.

تتساقط قطرات الماء من أطراف شعري على السجادة الخشنة عند قدمي. أتقدم نحو ماما خطوتين وأرى أن كلاي قد ردَّ على رسالة أرسلتها إليه منذ دقيقتين عبر البريد الإلكتروني.

أسير في قسم الأورام. أحمل في يدي كعكة صغيرة من المقصف وشمعتين وجدتهما في مطبخ العيادة. كانت معلمة روضة الأطفال، مارلين، قد أُودعت المستشفى في وقت مبكر من الصباح بسبب آلام في الجذع. يبتسم لي الطبيب الذي أودعها حين يرى الكعكة والشمعتين في يدي.

رائحة الممر كرائحة ورق الألمنيوم والحصى. رائحة علب بلاستيك ومكتب طبيب بيطري. أحيانًا تضربني الرائحة بقوة شديدة إلى حد أن أرش زيت البرتقال داخل كمامتي وأبقيها معلقة عند عنقي.

بعض المرضى يشمونها أيضًا. إحدى مريضاتي هلكتْ حليمات تذوقها بسبب العلاج الكيميائي، ومع أنها قالت إن لكل شيء مذاق الورق المقوى، لكنها لم تستطع نفض الرائحة المعدنية للكيميائي عن جسدها. كانت تغسل ملابسها ما إن تعود من المستشفى إلى البيت وتستحم مرتين يوميًا دون جدوى. أخبرني أحد المرضى الرجال أن زوجته تنام في غرفة منفصلة. اخترعت له عذرًا ما لئلا تجرح مشاعره لكنه سمعها تتحدث مع ابنتهما الكبرى على الهاتف عن «الرائحة الكريهة للسرطان».

«طق طق»، أقول وأنا أقف عند الباب. تبتسم مارلين وأنا أدخل. أسفل عينيها هالات غائرة.

«مرحبًا يا دكتورة».

«سمعتُ أنكِ جئت. كيف حالك؟»

«سيئة»، تعترف. «لكن ليست كما كانت منذ ساعات».

«بداية جيدة. لديكِ جفاف قليل أيضًا. لكن كيس سوائل أعياد الميلاد السعيد هذا سيحل الأمر».

توجد حقيبة يد كتانية على الكرسي، مرسوم عليها امرأة بأهداب طويلة تلف رأسها بعصابة وترتدي قفازات ملاكمة في قبضتيها. «محاربة»، كُتِب أعلى الرسم بحروف وردية. نسخة محدّثة من روزي العاملة، تؤدي دورها في هذه الحرب الجديدة. أحمل الحقيبة وأضعها على إطار النافذة.

تشتعل حرب مارلين. خضعت لتوّها لمسح ذري على جسدها كله، بالبوزيترونات والإلكترونات تتقاطع معًا في فيض ضوئي. الجرح شق يدخل منه النور إليك، كما قال أبي، مقتبسًا عن

الرومـي. كأنـه كان يعـرف عـن النظائـر المشـعة والمسـح الـذري. تشير السـحب السـاطعة في صـور الأشـعة بدقـة إلـى المواضـع التـي تشـعر فيهـا مارليـن بألـم زائـد، ردفهـا الأيسـر، منتصـف ظهرهـا، وكتفهـا اليمنـى.

تتنهد وتنظر إلى حقيبتها.

«أوه، أضحـي بـأي شـيء لئـلا أكـون محاربـة اليـوم»، تقـول. «لـم أرغـب فـي لعـب الكـرة الخادعـة حتـى».

«أنـا لا أثـق بمـن يحبـون لعبـة الكـرة الخادعـة»، أقـول فتبتسـم بأسـى.

تبدو حزينة.

«ألديكِ اليوم أخبار سيئة؟» تسألني.

«سأخبرك بما توضحه صور الأشعة». أقول.

تسـتمع إلـيّ. تبـدو مرعوبـة وغاضبـة ومرهقـة. تأخـذ نفسًـا عميقًـا. ومـا تقولـه بعـد ذلـك يُدهشـني.

«قبـل ولادة ابنتـي بشـهرين طليـتُ حجرتهـا بلـون وردي، تبيـن بعـد ذلـك أن لونهـا المفضـل الأخضـر. صـارت يافعـة الآن وقـد وعدتهـا أن أسـاعدها فـي إعـادة طـلاء حجرتهـا كمـا تحـب»، قالـت.

وأنـا أعـرف أنهـا سـتفعل. لأن النـاس حيـن يكـون لديهـم سـبب للعيـش، بكيميـاء مـا فـي المعنويـات، يعيشـون. المحاربـون لا يخوضـون حروبهـم لرغبتهـم فـي الخلـود، بـل يدخلـون غمارهـا بالوضـع الـذي يريـدون أن يتذكرهـم بـه الآخـرون، كأنهـم يتخـذون وضـع التمثـال.

حتـى وهـي علـى فـراش المـرض، يمكننـي تخيـل مارليـن وهـي تُقلّـب الطـلاء فـي الدلـو وتراقـب ابنتهـا تصعـد السـلم لتطلـي زوايـا

غرفتها. تريد أن تبقى أمًّا لابنتها إلى الأبد، الأم التي ناولتها فرشاة مغمورة في لونها المفضل، الأم التي وقفت خلفها وهي تلوّن العالم كما تحب.

«سأتحدث مع بقية الفريق. دعينا نرى ماذا سنفعل الآن لنعيدك إلى البيت سريعًا». أقول فتومئ برأسها.

أتحرك بآلية في العيادة، يتكثف الألم في رأسي بمضي الساعات. أتناول حبة أخرى من الزجاجة البرتقالية وأبلعها بلا ماء، أتمنى لو أجرب نوعًا آخر من المسكنات.

أجلس إلى مكتبي وأشغل الحاسوب. تضيء الشاشة فأشيح ببصري بعيدًا وأنا أُخفف سطوعها. يجف حلقي لكنني لا أهتم. أجد الموقع الإلكتروني الذي أريده.

تمر لاسي بمكتبي.

«هل كل شيء بخير يا دكتورة؟» تسألني.

«المعتاد»، أجيبها.

«حسنًا. أنا في طريقي إلى الخارج. أخبرتك بأن أخي سيتزوج أليس كذلك؟ الليلة، ستلتقي الأسرتان لأول مرة. الفتاة لطيفة بما يكفي لكن والديها يظنان أن أوباما مسلم متخفٍّ. والداي يظنان أن كرة القدم رياضة همجية. وأنا سأذهب بالفِشار»، تقول.

«يبدو أنك ستقضين وقتًا ممتعًا»، أقول وعيناي على الشاشة. أُدخِل أرقامًا من بطاقة ائتماني.

إن كانت لاسي تقول شيئًا آخر فأنا لا أسمعه. لا أعنى برفع بصري حتى أنهي مهمتي هذه. أطبع صفحة تأكيد وأعرف أنه لا تراجع من عند هذه النقطة.

أدفع بكرسيّ بعيدا عن المكتب وأتنفس. غرفة المكتب معتمة وساكنة، غادر الجميع منذ وقت طويل. هاتفي هادئ. لم يتصل آدم منذ أن تركته في المطعم وجزء مني يفتقده. لكن جزءًا آخر أكثر عقلانية يعرف أن ما أشعر به هو وحدة مستترة. هذا ما كنت أشعر به قبل لقائي بآدم. قبل أن تعلق رائحة عطره في أريكتي.

أعبر الشارع، أشعر برأسي مقلوبًا، كأن الأرض انقلبت على محورها. تتحرك قدماي بسرعة، بقوة دفع المدينة. تنبعث رائحة بخور تصيب بالدوار من رجل يرتدي قفطانًا باللونين الأحمر والأصفر. أمرُّ بامرأتين تعرضان الخلاص في مطويات وأدخل محطة القطار. أغمض عيني وأسافر عبر الزمن.

حين كنتُ في السادسة عشرة، سافرنا في عمل ماما إلى بنغالور[1]، مدينة حدائق غنّاء وصناعة نامية. قضينا يومين سائحتين. كانت الشمس الاستوائية تضربنا بسخونتها في ظهورنا، وملابسنا تلتصق بجلدنا من الرطوبة... كانت أصابع ماما تلتصق بصفحات الدليل السياحي الذي اشترته.

ذهبنا في تجوالنا إلى كهف تحوّل إلى معبد هندوسي، تحرسه أعمدة حجرية وأقراص شمسية ضخمة نقش عليها الإله شيفا.

مرة كل عام، أوضح مرشدنا السياحي، *وليس أكثر من مرة في العام، تسقط أشعة الشمس بين قرني الناندي*[2] *لتنير وجه شيفا.*

هل صمموا المعبد على هذا النحو؟ سألته، كان رجلًا طويلًا

(1) عاصمة ولاية كارناتاكا، وتعد ثالث أكبر مدينة في الهند. (المترجمة).
(2) الثور الأبيض الذي يمتطيه الإله شيفا. (المترجمة).

ونحيلًا يبدو متسامحًا مع القيظ. *أم اكتشفوا سقوط الضوء بهذا النحو بعد البناء؟*

لست متأكدًا تمامًا، آنستي. لكنني أظن أن هذا ليس مهمًا على الإطلاق للآلاف الذين يأتون كل عام لمشاهدته.

دخلنا أنا وماما الكهف، لمست أقدامنا الحافية الأرضية الباردة المبللة. سرت خلف ماما وسار خلفي أشخاص آخرون. توغلنا في أعماق التجويف المعتم، حنينا ظهرينا مع ازدياد انحدار السقف نحو الأسفل بشدة. انحنيت وأنا أمر بتماثيل بقلادات من زهور القطيفة والياسمين، فشعرت بنبضي يتسارع، ورأسي يدور بشدة.

تردد صدى كلمات المرشد السياحي في أذني.

أحيانًا يُرسم شيفا برقبة زرقاء قليلًا لحمله في حلقه غازًا سامًا يهدد بتدمير العالم. لديه قدرات مدمرة وقدرات إعادة خلق أيضًا، كأن إحداها لا توجد دون الأخرى.

أريد أن أخرج، أخبرتُ ماما. كان المكان ضيقًا جدًا، وبالكاد أمكنها الالتفات لتنظر إليّ. استدارت على عقبيها وسارت أمامي لتفسح لي لأمرَّ بين زحام السائحين إلى فوهة الكهف.

ألقيت بنفسي على دكة خارج المعبد. دفعت ماما لشخص ما ليشق لي ثمرة جوز هند ودفعتْ بالماصة في فمي. شربتُ وأنا أتساءل إن كانت الآلهة قد طردتني من موقعها المقدس. منذ ذلك الحين وأنا أتجول في دور العبادة دون أن أجد نفسي في أي منها.

تشعر قدمي باقتراب القطار قبل أن أسمعه.

حين يصل أعبر أبوابه المنزلقة وأشق طريقي إلى كرسي. أبقى في القطار وهو يمر بمحطتي. ذهني ليس شاردًا. أنا قتيلة هذه اللحظة وأنا أهبط السلم وأجوب في الشوارع الجانبية في طريقي إلى مسكن شير.

أضغط الزر المكتوب بجواره اسمه. نابي. أضغط بشدة، يبيض طرف إصبعي. ينبعث صوت من جهاز الاتصال الداخلي، تحية لا أفهمها. لا يهم.

«أخبري شير نابي أن يهبط إلى أسفل»، أصيح.

الفصل الثامن والأربعون

صمت. تنفسي قصير وسريع. أنشب بأظافري في راحتيّ. أضغط الزر مرارًا، سلسلة من الرنات المتقطعة.

تنبعث ضوضاء من الجهاز. آخذ خطوة إلى الخلف وأرفع شعري عن رأسي. أحدق إلى المصعد، أنتظر أن يخرج منه شير مندفعًا. أتوقع مواجهة جندي أو مجرم لكن حين ينفتح الباب، أجد المقبل نحوي لا هذا ولا ذاك.

أشيح ببصري بعيدًا لئلا أرى الألم في خطواته.

يفتح الباب الزجاجي للبناية ويخرج إليَّ. يقف أمامي ويقابل نظرتي، لوهلة فحسب.

«ليس هنا»، يقول ويسير جانبًا لينعطف حول المبنى. أتردد؛ لا أريد أن أمتثل لأمره. أشعر بيد على مرفقي فأقفز للخلف.

«ما الذي تحاولين فعله به؟ لماذا لم تقولي من أنتِ؟» تصيح ابنته بالدارية. عيناها منتفختان، كأنها كانت تبكي. خلفها، تقف في المصعد، أمها. صارت طاهرة بدينة، ثقيلة. بدأ باب المصعد ينغلق فترفع يدها لتمنعه، دون أن تتحرك عيناها عني لحظة.

لا تقول شيئًا، تنظر إليَّ فحسب بالانشداه نفسه الذي ارتسم على وجهها ليلة أن جاءها شير بي.

«هذا ليس من شأنك»، أقول لابنته بالإنجليزية، وأبعد ذراعي عن قبضتها. أتذكر حين رأيتها ترتدي ملابسي التي صغرت علي فيزداد سخطي. تتبعني حتى ترى شير يقف ويداه في خصره.

«عودي»، يقول لابنته.

«لكن بادر...» تعترض وهي ترمقني بنظرة كالخنجر.

«عودي يا بنيتي. إنها تريد رؤيتي أنا، وليس أنت. اذهبي لتكوني مع أمك وأطفالك. لم أنته من إطعام إلياس».

ترفع ذراعيها لأعلى، كطير يقرر هل يحلق أم يظل مكانه. شير محق. أنا لا أريدها. أستدير لأراه ينعطف يسارًا عند زاوية المبنى...

«لن تهرب مني!» أصيح فيه. يخرج من مجال رؤيتي بالفعل. لن أنتظر يومًا آخر لأحصل على إجاباتي، حتى وإن تطلب الأمر أن أطارده في الشارع. ألحق به سريعًا، لكنه لا ينظر خلفه.

«سنتحدث. لكن ليس هنا»، يقول بالدارية، وجهه جامد كالحجر. أسير بجانبه وأنا أشتعل غضبًا. لا يمكنني تحمل السير خلفه، أضبط إيقاع سيري على إيقاع سيره.

«أين تذهب؟» أسأله.

«إلى مكان ما». يغمغم.

نمر بمبانٍ عدة. تبتسم لنا امرأة بشعر فضي تمسك برباط كلب صيد وهي تقترب منا.

«كف عن مماطلتي!» أقول. أريد أن أمسك به من كتفيه وأوقفه لكنني لا أستطيع تحريك أطرافي. تتوقف المرأة في سيرها، تقطب وجهها نحوي. ترمق شير بنظرة شفقة قبل أن يشدها كلبها بعيدًا. «أجب عن أسئلتي فقط. هل قتلتهم؟ هل تهرب من الحقيقة؟ لماذا لا تعترف بما فعلته؟»

يواصل سيره. يعبر الشارع المزدحم فينطلق بوق سيارة.

«توقف!» أصيح فيه وفي السيارة التي تقترب منا. يضغط السائق المكابح فيرفع شير يده، اعتذار هادئ. ألحق به. أشعر بحرارة مقدمة السيارة، أقابل نظرة السائق الذاهلة ثم أهرول إلى الطوار المقابل.

لأمانة القول، ربما حلمتُ أنني أدهسه بسيارة.

نمر بمبانٍ عدة أخرى. يتثاقل تنفسه، مرهقًا. أسمع صفيره الواهن وأنا أسير بجواره.

«ستجيبني اليوم». أحذره.

يقف أمام بوابة حديدية متآكلة، عند مجموعة أعمدة طوبية تشكل مدخل مدافن.

«هنا»، يقول وهو يخب السير إلى مدخلها. تلوح المدافن بأصدق هيئة لها في الشتاء. حين تتعرى فروع الأشجار ويصفرّ العشب المستوي بالأرض الباردة. حيث يبدو كل ما يُزهر كخيال، بلاستيك. حيث يتلو الأحباء صلواتهم بسرعة، وهبات الريح الباردة تستعجلهم.

مع ذلك، أشعر دائمًا بالراحة في المدافن، لرؤية الأرواح في كنف عائلاتها، الشواهد المنقوش عليها أسماء وتواريخ محددة، وأكوام التراب مستعدة لتلقي الدموع. أفكر في حديقة جزيرة راندال، فيمَن حالفهم الحظ ليُدفنوا مرتين. أو في جثمان الرجل المدفون في زهور يانعة في خلفية سيارة في الهند، ترافق السيارة حشود من الناس يغنون ويقرعون الطبول. كانت جنازة جدتي في كابول هادئة وباهتة، بصلوات هامسة ودموع رقيقة تجففها مناديل اليد.

بعد مئة ياردة داخل المدافن تختفي ضجة المدينة بشكل ملحوظ. على القبور أنواع شتى من الشواهد. نصب تذكاري لضحايا الهجوم على البرجين. مقبرة لويس آرمسترونج، وتمثال لامرأة بائسة في رداء. قبور أخرى أقل بروزًا، بالكاد تعلو بوصة عن الأرض.

يسير شير عبر مرج، يتكسر العشب تحت قدمينا. يغوص كعب حذائي المنخفض في التربة الرطبة. يتوقف فجأة فأكاد أصطدم به. أعود إلى الخلف وأكاد أفقد توازني...

يحدّ هذا الجزء أشجار باسقة. وقف شير على مسافة أقدام عدة من صف أشجار دائمة الخضرة، وكور يديه يدعو. أنظر إلى الأرض أمامه، إلى شاهد قبر.

كريم نابي.

أدرك من التاريخ المنقوش تحت اسمه، أنه ابنه. هنا يرقد الفتى الذي رأى دمي الأول وهو مراهق.

«أوه، بنيّ»، يتنهد شير قائلًا، «ليغفر الله لك ولي».

يمد يده ويزيح أوراق الشجر الجافة عن القبر. يجثم على ركبتيه بأنين ويبدأ نزع العشب الجاف من حول حوافه.

«أبقيته بعيدًا عن الحرب لأطول وقت ممكن. توسلت إلى الجميع. هددت، قطعت وعودًا كنت أعرف أنني لن يمكنني الوفاء بها»، يقول. يخونني قلبي، يؤلمني سماع أب ينعى ابنه. أدس يديّ في جيبي وأفرد ظهري فيما يواصل كلامه. «كان ذلك مستحيلًا وكنت قد استنفدت كل ما لدي، كنت مفلسًا. كان عليّ تهريبه».

يخبرني بأنه دفع لمهرب ليأخذ ابنه إلى تشيكوسلوفاكيا. ظل

كريم وحده هناك، صبي صغير، لعامين قبل أن تلحق به بقية الأسرة.

«كان في بيت للشباب. لا أحد ليرعاه. جميع أنواع الفتية من حوله، أغلبهم أكبر منه. حجمًا وسنًا. لم يخبرني بما حدث له هناك قط، لكن ذلك غيّره».

القصص المعتادة عن أسر اللاجئين، أحيانًا ينزحون من أوطانهم بشكل مجتزأ.

«حين اجتمع شملنا مرة أخرى، كان بالكاد يتحدث. ابنتي، حتى هذا اليوم، لا يمكنها الابتعاد عن أمها. ابنتي الصغرى»، يقول وهو يهز رأسه. «كأنها صارت واحدة أخرى».

يرتفع طير من أعلى شجرة بلوط، يحلق أعلى رأسينا ويحط على شاهد قبر قريب.

« ماذا حدث له؟»

«حين جئنا إلى هنا»، يقول ثم ينفخ في أصابعه لتدفئتها. «صرت أنا الابن وكريم هو الأب. تعلم الإنجليزية سريعًا. وجد أعمالًا غريبة وأثار إعجاب كل من عمل لديهم. كان لديه التزام عسكري. أراد أن يحقق شيئًا ما. عمل مع رجل لديه سيارة قهوة. كان يجني مالًا جيدًا. لذلك ادخر كل ما لديه ليشتري واحدة.

كان يستيقظ في الثالثة صباحًا لمدة خمسة أيام أسبوعيًا. يحمل سيارته في الظلام محملة بالفطائر وأيًا ما يأكله الناس. ظل يفعل ذلك كل يوم، حتى جاء يوم».

وضع راحتيه على الأرض. تلوى وجهه بألم وهو يحاول النهوض.

«أطلق عليه أحدهم الرصاص من أجل الدولارات القليلة في

جيبه. مات». يقول بصوت متهدج. «لم يجدوا قاتله. لم أستطع حتى المطالبة بديته. في النهاية، قمت بما يمكنني لأدفنه هنا، حيث الخضرة والسلام وحيث يكون قريبًا مني لأزوره».

عقدت ذراعي على صدري وراقبت السحابة الصغيرة التي يشكلها تنفسي.

«ليرحمه الله»، قلت بهدوء.

بدا شاكرًا بشدة لدعوتي هذه، إيماءة الرحمة الصغيرة تلك.

«أتؤمنين بالسماوات السبع؟» سألني ثم قهقه. «أتعرفين أنها كلما ارتفعت، زادت قيمة جواهرها؟ السماء الثانية فيها لؤلؤ فقط، لكن الرابعة فيها ذهب أبيض، وفي الخامسة فضة وفي السادسة... أوه، السادسة تزخر بالذهب والعقيق والياقوت! حتى السماء فيها طبقات. ربما ستسكر أرواح الموتى بلبن الجنة وعسلها لتقوم بثورة على هذا».

يطلق تنهيدة إعياء تنتهي بصفير صدر مُدخن.

«ماذا عساي أقول لأحررك؟» يسألني وهو ينظر إليّ.

«هل قتلتهم؟»

يضغط صدغه بباطن يده اليمنى، كأنه تلقى ضربة مباشرة على الرأس.

«ستدهشين حين تعرفين كم من الأصابع يمكنها الضغط على زناد».

«من حقي أن أعرف».

«والرجل المحتضر لا يجب أن يحتفظ بأسرار»، يقول مستسلمًا. «لكن أأنت مستعدة للعودة إلى تلك الأيام؟ إلى ذلك المكان؟»

«كيف تجرؤ على سؤالي هذا السؤال؟» أصيح فيه ويتجدد غضبي من مواصلته الالتفاف حول سؤالي، حتى ونحن نقف عند قبر ابنه. «لقد نقشت اسم ابنك على شاهد قبره ليقرأ كل من يمر به اليوم أو غدًا أو بعد مئة عام اسمه ويعرف أنه كان حيًّا. لتأتي إليه، وتدعو له، وتضع له الزهور. شر منك أن تنكر عليّ هذا».

يدير لي ظهره.

«حين يُسمّم الدم، فأنتِ في حاجة إلى ترياق وليس إلى أسبرين»، يقول بغموض. تضربه هبّة ريح. يأخذ خطوة ويوازن نفسه.

«وأنا أريد إجابات وليس مجازات».

يطلق نفسًا عميقًا من أنفه، الجلد أسفل عينيه رقيق وبه مسحة بنفسجية. شعيرات ذقنه الفضية تعكس ضوء المصباح.

«كانت الأوامر الصادرة لي أن أبقى في القصر تلك الليلة، بعد حمل جثث الموتى إلى سيارة. أخذ جندي آخر مفاتيحها. كان صغيرًا، بالكاد بدأ يحلق ذقنه. ظننته سيتقيأ في بيادته. لم تصدر له الأوامر بالمكان الذي عليه التوجه إليه حتى غادر أراضي القصر. لم يقولوا شيئًا آخر عن الأمر لبقيتنا».

«كاذب»، أتهمه بخشونة.

«من عرفوا أقسموا على السرية. هددوهم. في تلك الأيام، كان من شأن كلمة واحدة سيئة أن تلقي بالشخص في السجن، أو ما هو أسوأ»، يقول. «أخذت ذاك الشاب جانبًا وأخبرته أن عليه دفن الشهداء بطريقة لائقة. أكدت عليه أن بينهم أناسًا طيبين وأنه

هو وحده من يمكنه منحهم خاتمة حسنة. كان ذلك كل ما أمكنني. حين رأيته بعد ذلك، أخبرني أنه فعل ما في وسعه. قال إنه دفنهم بين عمالقة يطلون على الفردوس. أراد أن يخبرني بالمزيد لكنني أسكتّه. كنت وأسرتي عرضة لخطر شديد بالفعل».

«كاذب»، أكرر. لكن شيئًا ما أخبرني بأنه يقول الحقيقة.

يحدق إلى ظلينا على الأرض بعيدًا عن قبر ابنه.

«كانت أمك امرأة طيبة»، يقول.

«بعد ثلاثين عامًا، ألا يمكنك أن تكون صادقًا؟ أخبرني ماذا فعلت بهم؟ أليس لديك كرامة؟»

«كرامة،» يردد هازئًا. «ماذا ستفعلين بهذه المعلومات؟ أريد أن أعرف. لو أخبرتك بأنني لم أقتلهم، فهل ستلاحقين من قتلهم؟ ولو قلت لك إنهم ماتوا بسلاحي، هل ستقتلعين عينيّ من محجريهما؟»

«تريد أن تراني كوحش منتقم؟ كما تشاء. لكن هذا لن يعفيك»، أجيبه.

«دعيني أسألك، أيتها الشابة الجميلة، بما أن حياتينا تقاطعتا معا كقلادتين حول عنق واحد. أتسمعين كابول تهمس في أذنيك؟ هل تناديكِ أنت أيضًا؟» يسألني، فأتساءل إن كان قد فقد عقله. لكنه يظل، بالنسبة إلي، الجندي الفظ الذي كتم فمي بيده. «إن كانت تناديكِ، فلا تجيبيها. إنه إنذار بالخطر».

أنا أريد إجابات، وليس نصائح. يتجمع السم في حلقي.

«لماذا لا تقولها؟» أسأله.

يحدق إلى الرقعة الفارغة بجوار قبر ابنه، يحدق في راحتي يديه، إما ليملأهما بالدعوات وإما ليلعن خلوهما.

«قد تصدقينني، وقد لا تصدقينني. لكنني لم أكن لأوذي أمك أو أخاك. ولا أي طفل في موقف كهذا. لم أقتل أباكِ أيضًا. لم يكن من المفترض أن يوجد أحد منكم في القصر تلك الليلة. لكن حتى هذا لا يعفيني».

لا يمكنني قول شيء.

«نحن نكافح بيأس من أجل أشياء لا معنى لها؛ الثورة، الشهادة، سبائك الذهب»، يقول. «بينما الشيء الوحيد الذي يستحق الكفاح من أجله هو مشهد من الجنة في هذه الحياة».

تزداد العتمة أسفل صف الأشجار. يسقط الوهج الناعم لمصباح الإنارة على حروف اسم كريم الجامدة، معجزة صغيرة صممها مهندس ضوء.

مكتبة
t.me/soramnqraa

الفصل التاسع والأربعون

«أنتِ ماذا؟» تقول ماما وهي تمسك كوب قهوتها. يتقدم شخصان إلى المنضدة ويطلبان فورا دون أن ينظرا إلى القائمة. أنقل حقيبة يدي إلى المقعد المجاور.

«إن لم أذهب الآن»، أوضّح لها، «فسيعني هذا أنني لا أريد معرفة ما حدث حقًا».

«بالطبع لا»، تعارضني. تقلّب قهوتها، صليل الملعقة في الكوب الخزفي. «ليس عليك إثبات شيء يا آريانا. لكنني أفهمك. أفهم لماذا تريدين الذهاب. أريد فقط أن أتأكد من أنك مستعدة لما قد تكتشفينه هناك».

«لا تقلقي عليّ»، أقول وأنا أشعر أن كلماتي لا وزن لها.

تُغمض عينيها لوهلة، يغمر وجهها مزيج من الحب والغضب.

«كنت أعرف أن هذا اليوم سيأتي»، تقول وهي تنظر إلى عيني. «مع ذلك حسبت أنك ستتحدثين معي قبل حجز التذكرة».

تحاول ألا تشعر بإهانة لكنني أرى هذا واضحًا. لم أقصد إخفاء شيء عنها.

«أنا أحبك يا ماما»، أقول، تنطلق الكلمات على لساني بسلاسة ليست مألوفة. ظللت سنوات أشعر بحبي لها خيانة. بالكاد أمكنني الاعتراف به لنفسي دون أن أشعر بالعار. «لكنني ظللت أنتظر عقودًا. لا يمكنني الانتظار ثانية واحدة أخرى».

تضع يدها على يدي، عيناها مغرورقتان بالدموع.

«حتى وإن لم يثمر البحث عن شيء، أريد أن أعيد الخاتم»، أقول. ازدادت حجارته الكريمة ثقلًا خلال الأعوام الماضية. لم يعد يبدو كتميمة، بل كنير صدئ.

ينفتح باب المقهى مرة أخرى، تنظر ماما إليه وترفع يدها. يومئ كلاي ويقبل نحونا. أعلق حقيبتي على كرسيّ لأفسح له مكانًا للجلوس.

«كلاي»، يقول وهو يصافح ماما. «تسعدني مقابلتك».

«أنتونيا»، تجيبه. «وأنا أيضًا تسعدني مقابلتك».

يجلس على الكرسي ويضع هاتفه على الطاولة.

«شكرًا لك على وقتك»، تقول ماما.

يبتسم.

«أنا صحفي. أقضي وقتي في ملاحقة الناس لإجراء محادثات معهم. ظني أنني لو جعلت الأمر سهلًا على الآخرين، ستكون مقابلتي التالية أسهل أيضًا».

«تؤمن بالكارما»، تعلق ماما.

«أومن بأشياء كثيرة حقيقية»، يجيبها بابتسامة. «دعيني أحضر كوبًا من القهوة. أتريدان أي شيء سيدتي؟»

نهز رأسينا فيتجه نحو المنضدة.

«أأنت مستعدة لهذا؟» تسألني وهي تنظر إليّ، عيناها غائمتان بأسى. أومئ برأسي وأبتسم قليلًا فيما يقترب منا كلاي بعد دقيقة بكوب قهوة يتصاعد منه البخار.

تلاحظ ماما ترددي فتتنحنح.

«كلاي، كما ذكرت لك في رسالتي، كنت أعمل في كابول. ظللت هناك حتى عام 1978».

«ممم. قبل عام من الغزو السوفيتي. لماذا غادرتِ حينها؟» يسأل. أتوتر لمعرفتي أنه سيسأل كثيرًا لأن ذلك من طبعه، ولأن من طبعي تجنّب أمثاله.

«حدثت ثورة الثور وقتذاك. ربما سمعت عنها»، قالت ماما فأومأ كلاي برأسه.

تنطق ماما كلمة ثور ككلمة حامض بالإنجليزية (ساور)، ما يبدو خطأ وصوابًا في الوقت نفسه.

«لم ننهِ بعثتنا وقتها، لكن بعضنا عاد إلى أمريكا. وظل البعض هناك وقتًا أطول».

حوّل كلاي انتباهه إليّ.

«أكنتِ هناك معها؟»

«نعم»، أقول ثم آخذ نفسًا عميقًا قبل أن أواصل. «عشت هناك مع أبوي. فقدت أسرتي في الانقلاب وجئت إلى الولايات المتحدة مع ماما».

يتجهم.

«يؤسفني سماع هذا».

أومئ برأسي وأواصل. لا يمكنني التوقف عند هذا.

«أردتُ حقًا أن أتحدث معكَ عما رأيته في كابول وأنت هناك. لقد قرأت كتابك. لكن المحادثة في المكتبة اتخذت مسارًا جانبيًا قليلًا، كما حدث لأسئلتي».

«إن كنت أتذكر جيدًا، فقد كان جزء كبير من اتخاذنا مسارًا جانبيًا بسببك».

«حسنًا، أنت تعرف ما يقولون. إن ظللت تمسك لسانك سيفلت منك يومًا ما».

«أهذه نصيحة طبية يمكنني نشرها؟»

تأخذ ماما رشفة طويلة من كوبها ببطء. تلمع عيناها على حافة كوبها.

أريح مرفقيّ على الطاولة لأؤكد له جديتي.

«أردت أن أسألك عن المقتنيات والمتاحف. في ظل وجود طالبان، هل شعرت بأن مجموعة المقتنيات في أمان هناك؟»

«كانت في أمان أكثر من أي وقت مضى»، يجيبني، متأكدًا. «أكانت ستضحى في أمان أكثر في متحف في مانهاتن أو في اللوفر؟ ربما. لكنها ليست من هناك. أيمكنني السؤال عن سبب اهتمامك بهذا الأمر؟»

لا أجيبه فورًا، وهذه المرة، لا تتدخل ماما لمساعدتي. يعود كلاي إلى الخلف في جلسته ويجرب مقاربة مختلفة.

«دعيني أخبرك بما أعرف ثم يمكنك إخباري بسبب سؤالك. لقد بدأتُ في كابول عام 2001. ذهبت لألقي نظرة أولية على طالبان. كان لدي صديق كرههم حين فجروا تماثيل بوذا في باميان، مع أنه لم يعن كثيرًا بأفعالهم الأخرى. كان الجميع في أمريكا حينذاك يعرفون جيدًا كيف يعاملون النساء. لم يكونوا جيدين تماما مع الرجال أيضًا، لكن هذه قصة أخرى».

يهز رأسه.

«مع ذلك لم يكن أحد يعرف كيف هي طالبان حقًا. أردت أن أكون من الصحفيين الذين يوثّقون التاريخ. عرفت أنني يمكنني البدء بأفغانستان، فعثرت على دليل وتوجهت إلى الجبهة».

كلاي من هؤلاء الذين يركضون نحو النار، ممن يشعر بانجذاب نحو الأزمات. تومئ ماما برأسها، تفهم منطقه. كانت ستفعل مثله لو كانت هناك. كانت ستقضي أيامها في مواقع تحت الحكم الصوري لحكومات ويسيطر عليها أمراء الحرب في الحقيقة لولا وجودي في حياتها.

«وهكذا، انطلقنا إلى الشمال. أطلقتُ لحية معقولة. تدبرنا التسلل دون أن يلاحظنا أحد حتى وصلنا في النهاية إلى ضفاف نهر أموداريا، بمياهه الباردة السريعة. وقفت على ضفته الرملية أنظر إلى الجبهة الغربية. كان هناك دبابة سوفيتية متهالكة ومقلوبة. ليست بالدليل القوي على وجود نزاع على هذا الجانب. لم يوجد شيء لتصويره».

مرر أصابعه في شعره.

«كنت قد تناولت شيئًا ما تعذر عليّ هضمه ذاك الصباح وكنت أشعر بإعياء. أخبرتُ دليلي أن عليّ كتابة بعض الملاحظات وانطلقت في تمشية قصيرة. سرت بعيدًا بحثًا عن الخصوصية فوجدت عمودًا مزخرفًا ملقى على الأرض في حفرة ضحلة. نظرت عند قدمي فوجدت قطعًا فخارية متناثرة على الأرض. التقطتُ عددًا منها وقلبتها في يدي فعرفت أنني أقف على تاريخ، تاريخ أثري حقيقي».

«أكنت قد سمعت عن آي خانوم قبل ذلك؟»

هز رأسه.

«لا. ولم يتسع لي الوقت للبحث هناك أيضًا. سمعت انفجارات من بعيد وجاء إليّ الدليل ركضًا. أشار إلى سحب سوداء في

السماء وقال إنه اقترب بي بما يكفي. لكنني قرأت عنها حين عدت إلى كابول».

«اكتُشفت أغلب كنوز آي خانوم بالفعل مع ذلك»، أقول. «أسمعتَ شيئًا عن مكانها؟»

يومئ برأسه وهو ينظر إليّ بحرص كأنه يحاول فهم شيء ما.

«سمعت من أشخاص في المتحف الوطني أن بعضها مخبأ في قبو القصر في كابول. ذكرتُ هذا في كتابي أيضًا».

أضغط بقدميّ على الأرض، أحاول التماسك. كان بابا يستعد لنقل كنوز آي خانوم إلى المتحف. يبدو أنها لم تخرج من القصر قط. في الغالب انضم إليها ما تدبر حرس المتحف تهريبه إلى القصر قبل أن تجوب طالبان المدينة لإزالة الأصنام.

آخذ نفسًا عميقًا. زاد عزمي على مواجهة ماضيّ منذ أن تحدثت مع شير.

«لدي خاتم من كنوز آي خانوم. ظل معي لسنوات، لكنني أظن أنه يجب ألا يظل بحوزتي. يجب أن يكون في متحف كابول».

يرشف من قهوته. أنا متأكدة من أنها بردت الآن، يبدو متسامحًا مع المشروبات والأطعمة الباردة.

«لكنني قبل تسليمه يجب أن أتأكد من أنه سيكون في مأمن هناك».

«أيمكنني أن أسأل كيف صار بحوزتك؟» يسأل بهدوء.

أشعر بعيني ماما عليّ. أنظر إلى الخارج من النافذة. يتحول النهار إلى الغسق وتكتسي المدينة بألق.

آي خانوم، مدينة سيدة القمر. كيف شعرتْ حين أزال رجالٌ يتحدثون بلغة غريبة الغبارَ عن جدرانها، حين رأت انعكاس صورتها في الأعين الملتمعة لرجال يتلهفون على المطالبة بها؟

حلمتُ كثيرًا بامرأة تمتد قامتها بطول المدينة. رأيتها تنبعث من التربة البنية، كريّة تستيقظ من نعاسها. تنزلق الرمال عن ركبتيها وجبينها، يسقط نور القمر على أطرافها وتحيط السماء بوجهها، منحنى عمودها الفقري، منحنيات صدرها. تغمر أصابع قدميها في المياه الجارية لنهر آموداريا، حركاتها رقيقة كجنيات الحواديت. كنت دائمًا أسرع للاستيقاظ من هذا الحلم لعلمي أنني لو تلكأت، ستحل عليّ لعنة شهود سقوطها مرة أخرى.

الفصل الخمسون

من هذا الارتفاع الشاهق تبدو الأرض كخريطة طبوغرافية، لتضاريسها ألوان مختلفة. من هذا الارتفاع لا تميز العين بين الطريق والنهر، أو بين العدو والصديق.

منذ أشهر قليلة، انحرفت غارة جوية أمريكية عن مسارها. كان من بين الضحايا ستون طفلًا. لم أر الصور، مع ذلك يظل رأسي يعصف بصور شفاه رفيعة ورمادية وأعين فارقت الحياة. ملائكة ساكنون مكفّنون بقماش أبيض. انتابني صداع نصفي حاد إلى حد منعني من التفكير بشكل سليم، ظلت الرؤى تومض في رأسي كالشظايا. لا يمكنني السماح بحدوث هذا الآن. أفتح حقيبتي وأبتلع حبتين، أجرعهما برشفة من عصير التوت البري.

«فيمَ تفكرين؟» يسألني كلاي. يجلس في المقعد الأوسط بينما تجلس ماما على المقعد ناحية الممر. نامت، كعادتها دائمًا، بعد دقائق من الانطلاق. عرفتُ أنني سأعود يومًا ما إلى أفغانستان لكنني لم أتخيل قط كيف ستكون الرحلة.

من أين أبدأ؟

«لا شيء، حقًا. لم أرَ هذا المنظر منذ وقت طويل حقًا»، أجيبه.

حين التقينا في المقهى. كنت أنوي التحدث معه عن خاتم آي خانوم فحسب. لم يكن من داعٍ لإخباره بكيفية حيازتي الخاتم. لم أكن أنوي إخباره، لكنني حين جلست قبالته، تغير شيء ما بداخلي. تعبت من الاحتفاظ بكل شيء سرًا. سألته إن كان، بصفته صحافيًا، ملتزمًا الحفاظ على السرية.

حسنًا، بصفتي صحافيًا، أنا ملتزم حماية مصادري، لكنني لا أحسب أنني هنا بصفة صحافي. سأخبرك بشيء. أنا لا أعرف إلى أين ستسير هذه المحادثة لكنني أعد، بصفتي إنسانًا، أن أبقي شفتي مغلقتين. أنا بارع في هذا.

كنت آمل في شيء يشبه القسم، لكنني اطمأننت حين وضع يده على قلبه، إيماءة أعرف أنه التقطها من إقامته في أفغانستان.

أخبرته بكل شيء على مسمع من ماما. دون لف أو دوران. كل تفاصيل قصة واحدة متشابكة.

لم يعبر وجهه أدنى قدر من الدهشة. استمع بانتباه ودون أي ردة فعل. لم يحكم ولم يستنكر. بدأتُ بالانقلاب وأسرعت في سرد الدقائق التي تركتني يتيمة. التزمت الحقائق المجردة فحسب، حكيت عن هروبي من القصر ومن وطني بسهولة شديدة إلى حد أن تعجبت لماذا ظللت أخفي كل هذا عن آدم وقتًا طويلًا.

لم أتوقع منه أن يرغب في مرافقتنا في هذه الرحلة، لكن ها نحن أولاء. لو كنت أعرف ونحن في المقهى أنه سينطلق معنا في هذه الرحلة التي تستغرق عشر ساعات، ربما لم أكن لأخبره بذلك القدر. الآن أتساءل إن كنت أبدو له كإضافة في خسائر الحرب، إن كان يتخيل جراحي، أو إن كان سيطرح أسئلة تدفعني إلى الأفكار السوداء. لست معتادة هذا النوع من القلق. إنه كشيء ما بين الضيق والألم، كحذاء ضيق.

«آريانا»، يقول وهو يخرج من حقيبته كتابًا ويضعه على اللوح أمامه. «ماذا سيحدث لو لم تمنحك تلك الرحلة الإجابات التي تبحثين عنها؟»

أنظر إليه أحاول استبيان قصده.

«أنـا أتحـدث فقـط»، يقـول وهـو يرفـع يديـه دفاعًـا عـن نفسـه. «هـذا ليـس لقـاء صحفيًـا».

إنـه هنـا مـن أجل سـبق صحفـي، وليـس مـن أجـل قصتـي. حيـن حدّثتـه ماما عـن الجهـود المبذولـة للبحث عـن جثث قتلى الانقـلاب، أطلق نفسًـا طويـلًا وثقيـلًا. اتصل بـي فـي اليوم التالـي وسأل إن كان بإمكانـه مرافقتنـا. جعلتـه يعدنـي ألا يكتـب أي شـيء عنـي فوافـق. لـم يحـظ الانقـلاب الـذي غيّـر مسـار حياتـي، سـوى لمحـة صغيـرة فـي الصحـف أو فـي كتـب التاريـخ، لذلـك أشـعر بشـكرٍ نحـوه لأنـه يريـد أن يكتـب عمّـا حـدث فـي أبريـل 1978.

«لست مستعدة للتفكير في هذا الاحتمال»، أعترف له.

«قـد يسـتمر البحـث شـهورًا أو سـنوات. أنـت لا تنويـن قضـاء هـذا الوقـت فـي كابـول، صحيـح؟»

أهز رأسـي.

«لا يمكنني هذا، عليّ العودة إلى عملي».

«أتحبين عملك؟»

«لا أتخيلني أمارس عملًا آخر «، أجيبه. «إنه هويتي».

«النـاس يتحدثـون عـن السـرطان كحـرب أيضًـا. حـرب مـن نـوع مختلـف».

«لـم أحـب هـذا التشـبيه قـط. لا أحبـذ تحويـل الأشـخاص إلـى جنـود. أنـت رأيـت الحـرب. تعـرف أنهـا قميئـة»، أقـول. أحـرك قدمـيّ لأحافـظ على حركـة الـدورة الدمويـة فـي سـمانتي. حيـن تسـتيقظ مامـا، سـأذكرها بفعـل المثـل لئـلا تصـاب بجلطـة دمويـة. «لـو لـم تستسـلم فعليـك عـدّ الجثـث».

«عليك دائمًا عد الجثث»، يوافقني. يحرك قدميه هو الآخر، يقلدني. «ماذا في رأيك سيكون شعورك لدى عودتك إلى هناك؟»

ظللت أسأل نفسي هذا السؤال. لا أعرف كيف سأشعر حين تطأ قدماي الأرض. لست متأكدة ممّا سأشعر به نحو وطني الأم الآن ولست متأكدة البتة من شعورها هي نحوي.

يقلقني أن يجد وطني طريقة لرفضي، أو أن أنهار حين أرى القصر، أو حين أعثر على قبور أبوي وأخي.

يبدو أنه يشعر بعجزي عن الإجابة فلم يدع الصمت يطول.

«لقد كبرت في كنساس، وليس كنساس المدينة حتى، بل قرية صغيرة ناعسة وملأى بالناس الطيبين خلال النهار وأصوات الجداجد فقط في الليل. فكروا ذات مرة في إغلاق السجن المحلي، لكن كان هذا سيحرم ثلث تعداد القرية تقريبًا من عملهم. كنت أتوق إلى الرحيل منها حين كنت طفلًا لذلك تقدمت إلى الجامعات البعيدة عنها فحسب».

«وأين انتهى بك الأمر؟»

«جامعة أهلية. تبين أنني لم يكن لدي المال لأكثر من هذا حينذاك، كان أبي يعرف هذا لذلك أرسل هو أوراقي إليها. كنت في الغالب أشد الطلبة سخطًا في تلك الجامعة خلال الفصل الدراسي الأول. قررت دراسة الصحافة على الفور دون أن أنظر إلى الخلف إطلاقًا».

«ماذا كان رأي والديك في قرارك هذا؟» دائمًا ما أتحرى الدقة في أزمنة الأفعال، لا أحب مضايقة أحد بافتراض وجود والديهم على قيد الحياة.

«كانا سعيدين لتوقفي عن الشكوى من أنني عالق في بلدتنا. الأمر أنني لم أكن غاضبًا بذلك القدر منها. لكنها فقط لم تمدني بطريقة لرؤية كيف سأندمج في العالم».

«ومن بين كل فروع الصحافة اخترت أن تكون مراسل حرب».

«ألم أقل لكِ أنني من بلدة صغيرة ناعسة؟» يسألني بصوت خفيض.

«وكيف تشعر حين تعود إلى بلدتك الصغيرة الناعسة؟»

تختفي ابتسامته، يمرر إصبعه على حافة اللوح القابل للطي أمامه.

«حين عدت إلى هناك أول مرة»، يقول دون أن ينظر إليّ. «شعرت بأنني أسير في مشهد من فيلم. بدا كل شيء مرتّبًا تمامًا. في محل البقالة ثلاثون نوعًا مختلفًا من صناديق حبوب الإفطار مرصوصة على الأرفف بعناية شديدة. باص المدرسة الأصفر الكبير يتوقف أمام بيتنا في السابعة وعشرين دقيقة صباحًا لخمسة أيام في الأسبوع. يقف الناس عند الإشارات الحمراء ويدعون الأمهات اللاتي يدفعن بعربيات أطفالهن يعبرن أولًا. بالطبع تحدث أشياء غير متوقعة هنا وهناك لكنها من قبيل الأشياء المتوقعة. موت أحدهم بالالتهاب الرئوي، ارتفاع لافتة حجز الرهن أعلى أحد المنازل. والناس... يخرجون جميعًا ليلة السبت ويتحدثون عن الطقس ويمشّون كلابهم».

أراقب يديه وهو يتحدث، سعيدة لجلوسنا جنبًا إلى جنب وليس وجهًا لوجه.

«رأيت الكثير جدًا وأنا هناك»، واصل كلامه. «شعرت بأن البيت من البلاستيك، كدمية خرجت لتوها من علبتها».

«لست الوحيد الذي ينجذب إلى ما يؤرقك ليلًا». أقول.

يقرض شفته السفلى.

«لكن الأمر يجب ألا يظل هكذا. لا بد من وجود زر لإعادة الضبط». يقول.

«إن وجدته، فهل ستضغطه؟» أسأله.

ألتقط وأنا جالسة بجواره رائحة خفيفة؛ مزيج دافئ من خشب الساج وجوزة الطيب والتفاح. أشعر بخجل ملحوظ فأتململ في جلستي لأضيف إلى المسافة بيننا. الرائحة رقيقة مع ذلك، ولا تؤلم رأسي كما يحدث عادة مع عطر آدم. يظل مشغولًا ببحثه عن إجابة سؤالي فلا يلحظ تململي.

«لا أعرف، لكنني متأكد من أن أمي لو وجدته ستكون أول من يضغطه. ظنت أنني سأعمل في صحيفة كنساس المحلية».

تدير ماما رأسها جانبًا دون أن تفتح عينيها وتغمغم. «يشكو البشر دائمًا من أمهات يضغطن أزرارهم».

أكتم ضحكة.

يبدو كلاي منبهرًا بمشاركتها في الحوار وهي نصف نائمة.

خلال مدة إقامتي الطبية في قسم الجراحة، ساعدتُ حالة صعبة. رجل في التاسعة والثمانين من عمره ظل يعاني تعقيدًا تلو الآخر في علاجه من سرطان القولون. كان تدهور حالته البدنية يُسرع من خرفه، ما ترك لأبنائه مسؤولية اتخاذ القرارات نيابة عنه. حين جاء إلى المستشفى يعاني ألمًا شديدًا على إثر انسداد آخر في القولون، أصر أبناؤه على فعل أي شيء لإنقاذه.

لكن السرطان كان قد سلب دمه المكونات الأساسية اللازمة للتخثر. كان ينزف بلا توقف. طال الدم الأحمر الفاقع كمامتي، ونظارتي ومئزري الطبي. ظللت أعالج النزيف بالكي والسقي مرارًا حتى صار تحت السيطرة في النهاية.

بعد ذلك تركت قسم النقاهة وسرت في أحد ممرات المستشفى لرؤية مريض آخر في وحدة العناية المركزة. لاحظت وأنا أسير بخطوات ثقيلة نظرات البعض إليّ شزرًا. رفعتْ امرأة يدها إلى فمها مذهولة.

نظرتُ إلى أسفل ولعنت نفسي في سري.

كان المئزر المعقم كله ملطخا بالدم. تناثرت بقع قرمزية على قميص بذلة العمليات. أخرجت من جيبي أوراقًا، فردتها، وغطيت بها البقع ما أمكنني.

ربما ظنت المرأة أنني آذيت المريض أكثر مما ساعدته. لا ألومها لإشاحتها ببصرها بعيدًا. انتزاع جسد أو بلد من قبضة الموت أمر يتطلب دماء.

الفصل الحادي والخمسون

حتى ولو لم تكن السماء غائمة، كانت معدتي ستضطرب. ألصق وجهي بزجاج النافذة وأنظر إلى الخطوط المسننة للجبال.

«لا مدينة في العالم لها طلة بهذا البهاء»، تهمس ماما.

أسمع الفخر في نبرتها وأتذكر أن كابول كانت أكثر من مجرد منصب بالنسبة إليها.

استغرقت هذه الرحلة، من دبي إلى كابول، أقل من ثلاث ساعات. بين الركاب عدد قليل من الأجانب. منهم من ينظر إلى حاسوبه، وآخرون ينامون بأذرعهم معقودة ورؤوسهم مائلة. البقية من أبناء بلدي، يرتدون قمصانًا وسراويل واسعة، أو بناطيل جينز وقمصانًا ضيقة. رجال بملامح جهمة كالجبال، وبشرة بلون تراب البلد، كأنهم قطعٌ من أرضها مشكّلة في هيئة ناس.

تجمدت في مقعدي وتجنبت التواصل بالعين مع أحد طوال الرحلة.

الهواء ساكن في الطائرة وأطرافي متخشبة. لم أتناول سوى قليل من الطعام المقدم إليّ. شهيتي هزيلة كالهواء على هذا الارتفاع. أمد يدي وألمس يد ماما.

«أنا سعيدة حقًا لأنك هنا معي».

«أنا أيضًا»، تقول بصوت مبحوح قليلًا. تتنحنح وتتنهد ببطء.

حين يعلن الطيار أننا سنهبط خلال عشرين دقيقة، أعتصر ذراع المقعد بيدي. يغرق ذهني بفيض وجهي والديّ وصدى ضحكات أخي، بشعوري وأنا جالسة على العشب الأخضر مع

نيلاب ورستم. بينما تهبط الطائرة، أغوص لأعمق في بحر الذكريات، تطفو على السطح كالفقاقيع صور ظننتها انمحت. حين تلمس الطائرة الأرض وتتدحرج على المدرج الأسفلتي الضيق، بالكاد يمكنني بلع ريقي.

أركز على عضلات حلقي، أحاول التعامل مع هذا الشعور.

قضيتُ في عامي الأول لدراسة الطب وقتًا طويلًا في المشرحة، قاعتان كبيرتان في قبو الكلية. لم يكن بابها الحديدي الثقيل يمنع رائحة الفورمالين. شرحنا ذات يوم الرأس والرقبة حين تلكأت لأسأل أستاذة التشريح سؤالًا لم أرغب في طرحه أمام زملائي. وقفنا أعلى جثة المجموعة، امرأة مسنة بفخذ مبتورة وطلاء أظافر بنفسجي متشقق. دسست يدها أسفل الغطاء لئلا أراها في أثناء التشريح.

حين يحزن الناس، يشعرون بغصة في حلقهم، قلت. *ماذا يعني هذا في التشريح؟ ماذا يحدث حينها؟*

كانت أستاذة التشريح امرأة مسنة تبدو في أواخر عقدها السابع. شعرها أبيض وقصير جدًا، وأقصر مني بنحو قدم. وقفت أعلى الجثة بمئزر من المطاط ويداها في القفازين مشبوكتان خلف ظهرها. حين يُكتشف شيء ما جدير بالملاحظة في أي جثة، كانت تجلس على كرسي عالٍ بعجلات وبلا ذراعين وتصفر من بين أسنانها للفت انتباهنا. كانت مرحة على نحو مدهش بالنسبة إلى شخص يقضي معظم وقته في غرفة بعيدة عن ضوء النهار مع جثث مفككة لأشخاص في مثل سنها.

«أوه، فسيولوجيا اللقمة الهستيرية»، قالت. التقطت مشرطًا

ومسبارًا من مجموعة أدوات على طاولة قريبة. وبلمسة رقيقة وخبيرة في آن، سحبت أنسجة العنق إلى الخلف.

«منذ وقت ليس بالطويل، كان أي شيء من الحمى إلى الاكتئاب يُحال إلى ما يسمى بالرحم المتجول»، أوضحت. «*كان الجراحون يلجؤون إلى استئصال الرحم لنزع العضو الضار. لكن الغصة في الحلق يسببها الجهاز العصبي اللا إرادي كاستجابة لطرد الضغط. يتمدد الحلق لنيل مزيد من الهواء فيما تضغط عليه عضلات البلع. كأن الجسد يسعل لطرد نفسه*».

كدت أعانقها. ما إن حددت العضلات، صار بوسعي تخيلها ومحاولة السيطرة عليها. لم يكن الأمر سهلًا، لكنني تعلمت كيف أحفظ تنفسي إلى أن يزول الشعور، حين تبتعد الأصابع الصغيرة عن مجرى تنفسي.

ينهض الركاب ويسحبون حقائبهم وستراتهم من أعلاهم. أسمع مقاطع محادثات بالدارية والبشتوية، تملأ أذنيّ بأسرع مما يمكنني فهمها. أنا وماما نرتدي طرحتينا، نضع طرفيهما على كتفينا ونجذب النسيج أعلى جبهتينا. تتحرك كتلة الأجساد نحو الباب، تهبط السلم وإلى الأسفلت. يستقبلنا نهار ساطع ومنعش.

نأخذ متاعنا من فوق الحزام المتحرك، ونمر بنقطة الجوازات. يشير كلاي إلى تاكسي أصفر، ولوهلة نبدو كأننا عدنا إلى نيويورك. نطلب من السائق توصيلنا إلى فندق الإنتركونتتتال. لا يدهش السائق من ركابه الناطقين بالإنجليزية.

«الإنتركونتتتال، نعم، سيدي، سيدتيّ. فندق لطيف جدًا»، يقول، باستحسان.

نجلس أنا وماما في المقعدين الخلفيين. يجلس كلاي بجوار السائق. يضع حقيبته بين رجليه وينظر إلينا من أعلى كتفه ليسألنا إن كان لدينا مسار مفضل.

«أتريدان المرور بشارع وزير أكبر خان؟»

ينظر إلينا السائق من مرآة الخلف، التي تتدلى منها مسبحة بكريّات كهرمانية وشرّابة عنابية. ثم ينظر إلى كلاي ويبتسم.

«جئتم إلى كابول مرات عدة؟» يسأل.

«مرات كثيرة يا صديقي»، يجيبه كلاي.

نتجه غربًا، في الطريق الطويل من المطار إلى قلب المدينة. تتحرك عيناي الساهدتان ببطء على المنظر، كأنني تحت الماء. يافطات إعلانات. مركز تسوق بإعلانات عن تخفيضات على واجهاته. حمار ينهق. رنين جرس دراجة. السيارات مكتظة معًا واحدة تلمس الأخرى.

«أنت رجل أعمال؟» يسأل السائق كلاي. أشكر الله لوجود كلاي ليمتص فضول السائق، ليشغله حتى أستجمع شتاتي. يخبره كلاي بأنه صحافي بطريقة توحي بأننا كلنا كذلك.

«انظري إلى هذا فقط»، تقول ماما بهدوء. كابول غابة التناقضات. مقهى إنترنت لصيق بالمسجد. رجال يحملون هواتفهم المحمولة ويشترون خضراوات من عربة كارو.

يلوح لنا مبنى الفندق الدولي، بطاقة بريدية متجسدة. بخمسة طوابق فقط لكنه عريض، مشيد على قمة ربوة عالية ويطل على مناظر خلابة للمدينة. كنت قد دخلته من قبل بحذاء ماري جين لامع لحضور حفل زفاف عائلي وسرتُ حول حمام السباحة

في الخلف، بيدي الصغيرة مكنونة بأمان في يد أبي، وشاهدت الرجال يسبحون والنساء يرتدين نظارات شمسية بإطارات مستديرة ويستجممن في الشمس.

نمر بعدد من نقاط التفتيش الأمنية، تفتيش باليد وجهاز الكشف عن المعادن، إلى مدخل الفندق، قاعة فسيحة من الرخام بأعمدة عالية وعريضة على قواعد مذهّبة. تنير الردهة الطويلة المكسوة بالرخام ثريات مزخرفة، طابق ملكيّ مصمم بلوحات وتحف فنية تحدّ مناطق الجلوس بأرائكها ومقاعدها المنتفخة.

يحيينا رجال ونساء بسترات سوداء وابتسامات إعلانات من خلف مكتب الاستقبال. تتراقص ومضات الضوء على أطراف رؤيتي، أحس بنوبة صداع قادمة، هواء الطائرة الراكد، نقص النوم، معدة خاوية، وغير ذلك الكثير.

نسلم جوازات سفرنا لموظفة استقبال بحاجبين كثين مرسومين بدقة. تصغرني بنحو عقد، ومع ذلك أبحث في وجهها عن أي شبه بي، قد تكون ابنة عم؟ أخت شخص ما عرفته؟ حين تلاحظ تحديقي إليها أحول انتباهي إلى هاتفي.

«أرجو أن تستمتعوا بغرفكم. إنها في الطابق الثاني وتطل على حمام السباحة، كما طلبت مس... آريانا»، تقول وهو تعيد إليّ جواز سفري.

كانت أفغانستان تُدعى آريانا ذات مرة. أتساءل إن كانت قد رأت ما خلف وثائقي وملابسي وعرفت أنني ابنة هذه الأرض أنا الأخرى.

تشير لنا نحو المصاعد وتخبرنا بأن الحمّال سيصعد بأمتعتنا خلال وقت قصير. غرفة كلاي على الطرف الآخر في الرواق نفسه. ثلاثتنا بحاجة إلى الراحة فنتفق على اللقاء في البهو خلال ساعتين لتناول العشاء، ونضبط ساعاتنا على التوقيت المحلي. غرفتنا بسيطة لكنها مصممة بفن. تتناسب رسومات السجادة الزرقاء مع لوحة على الجدار لقصر الحمراء في إسبانيا. لمخمل أغطية الفراشين وتنجيد لوحيهما العلويين درجة الأزرق الملكي نفسها. الحمام بأدوات من الحديد الصلب ومكسو بالرخام الأبيض الناصع من الأرض حتى السقف. زجاجتا مياه على التسريحة الخشبية.

أنظر من النافذة فيما تشكر ماما الحمال على وضعه حقائبنا داخل الغرف. حين تغلق الباب تنضم إليّ كي تلقي نظرة.

«سبحت في حمام السباحة هذا مرات عدة. وتناولت العشاء كثيرًا في المطعم في الأسفل. من الغريب رؤية كل هذا الآن، من الجانب الآخر من الحرب»، تقول.

«هذا الفندق تجربة خمس نجوم بالقياس إلى أماكن أخرى أقمنا فيها، أليس كذلك؟» أضيف.

«بالتأكيد. أتذكرين القطة الضالة التي تسللت من النافذة في تركيا؟» تضحك وهي تلقي بنفسها على الفراش. وتضع وسادة أسفل قدميها المتورمتين.

في أسفارنا، لا نحبذ أنا وماما الرفاهية أبدًا. نرتاح لوجود زحام البشر والمرور خارج نوافذنا، بغرف صغيرة تبقينا على اطلاع على العالم الخارجي.

لكننا اخترنا هذا الفندق لدواعٍ أمنية. تمت الإطاحة بطالبان لكنها لم يُقض عليها. ما زالت تعيث في البلد فسادًا بالسيارات المفخخة، والسترات الانتحارية والقنابل اليدوية في الفنادق والسفارات ومكاتب المنظمات غير الحكومية.

«كنت أتمنى أن نقيم في شقة سوق الدجاج»، تقول بأسى. تغمض عينيها رغمًا عنها تقريبًا وتغفو قليلًا. لا أوقظها. ستتألم لو رأت طقوسي، لو شاهدتني أدرس خريطة الفندق المعلقة على باب الغرفة جيدًا، أختبر النوافذ لأتأكد من أنها تنفتح، أقيم المسافة بين الفراشين لأحدد كم شخصًا يمكنه الوقوف فيها. أتأكد من تذكري المسار إلى السطح، وسلم الهروب، ومن أن القفز من هذا الطابق سيتيح لنا الهروب بعظام مكسورة فحسب.

الفصل الثاني والخمسون

أتصفح بريدي الإلكتروني، لدي نحو نصف دستة من صور الأشعة وتقارير المعمل. أرد على الرسائل من أطباء الأورام وأطباء الرعاية الأولية وأجيب قائمة أسئلة من مساعدتي. أتصفح الصندوق الوارد مرة أخيرة فأجد رسالة جديدة من آدم.

آريانا، اتصلي بي من فضلك. ظللت أفكر فيكِ.

أرفع بصري عن حاسوبي. تقف ماما أمامي بمنشفة ملفوفة حول جسدها، خداها لا يزالان ورديين من تمارين اليوجا. شعرها مبلل ولوهلة أرى تيلي. أغلق حاسوبي دون أن أرد على آدم.

ظللت أفكر فيه أنا أيضًا، أتخيل ماذا سيقول إن عرف أنني في كابول الآن.

«هل يوجد ضرب نار؟» تسأل ماما.

«كل شيء تحت السيطرة»، أقول. تعرف مدى صعوبة ابتعادي عن عملي إذ كانت تعمل بالطريقة نفسها.

وجدنا كلاي في مقهى الفندق يقرأ صحيفة محلية تصدر بالإنجليزية. اليوم السبت، لذلك فالسفارة والمكاتب الحكومية لن تفتح حتى الغد. اتصل كلاي بالفعل بأحد معارفه القدامى، مترجم يُدعى وليد، ورتب معه اصطحابنا في جولة بالسيارة في كابول.

«صباح الخير سيداتي»، يقول وهو يضع كوب قهوته على المائدة، بجوار سلة خبز ومربى وطبق جبن.

نُعدّ ونحن نتناول الإفطار قائمة بالأماكن التي نود زيارتها، علامات على خريطة كابول خاصتي. يسجل كلاي الملاحظات، عيناه الرماديتان تفكر وتقرر. نتجه إلى البهو، حيث يُحيينا الحاجب ويرافقنا إلى الخارج لمقابلة مرافقنا. الخروج من الفندق سهل. لا أشعة سينية ولا تفتيش باليد لمن يتجهون نحو المدينة.

وصل وليد قبل موعده، دليل على عمله مع أجانب في العادة. شخص مهذب، وفصيح. وجد تخصصه في كابول المكتظة بالأجانب من المقاولين، وعاملي الدعم، والصحفيين، والمسؤولين العسكريين.

قد يكون في أي سن ما بين الخامسة والعشرين والأربعين. يصعب تخمين السن في بلد تدق فيها القلوب والساعات بإيقاع أسرع، حيث يُقضى العمر تحت الطوارئ. يرتدي بنطال جينز وقميصًا ضيقًا. يميل إلى الأمام وهو يصافحنا. هاتفه المحمول مشحون تمامًا وإنجليزيته متماسكة جيدًا إلى حد يمكّنه من إلقاء نكات أيضًا.

«صباح الخير يا أصدقاء. مسز شبرد والدكتورة شبرد. يقول مستر بورتر إن هذه ليست أول زيارة لكما لذلك لن أقول مرحبًا بكما في كابول. بل مرحبًا *بعودتكما* إلى كابول».

«تسعدنا مقابلتك»، تقول ماما برقة، أراها كما كانت في شبابها، تتقدم نحو أراض مجهولة مسلحة بالدبلوماسية والجدية في تعاملاتها مع البشر، وإيمان راسخ بوجود الخير في الآخرين. لولا وجودي في حياتها ربما ظلت في أفغانستان حتى تغلق السفارة أبوابها وتعيد جميع موظفيها إلى الوطن.

تتلكأ عينا وليد على ملامحي الشرقية وملابسي الغربية. ينظر إلى ثلاثتنا ويمكنني تخمين افتراضاته عن العلاقات بيننا.

«سيدي»، يقول ملتفتًا إلى كلاي. «إلى أين تريد أن تأخذ السيدتين اليوم؟»

أتقدم خطوة إلى الأمام غريزيًا، كأنني أخرج من خلف ستارة كي أتخذ موقفي على خشبة المسرح.

«وليد جان، لقد ولدتُ في كابول لكنني رحلت قبل الغزو الروسي. دعنا نبدأ بجولة حول الجامعة إنها الأقرب من أي شيء». أُبة نَه ينْه قبتكه

يطرف بعينيه ليكتم دهشته.

«نعم، دكتورة»، يقول وهو يرتدّ على عقبيه ويمد ذراعه ليدعونا إلى تتبعه. يتوقف لحظة قبل أن يواصل. «دكتورة، أنتِ تذكرينني بأخت عزيزة. إنها طبيبة أيضًا في مستشفى الولادة المزدحمة. سيسعدها كثيرًا مقابلتك».

ينزع الفخر في عينيه سلاحي عني.

سيارته التويوتا في حالة لائقة. توجد بعض الرقع البالية في هيكلها، لكنها تبدو موثوقًا بها بما يكفي. يرفع يده لحارس الأمن المسلح وهو يقود السيارة مبتعدًا عن الفندق.

«سأريكم أكبر قدر ما أمكنني»، يقول. «كابول مدينة ذات جدران عالية وأعلام أعلى».

نقترب من الجامعة. قاعات ومدرجات المحاضرات متوارية عن الأنظار تقريبًا، كذلك أغلب المباني والمكاتب. نشق طريقنا في الشوارع المزدحمة بالسيارات والتكاسي والباصات والدراجات

التي تحمل شخصين وأكثر. إعلانات كوكاكولا على أعمدة الإنارة.

الشمس اليوم أرق من الأمس. يشير إلى مبنى البرلمان، وفي الجانب الآخر من الشارع، قصر دار الأمان المهجور، كان مقر وزارة الدفاع حين كنت طفلة. وكما أعلن متحف في نيويورك سيتي، يوجِد الآن ثقوب في جدران القصر وأكوام من الأنقاض في قاعاته المتهالكة.

«وليد جان»، أقول، ونحن نقف عند أطرافه. «هذا هو المنظر الذي يطل عليه أعضاء البرلمان».

«نعم يا أختاه»، يجيب بالدراية. «لكنهم، سواء يرونه أم لا، يعرفون جيدًا ما حدث هنا. لا يمكنك إخفاء الشمس خلف إصبعين».

ماما وكلاي يراقباني بحرص وأنا أركب السيارة وأترجل منها. كما لو كنت من زجاج ويخشيان تهشمي. يتبادلان نظرات اهتمام صامتة أتظاهر أنني لا ألاحظها.

«أريد أن أرى بيتي»، أقول. يومئ وليد. أصف له الموقع بعلامات مميزة، كما يفعل هو وجميع من في كابول لوصف العناوين. يجوب المدينة بمهارة وسرعان ما نصل إلى حيث أوقف الجنرال سيارته لنستقل أنا وماما تاكسي منذ سنوات طويلة.

في الشارع ولدان، يحمل أطولهما كرة قدم بالية. تفيض بالوعات الصرف في جانب الشارع بالنفايات. يسير وليد بحذاء كلاي خلفي بخطوتين.

كلما أوغلنا في السير شعرت بتشوش. أُزيلت بيوت، أخرى مثقوبة أو تبدو كأن الأرض انشقت من تحتها. وبعضها مشيد حديثًا. نمر ببيت تلو الآخر. لا أتذكر شيئًا.

«كان هنـا. أشـعر أنـه كان هنـا»، أقـول وأنـا أتخيـل السـطح الـذي قفـز مـن فوقـه أبـي والشـرفة التـي كانـت تـزرع فيهـا أمـي أعشـابًا فـي أصـص صغيـرة. أنظـر بإمعـان إلـى كل بيـت. كلهـا خطـأ، لا شـيء منهـا يلتقـي ذاكرتـي.

تضع ماما يديها في خاصرتها.

«يا إلهي، انظروا إلى هذا»، تهمس.

«عانت هذه المنطقة كثيرًا خلال الحرب الأهلية»، يوضح وليد.

أدوس علـى طـوب طينـي يتفتـت تحـت حذائـي. يغـص حلقـي ولا يمكـن لأكبـر قـدر مـن تماريـن التنفـس تحريـره مـن الضغـط.

أرى درابزينًـا حجريًـا مزخرفًـا، والدرجـة الأولـى مـن سـلم كان يؤدي ذات مـرة إلـى الطابـق الثانـي. يذكرنـي التـواوه بخصـلات شـعر أمـي الناعمـة، بطريقـة دوران معصمهـا وهـي ترقـص فأعـرف فـي لمـح البصـر أيـن أنـا. أمسـح بعينـي الدمـار، أطـلال بيـت طفولتـي.

تحيطنـي مامـا بذراعهـا. يعـود كلاي ووليـد خطـوة إلـى الخلـف احترامًـا، أدركا حالـة الحـزن مـن كتفـيّ المتهدليـن ورأسـي المطـرق.

أقرص أنفي بالمنديل الذي ناولته لي ماما ثم أتنحنح.

يتقدم وليد خطوتين إلى الأمام.

«متى رحلت أسرتك؟» يسألني

«قبـل الغـزو الروسـي»، أجيبـه وأنـا ألتقـطُ صـورًا عـدة ليكـون لـدي شـيء مـا للعـودة إليـه فـي مـا بعـد. «لا أعـرف إن كان أحـد قـد عـاش هنـا بعـد رحيلنـا أم لا».

أتذكـر الجنـرال الـذي رأينـاه يخطـو خارجًـا مـن بيتـي منـذ سـنوات، كان يتحـرك بطبيعيـة كأنـه فـي بيـت أخيـه.

أميل إلى الأرض وأغترف بيدي الاثنتين حفنتي تراب، يتساقط الفتات من بين أصابعي. كسرة زجاج. شوكة خشبية، من إطار نافذة ربما.

تمر بي امرأتان ترتديان الشادوري. يرمقانني من خلف شبكتي أعينهما.

روديّبتي، أميرة كابول. تتردد كلمات أبي في ذهني.

هذه ليست كابول التي تعرفينها، قال لي شير منذ سنوات طويلة مضت.

أنهض، أنفض يديّ وأذكر نفسي بأنني حتى لو كنت قد وجدت البيت في حالة سليمة، لم تمسه القذائف الصاروخية التي عانتها المنطقة، لم يكن ذلك ليجلب لي أي راحة أيضًا.

أدعو سريعًا في سري.

ألا تكون الصواريخ التي هدمت البيت قد نالت من حياة الأبرياء.

أن يبنى على هذه الأرض بيت يستمتع فيه أطفال بالاستيقاظ على صوت والديهم.

وألا تلاحقني الأنقاض التي اغترفتها بيدي.

«آريانا، هل أنتِ بخير؟» تسألني ماما بهدوء فأومئ لها برأسي.

أدير ظهري للحطام وأتجه نحو سيارة وليد. أشعر بوزني أثقل وأتساءل ماذا سيحدث لي في هذه الرحلة. لكن أبي لم يشح ببصره بعيدًا قط، لم يخرج من الاجتماعات محبطًا قط.

«أريد أن أرى كل شيء»، أخبر وليد ونحن نعود إلى السيارة. تنسدل طرحتي للخلف مجددًا فأشدها على جبيني. «أريد أن أعرف كل ما عاناه الناس».

يتبادل ماما وكلاي نظرة.

«آريانا»، يقول كلاي بهدوء، «لدينا متسع من الوقت، يمكننا رؤية كل شيء خلال الأيام القليلة المقبلة».

«كلاي محق يا حبيبتي»، تقول ماما.

«سنكون مشغولين خلال الأيام القليلة المقبلة»، أجيبهما. «سأتفهم إن لم تفضلا هذا، لكنني بحاجة إلى رؤية ما فاتني بالتحديد».

تهم ماما بقول شيء ما، لكنها تعدل. تنظر من نافذتها، تعض شفتها السفلى.

«ظني أن لدينا الكثير لنفعله. سوف نذهب إلى عمر»، يقول وليد.

يطلق كلاي زفيرًا طويلًا وبطيئًا. نعود إلى الطريق، بعيدًا عن بيتي المتهدم.

«من عمر؟» أسأل.

«عمر ليس شخصًا يا أختاه»، يجيبني وليد وهو يدير عجلة القيادة إلى اليسار بحدة ليتجنب حفرة في الطريق.

بقية اليوم مشحون.

تنتشر المباني التي هدمتها الصواريخ على مسافات في المدينة، المسجد الذي اعتاد أبي أداء صلاة الجمعة فيه، ودار السينما في المراحل الأولى لإعادة البناء.

تلتف حشود أطفال يبيعون زجاجات المياه الغازية والعلكة حول سيارتنا في الإشارات. يلحون، يبتسمون بشفاه متشققة. حين يرون كاميراتنا، يريدون التقاط صور لهم.

«هوليوود»، يصيح أحدهم وهو يضع يده في خاصرته.

«تيتانيك!» يصيح آخر وهو يمد ذراعيه الاثنتين إلى الأمام كأنه على مقدمة سفينة يعانق امتداد البحر.

أضحك.

أبكي.

أنا ممتنة لأنني لست وحدي.

يأخذنا وليد إلى مبنى عند تخوم المدينة. حين تلوح اللافتة، أعرف أن عمر هو اختصار للمنظمة الأفغانية لإزالة الألغام وإعادة التأهيل. نترجل من السيارة ونعدل أنا وماما طرحتينا قبل أن نسير إلى مدخل متحف الألغام الأرضية. يُقبل نحونا رجل بقميص وسروال أخضرين، يخبرنا بأن المتحف مغلق حاليًّا. في الساحة خلفه توجد مروحيتان ودبابة.

يخرج وليد أوراقًا نقدية قليلة من جيبه، فيشع وجه الحارس بالسرور. يدفع الباب ليفتحه ويبدأ التجول بنا بين المجموعة. نجد قذائف الهاون، وبنادق روسية، وكوكتيل مولوتوف، وطوب تي إن تي، وبذلة الحماية الزرقاء التي يرتديها القائمون على إزالة الألغام. ترقد ألغام من كل الأشكال والأحجام في خزانات عرض زجاجية، كأنها كنوز مستخرجة. أشياء بريئة مفخخة بحيث إن انحنتْ طفلة لتلتقط دميتها، تتسبب لمستها في انفجار يهشم عظام ساقها. كلما زادت الخسائر اقتربوا من الفوز في الحرب.

يخبرنا وليد أن الألغام البلاستيكية تتخفى من جهاز الكشف عن المعادن، لذلك فعلى مزيلي الألغام أن يتحسسوا الأرض من حولها، لينزعوها من الأرض بشق الأنفس. من وقت إلى آخر

تتعثر ماعز أو أحد البدو في سلك ما، فتتفجر كرات المسامير. ذهب أطفال صغار ليتجولوا في الملاعب واختفوا في صاعقة واحدة.

ليس في أفغانستان مليون ماعز، ولا مليون دجاجة، ولا مليون مدرسة، لكن عدد الموتى والجرحى والمفقودين والقنابل يتجاوز المليون.

حسابات وليد لها أنياب. يدوّن كلاي ملاحظاته في دفتر صغير، وألتقط أنا صورًا قليلة قد أمسحها في ما بعد. نغادر، محطتنا التالية المدرسة التي كنت أذهب إليها وأنا طفلة. فتيات بطرح بيضاء مشبوكة بدبابيس أسفل ذقونهن، يراقبنني من جانب أعينهن، يهمس بعضهن لبعض بتآمر وهن يضممن كتبهن إلى صدورهنّ.

حين كنت طفلة، لم يكن على الفتيات ارتداء الحجاب. كانت أمي تغطي رأسها في المسجد فقط أو حين تذهب لعزاء إحدى الأسر. أنكمش لرؤية النساء مغمّدات من رأسهن حتى أخمص أقدامهن بالشادوري، منفصلات عن العالم. أعرف أن الحجاب لا يعني شيئًا لدى كثير منهن، لكنه علامة على مدى ما حدث من تغيير. أتساءل ماذا كانت أمي ستقول إن رأتني أرتدي حجابًا الآن.

يأخذنا وليد إلى مستشفى الولادة. تُقابلنا أخته عند المدخل، تزرر معطفها الأبيض وهي مقبلة نحونا. حول عنقها سماعات طبية سوداء.

اسمها الدكتورة نزاري. لا تضع مثقال ذرة من مساحيق التجميل لكن قرطًا ذهبيًا مستديرًا صغيرًا يتدلى من أذنيها. شعرها معقوص للخلف. تبدو من سني تقريبًا. تصافحني، قبضتها حازمة، إنجليزيتها ذات لكنة.

يقف وليد وكلاي في الخلف، احترامًا للنساء الحوامل اللائي يقفن في المدخل، ويسرن في الساحة في انتظار أن يراهن الأطباء.

تسأل ماما عن عدد المرضى الذين يتلقون الرعاية الطبية يوميًا فتهز الدكتورة نزاري رأسها.

«كثير جدًا. وهذه هي إجابة جميع أسئلتك، كثير جدًا. كم عدد الأمهات المتوفيات على إثر النزيف لولادة الطفل الرابع أو الخامس؟ كم عدد المولودين حديثًا الذين يلفظون أنفاسهم الأخيرة قبل رؤية قمر جديد؟»

تقودنا في ممر ضيق.

ترقد نساء ببطون مستديرة على أسرّة معدنية، خلف ستائر لحماية الخصوصية. تتنقل الممرضات بين الغرف بحوامل وأكياس المحاليل، بملاءات ومناشف وكمامات غرفة العمليات. لم أقف موقف المراقب في مستشفى مذ كنت طالبة.

«ما تخصصك يا دكتورة؟» تسألني بالدارية ونحن نسير في المبنى.

حين أخبرها، ترفع حاجبًا، منبهرة. أتمنى لو لم تسأل. أشعر بصغر شأني وأنا أسير خلفها في المستشفى.

قبل أن أحدد كيف أخبرها بالمزيد، تأتيها ممرضة ركضًا. انقلب مولود في وضع خاطئ. يحتاجون إليها سريعًا.

«أتمنى أن تعودي يا دكتورة»، تقول وهي تشد على يدي.

حين يُعيدنا وليد إلى الفندق، نشعر بالإرهاق. يؤلمني باطن قدمي، كأخدود من ألم. يريد كلاي تنقيح ملاحظاته قبل أن ينسى شيئًا، وتريد ماما أن ترفع قدميها.

أرتدي حذاء رياضيًّا وسروال الركض. أجد الصالة الرياضية في الفندق وأشعر أن بمقدوري التنفس أخيرًا حين تضرب قدماي حزام جهاز الركض. أزيد سرعة الجهاز، أتجاهل ألم قدمي وتخشب ساقيّ. أنتظر لحظة التحرر، لحظة إسراع إيقاعي. حين لا تأتي، أضرب الجهاز لأزيد سرعته هو.

لكن الجهاز يتثاقل كأن أحدهم وضع طوبًا على تروسه وفي خطوة واحدة واعدة يُلقَى بي من فوقه. أجلس متربعة بظهري للحائط، أتساءل إن كانت لدي الشجاعة لاستكمال الأميال المتبقية أمامي.

الفصل الثالث والخمسون

نستقل التاكسي الذي سيقلنا إلى السفارة الأمريكية. على مسافة أقل من ستة أميال لكنه يوم عمل والشوارع مزدحمة كأننا في وسط البلد بمانهاتن. يسأل كلاي السائق إن كان لديه أمل في أي من المترشحين في الانتخابات الرئاسية القادمة.

إنجليزية السائق جيدة بما يكفي ليفهم سؤال كلاي لكنه لا يمكنه صوغ إجابة بها.

«الحمير تبدو من بعيد كأنها أحصنة»، يغمغم بالدارية وهو يعدل مرآة الخلف.

«كم عدد القنوات التليفزيونية الآن؟» يسأل كلاي. يطلق السائق صفيرًا طويلًا. يوجد أكثر مما يمكنه عدّه.

«طالبان هنا، محطة إذاعة واحدة، قناة تلفاز واحدة، فم واحد. الآن، آلاف الأفواه»، يضحك وهو يشير إلى رأسه. «صداع كبير. لكنني سعيد. أنا أدعوكم إلى بيتي، لتشاهدوا تلفازي».

«أوه، سيكون هذا رائعًا»، يقول كلاي، بجدية. يبدو مرتاحًا تمامًا هنا، بقدر أكبر مما كان عليه في المكتبة حين قابلته أول مرة. أراقب من نقابلهم يميلون نحوه، كأنه هو من يعود إلى وطنه وليس أنا. يلتفت إلى الخلف لينظر إليّ بابتسامة. أنظر بعيدًا، أشعر بأنه يقرأ أفكاري.

تمر السيارة على حفرة عميقة بحيث نندفع في مقاعدنا وتخفق معدتي.

تستمع ماما، وعيناها على العالم في الخارج. تعدل طرحتها

وتشرئب بعنقها لتنظر إلى مبنى حديث وأنيق بجوار مسجد مبني بالطين. نمر بامرأة ترتدي شادوريًا لوحته الشمس تقف على جانب الطريق. تحمل طفلًا صغيرًا بيد وتمد يدها الأخرى للمارة.

«قناة آريانا تي في، جيدة جدًا»، يقول السائق.

آريانا.

اسمي في كل مكان. مكتوب على الطائرات، والسينما، وقناة تليفزيونية، وقاعة احتفالات كبرى، وإشارة مرور مزدحمة، ومجموعة من المطاعم. البلد لا يسعه هجر اسمها التاريخي، سميّتي.

أيريح هذا أبي وأمي أم يقلقهما؟

أرهف السمع، كأنهما قد يجيبانني عبر نسيم الجبال. شحذ وجودي في كابول حواسي. أراهما وأسمعهما بشكل أوضح، كأنني أدرت قرصًا فزال التشوش.

ستارة! تعالي أمسكي بيد أخيك. أسمعهما يدعوانني باسمي. أشم رائحة الكراث المقلي الذي كانت أمي تحشو به العجين لصنع فطائر شهية.

أرى أبي يحمل فهيم بذراعيه الممدودتين عاليًا من أجل لحظة طيران. يرفعه في الهواء فتراقب أمي ابنها الغالي يحمله الهواء لوهلة، ثم تزفر لرؤيته يعود إلى ذراعي بابا بأمان. رغم قلقها لا توقف بابا وأنا أفهمها لأنني مثلها، لا يمكنني مقاومة الفخر في وجه أبي ولا سرور فهيم بتحدي الجاذبية.

أتذكر أغنية منتصف الليل التي كان بابا يغنيها لي:

أنام تسهرين

أرقد وتكدحين

يغمرنا نور حبك.

يداعب صوته قلبي، كأصابع تعزف على العود. كم كنت سخيفة لتضحكني الكلمات وأنا فتاة صغيرة، ظننته يوبخني لبقائي ساهرة بعد موعد النوم.

حفرة أخرى.

أطلقوا على الطريق اسم المغني الذي لقي حتفه في حادث سيارة مشتبه فيه بعد وقت قصير من الانقلاب[1]. كان قد انتقد النظام الشيوعي حين كان المعارضون يختفون قسريًا بأعداد كبيرة.

نقترب من السفارة الأمريكية بسرعة. يوقفنا السائق عند البوابة، حيث يحدجنا ضباط الشرطة بنظراتهم من بعيد. يحدقون مليًا إلى وجوهنا وملابسنا قبل أن نقترب من نقطة التفتيش الرسمية، تمر حقائبنا بجهاز الأشعة السينية.

«تبدو مختلفة جدًا»، تقول ماما معجبة بالتجديدات. يذكرني نمط الألواح الزجاجية للواجهة بقشور السمك. عَلَمان، علم أمريكا وعلم أفغانستان، يرفرفان في الأعلى.

نمر بنقطة تفتيش أمنية أخرى. لا تفيد ماما من معارفها القدامى ومنصبها السابق لنيل أي معاملة خاصة هنا. تغير الكثير جدًا منذ أن كانت تعمل هنا، ما يلبد عودتها بالغيوم هي الأخرى.

تقودنا امرأة شعرها معقوص في ذيل أرنب نشيط إلى مكتب.

(1) أحمد ظاهر. (المترجمة).

تعرض علينا ماء أو عصيرًا، لكننا نرفض. نجلس أنا وكلاي لكن ماما تظل تذرع الخطا في الغرفة، تنظر في الكتب على الرف خلف المكتب ثم تتنهد وتذرع الخطا مجددًا.

أتململ في جلستي. يؤلمني ظهري وخاصرتي من حادث جهاز السير بالأمس لكن ساقيّ ما زالتا تتوقان إلى الركض. لا يمكنني البقاء ساكنة وقتًا طويلًا.

«ألديك فكرة عمن ستقابلينه؟» يسأل كلاي وهو يخرج دفتر ملاحظات بغلاف جلدي من حقيبته.

ينفتح الباب قبل أن تجيبه ماما فيكاد يصطدم بظهرها.

«أوه، لا، أنا آسفة جدًّا»، تقول امرأة. ترتدي سترة فضفاضة مطبوعة بنمط قدم الدجاجة وبنطال أسود. «لم أرك تقفين خلف الباب».

تلوح ماما بيدها وتبدأ جولة التعارف والمصافحة. اسمها كارلا ستيفن وتعمل ملحقًا سياسيًا في السفارة. تجلس ماما وتعرض علينا كارلا ماء أو قهوة.

«تسعدني مقابلتك، لا أتخيل كيف تشعرين الآن»، تقول كارلا فيفيض وجه ماما بالحنين. «أنا أحترم عملك كثيرًا مس شبرد».

أضع يدي على يد ماما.

في السنوات التي لوحت فيها للدولة، لتدين العنصرية والتمييز، ابتعد عنها كثير من أصدقائها. يميل الدبلوماسيون إلى الدبلوماسية، رغم كل شيء. لو لم تكن قد ضغطت بقوة كما فعلت، لكانت قد تقاعدت براتب أكبر بكثير.

«أنــا متأكـدة مـن أنـك سـتفعلين الشــيء نفســه لمـن سـيأتون بعدك»، تقول ماما. تنظر إلـيّ كارلا بتركيـز، ورقـة، وهـي تضع هـذا الالتـزام علـى عاتقهـا.

تومئ كارلا برأسـها وتـدس خصلـة مـن شـعرها الكسـتنائي خلـف أذنهـا. تخـرج مـن أحـد أدراج المكتـب قلمًـا ودفتـر مـلاحظـات.

تشـير مامـا إلـيّ لأتولـى الأمـر. أوضّـح لـكارلا أننـا سـمعنا عـن لجنـة حكوميـة للبحـث عـن جثـث القتلـى. ثـم أخبرهـا بأننـي فقـدت أبـوي ليلـة الانقـلاب وظللـت عقـودًا فـي انتظـار الفرصـة لإيجـاد إجابات. أختصـر لهـا الأمـر أكثـر ممـا اختصرتـه لـكلاي حتـى. كأننـي أعبـر النهـر بعـد أن ميـزت مواضـع الحجـارة. تدعنـي كارلا أنهـي كلامـي قبـل أن تتحـدث.

«أولًا، تعـازيّ. لا يمكننـي تخيـل مـدى الألـم الـذي مـررت بـه»، تقـول وهـي تقطـب حاجبيهـا باهتمـام. «يجـب أن أعتـرف، لـم أسـمع شـيئًا عـن أي جهـود فـي هـذا الشـأن لكننـي سـأجري بعـض الاتصـالات وسـنرى إن كانـت اتصالاتـي فـي هـذه الإدارة يمكنهـا إلقـاء بعـض الضـوء».

«سيكون هـذا رائعًـا»، تقول ماما بشكر.

تقـف كارلا حينهـا وتنتظـر نهوضنـا. لكننـا نظـل فـي مقاعدنـا لا نتحـرك. تطـرف بعينيهـا مرتيـن، ببـطء، قبـل أن تفتـح دفترهـا مجـددًا.

«ذكـرتِ أنـكِ تقيميـن فـي الإنتركونتننتـال. دعينـي آخـذ رقـم غرفتـك وسـوف أتصـل بـكِ مـا إن...»

«إن كنتِ في حاجة إلى مكتبكِ لإجراء الاتصالات يمكننا انتظارك في البهو أو في غرفة اجتماعات خالية أو في الكافتيريا»، أقترحُ عليها.

تنظر إليّ ثم إلى ماما.

«أنتما تفهمان بالطبع أن الأمر سيستغرق بعض الوقت لإيجاد الشخص المناسب للتحدث معه عن هذا»، تقول.

تومئ ماما برأسها. تبدو متفهمة لكنها تظل مستندة بظهرها في مقعدها.

«لهذا تقترح آريانا أن نخرج وننتظر في غرفة أخرى. أعرف أن هذا سيعطل عملك اليومي، لكن وقتنا هنا محدود. نريدك فقط أن تصلينا بلجنة البحث. ونحن سنتولى الأمر من هناك»، تقول ماما بسرور.

لكن كارلا لا تبدو مسرورة. تضع دفترها على المكتب ويدها في خصرها. تنظر من نافذة المكتب كأنها تبحث عن شخص ما ليأتي ويُخرجنا من مكتبها.

تزفر بحدة ثم تخبرنا بأنها ستأخذنا إلى الكافتيريا. تذكرنا بأنها لا يمكنها أن تعدنا بشيء، لكن ثلاثتنا نعرف جيدًا أن لا أحد يمكنه أن يعد بشيء في هذا المكان. نجلس إلى طاولة جانبية. يميل كلاي إلى الخلف ويمسح بعينيه الغرفة.

«لن تعود إلينا قريبًا»، يقول بجهامة. «ظني أنني سأستغل ضوء النهار ما أمكنني».

«ستعود»، تقول ماما بإصرار. «علينا أن نفهم أنهم يديرون سفارة هنا. ونحن جئنا إليهم بطلب مفاجئ كهذا. يجب أن نمنحها الفرصة».

لا يجادلها كلاي. لا أحد منا صبور أو سلبي بشكل متأصل. اعتاد كل منا الضغط؛ من أجل مقابلة، من أجل تخصيص أموال، أو من أجل تلبية حاجات مريض. لا أحد منا اعتاد الجلوس وقتًا طويلًا.

«أين ستذهب؟» أسأله وهو يعلق حزام حقيبته على كتفه.

«لدي قصص عدة كنت قد بدأتها في رحلتي السابقة»، يوضح. سيمر بالجامعة الأمريكية ليرى إن كان بمقدوره إعادة الاتصال ببعض معارفه هناك.

تلف ماما طرحتها حول عنقها ونحن نراقبه يغادر الكافتيريا. انخفضت درجة الحرارة بشكل ملحوظ منذ أن وصلنا.

«ماما، ظني أنني أريد التجول مع كلاي. أتمانعين البقاء هنا وحدك قليلًا؟» أسألها.

ترفع حاجبها لكنها لا تقول ما أعرف أنها تفكر فيه. تبدو حائرة حتى وهي تطمئنني أنها لا تمانع الانتظار وحدها. لم تمنعني من الحركة قط ولن تبدأ الآن. أرتدي معطفي وقفازي، ثم طرحتي.

«سأعود إليك هنا خلال ساعتين. اتصلي بي إن حدث أي شيء قبل هذا»، أقول وأنا أقبل خدها. أسير بسرعة حتى أخرج من الكافتيريا، ثم أبطئ سيري. ألمح كلاي أسفل السلم، فأتوقف حتى ينعطف نحو المخرج.

ما إن يختفي عن نظري، أبدأ هبوط السلم إلى الطابق الأرضي.

«آنستي، زميلك هنا. سأتصل به لينتظرك»، يقول الحارس، الذي رآنا ونحن ندخل. يفتح الباب قليلاً فيما يرفع كلاي يده ليشير إلى تاكسي.

«لا»، أقول بمرح. «لا داعي لذلك. نحن متجهان إلى مكانين مختلفين. أمهلني قليلاً لأتفقد رسائلي».

أُخرج هاتفي من حقيبتي وأتظاهر بتفقد الرسائل. أمنح تاكسي كلاي الوقت الكافي ليبتعد. يراقبني الحارس، من باب الفضول أكثر من الواجب.

رغم شكري لكوني لست وحدي في هذه الرحلة، أعرف أن عليّ فعل أشياء ما وحدي. أعدل طرحتي، أغطي أذني ومنبت شعري لئلا ألفت الأنظار. يتنحنح الحارس. أفتح الباب وأخرج إلى الوطن البارد وأنا أدعو ألا تنشق الأرض من تحتي وألا تخذلني قدماي.

الفصل الرابع والخمسون

خلال عامنا الثالث في الإقامة، بعد أسبوع سيئ بشكل خاص في المستشفى، خرجتُ أنا ودايو لتناول السوشي للاحتفال بعيد ميلادها. نصف مدة التدريب ما زالت أمامنا، كنا ما زلنا بعيدتين عن رؤية الضوء. أزلنا عنا الضغط بكوكتيلات ذات أسماء جيدة وطبق كبير من أصناف اللفائف.

كنا نعمل نحو ثمانين ساعة أسبوعيًا وكان موسم الأنفلونزا قاسيًا. كان نصف المرضى في العزل الطبي فكان علينا ارتداء مآزر صفراء وقفازات زرقاء وكمامات بيضاء فقط لدخول غرفهم وسؤالهم كيف حالهم. كان أحد عمال البناء قد أصيب بعدوى فطرية نادرة في دمه، وصائغة مجوهرات عادت لتوها من المكسيك بورم في رئتيها بعد أن دفعت مقابل علاج لم نسمع عنه قط. لكن جائزة الأسبوع ذهبت إلى مريض أُعلِن عن كونه شخصًا مهمًا جدًا حين أودع المستشفى. وحين استُدعيت إلى غرفته دخلت لأجد زوجته تمسك أنبوبًا بيدها. كانت تهدد بنزع قسطرته عنه، بينما تقف عشيقته على الجانب الآخر من فراشه، تشتعل غضبًا.

كنا قد أصلحنا له فتقًا في البطن وبدا أنه على وشك الإصابة بثقب آخر في جسده. أخبرتُ زوجته كم عدد الساعات التي قضيتها في العمل طوال الأسبوع الماضي وكم عدد الساعات الأخرى التي سأعملها لو عرف رئيسي أنني وقفت أشاهد قسطرة مريضي تتمزق أمامي. تركت الزوجة الأنبوب، أخرجت

هاتفها، والتقطت صورًا لزوجها والمرأة الأخرى قبل أن تندفع إلى الخارج.

لن يموت هذا الرجل بأمراض الشيخوخة، قالت دايو ويداها تدور حول كرة بلّورية خيالية. ثم اتسعت عيناها بالإلهام وأعلنت أنها تعرف ما علينا فعله لأخذ راحة من الواقع. غادرنا المطعم، سرنا بقيادة دايو مسافة مبانٍ عدة لمقابلة شخص ما يدعى إيفيرلي.

لخاطر صديقتي المقربة، دخلت معها متجرًا بإضاءة خافتة حيث حيتنا شابة في مقتبل العشرينيات بعينين زرقاوين. ترتدي بنطالًا بلون كريمي مدببًا عند كاحليها وتيشيرتًا مطبوعًا برسوم البيزلي. شعرها الأسود الداكن طويل على أحد جانبي رأسها ومقصوص على الجانب الآخر؛ ما منحها لا تماثلًا مثيرًا للفضول. رحبت بنا بيدين مضمومتين وصوت ناعم كحجر أملس. أحد حوائط المتجر مغطى بكامله بأحجار جيودي متكسرة وأقلام في غمد قماشية وبخور. على الحائط الآخر رف واحد للكتب وتماثيل صغيرة لبوذا، وطواويس وآلهة هندوسية أخرى. خزانة زجاجية تعرض جواهر ثمينة، من بينها قطع فضية مرصعة بحجارة صغيرة من اللازورد.

مرحبًا بكما في بيتكما، قالت إيفيرلي، صوتها هادئ. لو كنت جرؤت على النظر إلى دايو تلك اللحظة، لقلَبت لها عينيّ إلى مؤخرة رأسي بلا رجعة. أخبرتْها دايو بأننا نريد قراءة طالعينا. رسمت إيفيرلي ابتسامة جميلة وعلّقت على الباب لافتة مغلق قبل أن تلتقط وشاحًا بلون الكركم من فوق مشجب وتلفه حول

عنقها. أشارت لي دايو أن أتقدم أولًا، شعرت بخدر المشروبات التي تناولناها لتونا، فأطعتها. تبعت المرأة إلى زاوية مفروشة بالسجاد في ركن من المتجر، خلف رف الكتب. في منتصف السجادة الكريمية هيكل حديدي على شكل هرم.

أشارت لي إيفيرلي أن أنضم إليها في مربع الهرم، ففعلت. رغم عطسي مرتين، أشعلتْ حزمة أوراق مريمية، أنار اللهب وجهها المطلي بمسحوق خوخي.

سوف أُبعِد الكيانات الملتصقة بك. أغمضي عينيك وتنفسي بعمق، أمرتني.

رأيتها من بين أهدابي نصف المسدلة تنقر بأظافرها وتأتي ببطاقات التاروت من صندوق خشبي خلفها.

ما تاريخ ميلادك؟

ترددتُ. خطر لي أن أتحداها لتخمن بنفسها لكنني لم أرغب في إطالة الجلسة.

استوقفني سؤالها. ظللت سنوات أستخدم تاريخ ميلاد أختي. مع أنني ولدت في شهر العقرب، وأختي في شهر الجوزاء، ماهرة ومبدعة.

أول نوفمبر، أخبرتها، يوم أن أتت بي أمي إلى العالم وأسمتني ستارة.

انتظرتُ.

أغمضتْ إيفيرلي عينيها وبدأت تنقر بأناملها على البطاقات.

أنت عطوفة وعنيدة وشجاعة جدًا، قالت بهمس. *تتحركين بقوة الأمواج وتشكلين الأرض من حولك.*

شعرتُ بصدع دقيق في منطقي المتشكك ووبخت نفسي لهذا وهي تقلب بطاقات التاروت. ملك النار. أغمضتْ عينيها قليلًا وواصلتْ.

أنت قوية، لست صبورة، وقلقة. شيء ما يجعلك قلقة جدًا.

شعرت بتوتر في كتفيّ. أردتُ أن أخرج إلى الشارع. كانت البطاقة التالية التي سحبتها لفارس الأرض.

ستنطلقين في سفر سيغير حياتك.

تسارع نبضي.

والسادس في الهواء، قالت وهي تسحب بطاقة ثالثة. أنت تناضلين للخروج من مأزق، تحفرين لنفسك نفقًا للخروج منه. تشعرين بأنك مدفونة...

صرت في الشارع في لمح البصر، لحقت بي دايو وهي تعتذر بشدة. زال دوار المشروبات تمامًا.

تنفستُ بعمق، تشبعتُ بالروائح الفظة للعادم والحديد وأي شيء على سطح الأرض. حينها استطعتُ المزاح.

كان يجب أن أغادر، لقد رأتْ ستة أسابيع أخرى من الورديات الليلية في مستقبلي.

لم تضحك دايو، بل فردت كتفيها وحدقت إليّ بعينيها الدامعتين.

أنا آسفة جدًّا يا آريانا. آسفة جدًا، همست.

ألف طرحتي حول فمي، لتدفئة وجهي وإخفائه في الوقت نفسه. أقف عند ناصية شارع طويل تصطف على جانبيه الأشجار ويؤدي إلى القصر، لا تمر به السيارات. يتسارع نبضي، يشير

الأدرينالين إلى استجابتي للقتال أو للهروب، فأذكر نفسي أنني كبيرة، أمريكية وأن عقودًا قد مضت على ليلة الانقلاب.

ومع ذلك.

أرى مدخل القصر، بأبراج حراسته، لا تصل إلى السماء كما أتذكرها. تبدو الأشياء في المرآة الخلفية كطفلة أصغر مما هي عليه، خاصة بعد أن وقفت تلك الطفلة على برج إيفل، وسارت في آيا صوفيا في تركيا وفي قاعات الفاتيكان. أعيش في مدينة ترى من ناطحات سحابها العالم قزمًا.

ومع ذلك.

يحتفظ الأرج بجلاله المهيب، تماثُل بواباته المحبب. أزيح طرحتي عن فمي وآخذ نفسًا طويلًا من الهواء البارد المنعش. الشارع خالٍ إلا من جنود في زيهم الرسمي الزيتوني بشرائط حمراء وذهبية. البنادق معلقة على أكتافهم. يقبل نحوي اثنان منهم، يتحدثان معًا من زاويتي فميهما وهما يقتربان. على مبعدة أمتار تقف دبابة، تمامًا كما كان ذلك اليوم. خلال ساعتين سيكون الوقت ظهرًا، الساعة نفسها التي أدار فيها جنود ودبابات القلعة أسلحتهم نحونا منذ سنين طويلة.

«يا آنسة، إلى أين تذهبين؟» يسألني أحدهما بالإنجليزية. أبدو له أجنبية. له لحية قصيرة. تجعّد جلد وجهه حول عينيه كأنه قضى عمره كله يطرف بعينيه من الشمس. يُقيمني هو وزميله بأعينهما، ويداهما على سلاحيهما.

«أنا أمر من هنا فحسب»، أقول بهدوء. «الجو بارد وأردت السير من أقصر الطرق».

يحدق الجندي إلى معطفي الصوفي الثقيل. أحاول ألا أفكر في الطلقات المحشو بها سلاحه إلى جانبه. أنكص على عقبي أمامهما وأسير خطوتين قبل أن يوقفاني مجددًا.

«من أين أنت؟» يسألني أطولهما.

أشير برأسي خلفي، باتجاه السفارة.

«السفارة الأمريكية»، يُعلن كأنه يحلّ فزورة.

يسألانني عن وِجهتي فأخبرهما، فكرت في الأمر هذا الصباح حين رأيت ابتسامة كارلا المهذبة، التي توحي بثقة قليلة في قدرتها على توصيلنا بأي شخص له فائدة.

«وزارة الداخلية»، أجيبهما.

يرتفع حاجباهما.

«ما شأنك هناك؟» يسألني أحدهما.

لا أعرف إن كان يسأل من باب الفضول أم أن واجبه يحتم عليه ذلك.

«أود المرور بعد أذنكما»، أقول وأنا أشير باتجاه الوزارة.

«أتعرفين الطريق إلى هناك؟» يسألني.

أخبرهما أن المسافة لا تزيد على خمس دقائق إلى هناك، طريق مباشر تقريبًا من حيث أقف. فيضحكان.

«الأفضل أن تستقلي تاكسي. أنت تائهة هنا»، ينصحني أحدهما. يمنحني توجيهات متقطعة إلى وزارة الداخلية التي لم تعد في الموقع الذي كانت فيه من قبل، ليس حيث اعتاد أبي أن يشير لي حين كان يقود سيارته بنا في كابول.

أسير بموازاة القصر، أتساءل إن كان بداخله أطفال يركضون في ملاعبه الآن كما كنا نفعل ذات مرة، إن كانوا يلعبون بالتاريخ كما كنا نلعب، وإن كانوا يندفعون نحو مكتب الرئيس وهم يطلقون رصاصًا خياليًا من أطراف أصابعهم.

حين أصل إلى التقاطع المؤدي إلى شارع سوق الدجاج، تتحرك قدماي كأنهما على جهاز الركض. تفيض البضائع المتنوعة من مداخل المحلات. تتدلى السجادات على درابزين الشرفات، تقبع أجولة البهارات خارج الواجهات الزجاجية، وتتدلى السترات والأثواب المطرزة من المظلات الممزقة. يحول ضوء الشمس الغبار الذي تثيره خطوات المارة إلى سديم يثير الحنين.

يعلق رجل من المارة على جسدي غير المرئي. يطلق آخر دخان سيجارته في وجهي مباشرة. بطريقة بذيئة. أكتم أنفاسي وأعض لساني لئلا أزيد الموقف سوءًا. مهارة تعلمتها النساء في جميع أنحاء العالم.

أبحث عن الشقة التي كنا نقيم فيها أنا وماما وتيلي، ويخيل لي أنني رأيت الستائر الوردية ترفرف. المتجر أسفل البناية لم يعد مخبزًا. أدخله فيومئ لي البائع، رجل بوجه طويل ولحية قصيرة. يعدل طاقيته الصوفية على رأسه ويشير إلى السجادات الصغيرة المعلقة على الحائط، الأرفف ملأى بأشياء معدنية مصنوعة يدويًا.

تكدس مزيد من السجاد القديم والأبسطة المغزولة على حوامل بطول الجدار. لديه تنويعة غنية من سجاد الحرب، أبسطة صغيرة بالألوان التقليدية تصور الألغام الأرضية والدبابات

والبنادق الكلاشينكوف. على واحدة رسوم مروحية حول أطرافها وطائرات مقاتلة في المنتصف. بعضها مرسوم عليه علم الولايات المتحدة وأخرى مكتوب عليها بحروف سلافية.

«من يغزل هذا؟»

«نساء. أطفال. أصابع صغيرة، غزلٌ جيد».

أتذكر مقالًا قرأته في مجلة منذ مدة قصيرة عن قبضة الأفيون القبيحة على عنق الأفغان، كيف يدخنونه كي ينسوا فقرهم أو لتخفيف آلامهم. بلد مكروب يداوي نفسه بما ينمو بوفرة في تربته، بمحصول يعينه على إطعام الأسر واسترضاء أمراء الحرب. تضمّن المقال صورة لأم تنفخ دخانًا في وجه رضيعها بهدوء، على وجهها تعبير الحب. يوضح الكاتب أنها تقوم بهذا لتستطيع الجلوس أمام النول لساعات، تغزل الخيوط معًا بأصابع مخضبة بالحناء.

«لماذا يغزلون سجادًا عن الحرب؟» أسأله. فيضحك، ضحكة تخلو من المرح.

«ألا يعجبك؟»

ألمس دبابة مغزولة وأتساءل إن كان من بدأ تلك الصيحة عمال الغزل أنفسهم أم الزبائن. لا ينتظر البائع ردي.

«زبائني يحبونه جدًا. الحرب، الأسلحة، التاريخ. لو نظمت طلقات نارية في سلسلة، يمكنني بيعها بوصفها قلادة أفغانية».

لست في حاجة إلى سؤاله عن هوية زبائنه. لاحظت بالفعل أن محله يشبه مئات محلات التذكارات في التايم سكوير التي تبيع تمثال الحرية وكرات الثلج والمفارش المطبوعة بخريطة مترو الأنفاق، أشياء لا يشتريها سكان نيويورك.

يراقبني البائع بفضول. يحرك صحنا إلى طرف المنضدة ويدعوني للنظر إليه. الصحن مملوء بمشابك أعلام أمريكية وبريطانية وميداليات عسكرية روسية وبريطانية. لا أهتم بها إطلاقًا. أشكره على وقته فألاحظ الإحباط على وجهه.

أخرج من المحل وأمر بجنديين من خلف الناتو، محاطين بمجموعة من الصبية الأرجح أنهم قضوا حياتهم كلها في ظل الجنود.

أفرك يديّ وأنا في التاكسي، لكنهما تظلان متجمدتين حين أصل إلى وزارة الداخلية. أرتعش وأنا أقترب من الأبواب الزجاجية للمدخل الأمامي، تحت حراسة جنود مثل القصر. يوقفونني قبل أن أقترب. كان التجول في العالم أسهل كثيرًا وأبي إلى جانبي.

كيف سأقدّم نفسي هنا؟

أمامي احتمالان متناقضان عليّ اختيار أحدهما.

لن أصل إلى أي مكان إن قلت الحقيقة.

لن أصل إلى أي مكان إلا إذا قلت الحقيقة.

حين يقترب أحدهم مني ويسألني ما شأني في الوزارة، أكون قد قررت.

خلال دقائق. أجدني في غرفة مكتب قبالة رجل بشارب كث وحاجبين أكثر كثاثة. مكتبه الأسبرطي خانق وحار؛ تأز مروحة في الركن.

كتبت ذات يوم وأنا طفلة صغيرة عن أهمية تسجيل التاريخ. التمستُ من تلك الفتاة الصغيرة أن تلهمني بعض شجاعتها.

«أنا ابنة سليمان زماني»، بدأتُ بالدارية. «كان يشغل منصبًا في هذه الوزارة حتى قُتِل هو وبقية أسرتي في القصر مع الرئيس داوود خان».

ينصت إليّ الرجل ومرفقاه على المكتب. يحدق إليّ وقتًا طويلًا قبل أن يتحدث، لا يبدو على وجهه أدنى قدر من الدهشة. أتساءل إن كان الكثيرون قد جلسوا هنا تحديدًا ليدّعوا صلتهم بأفغانستان ماتت منذ عقود.

«فهمتُ. وظللتِ في الخارج مدة»، علق. يرمقني بنظرة موجزة ويواصل. «أختاه، ماذا قلتِ للحرس في الخارج؟»

«أوضحتُ لهم أنني أعرف عن لجنة البحث عن جثث القتلى»، قلتُ وأنا أفرد عمودي الفقري. «هذا الأمر يمسني شخصيًا، كما هو واضح. أود أن أعرف التقدم المحرز فيه».

«تريدين أن أقدم لك تقريرًا عن التقدم المحرز؟» يقول بسخرية طفيفة.

يرفع بصره لأعلى، لينظر من أعلى رأسي. يقشعر جلدي، وقبل أن ألتفت حتى، أعرف أن الباب، المخرج الوحيد من هذه الغرفة، قد أوصد. أدير رأسي وأرى ثلاثة رجال يقفون خلفي، اثنان في الزي الرسمي، وواحد في قميص وسروال.

«يا رئيس»، يصيح أحدهم من خارج الغرفة. «الأمريكيون على الهاتف مجددًا!»

«أختاه، لديك قصة مشوقة هنا»، يقول الرجل ذو الشارب قبل أن ينظر إلى الرجال خلفي نظرة تأكيد. «أليس كذلك يا رجال؟»

يميل إلى الخلف في مقعده، مرفقه الأيمن على ذراع مقعده.

«لست أول شخص يعود من أراضٍ بعيدة مريحة، بعد أن هدأت العاصفة. ربما سمعتِ أن الأجانب سيدفعون عشرة آلاف دولار في الشهر لاستئجار بيت أسرتك. أو ربما تطمحين في مقعد في البرلمان؟ أو في منصب رسمي بتعيين من الرئاسة؟ إن أخواتنا وإخواننا يعودون يوميًّا، يرفعون أطراف ملابسهم لئلا تلطخها طرقنا المتربة، ويُغرقون محاكمنا بوثائق أقدم من الجبال. ويتغنون جميعًا بحبهم لوطنهم!»

أعي في الحال بالرجال الواقفين خلفي.

«إن كان ما قلته يغضبك، فأنا ألتمس منك العفو. سوف أغادر كابول في أقرب وقت ممكن بلا شيء سوى الحزن الذي أتى بي إلى هنا».

لا يتفوه بشيء. يزم شفتيه وينظر أعلى رأسي إلى الرجال الذين يسمعوننا بفضول.

«استعدي غدا»، يقول. «سنرسل إليكِ سيارة إلى فندقك. لكن احذري أختاه. قد تحسبين أنك جئت بحزن فقط لكن هذا ليس حقًّا. لقد جئت بأمل، أيضًا. لا تلوميني إن غادرت كابول بشعور المسلوبة».

الفصل الخامس والخمسون

اخترنا مطعمًا متواريًا عن الشارع بجدران جص سميكة. ما إن مسحت بعيني المكان وحددت جميع مخارجه، مسحت بعيني المطعم نفسه للتدقيق في تصميمه الداخلي، لا يشبه في شيء التصاميم الدمشقية والروكوكو لقاعات الطعام في الفندق. المقاعد هنا ليست مطلية. لا ثريات.

مائدتنا إلى جانب جدار من الطوب العاري. وجوهنا ينيرها ضوء الشموع. نحن في مطعم باسم الرومي، الشاعر الصوفي. يجلس الزبائن إلى موائد واطئة، يستندون إلى وسائد بلون أحمر قانٍ وأرائك بزخارف أرابيسك. تتدلى المصابيح من السقف وتلقي بضوء ناعم كصداح الطيور.

نحتسي أنا وماما شايًا بالزعفران، كشروق الشمس في سائل، في كوبين من السيراميك مطبوع على سطحهما الأملس حكم صوفية.

روحي من مكان ما آخر وأنوي أن أنتهي هناك.

يساعدني الشِّعر ودفء الشاي على الاسترخاء. على الأقل توجد عشرات الجنسيات في المكان. تزين الجدران كتابة بالخط النستعليق. يرسم كل حرف وكل كلمة أشكالًا على الجدار؛ درويش يدور حول نفسه، وعاء، قمة جبل، طائر بجناحين. سيناسب هذا المطعم منطقتي المتحولة في نيويورك بشكل تام.

الكتب مرصوصة بفن على أرفف معلقة بلافتات صغيرة تدعو الزبائن إلى تغذية أرواحهم وهو يغذون أجسادهم. أمد يدي وآخذ

كتاب شعر كتبته امرأة قتلها زوجها. أفتحه فتقع عيناي على سطر مطبوع بأناقة شديدة في منتصف الصفحة.

تلتمع تنهداتي كلمعان النجوم.

يضع النادل أمامنا أطباقًا يتصاعد منها البخار. كأنه ضغط على زر إعادة تشغيل، يعود ذهني إلى عشاءات طفولتي. كفتة وكباب متبلان بالبهارات ومزينان بالليمون وأعواد البقدونس وأكوام من حبيبات الأرز الطويلة بالسكر المحروق وقطع الجزر المشوحة، والزبيب السمين والفستق. تدس ماما شوكتها في الباذنجان المقلي المغطى بصلصة الطماطم، زبادي بالثوم ونفحة من النعناع الجاف.

«حسنًا»، تبدأ ماما. سقطت طرحتها، كطرحتي، على كتفيها. «كان يومًا طويلًا علينا كلنا».

حين عادت كارلا إلى الكافتيريا واعتذرت لأنها لم تصل إلى الشخص المناسب بعد، سألتها ماما إن كان بإمكانها الجلوس معها في أثناء إجراء الاتصالات فوافقت كارلا على مضض. جاءت مكالمتها للوزارة وأنا جالسة قبالة الرجل ذي الشارب.

«ولم تضطري إلى المداهنة قليلًا؟» يسألني كلاي وهو يقطع الخبز الساخن. كنت قد أخبرتهما بزيارتي إلى الوزارة وبالمعلومات التي أمكنني الوصول إليها.

«لا. طلب مني أن أهدأ بخصوص الأمر فقط. قال إنه يخرق كل القواعد من أجلي».

«ولم يلمّح ولو قليلًا عن أين قد يكون هذا المكان؟» تسأل ماما مجددًا. كانت قد تأففت قليلًا حين أخبرتها أين ذهبتُ،

لكنها أمسكت لسانها. نعرف أنا وهي أنها كانت ستفعل المثل لو كانت مكاني، بل -بالأحرى- لقد فعلت المثل بالفعل.

«لا»، أجيبها. يرن هاتف كلاي برسالة. يظهر اسم سيلينا على الشاشة. يقرؤها كلاي، ينقر ردًا سريعا ثم يعيد الهاتف على المائدة.

«توجد عربة كباب صغيرة في السوق، أعني عربة حرفيا. يقلي الرجل البصل والطماطم في طاسة بعرض هذه المائدة. يستحق ذلك الكباب يومين من الاضطرابات المعوية الجحيمية».

تذهلني رغبته في حشر طلقات نارية في أمعائه وتعذيبها من أجل الحقيقة.

«سيلينا المسكينة. لا بد أنها تضع يدها على قلبها في كل مرة تغادر فيها البيت». أقول له.

«سيلينا؟ لا. يسعدها أن أتعرض لأخطار هنا»، يقول.

أريد أن أسأله ماذا يقصد لكنني أمسك لساني لئلا أزعج رجلًا يحب. يخطر لي، رغم هذا، أن هذه هي أول مرة يذكر فيها كلاي سيلينا وأن عينيه بالكاد تلمعان حين يرى اسمها على هاتفه.

أهكذا نتصرف أنا وآدم نحو أحدنا الآخر؟ توقفت منذ وقت طويل عن الشعور بالإثارة لتلقي مكالماته أو رسائله الهاتفية. ربما يبلد السير في النيران إحساس المرء لتلمع عيناه.

يطعن كلاي قطعة كباب بشوكته، يفحصها جيدًا قبل أن يلتهمها. يمضغ بإمعان، كأنه يقيم عمل الطباخ. لكنه حين يبتلعها، يمسح فمه بمنديله وينظر إلى ماما.

«حين كنت هنا»، يسأل ماما. «هل كان لديك أي فكرة عمّا سيحدث؟»

تفكر ماما قبل أن تجيبه، يعبر وجهها ظل ندم.

«لقد أُرسلت إلى كابول مكافأة لي على تعاملي مع قطاع الطرق المسلحين وتفشي الجريمة في منصبين سابقين. هنا، كنا نعقد حفلات سهر مع الموظفين الأجانب من جميع أنحاء العالم حتى وقت متأخر من الليل. أغلب الوقت الذي قضيته هنا، كانت أشد الأخبار هولاً من قبيل اكتشاف زوجة السفير خيانته لها مع موظفة اقتصادية ذات ساقين جميلتين تعمل في سفارة أخرى. كنا نقضي وقتًا ممتعًا في التسكع معًا في هذا البلد الجميل».

«مم»، يقول كلاي بتركيز. «وماذا عن الروس؟ هل كانوا يشاركون في المرح؟»

«بالطبع»، تتذكر ماما وهي تضيف ملعقة من صلصة البقدونس إلى طبقها. «كان ذلك قبل الحرب».

«لكنه كان في أثناء الحرب الباردة»، يعلق كلاي. «لذلك، لا بد أنّ جزءًا من المهمة كان تفقد وجودهم».

«كانت مهمتنا، بصفتنا موظفين في الخارجية الأمريكية، بناء علاقات دبلوماسية بين الولايات المتحدة وأفغانستان»، تقول ماما باللغة المصوغة بحرص لموظفة في الخارجية.

«كانت العلاقات الدبلوماسية مع أفغانستان إحدى استراتيجيات الحرب الباردة. كان الروس والأمريكان يتنافسون على التقرب من الحكومة الأفغانية. بطلان خارقان مفتولا العضلات يلعبان لعبة الحرب فيمزقان البلد إربًا».

تضع أمي شوكتها.

«قد يبدو هذا وصفًا ركيكًا قليلًا لما كان يحدث، لكنك أغفلت حقيقة أننا كنا نعقد علاقات حقيقية مع أشخاص حقيقيين. كنت أعرف الرئيس داوود. قابلت تلك الأسرة. لم نكن هنا لمحاربة الروس».

«ليس عسكريًا، لا».

بدا أنهما نسيا وجودي معهما. شبكت ماما يديها معًا بقوة، رأسها يميل جانبًا. يظن جزء مني أن عليّ التدخل الآن لكنني أعرف أيضًا أنهما سيخوضان تلك المحادثة، سواء الليلة أم في أي يوم آخر. يعرف جزء مني أيضًا أن هذه هي المحادثة التي تجنبت خوضها مع ماما طوال حياتي من باب الحب الخالص.

شعرت بقدوم الصداع منذ أن جلسنا. كان تناول المسكِّن على معدة خاوية بمثابة التعذيب، لذلك ركزت على تناول الطعام وحاولت تجاهل الجدل الدائر.

«انظري، أنا آسف، أنا لا أقصد إزعاجك»، يقول كلاي مصرًا. «أنا فقط أنظر إلى الأمر بموضوعية».

«أنت حساس جدًا تجاه عملنا. لكن الروس هم من شجعوا الانقلاب. وقد صبوا الملايين والملايين في هذا البلد ليتأكدوا من شكر الناس للجامعة التي أنشؤوها...»

«ونحن فعلنا مثلهم بالجامعة الأمريكية»، يضيف كلاي.

«وهم بنوا طريق سالنك....» تواصل ماما.

«ونحن من بدأنا هذا السد...»

«وأبراج ماكرويان السكنية...»

«في حين أرسلنا نحن نحو ألفي متطوع من قوات حفظ السلام لتعليم الإنجليزية»، يقول كلاي بهدوء. لا يتعنت في ردوده، بل يُصر فحسب.

تميل ماما إلى الخلف في مقعدها وتعقد ذراعيها على صدرها.

«حسنًا، أيها المتذاكي. لنقل إننا كنا نتعامل بأسلوب واحدة بواحدة. حتى جاء الانقلاب وغير كل شيء. كان الروس يمهدون للقُبلة، الغزو العسكري وبداية النهاية. لقد رأيت الدبابات الروسية بعينيك، أليس كذلك؟»

«ورأيت صواريخ ستينجر التي أرسلها ريجان هدايا إلى الحفل».

أضع منديلي إلى جانب طبقي الذي بالكاد لمسته وأبتعد بمقعدي عن المائدة. حين أقف، يسكت كلاهما.

«لا يمكنني الاستماع إلى هذا»، أعلن لهما بجفاء.

يقف نادل، شاب في العشرينيات بحاجبين كثين بنيين، عند مائدتنا ليتفقد إن كنا في حاجة إلى شيء. يرشف كلاي من كوب ماء وتزم ماما شفتيها.

«هل يمكنني إحضار شيء لكم؟» يسأل النادل بلكنة وصوت عميق.

«أوقف إطلاق النار من فضلك». أغمغم.

يبدو النادل متسليًا.

«آسف، أختاه، هذا ليس في القائمة»، يقول ثم يحول انتباهه إلى مائدة أكثر هدوءًا بجوار النوافذ.

تنهض ماما، تضع يدها على ساعدي.

«آري حبيبتي»، تبدأ لكنني أهز رأسي.

«لا بأس يا ماما. هذا ليس خطأك. إنه ليس خطأ أحد. أنت محقة، وكلاي محق. لكنني لم آت إلى هنا لعمل تقرير وفاة الحرب الباردة. جئت إلى هنا لأجد أسرتي».

تعض ماما شفتها. تبدو متألمة، كأنها تمتص صداعي عبر يدها التي وضعتها على ذراعي.

يزفر كلاي بحدة.

«أنا في حاجة إلى تمشية»، أقول. ينهض كلاهما ليغادر معي، على وجهيهما الأسف. «ابقيا أنتما لإنهاء طعامكما... وحديثكما».

أقف خارج المطعم دقائق قليلة، لأدع جدالهما يتبدد في هواء الليل. أبدأ السير باتجاه الفندق. رغم علمي أن الوقت متأخر والهواء محمل بعادم السيارات ودخان احتراق الخشب والبلاستيك والمطاط والفحم. أفكر في ستة الملايين شخص الذين يقطنون في هذه المدينة وفي ندرة الأكسجين فيها.

بعد مسافة قصيرة، أتوقف.

ظل شخص ما يسير خلفي بمسافة أمتار قليلة منذ أن غادرت المطعم. أنظر خطفًا من أعلى كتفي. لا أميز ملامحه من هذه المسافة لكنني أرى أنه يرتدي بنطالًا داكنًا ويضع يديه في جيبيه. أعبر الشارع وأواصل السير، أمر بمحل أثاث ومركز للطباعة. أتوقف لأنظر إلى اللافتات في واجهته. يتوقف الرجل عن السير هو الآخر.

أرى سيارة تاكسي على مقربة فأتجه نحوها. أنقر على الزجاج فينظر إليّ السائق مدهوشًا. يخفض زجاج نافذته فأخبره بأنني أريد العودة إلى فندقي بسرعة. يومئ برأسه فأجلس في المقعد الخلفي.

أنظر إلى الخلف فيما يقود السائق في طريقه. يقف الرجل أمام محل الطباعة، حيث كنت أقف منذ دقائق. أرى ضوء هاتف خلوي في يده لكنه لا ينظر إلى الشاشة بل يراقب التاكسي.

في مدخل الفندق، تفتشني حارسة أمن خلف ستارة. لو تلكأت يدها على صدري قليلًا لشعرت بدقات قلبي. حين تمر حقيبتي وجسدي من نقاط الأمن، أستقل المصعد إلى غرفتي وأفتح الخزانة، بأصابع ترتعش. يقبع صندوق الجواهر وحده في زنزانته الصغيرة.

أفتح الصندوق وألمس الحجارة. هل سيكون الخاتم في مأمن هنا؟ هل سيعني لأحدهم نصف ما ظل يعني لي؟

أضع الصندوق في جيب سترتي. أترك الغرفة وأسير في الرواق، إلى المصعد ثم إلى شرفة السطح الخالية. انخفضت درجة الحرارة مجددًا. أنظر إلى حمام السباحة في الأسفل والأضواء الباهتة للسيارات المقتربة من مدخل الفندق.

من هذه القمة المتواضعة، ربوة قبالة جبال الألب، أحدق إلى سماء الليل المرصعة بالنجوم. ما زال ذيل التنين يلف حول الدب الأصغر، كما كان وأنا طفلة صغيرة. السماء تملؤها الحروب والأسى، الأبطال والأشرار، الوحوش والسحر.

«هل تستطيعان رؤيتي من هنا؟» أهمس في الليل الهادئ، يختلج خداي من البرد. المدينة بالأسفل، انعكاس باهت للسماء. أملأ رئتيّ بدخان القمح المحترق ومولدات الطاقة الطنانة، برائحة خبز طازج ورائحة بارود خفيفة، رائحة حب الهال، والحشيش المدور للرأس.. أنتشي بالهواء، يجعلني حمقاء وصادقة كالسكارى.

«سامحاني»، أقول، ويداي مرفوعتان إلى قبة النجوم في الأعلى، يخجلني الوقت الطويل الذي استغرقته للعودة إلى مسقط رأسي، للذهاب إلى المكان الآخر المقدّر لي الانتهاء فيه.

الفصل السادس والخمسون

يتردد الأذان في سماء الفجر، يؤكد المؤذن بأمل أن الصلاة خير من النوم. نسيت كيف أصلي. كانت السور التي حفظتها في طفولتي بلغة الله المقدسة أول خسائر حربي الخاصة. لكن الدعوة توقظني حتى ولو لم توقظ شيئًا بداخلي. أنهض من الفراش. ماما على مقربة أقدام قليلة على الفراش الآخر، متكورة على جانبها بظهرها لي.

أتخيل تيلي هنا معنا، تسمع الأذان. أتخيلها ترفع الغطاء عن الفراش وتفرشه على الأرض ثم تخر ساجدة لترى كيف يشعر من يعبد ربًا أجنبيًا. تُبهج هذه الصورة صباحي.

أفتح بريدي فأجد رسالة جديدة من آدم.

مرحبًا. هاتفك يصلني بالبريد الصوتي مباشرة. أنا، أوه، تركت جهاز تخزين بيانات في بيتك، مررت بك لاسترداده فأخبرتني جارتك أنك لم تظهري منذ أيام عدة. أتمنى أن تستمتعي بعطلتك. أرجو أن ترسلي لي الجهاز بالفيديكس أو تأتي به في أي وقت إلى مكتبي.

نبرته مريرة، روتينية. يكتب كلمة عطلة، ويدع عالمًا معلقًا هناك لوهلة قبل أن يواصل. يوجد توقيع جديد لرسائله برابط يؤدي إلى موقع إلكتروني. أضغط عليه وأرى صورة لآدم المترشح في قميص أبيض، بكمين مشمرين يكشفان عن ساعديه. يصافح رجلًا أسود بشعر فضي خارج محطة مترو. وآدم يبتسم ابتسامة الحفلات.

يخطر لي أن جميع أصدقاء آدم يشبهونه. كل صاحباته السابقات لا يشبهونني في شيء. يقول موقعه إنه ترشح للانتخابات من أجل الناس العادية في حيه، لكنني لم أره يقضي أكثر من دقائق قليلة مع أي شخص ليس أخاه. أنظر خارج النافذة، أتذكر المطعم الصوفي والتمشية إلى وزارة الداخلية. أحاول تخيل آدم في هذا العالم.

أرد عليه بالقدر نفسه من الإيجاز.

أنا خارج البلاد. سأرسل إليك الجهاز حين أعود.

«في أي وقت نحن حبيبتي؟» تغمغم ماما.

«مبكرًا جدًّا»، أهمس مجيبة.

تريح رأسها على مرفقها المثني وتنظر إليّ.

«فيمَ كنت تفكرين حالًا، آري؟» صوتها ناعس.

كل شيء. لا شيء.

«ذكرني الأذان أنني نسيت كيف أصلي. وجعلني أفكر في تيلي»، أعترف مبتسمة. «فكرت في أنها لو كانت هنا لكانت حاولت الصلاة».

تضحك ضحكة واهنة في البدء، ثم تنمو الضحكة فتحثني على الضحك. بعد ذلك بدقيقة يغمر غرفتنا الهادئة صوت ضحكنا. تجلس وتمسح الدموع عن عينيها.

«دعينا نفعلها»، تقول.

«نفعل ماذا؟» أسأل.

«نصلي».

«لكنني لا أتذكر...»

تقف في منامتها الخفيفة وتسير إلى النافذة لتنظر إلى سماء الفجر الذائبة. تزيح الستائر فينثال وهج وردي إلى الغرفة وعلى ملاءات الفراش المجعدة، والأحذية الملطخة بالوحل إلى جانب الباب، والطرح المعلقة على ظهر المقعد.

تمسح الغرفة بعينيها، تنقر ذقنها بإصبعها. أسحب الغطاء عن فراشي، وأفرشه على الأرض. أتذكر حين أخبرني أبي ذات مرة أن الصلاة، سواء كانت على بساط ذهبي أم حصيرة، فهي عند الله بالقيمة نفسها.

تنحني إلى الأمام، يتقوس عمودها الفقري وهي تقرب وجهها إلى ركبتيها في وضع يوجا يشبه وضع الصلاة. أفعل مثلها وإنما برشاقة أقل. ألمس ركبتيّ بيديّ وآخذ نفسًا عميقًا. ننهض وننحني معًا، ثم نسجد بوجوهنا على الأرض. يداها ممتدتان أمامها في وضعية الطفل، بالاسانا[1]. يلمس جبيني الغطاء المفروش على الأرض وأسمع أمي تهمس اسم هذا الخضوع الروحي: سجدة.

تطفو الكلمات العربية على سطح وعيي، لكنني لا أفهمها. يزداد رأسي ثقلًا، كأنني ساعة رملية انقلبت والرمل ينساب منها. أرفع رأسي ببطء إلى وضع الركوع. تنتظم الصحراء بداخلي مجددًا، تعود الرمال إلى مواضعها وينشرح صدري.

«سمعت مقولة ذات مرة»، تقول ماما. «إن الصلاة كحديثك مع الله. لكن التأمل كحديث الله معك».

يغرد طائر فيمتزج صوته بأفكارنا.

---

(1) أحد أوضاع اليوجا. (المترجمة).

«أتذكر تيلي وهي على سطح الشقة ذات يوم بذاك الوهج القوي على وجهها...» خرجت كلماتي بلعثمة. حين أرى ماما تمسح دموعها، أسكت. أردت أن أضرب نفسي. «أوه، ماما. أنا آسفة. لم أقصد إزعاجك».

«لا تأسفي»، تقول بإصرار، وجهها متألم. تلف ذراعها حولي. «أتعرفين، نحن نخاف إلى حد لعين من التحدث عن أحبائنا الذين فقدناهم، كأن التحدث عنهم سيؤذينا مثلما يؤذينا فقدانهم. لذلك لا نتحدث عنهم. لكن هذا هو فقدانهم الحقيقي».

إنها محقة. أوقفت نفسي عن التفكير في أسرتي خشية أن أسقط في هوة الحزن التي لا قرار لها، حيث لا رجعة.

«ظننتُ أن الأفضل المُضي قدمًا، اعتبرتُ الحزن نوبة برد»، تواصل كلامها. «إن لم تستسلمي له ستتحسنين. وإن لم تتغلبي عليه خلال أسبوع فأنت ضعيفة أو يوجد خطب ما حقيقي في الأمر. لكنني أظن أنه لا بأس من الحزن على الأحباء بصوت عالٍ لأيام عدة. لم أقل هذا لكِ قط. أنا آسفة، لم أكن أعرف».

في تلك اللحظة، أدركت لماذا قضيت حياتي كشخص بالغ وأنا أشعر بداخلي كورق الصنفرة. أنا مذنبة بقدر شير لسلبي نفسي أسرتي. لم أسمح لهم بأن يكونوا جزءًا مني، لم أفهم أن نورهم قد يكون فجر حياتي، أن اليوم الجيد يبدأ بصباح جيد.

«لكن تيلي»، تقول ماما وهي تلمس الغطاء بأطراف أصابعها. «لم تكن أمي تنفض المشاعر بعيدًا عنها. كانت تغرق فيها وبعمق شديد كان أحيانًا يُرعبني. ظني أنني لهذا بذلت قصارى جهدي لئلا أكون مثلها».

«كان لديها أحزانها هي الأخرى»، أخبر ماما. «لكنها كانت تدعوك بطلة خارقة».

تنظر إليّ، نصف وجهها في الظل.

«حين ظهرتِ في حياتنا»، قالت بصوت متهدج. «خطفتِ قلبها. أتذكر حديثي معها وأنتِ نائمة ذات ليلة. كنت خائفة بشدة من ارتكاب أي خطأ معك إلى حد كدت أصاب بالشلل. لكنها أمسكت بي من كتفي وقالت: «نيا، حين تجدين طفلة يمكنك إنقاذها، لا تفكري في الأمر مرتين. إما أن تنقذيها وإما أن تفقدي نفسك»».

وصفت ماما تيلي ذات مرة كقطار الملاهي. إن كنتُ قد رأيتُ المرتفعات، فلا يمكنني تخيل كيف كانت المنخفضات.

«كنت أتساءل إن كان عليّ أن أسألك المزيد عن أبويك، أخيك. ظننت أنني بذلك قد أدفعك إلى أماكن غير مريحة لكنني أفكر الآن في أنني كنت خائفة على نفسي».

أفكر في هذا. نحن الاثنتان نستحق ما هو أكثر من إجابات رقيقة الآن.

«لقد فعلت أفضل ما يمكنك. لست ملومة»، قلتُ. «أنا... أنا أكره حقًا محاولتي دفنهم بداخلي. إنه خطئي أنا أيضًا أنني لم أتمسك بهم بشكل أفضل».

«حبيبتي، لقد كنت مجرد طفلة حينذاك».

كنا جميعًا مختلفين حينذاك، حتى شير.

«أتظنين أن عليّ مسامحة شير؟» أسألها.

«هذا ليس قراري»، تجيبني. «ويهمني أكثر أن تسامحي نفسك. أنت تحمّلين نفسك ذنبًا لأنك نجوت وهم لم ينجوا. هذا ليس خطأك. لقد حملتِهم في قلبك وصرتِ شخصًا رائعًا يفخرون به.

أتمنى أن تصدقي هذا، بصرف النظر عمّا سيحدث في هذه الرحلة، وترتاحي. أنت تستحقين السعادة والحب».

تنهض وتختفي في الحمام. حين أسمع صوت الماء الجاري، أفكر قليلًا في ما أستحقه.

بأمانة، لقد ظللت أتوق إلى الرومانسية، من النوع الذي رأيته حين كان أبي يغني لأمي أغاني عاطفية بنغمات نشاز، وكانت هي تواري ابتسامتها وخديها المتوردين. توجد بيوت شعر من الشاهنامة محفورة في ذاكرتي، غريبة عن السياق كنجفة معلقة في كهف.

تعانقا بقوة عند رحيل زال،
«زال» السدى و«رودابه» اللحمة
بكيان واحد، قالا وداعًا بالدموع
ولعنا الشمس لأنها ستشرق مجددًا.

رأيت دائمًا أنني لو بذلت قصارى جهدي، وتمرنت جيدًا، وثابرت، سيصير كل شيء ممكنًا، حتى شكل ما من الحب.

لكنني لم أفكر قط في عيش قصة الحب الطاغي التي كانت بين زال ورودابه، من ضمن أشياء كثيرة فقدتها في النيران. شيء صغير للحزن عليه، خاصة وأنا أقف على مسافة قريبة من حيث فقدت الجميع.

قد تكون ماما محقة بشأن مسامحتي نفسي لكنها لا تعرف الهوة التي أراها حين أنظر إلى ما بداخلي. ماذا لو سامحت نفسي ولم يتغير شيء؟

الفصل السابع والخمسون

ما زال السائق لم يخبرنا إلى أين نتجه. نتوقف عند إشارات المرور المزدحم، نشعر بفقدان الاتجاهات. أنظر إلى السيارات حولنا وإلى المارة على الطريق، أبحث عن الرجل الذي رأيته ليلة أمس. لا أرى أي شخص بالطول نفسه أو البنية نفسها. لا أحد بسترة بنية كسترته.

لم أقل شيئًا عنه لكلاي أو لماما. لا أريد أن يحد أحد من حركتي أو يقطع هذه الرحلة، ليس بعد أن اقتربت إلى هذا الحد.

بعد الانقلاب مباشرة، كنت أشعر أن كابول كلها تطاردني، لكن الكثير جدًا قد حدث منذ ذاك الحين بحيث لم أعد ذات أدنى أهمية. من الناحية الأخرى، كنت قد قرأت أن المختطفين يجوبون البلد لخطف الأجانب بأمل نيل فدية كبرى. من التعليقات التي سمعتها عرضًا، ليس سرًّا أنني وافدة من الخارج. *ربما جاءت لتأخذ جنديًا معها*، تمتمت امرأة لرفيقتها وأنا أمر بهما.

تقرقر معدتي. لم تكن لدي شهية هذا الصباح ولم أتناول سوى قطعة خبز.

«كلاي، هل هذا هو المبنى الذي كنت تتحدث عنه؟» تسأل ماما. حين كنا نرتدي ملابسنا هذا الصباح أخبرتني بأنها وكلاي أنهيا نقاشهما في وقت متأخر ليلة أمس. تحولت محادثتهما من تاريخ أفغانستان إلى ألبومات البيتلز وأفضل طريقة لإعداد كوب قهوة. أعجب كلاي بطريقة نقع حبوب البن التي تعلمتها ماما في ماليزيا. يبدوان منسجمين تمامًا هذا الصباح.

«نعم، هذا هو»، يُجيبها. يرفع هاتفه إلى نافذة السيارة، يلتقط صورة. نمر بصف من العمائر العالية، شرفات طابقيها الثاني والثالث عريضة ودرابزينها مزخرف بأعمدة مذهبة. «أتعرفين تلك الصور لتجار المخدرات الكبار الذين يرتدون عشرات السلاسل الذهبية السميكة حول أعناقهم؟ لهذه العمارة الهيئة نفسها أيضًا. هذا ما يُدعى بعمارة المخدرات».

«إنها قبيحة بشكل إجرامي». تعلق ماما.

ألحظ السائق ينظر في مرآة الخلف. حين تلتقي أعيننا، ينظر في هاتفه بسرعة. أتساءل إن كنا سذجًا جدًّا لنركب هذه السيارة ثم أوبخ نفسي للمبالغة في شعوري بالاضطهاد.

«آغا»، أخاطبه بالدارية محاولة أن أبدو طبيعية. «سيكون علينا التوقف قليلًا لشراء زجاجات عصير. لم نتناول إفطارًا كبيرًا».

يهز السائق رأسه.

«لا داعي لهذا أختاه. سيقدمون لكم شيئًا ما هناك»، يقول.

أبلع ريقي بصعوبة. تحاول ماما قراءة تعبيرات وجهي.

«سألته إن كان بإمكاننا التوقف لشراء عصير»، أقول لها بهدوء بالإنجليزية. حين كررت لها ما قاله السائق تجمّدت للحظة. التفت كلاي إلينا.

«كيف الحال؟» يسألنا.

«جيد»، أقول وأنا أفكر في سيناريوهات الهروب. يمكننا القفز من السيارة عند منعطف، يمكننا الضغط على السائق ليخبرنا بالحقيقة، أو نرسل رسالة طلب نجدة من هاتفي. لن أسمح بأن نضاف إلى قائمة المفقودين.

نمر بيافطات إعلانات شركات الهواتف المحمولة ووكالات السياحة. يتسع الطريق، تقل طوابق البنايات وتتباعد المسافة بينها. يزول الغبار ويحل محله الدخان. نحن على تخوم كابول، نتجه شرقًا. تختفي المدينة من خلفنا ويرن هاتف السائق. يجيب، يخبر المتصل أننا على وشك الوصول. ثم ينصت إليه، يومئ برأسه وينظر إليّ مجددًا في المرآة.

أبحث في المقعد الخلفي عن أي شيء يمكنني استخدامه سلاحًا. أُخرِج قلما من حقيبتي وأعدد في ذهني المواضع التي يمكنني طعنه فيها بسن القلم. حين ترى أمي قبضتي على القلم، يتغضن جبينها بقلق.

«آري...» تقول. تقصد طمأنتي لكنني أرى ظلّ شك يعبر وجهها. تنظر إلى رأس السائق من الخلف.

«يا صديقي»، يقول كلاي، بسحره المعتاد. «هل نحن ذاهبون إلى حيث أظن؟»

ينظر السائق إليه خطفًا، ثم يعاود الالتفات إلى الطريق.

«إنه يسأل إن كنت تتجه بنا إلى بول إي شارخي»، أقول للسائق بالدارية.

يومئ برأسه.

كان أبي قد أشار على الرئيس داوود بعدم بناء سجن كبير. حين تبني سجنًا كبيرًا بما يكفي ليبتلع المدارس، فلا تدهش حين يحدث هذا بالضبط.

يلوح مبنى السجن كقلعة في الصحراء. جدران حجرية عالية يعلوها أسلاك متشابكة. يقف الحرس في أبراج المراقبة في

الزوايا. على مساحة عشرة مبانٍ، بمبانيه المركزية مشيدة على شكل دائرة. يلتفت كلاي إليّ وهاتفه في يده.

«ليست لدي شبكة هنا»، يقول. «ماذا عنكِ؟»

أنظر إلى هاتفي. استقباله ضعيف أيضًا. مع ذلك، أرسل رسالة سريعة إلى كارلا في السفارة الأمريكية.

نحن في بول إي شارخي. قادنا رجال من وزارة الداخلية بعد أن قابلتهم للاستفسار عن لجنة البحث عن الجثث. لا يقولون الكثير مع ذلك.

أضغط زر الإرسال. تنتقل الرسالة إلى صف «انتظار» إلى حين تتاح الشبكة مجددًا.

ينظر كلاي إليّ، يعبر وجهه ظل شك هو الآخر.

يوقف السائق السيارة وينتزع المفاتيح من المشغِّل. يشير إلى بوابة ويخبرنا أنه بإمكاننا السير إليها.

«إنهم في انتظاركم في الداخل»، يقول. نترجل من السيارة ونقف معًا. تعدل ماما طرحتها، تضع أحد طرفيها على فمها لحجب الغبار.

«ظني أن علينا الدخول»، تقول.

يسير السائق إلى البوابة، يكور يديه حول فمه ويصيح على أحد ليأتي ويفتح البوابة. يظهر حارس ويرمقنا بنظرة مطولة من خلف القضبان الحديدية قبل أن يدير مفتاحًا. ينفتح الباب بقعقعة.

يشير إلينا الحارس برأسه لنتبعه إلى مبنى أصغر من مبنى مجاور له. طرازه متقشف بنوافذ عالية.

في الداخل، يجلس ثلاثة رجال يرتدون الزي العسكري إلى طاولة خشبية. أحدهم يمسك سيجارة بين إصبعيه؛ يطرف بعينيه وهو ينفث دخانها في الغرفة. يمعنون في النظر إلينا بفضول وأنا أمسح الغرفة بعينيّ. لا يوجد الكثير. تقويم على الحائط، مكتب عليه صندوق أحذية، وخزانة ملفات في الركن.

يقف الرجال فألاحظ أن لدى كل منهم مسدسًا معلقًا بخصره.

«تفضلوا بالجلوس»، يقول المدخن. ذهب السائق. يفتح أحدهم ثلاثة كراسي قابلة للطي ويضعها أمام الطاولة. نجلس، بظهورنا إلى الباب. تفصيلة ليست بذات أهمية. إن ركضنا إلى الخارج، سنجد أنفسنا في البراح الرملي الشاسع.

«أخبرونا رجاءً. سمعنا أنكم تستفسرون عن جثث الرئيس داوود وأسرته».

أجلس بساقيّ معقودتين، ظهري مستقيم. أتخيل نفسي في غرفة عمليات لأستلهم الشعور بأنني أسيطر ولو قليلًا على الأمر.

«لقد ناقشنا الأمر بالفعل مع وزارة الداخلية. وهم من رتبوا أن يقلنا السائق إلى هنا، لذلك فمن المؤكد أنهم أخبروكم أن أسرتي قُتلت أيضًا مع عائلة الرئيس داوود». أكرر قصتي، أستبعد تفصيلة وجودي في القصر ليلة الانقلاب. حين أنهي كلامي، يسود الصمت وقتًا طويلًا.

يسحق المدخن عقب سيجارته في منفضة سجائر زجاجية.

«هذا حقيقي»، يقول بخشونة. وجدنا قبرًا يحوي جثثًا.

أشعر بقلبي يضج. أميل إلى الأمام في جلستي.

«لكن هذا ليس جديدًا. نعثر على قبر واحد على الأقل سنويًا. قد يحوي خمسة، أو مئات الهياكل العظمية المجهولة».

«وجميعهم يستحقون دفنًا لائقًا. بالطبع، قتلى الانقلاب ليسوا الاهتمام الوحيد».

«كان ذلك الانقلاب منذ وقت طويل جدًا»، يقول.

«كان يوجد الكثير جدًّا من البيادات الملطخة بالدم في القصر»، أقول بإصرار. «بالتأكيد رغب أحد ما في التقدم خطوة إلى الأمام وكسر الصمت».

يشوب صوتي اليأس. أكافح لاستعادة شعوري بالسيطرة.

ينظر الجنديان إلى من يبدو أنه رئيس هذا الثلاثي.

«التحقيقات جارية»، يقول بنبرة سلطوية. «لم نتأكد بعد من هوية الجثث التي عثرنا عليها».

«لكنكم تعرفون أنها جثث من كانوا في القصر؟» قلت بنبرة نصف استفهامية ونصف بيانية.

«أنت تعرفين، لم يُقتل جميع من في القصر تلك الليلة. بعضهم أُحضِروا إلى هذا السجن وأُعدموا في ما بعد. بعضهم الآخر ساعدهم شاه إيران على الهرب إلى أوروبا. ربما كانت أسرتك تعيش في المنفى؟»

كلاي وماما يراقبان وجهي باهتمام، يجاهدان لمتابعة الحوار. يريان رأسي يسقط، كأنه مشدود إلى الأرض بشيء أقوى من الجاذبية. في النهاية، أستجمع قوتي لأواصل.

«ليسوا في المنفى»، أقول بهدوء. «لم يُمنَحوا رحمة السجن حتى. أنا أبحث عن جثامينهم فقط يا أخي. لقد شهدت مقتلهم بعينيّ».

شاهد. شهيد.

شهيد. شاهد.

كلمتان قريبتان جدًا. كنا قريبين جدًا.

يلين وجهه.

«رحمة الله عليهم»، يقول، عبارة صغيرة مريحة من رجل في الغالب لم يرَ سوى قليل من الراحة طوال حياته. يمد يده إلى صندوق الحذاء على المكتب.

«ما سأخبرك به الآن ليست معلومات يمكن تداولها بين العامة. أنا أعرف أن صديقك هنا صحافي، لكن هذا سري جدًا. أهذا مفهوم؟»

«تمامًا»، أقول وأنا أنظر إلى كلاي وماما وأومئ برأسي. يومئان هما الآخران، يشعران بمسار الحوار. أنظر إلى حِجر كلاي بحدة. فيضع قلمه ويغلق دفتر ملاحظاته ويميل إلى الخلف في جلسته.

«تلقينا معلومات عن موقع الجثث. بدأنا الحفر. وجدنا ستة عشر رفاتًا ونحن حاليًا نعمل على التأكّد من هويتها».

«لقد عثرتم عليهم»، أقول. «لا بد أنهم بين هؤلاء».

يهز رأسه.

«أختاه، نحن نعتقد أن الجثث التي عثرنا عليها جميعها من أفراد عائلة الرئيس داوود خان».

«كيف تتأكد؟»

يفتح الصندوق ويخرج منه رزمة صور فوتوغرافية. ينشرها على المكتب. أرى مشمعًا أزرق فأدرك أنني أنظر إلى موقع العثور على الرفات. في صورة أخرى. توجد حليّ صغيرة مرصوصة إلى

جانب رفات آدمية ولافتات صغيرة. وجدوا بين الهياكل العظمية، يوضح، أدلة لم تتحلل. لا يمكنني قراءة الأسماء المكتوبة بسبب تغبش عينيّ، لكنني أرى مشابك معدنية صغيرة، ومصحفًا ذهبيًّا صغيرًا وحذاء تقويم عظام.

«كان الرئيس داوود يحمل هذا المصحف معه في جيبه طوال الوقت»، أقول بأسى وأنا أتذكر حين طلبت نيلاب من جدها أن يرينا المصحف الذي أهداه إياه أحد ملوك الشرق الأوسط.

الرئيس وزوجته.

أبناؤهما الستة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

شقيق.

زوجة شقيق.

أربعة أحفاد، من بينهم رضيع.

أغمض عينيّ في مواجهة فيض الذكريات. تعلمت نيلاب شغل الإبرة ليمكنها شغل طاقية صوف لذلك الرضيع في الشتاء. أرى وجه كل واحد منهم -جبين الرئيس المتغضن، وغمازتي ابتسامة نيلاب، وابتسامة رستم المتحمسة- كأننا اجتمعنا في قاعة الطعام في القصر. كان مقدرًا لنا أن نقضي حياتنا معًا.

يصعب تنفسي.

أتنحنح. فكرت مليًا في الأشياء التي سأبحث عنها في التراب.

«كان لدى أبي ساعة يد فضية منقوش عليها رأس حصان. وكانت أمي ترتدي سلسلة ذهبية بدلاية لفظ الجلالة. أخي... كان في الثالثة من عمره. أسنانه... أسنانه لبنية...»

ينسد حلقي. لا تمرين تنفس ولا أكبر قدر من التأمل يمكنه تحريري من الشعور بالاختناق.

تلف ماما ذراعيها حولي. يطرق كلاي برأسه. أنتظر أن يتحدث الرجل.

«أختاه، يؤسفني إخبارك...»

أحاول التماسك.

«لكننا لم نجد شيئًا مما تقولينه».

أرفع بصري إليه. هذا مستحيل. نُقِلت الجثث كلها من القصر تلك الليلة. بالتأكيد دُفِنت جميعها في مكان واحد. أتذكر ما حدث في وزارة الداخلية. أفتح حقيبتي وأخرج منها محفظتي.

«كم تريد؟ أخبرني. خمسين؟ مئة؟ مئتين؟»

ينظر أحدهم إلى الآخر.

«أريد أن أمنحهم مدفنًا لائقًا. كنت ستريد ذلك لأسرتك لو كنت مكاني».

«آريانا»، تقول ماما بحدة، كأنها تريد إفاقتي من غيبوبة. يرتعش نفس في صدري.

يجمع الرجل الأوراق النقدية التي ألقيت بها على الطاولة بيننا ببطء. يعيدها إليّ فتهوي معدتي.

«أنا أيضًا فقدت أحباء. الله شهيد، كنت أتمنى أن أمنحك السلام الذي تستحقينه الآن».

«تعالوا»، يقودنا إلى الخارج فأتوقع أن يخبرنا بأن نغادر الآن لكنه لا يفعل، بل يشير لنا أن نتبعه نحو شيء ما خلف مبنى آخر. نسير نحو عشر دقائق من عند جدران السجن إلى الطرف الآخر

من ساحة. لا يوجد الكثير لتراه العين هناك. الجبال العالية. صف من الأشجار ذات الجذوع السميكة بين ساحات السجن والمزرعة المجاورة. نهبط ربوة صغيرة ونرى تربة محروثة حديثًا، فيها حفرة.

«هل وجدتم الجثث هنا؟» أسأل.

يومئ برأسه.

أهبط التل بتثاقل، أترنح. عند حافة الحفرة، أخرّ على ركبتي وأحدق إلى الأرض. أكانوا في عجلة من أمرهم؟ ربما أعثر أنا على شيء لم يروه.

لكنني لا أجد شيئًا هنا.

أفكر في المسافة التي قطعتها حتى آتي إلى هنا، في الوقت الذي انتظرته. تنسدل طرحتي عن رأسي، لا مجال للحشمة وأنا أضغط برأسي على الأرض وأنعي آخر بصيص أمل كنت أحمله.

الفصل الثامن والخمسون

تستغرق العودة إلى كابول وقتًا أطول بكثير، كأن السيارة تثقلها الهزيمة.

«أنا آسفة جدًا، حبيبتي»، تقول ماما تحاول تعزيتي. أنظر إلى الخارج من النافذة دون أن أتحرك. لا يمكنني النظر إليها الآن. لا يمكنني النظر إلى أحد الآن. لم يقل كلاي الكثير. بعد أن صاح في الجنود الذين حاولوا منعي من الوقوف في الموقع.

أرجوكم، هذا كثير. إنها في حاجة إلى وقت، توسل إليهم. كان محقًا. كان الجرح غائرًا جدًا كأن الانقلاب قد مضى عليه ثلاثة أيام فحسب وليس ثلاثة عقود.

نعود إلى الفندق، أتناول دواء الصداع النصفي وأنام لبقية الظهيرة. تحاول ماما إيقاظي لتناول العشاء لكنني لا أستطيع النهوض. تربت على ظهري، تمسد شعري. أسمعها في الحمام تحاول تغطية صوت نشيجها وتنهداتها الثقيلة بصوت الماء الجاري. أريد أن أخبرها أن أحزاني تكفينا نحن الاثنتين، لكنني لا أستطيع صوغ الكلمات.

عند منتصف الليل، توقظني ضجة في الرواق. أحد خدم الغرف ربما يجمع الصواني أو يوزع الجرائد. أغمض عيني لكنني لا أستطيع العودة إلى النوم. أنزلق من تحت الأغطية، أفتح حاسوبي المحمول، وأعيد الاتصال بشبكة الإنترنت الخاصة بالفندق. أنظر في بريدي الإلكتروني، ومن باب العادة، ألج إلى نظام المستشفى لأتفقد إن كان يوجد أي رسائل طارئة من

مرضـاي. مـا زال زملائـي يسـجلون فيـه الروشـتات وصـور الأشـعة للمتابعـة. مـا زال أفـراد الطاقـم يحـددون المواعيـد ويتشـاحنون مـع شـركات التأميـن مـن أجـل الأذونـات المسـبقة. يوجـد ثـلاث رسـائل فقـط غيـر مقـروءة. الأولـى عـن رفـض القيـام بأشـعة سـينية لأحـد المرضـى، والثانيـة لمريـض يسـأل عـن الإحالـة إلـى مختـص عـلاج بالإبـر، والثالثـة مـن طبيـب رعايـة أوليـة يخبرنـي أن مريضًـا مشـتركًا بيننـا قـد توفـي.

اسمه شير نابي.

لا يدهشـني الخبـر. أتذكـر مظهـره الـذاوي. شـحوبه. أفكـر فـي القـذف بحاسـوبي فـي حائـط الغرفـة.

أشـتعل غضبًـا منـه لأنـه لـم يخبرنـي بالمزيـد قبـل موتـه. ومـن نفسـي لأننـي لـم أضغـط عليـه بشـكل أقسـى، لأننـي تسـامحت مـع إجاباتـه غيـر المباشـرة، ومـع التفافـه حتـى فـي محادثتنـا الأخيـرة.

أكان يعرف أنه لن يعيش ليرى عودتي؟

كنت قريبة جدًّا. كنت قريبة جدًّا.

أضغـط عينـيّ المغمضتيـن بباطـن يـديّ وأرى شـهبًا تحتـرق فـي فضـاء، ومضـات ضـوء عنيفـة. ظـل شـير، منـذ ليلة الانقـلاب، يجعلني أشـعر بأننـي أسـوأ نسـخة من نفسـي وظللـت أكرهـه لهـذا أيضًـا.

أرتـدي مـلابس الركـض وحذائـي الرياضـي. أغـادر الغرفـة قبـل أن تلاحـظ مامـا. لا بـد أن اليـوم قـد أتعبهـا. حيـن سـنعود إلـى البيـت، سـأجد طرائـق لقضـاء مزيـد مـن الوقـت معهـا. أيًّا كان مـا سـيحدث فـي هـذه الرحلـة. لا أريدهـا أن تقلـق علـيّ.

الصالـة الرياضيـة مغلقـة. الوقـت منتصـف الليـل وعلـيّ العـودة إلـى النـوم أو القـراءة أو البحـث عـن وجبـة سـريعة فـي غرفتـي لكننـي أتوجـه إلـى البهـو وأطلـب مـن موظـف الاسـتقبال فتـح الصالـة الرياضيـة لـي.

سـواء مـن بـاب الشـفقة أم الخـوف، يوافـق الرجـل علـى طلبـي بعينيـن ناعسـتين. أشـكره، تخـرج كلماتـي بالداريـة. يتوقـف قبـل أن يغـادر الصالـة مباشـرة، إحـدى قدميـه فـي الـرواق.

«هـل أنـتِ أفغانيـة؟» يسـألني بالداريـة أيضًـا. أومـئ برأسـي. يضغـط شـفتيه فـي خـط رفيـع. «هـل... هـل أنـتِ بخيـر يـا أختـاه؟»

أبتسم بضعف.

«بقدر ما يكون أيًا منا»، أجيبه فتند عنه تنهيدة طويلة.

«سـأدعو لـك الله»، يعدنـي. أسـمع وقـع خطواتـه الهـادئ يبتعـد قبـل أن أبـدأ الحـركـة علـى الجهـاز.

وأركض.

خـلال دقائـق، يبـدأ الشـعور بالثقـل فـي رأسـي بالـزوال. أعـب بصـدري كل الأكسـجين المتوفـر فـي الغرفـة وأطـرد الغبـار مـن رئتـي. أشـعر بألـم حـارق فـي سـمانتيّ وردفـيّ. أُسـرع فـي ركضـي فيـزول الألـم.

اسـتغرقهم الأمـر ثلاثيـن عامـا ليجـدوا هـذا الموقـع. والآن وقـد عثـروا علـى جثاميـن الرئيـس وعائلتـه، لا داعـي للبحـث عـن مستشـاريه الذيـن لـم تذكـر أسـماؤهم قـط فـي أي مـن كتـب التاريـخ.

تسيل قطرات العرق من جبيني على عينيّ.

يجب أن أترك هذا الأمر. لا يمكنني استعادتهم، ولا يمكنني محادثة شير مجددًا.

لا مناص.

سأفقد صوابي إن ظللت أفكر في ما كان عليّ فعله بشكل مختلف، لو فكرت في جميع البدائل التي كانت ستؤدي إلى نتائج مختلفة. لن أفعل هذا.

سأعيد الخاتم إلى المتحف غدًا وأغادر في أول طائرة. يمكن لكلاي أن يبقى لمتابعة قصصه. يبدو كأنه في بيته هنا أكثر مني في جميع الأحوال. أريد أن أعود إلى شقتي، مرضاي، حياتي.

بعد ستة أميال، أقلل سرعة الجهاز.

أعود إلى الشرفة وأنتظر تردد الأذان. سماء الفجر لوحة بألوان فاتحة. أراقب شمسًا بلون المشمش تتخذ موقعها بين سحب رقيقة. حين أتشبع بالمنظر كله، أعود إلى غرفتي وأجد ماما مرتدية ملابسها لكنها تبدو شاحبة من دون طلاء شفتيها وخديها.

«أوه، الحمد لله»، تقول وهي تلقي بفرشاة أسنانها على التسريحة. «ظننت أنك هربت بخطة متوحشة ما...»

أجلس على الفراش وأخبرها أنني لدي خطة بالفعل. أخبرها بما قررته بصوتي الأشد حزمًا كأنني أراجع نتائج الأشعة مع مريض.

«هل أنتِ متأكدة من أنك تريدين الرحيل؟» تسألني.

«ظني أن عليّ هذا»، أجيبها ثم أسكت قليلًا قبل أن أردف. «لقد مات شير».

«أوه، آري»، تجلس على الفراش بجواري. أطرف بعيني لحبس دموعي. أراهن أنها تذكرت اللحظة نفسها التي تذكرتها. حين دفع بي شير إلى الأمان بين يديها. إننا أسرة واحدة بسببه هو.

«حسنًا، وهو كذلك»، تقول، وهي تستجمع نفسها وتعاود التركيز على الخطط والمهام التي أمامنا، كعهدها دائمًا طوال الثلاثين عامًا الماضية. تتجه إلى الهاتف وتتصل بكلاي لتخبره بما قررناه فيما أذهب لأستحم.

نتناول الإفطار، يخيم الصمت على مائدتنا. أنظر إلى كلاي ثم إلى ماما.

«أنا بخير»، أخبرهما. «بخير حقًّا».

بالكاد يبدو عليهما الاطمئنان.

«سأعود إلى المستشفى، وستعود ماما إلى أنشطتها المهمة وسيعود كلاي إلى سيلينا والندوات عن كتبه»، أقول بإصرار.

«لست مضطرًا إلى العودة سريعًا إلى وكيلة أعمالي»، يقول كلاي بصوت ناعم كالمخمل. «سأذهب معكِ إلى المتحف. وإلى أي مكان آخر تريدين الذهاب إليه، إن أردتِ صحبة. سأبقى في كابول مدة. لدي أسابيع عدة قبل أن تبدأ سلسلة ندوات كتابي المقبلة».

سيلينا وكيلة أعماله. يحمر وجهي، أشعر بحماقة لافتراضي كونها أكثر من هذا. أدهش قليلًا أيضًا لأن هذا الإعلان يحرك شيئًا ما بداخلي.

يرتفع حاجب ماما قليلًا. كعادتها، منقذتي، تصفق بيديها وتعيد علينا خطة التحرك في يومنا الأخير.

«سأذهب إلى السفارة»، تبدأ قولها. كانت في زيارتنا الأولى قد أخبرت دائرة صغيرة من زملاء كارلا أنها سبق لها مقابلة أغلب زعماء الحرب وكبار المجاهدين. كانوا الطلبة المشاغبين في الكليات المحلية حين كانت ماما تعمل في كابول. طلبت كارلا من ماما أن تعاود الزيارة لمد فريق العمل بما تتذكره؛ فقد عاد عدد من هؤلاء الرجال إلى كابول بعد قضاء سنوات في الخارج. «أنا متأكدة من أنهم يحاولون إشراك زميلة عمل عجوز فحسب. لا يمكنني مساعدتهم بشيء الآن سوى إخبارهم بألا يرتكبوا الأخطاء التي ارتكبناها».

يُدهشني تعليقها. لا أرغب في رؤيتها هي وكلاي يخوضان محادثة طويلة مجددًا عن أي أخطاء تقصد، فأعلن خطتي أنا لهذا اليوم.

«وأنا سأتوجه إلى المتحف»، أقول وأنا أنهض. ينفض كلاي الفتات عن حجره ويرشف رشفة أخيرة من كوب ماء قبل أن ينضم إليّ.

نفترق كل في طريقه من أمام الفندق. يتوجه تاكسيّ أنا وكلاي جنوبًا، ويتجه تاكسي ماما شرقًا، نحو النطاق الأخضر. يجلس كلاي في المقعد الخلفي بجانبي. أعي بشكل لا يمكن تجاهله السنتيميترات القليلة التي تفصل بيننا. نحن في أفغانستان وعرضة للنظرات الاتهامية، مع ذلك هذا ليس السبب الوحيد.

«يجب أن تكتب عن الرفات التي عثروا عليها»، أخبره. تمر السيارة بحفرة، فنهتز في مقعدينا. أتأكد من حزام أماني وأشير إلى كلاي أن يربط حزامه. «إنهم يخفون الأمر الآن لكنهم سيضطرون إلى الإعلان عنه قريبًا. لقد كان الرئيس».

يعبس كلاي.

«لا أعرف»، يقول.

«إنها قصة جديرة بالذكر». أصر.

«لا شك في ذلك»، يجيبني ثم يلتفت وينظر إلى عينيّ مباشرة، نظرة ثابتة رغم اهتزاز السيارة على الطريق. «لكنها قصة قريبة منكِ جدًّا يا آريانا».

«كانت بداية كل شيء يا كلاي. يجب أن يعرف الناس كيف وصلنا إلى كل هذا». أقول وأشير إلى العالم في الخارج. «هل ترى هذا؟ أنا أعرف أنك تراه».

«إنها قصة قريبة منكِ جدًّا»، يكرر. «لقد جئت لأكتب عن المتحف، الحرب. وليس عنكِ».

«يمكنك الكتابة عن كلانا. ليس عليك الاختيار بيننا»، أصر.

أرى عزمه في التكوين المربع لفكيه.

«إن كل مقالة أكتبها اختيار متعمد، آريانا. أتأكد مسبقًا من قائمة تساؤلات قبل أن أمسك بقلمي. هل الأمر مهم بالنسبة إليّ؟ بالنسبة إلى الآخرين؟ هل سأفي القصة حقها؟ هل سيلحق الأذى بأحد جراء حكيها؟ هل سأصل إلى شيء ما لا ينبغي الكشف عنه؟»

أريح رأسي على نافذة السيارة وأتشبع بالمنظر من حولي، استراحة طينية.

«وإن لم تلق قبولًا، لا أكتبها. لأن صحافيين كثيرين يجوبون الأنحاء هنا ويدّعون اكتشاف أشياء كانت هنا منذ الأبد. أو يكتبون بذاءات رخيصة ليحظوا بسبق صحفي».

لا يتفوه أحدنا بشيء آخر حتى تتوقف السيارة أمام بوابة مبنى بطابقين، مبنى أنيق من الحجر الرمادي وتفاصيل معمارية بيضاء. يُذكر المرج أمامه، بمماشيه الحجرية وشجيراته، بحديقة إنجليزية أو مدرسة خاصة. لن أدهش لو سمعت صوت جرس ورأيت عشرات الأطفال في زيهم المدرسي النظيف يخرجون مندفعين من الباب الأمامي.

على النقيض منه تمامًا، يقبع كشك الحراسة الخشبي بسقف غير مستوٍ. خارجه حارسان يرتديان زيًّا رسميًا بلون سماوي. أحدهما لديه بندقية إلى جانبه.

«أتظن أن سلاحه محشو؟» أسأل.

«لم يخطر لي قط أن حارسًا قد يقف بسلاح خالٍ».

نسير عبر البوابات التي تعلوها أسلاك ملفوفة. إلى الباب الأمامي، ندخل إلى قاعة فسيحة بجدران مطلية حديثًا وأضواء ساطعة. يرمقنا رجل بعمامة سوداء وقميص وسروال بيضاوين، باهتمام ضعيف. يتوقف عن تلميع خزانة زجاجية ونحن نمر به وأقرأ المكتوب عليها: *تبقى الأمة ما بقيت ثقافاتها*.

يأخذ منا رسوم الدخول ويشير إلينا لنواصل سيرنا. يتردد وقع خطواتنا الهادئ على الأرضية البلاط. ألاحظ أننا الوحيدان في المكان. داخل حقيبتي التي أحملها إلى جانبي بحرص الخاتم المنشود الذي سافر معي إلى الجانب الآخر من العالم وعاد مرة أخرى. هذا المتحف صرخة بعيدة قياسًا إلى المتاحف التي زرتها في أوروبا أو في نيويورك سيتي. أشعر بتمزق.

أنظـر فـي كل مسـاحة بعينيـن منتبهتيـن، أبحـث عـن علامـات توجّـه قـراري. نقـف فـي غرفـة طويلـة يغمرهـا الضـوء ننظـر إلـى صحـن لامـع مطلـي بألـوان الـلازورد حيـن نسـمع وقـع خطـوات أخـرى يتـردد فـي الغرفـة.

«سـيدتي، سـيدي. مرحبًا بكما». يعبر الغرفة رجل أنيق بشـعر كث يشـبه القـش ويحيّينـا بانحنـاءة احتـرام. وجهـه غـض وسـترته وبنطالـه واسـعان جـدًا، كأنـه اشـتراهما مـن محـل للملابـس المسـتعملة. «أنـا نصـرت، رئيـس المتحـف. شـكرًا لكمـا علـى مجيئكمـا».

نتبـادل مجامـلات قليلـة مـع نصـرت ونكتشـف أنـه المسـؤول عـن مجموعـة المقتنيـات أيضًـا. يسـأل عـن عملنـا وعـن سـبب وجودنـا فـي كابـول. أخبـره بأننـي طبيبـة لكننـي هنـا مـع كلاي مـن أجـل بحثـه. لا يزعجـه غمـوض توضيحـي. يسـير معنـا، يتحـدث بحماسـة عـن ترتيـب الغـرف طبقًـا للمرحلـة الزمنيـة.

منحوتـة خشـبية لفـارس مـن القـرن الثامـن. آنيـة زهـور حجريـة منقـوش عليهـا أجسـاد عاريـة. زي أفغانـي تقليـدي مـن الطـراز الكوجـي[1]. ننعطـف فـي أحـد الأركان ونشـاهد جداريـة منقـوش عليهـا حـروف مـن العالـم القديـم.

«هـذا هـو نقـش رباطـك مـن عهـد الإمبراطـور كانيشـكا[2]»، يوضـح نصـرت. «الكتابـة باختاريـة ويونانيـة. مـن القـرن الثانـي».

يلتقط كلاي صورًا عدة بهاتفه، من زوايا مختلفة.

---

(1) رعاة رحل من مناطق جنوب وشمال وغرب أفغانستان. (المترجمة).

(2) ملـك إمبراطوريـة الكوشـان فـي القـرن الثانـي للميـلاد اشـتهر باعتناقـه البوذيـة ونشـرها. (المترجمـة).

«يتضمن تاريخنا حكامًا كثيرين، وأديانًا كثيرة»، يشير بحاجبيه نحو الباب ويقول لكلاي بنبرة تهكمية تآمرية: «لكننا نتحدث عن هذا بهدوء. لا داعي لإيقاظ طالبان».

«هل لديكم قطع من آي خانوم؟» أسأله.

«شكرًا لك دكتورة لسؤالك عن آي خانوم»، يقول نصرت ثم يقودنا إلى طرف الغرفة ويشير إلى صف من الخزانات الزجاجية الفارغة.

«أغلب القطع الباختارية[1] ليست هنا»، يقول بهدوء وأسف. لكنته ثقيلة لكن إنجليزيته سليمة بشكل لافت. يواصل ليحدثنا عن التلاعب بكنوز العالم القديم، انتقلت القطع الفنية من المتحف، إلى فندق سيرينا، إلى خزائن أسفل منضدة الاستقبال. سُرق منها الكثير لتسقط في السوق السوداء الدولية».

«سُرِقت لوحات عاج باغرام[2] وبيعت، وهي معروضة الآن في متحف في إنجلترا. نحن نرحب بعودة مقتنياتنا الفنية أكثر من اللاجئين. لكننا ببطء، إن شاء الله، سوف نعيدها إلى موطنها. هذا هو عملي»، يقول نصرتْ بفخر.

أشعر بأن على رجل أكبر سنًا منه أن يقوم بهذا العمل، رجل بشعر رمادي ووجه مجعد وكتب قديمة على أرفف مكتبه. لكن كبار السن قليلون في هذا البلد. هذا بلد اليافعين، بوجوه تملؤها البثور وسلطة تتطور وتتحدى وتخطو على نهج الأسلاف.

(1) باختر أو باختريا وسماها الإغريق باكتريا هو الاسم القديم لمنطقة شمال غرب أفغانستان وتسمى الآن بلخ. (المترجمة).

(2) باغرام أو بجرام مجموعة فنية تضم أكثر من ألف لوحة صغيرة عثرتْ عليها بعثة فرنسية في مقاطعة بجرام شمال أفغانستان في الثلاثينيات. (المترجمة).

نصـرت أكاديمـي متفائـل. يـدرِّس فـي الجامعـة. لديـه زوجـة وطفـلان يأمـل أن يدرسـا التاريـخ.

«هـذا الركـن الصغيـر عـن كابـول»، يقـول وهـو يشـير إلـى قطـع فنيـة مرتبـة بعنايـة فـي الغرفـة. «يومًـا مـا، سـيأتي الكثيـرون لرؤيتـه. الأنظمـة تأتـي وتذهـب. الإسـكندر وحاشـيته، جميعهـم تـراب الآن. لكـن الأشـياء التـي نصنعهـا فقـط - صحـن، مشـبك شـعر، خاتـم - هـي مـا تبقـى لتحكـي قصصنـا».

ينظر إليّ، عيناه تغوران بالإدانة.

«دكتـورة، أنـت تنقذيـن حيـاة البشـر الآن. المتحـف ينقـذ حياتنـا بعـد مماتنـا».

ظننـت أننـي سـأتفقد جـدران المتحـف وتجهيزاتـه لأقـرر إن كان مكانًـا آمنًـا لوضـع الخاتـم فيـه أم لا. لكـن نصـرت يجعلنـي أدرك أن مصيـر الخاتـم ليـس بأهميـة مصيـر المتحـف. هـذه المؤسسـة تسـتحق هـذه القطعـة التاريخيـة.

«أنـا لـديّ شـيء يجـب أن يكـون هنـا»، أقـول. «أيمكننـا الذهـاب إلـى مكتبـك لدقائـق؟ أريـد أن تعدنـي بضمّـه إلـى المجموعـة».

يقودنـا إلـى غرفـة مكتبـه التـي بـلا نوافـذ والتـي تحـوي خزانـة كتـب برفيـن مكدسـين بالنصـوص والمخطوطـات غيـر المجلّـدة.

يراقبنـي كلاي وأنـا أمـد يـدي فـي حقيبتـي وأخـرج القطعـة النفيسـة. لا يتهـدج صوتـي وأنـا أفتـح الصنـدوق وأكشـف عـن الخاتـم بحجريـه الكريميـن، وأنـا أخبـر قيّـم المتحـف الشـاب أن هـذه القطعـة عثـر عليهـا الفرنسـيون فـي آي خانـوم وأنهـا يجـب أن تنضـم إلـى بقيـة الكنـوز. يطـرف نصـرت بعينيـه ببـطء، ينقلهمـا مـن الخاتـم ثـم إلـيّ

ثـم إلـى كلاي، يتيـح لـي متسـعًا مـن الوقـت لأعيـد التفكيـر، لكننـي قـررت بالفعـل.

ينهـض، يغلـق البـاب، ويمسـح جبينـه بمنديـل حيـن يعـود إلـى كرسـيه.

«سـيكون يومًـا حافـلًا»، يقـول وهـو يلهـث. يصـب لـكل منـا كوبًـا مـن الشـاي الأخضـر مـن ترمـوس علـى مكتبـه. يُهدئ البخـار المشـبع برائحـة حـب الهيـل حواسـي. يمسـك نصـرت هاتفـه المحمـول، تتوقـف أصابعـه علـى الأزرار مـدة طويلـة قبـل أن يبـدأ الاتصـال.

يتحـدث إلـى مسـؤول رسـمي فـي وزارة الثقافـة. يبلـغ مفـوض اليونسـكو. يخطـر القنوات المناسـبة. الخاتم فـي أيـد أمينـة. أنهض وأعلـق حقيبتـي علـى كتفـي، ألقـي نظـرة أخيـرة إلـى تميمتـي.

«أرجـو أن تخبرينـي كيـف حصلـت عليـه؟» يتوسـل إلـيّ نصـرت. «لا بـد أنـك كنـت طفلـة صغيـرة حيـن اكتشـفت كنـوز آي خانـوم. وبالتأكيـد لـم تسـتخرجيه مـن الأرض بنفسـك!»

«لا»، أجيبـه وأنـا أفكـر فـي تشـبثي بالخاتـم، كفتـاة تغـرق وتتمسـك بطـوق النجـاة، وكيـف طفونـا معًـا خـارج القلعـة وحدنـا. «بـل كان العكـس صحيحًـا».

الفصل التاسع والخمسون

«سنغادر خلال ست وثلاثين ساعة»، أقول ثم أغلق الهاتف. حجزت ماما لنا تذاكر طيران جديدة بمساعدة العاملين في السفارة. بقدر ما أرغب في الرحيل مبكرًا، أشعر بحزن بالفعل لأنني سأدير ظهري قريبًا.

لكن ماذا سأفعل أكثر من هذا؟ رأيت أطلال بيت أسرتي والمحلات الجديدة البراقة. سرت في شوارع يملؤها جنود من عشرات البلاد ورأيت أطفالًا بأعين لامعة يثرثرون مع الجنود كأنهم أصدقاء قدامى. زرتُ نصب الإمبراطوريات الكثيرة التي حكمت هذه الأرض وكذلك التذكارات المميتة التي تركتها فيها. مدمنون يزدادون عددًا على مجرى نهر كابول الجاف ونساء يترشحن في البرلمان العائد إلى الحياة. مراكز التسوق الجديدة، لكن الموسيقى فيها قديمة. الناس متناقضون أيضًا، بأعين بريئة وذابلة، مفعمة بالأمل والأسى.

«هل ستعودين؟» يسألني كلاي. دعاني إلى مقهى يتجمع فيه شباب وشابات يرتدين الحجاب، ثورة صغيرة في وجه التقاليد المحافظة.

«لا أعرف»، أجيبه. ولا أعرف حقًا. «قد أعود لو اكتشفوا قبرًا آخر لكنني لا يمكنني الأمل في هذا حقًا. الأمر منهك جدًا... ومحبِط».

يرشف من شايه الثقيل بلون خشب الماهوجني.

«أرسل وليد إليّ لتوه. تسأل أخته إن كان بإمكانك تدريب بعض الجراحين هنا. إنهم يتوقون للمعرفة، حسب قوله».

أقرّب كوبي إلى وجهي وأستنشق باقة الروائح الناعمة. عبير كنوز باطن الأرض. قرون حب الهيل المكسرة، بنفثة من القرفة، وذرة زعفران وهمسة قرنفل. تطفو بتلة وردة على السطح. لم يكن أبواي يشربان شايًا كهذا قط في بيتنا.

«ما زلت لا أعرف. لا أعرف إن كان بإمكاني ذلك الآن».

يومئ برأسه متفهمًا.

«عليك أن تفعلي ما يناسبك».

«وماذا عنك؟ على أي قصة تالية ستعمل؟» أسأله.

«أريد أن أعمل على قصة عن أثر الحرب في الأطفال»، يجيبني. «أقصد، أثر غاراتنا الجوية هنا. لم أهتم بهذا الأمر كثيرًا من قبل، لأكون صادقًا معك. الناس يريدون القراءة عن الرجال الأفغانيين القساة بشكل فظيع. لا يريدون معرفة شيء عن طفل فقد أبويه في النيران الصديقة».

«لكنك ستكتب عنه مع ذلك»، أخمن.

يخفض بصره إلى الطاولة.

«أسمعتِ عن طفلة النابالم؟» يسألني. كنت قد رأيت الصورة لكنني تركته يخبرني بالأمر.

«التقط ذاك المصور صورة لفتاة في التاسعة من عمرها تركض في الشارع دون قطعة ملابس واحدة، ولا حتى جورب. يتساقط جلد ذراعيها، ومن خلفها سحب سوداء عالية كالجبال، ويبدو أنها خرجت لتوها من جحيم مظلمة. يوجد على الطريق

جنود بخوذات أيضًا. تشعرين من وجهها وبروز ضلوعها أنها تبذل جهدًا شاقًا لتتنفس.

أضع كوبي على الطاولة.

«إنها صورة مرعبة لكنها سبق صحفي لا مثيل له. أقصد، القصة كلها في تلك الصورة بالأبيض والأسود. الأمر لا يمكن إنكاره ومع ذلك حاولوا إنكاره بشتى الطرق. زعم نيكسون أنها «مزيفة». ثم أثاروا مسألة *عريها*».

«يسهل على الناس تقبيل مرفقيهم عن تصديق أثر الحرب في الأطفال»، أقول وأنا أرفع بتلة الوردة من كوبي، أشعر بملمسها المخملي بين أصابعي. حين أرفع بصري، أجده يحدق إليّ، كأنني الشاي المترسب في قاع الكوب.

أنظر إليه لوهلة، فقط بما يكفي لأراه، إحدى كتفيه منخفضة عن الأخرى من حمل حقيبته عليها، الخطوط الرقيقة حول عينيه من شمس أفغانستان اللافحة، شعره الكستنائي المجعد جيدًا.

«أذهبت إلى حدائق بابر[1] من قبل؟» أسأله.

«ليس معكِ». يقول.

أزم شفتي لأكتم ابتسامة.

الحدائق على مقربة عشر دقائق فقط. أشعر بالأعين ترمقنا ونحن نترجل من التاكسي. ألتفت حولي لكنني لا أرى أحدًا يشبه الرجل الذي تبعني من خارج المطعم. تأكدت الآن أن الأمر ليس سوى مخاوفي التي سيطرت عليّ تلك الليلة.

---

(1) حديقة تاريخية ومن أبرز المعالم السياحية الأثرية في كابول، بناها الإمبرطور المغولي الأول بابر في القرن السادس عشر ودفن فيها. (المترجمة).

نقف أمام الجدران العالية المحيطة بالحدائق. أرى عددًا قليلًا من الرجال ينظرون إليّ وأتساءل إن كانوا سيلاحظون كوني منهم. أرتدي تنورة طويلة وقميصًا بكمين طويلين يصلان إلى معصمي، ككثير من النساء هنا. ومع ذلك، تبدو عليّ غرابة ما تلفت أنظارهم. لوهلة، تسري حرارة فضولهم في عنقي، لاحتمالية إطلاقهم أحكامًا على امرأة أفغانية تسير مع رجل أمريكي.

لكن الجو هادئ داخل الجدران العالية، وأشعر بكتفيّ ترتخيان. نصعد الدرجات الحجرية ونسير في ممر تصطف على جانبيه أشجار القيقب. حدائق المغول صارمة التصميم، أقسام بزوايا حادة وحدود مستقيمة. خلفنا، بيوت طينية على حافة تل مرتفع.

«كانت هذه الحدائق إحدى نزهات أبي المفضلة»، أتذكر. «لا أعرف كم البسكويت الذي تناولته وأنا جالسة هنا على أحد فروع هذه الأشجار. كانت أمي توبخني وتأمرني بالهبوط قبل أن أسقط وأكسر أحد عظامي. لكن أبي... كان يجعل الأمر يبدو كأن الأشجار قد غرست هنا منذ قرون فقط ليمكنني تسلقها».

يسير كلاي إلى جانبي، باسترخاء وانتباه.

«أمك تشبه أمي. توفيت أمي منذ عام، فجأة. كانت تسألني دائمًا لماذا لا أكتب عن الرياضة أو عن السياسة حتى»، يقول، «كنت هنا حين توفيت. لم أذهب لتوديعها».

«يؤسفني هذا»، أجيبه، فيتنحنح.

يجلس ثلاثة رجال بمعاطف ثقيلة على بساط مفروش على العشب، يلعبون الورق. تخشخش أوراق الشجر أعلاهم بنسمة هواء رقيقة. يُلقي أحدهم ورقة لعب ويصيح بانتصار. يهز صديقاه رأسيهما ويتهمانه بالغش بمرح.

أتذكر أبوي وهما يلعبان. يجلس أبي متربعًا وتجلس أمي بساقيها مطويتين إلى جانبها. عيناها متواريتان خلف نظارة شمسية مستديرة وقاتمة. كنت أنظر إلى ورقه من خلف كتفه وهو يرتبه بشكل مروحي. يخفيه بأداء مسرحي عن عيني أمي.

بادر، ستخسر مرة أخرى لو لم تركزا

«ستارة، أنا مستعد لها. لقد فازت عليَّ آلاف المرات بالفعل». كان يجيبني. كانت له طريقة في النظر إلى أمي تجعلها تنظر بعيدًا وهي تحمر خجلًا.

«سليمان، أرجوك!» كانت تقول بعتاب، تكتم ضحكها خلف ابتسامة محكمة. «توقف وإلا لن ألعب معك مجددًا أبدًا».

أترين، ستارة، إن لم يكن لديك قلب أسد، فلا تسيري في طريق الحب.

استغرقتُ وقتًا طويلًا جدًا لأفهم تحذيره هذا.

نسير في ممشى حجري إلى طرف قصيّ. بركة المياه جافة، مع ذلك لم يمنع ذلك مجموعة من الصبية الصغار من اللعب في تجويفها. يجلس صبيان على الحافة، يدليان ساقيهما. يديران رأسيهما بعيدًا ويهللان، كأنهما يستقبلان رذاذ الماء البارد في يوم حار.

«أحيانًا أنظر إلى الأطفال هنا فأرى أشباحًا من طفولتي. أبحث في وجوههم عن أصدقائي وجيراني وأبناء أقاربنا»، أعترف لكلاي. «كأن الزمن قد توقف منذ رحيلي».

«الزمن ليس بهذا الكرم». يجيبني بصوت تثقله كآبة. «يعيش الناس ويكبرون ويتغيرون ويموتون سواء أكنا معهم أم لا».

نمر بجذع شجرة، سميك ورمادي كقدَم فيل. ومسجد رخامي بمداخل مقوسة مزخرفة. يسجد المصلون في كوة هيكله، تدفئ أشعة الشمس المائلة ظهورهم الخاشعة. ثم تعبر أبواب خشبية طويلة وندخل إلى قسم آخر.

شيد بابر هذه الحدائق على غرار حدائق الفردوس. ندور أنا وكلاي حول ضريحه، منبهران بالزخارف الرخامية لتصميمه الخارجي قبل أن ندخل إلى برودة الظل بالداخل. الضريح برمته نصب تذكاري من الرخام، بشاهد طويل وعال.

«أتؤمنين بالجنة؟» يسألني كلاي. تسقط أشعة الشمس من بين الزخارف الرخامية فيخلق تأثير الأمواج في الضريح.

يذكرني سؤاله بما قاله شير عن السماوات السبع ونحن أمام قبر ابنه. ساورني الشك في الإيمان مدة، خلال سنوات مراهقتي، كأنني كنت أقرر إن كان شيئًا يستحق إنقاذه من النيران أم لا. وجدتُ تصوير الجنة غريبًا أيضًا. لم يكن يعنيني أن ينتهي بي الأمر في جنة بأنهار، ولآلئ، ونحاس أو ذهب. لم يكن يعنيني أيضًا دخولها بصحبة ملك الموت أو عيسى أو الوقوف في ظل سدرة المنتهى مع موسى. أردت فقط أن أعرف إن كان الله سيفرّق شمل أسرة واحدة على طوابق السماوات السبع أم لا. لم يكن يعنيني سوى لمّ الشمل.

سيُدفن شير اليوم أو غدًا ربما. كنت قد لاحظت رقعة خالية بجوار قبر ابنه، في تلك المدافن المصممة لتكون دائمة الخضرة طوال العام.

ثم تذكرت شيئًا آخر قاله شير، شيء ما أَسرّ له به جندي آخر عن الشهداء.

قال إنه دفنهم بين عمالقة يطلون على الفردوس.

أُمسِك بذراع كلاي.

«أريد أن أعود إلى السجن»، أقول. أتصلُ بماما وأخبرها أننا سنمر بها حالًا لأخذها، وأنني سأوضح لها حين نصل إلى هناك. لا بد أنها بذلت جهدًا شاقًا لئلا تسألني عن تفاصيل.

ألاحظ ضعف نظريتي وأنا أخبر بها كلاي. كلمات رجل يحتضر. مع ذلك، لا يمكنني ترك الأمر دون محاولة الاكتشاف.

بعد ذلك بدقائق، نوقف التاكسي أمام السفارة الأمريكية. يترجل كلاي ليأتيٍ بماما. لست في حال تمكنني من التعامل مع رجال الأمن الآن. أُخرج هاتفي وأتصل بالضابط الذي قابلناه في السجن. لا يدهش من اتصالي به.

«لدي معلومات جديدة أريد مشاركتها معك»، أخبره.

«كلي آذان مصغية»، يقول.

«الأفضل أن نتحدث في السجن. أنا في طريقي إليك الآن. لن نتأخر»، أقول وأنهي الاتصال.

يشرد ذهني تمامًا في التفكير في ما قد أجده في السجن إلى حد ألا ألاحظ اقتراب رجل بلحية قصيرة وعينين داكنتين حتى يقطع المسافة بيني وبينه.

أنظر إليه، ألصق ظهري بالتاكسي.

أفكر في الصراخ أو خبط نافذة التاكسي للفت انتباه السائق. لكن الرجل يقف قبالتي قبل أن يسعني فعل شيء.

«لا تجزعي»، يقول كأنه يقرأ أفكاري.

الفصل الستون

يرتدي قميصًا واسعًا وبنطالًا رماديين. اقترب مني بما يكفي ليُمسك بقبضتي لكنه لا يتحرك قيد أنملة ليلمسني.

أعرف أنه من كان يتبعني خارج المطعم. مع أنني لم أرَ ملامحه في الظلام حينذاك، لكنني أميز قامته. الانحناء الخفيف في كتفيه، وزاوية ميل رأسه وهو ينظر إليّ.

أفرد ظهري وأنا أقف أمامه، لا أشعر بالخطر. بل ينتابني شعور ما آخر، شعور لا يمكنني تسميته.

«من أنتِ؟» يسألني.

«لماذا تسأل؟» أجيبه.

يتقدم نصف خطوة أخرى وينظر إلى عينيّ، يبحث عن شيء.

«ستارة؟»

تتحبس أنفاسي.

«يا الله»، يقول، مع أنني لم أؤكد ولم أنفِ أي شيء. يهز رأسه.

ألمح من زاوية عيني ضابط شرطة يراقبنا.

«من... من...» أتلعثم وأنا أميز وجهه. أرى قطعًا من الماضي، الجفنان الثقيلان لرئيس راحل. الذقن المخددة لصديقي المقرب. أعرف قبل أن يقول اسمه أنني قريبة بقدر غير مسبوق من العهد الذهبي لطفولتي، أنني أقف أمام شريكي في المؤامرات واللعب، رستم.

«أنت هنا»، أقول ببلاهة. ألمس ساعده فينعقد حاجباه. «كيف حصل هذا؟ كنت في القصر ذاك اليوم!»

«وأنتِ أيضًا»، يقول برقة. يبدو أكبر سنًا مما ينبغي، رثًا كشحاذ. أريد أن أعانقه لكنني أتردد. مع أنني أعرفه، لكننا بعيدان تمامًا عن براءة طفولتنا.

«ونيلاب؟» أسأل، بالأمل في كل ذرة من كياني.

يهز رأسه فأنهار تمامًا مجددًا.

يبدأ حكي قصته فيما تقترب ماما وكلاي. يبدو عليهما القلق حين يريان رجلًا يقف بالقرب مني إلى حد لافت للنظر. يفتح كلاي فمه ليقول شيئًا لكنه يسكت حين يسمع صوت رستم المتهدج.

«لم أظن أنني سأراكِ مجددًا قط»، يقول. «كيف هربتِ؟»

نعود إلى ذلك اليوم كمحاربين يتسامران حول النار. أخبره كيف تسللت من غرفة النوم لأحدق إلى النجوم. أخبره عن الجندي والقبو والسيدتين الأمريكيتين.

«عبرنا الحدود»، أقول وأنا أنظر إلى ماما. «ثم ذهبنا إلى أمريكا. استخدمت شهادة ميلاد أختي الراحلة للحصول على الجنسية. هذه المرأة من ربتني».

أخبر ماما وكلاي أن رستم صديق عزيز من أيام الطفولة وحفيد الرئيس داوود. يفهمان حينها، بقدر ما يمكنهما، ماذا يعني بالنسبة إلي أنا ورستم أن نرى أحدنا الآخر بعد كل هذا الوقت.

عدت أنا ورستم إلى ليلة الانقلاب لنسد الفجوات الناقصة.

احتُجِز رستم وعائلته لساعات. كان هو وجدّاه وأعمامه وعماته وأبناؤهم يلعبون الورق لقتل الوقت. شعر الأطفال أنهم وطئوا بأقدامهم في فيلم مشوق.

انتهى هذا الشعور ببدء إطلاق النار؛ القصف العشوائي من أعلى، ثم الطلقات النارية الشخصية بعمق.

عانوا وهم يفكرون في ما يمكنهم فعله. أراد أحدهم أن يرفع راية بيضاء. رفض جدّاه الخروج. تجادلا مع الآخرين كي يهربوا بالأطفال والسيارات تحيط بمدخل القصر بالفعل لتنقلهم إلى الريف.

كان أوان هذا قد فات.

قتلت نيلاب بطلقة في صدرها، حملها رستم لكنها كانت قد فارقت الحياة بالفعل. كان الجرحى يئنون ألمًا. سال الدم على الأرض. مزقوا الستائر لعمل ضمادات وصرخوا للنجدة. في منتصف الليل، قبض الجنود على رستم وهو يحاول الهرب ودفعوا به إلى الغرفة مجددًا تحت تهديد السلاح.

اقتلني قبل أن يقتلوني هم، سمع ابن عمه يتوسل إليه. عانق عمه ابنه بقوة أكبر.

حين بدأت الجولة الثانية من إطلاق النار، سقط والد رستم لكن ليس قبل أن يخبر ابنه بأن يحاول الهرب من الحدائق. حاول رستم ذلك لكنه تعثر قبل أن يخرج من الغرفة. سقط على الأرض، ألم حاد في رجله. لمس بنطاله، مبلل عند الجرح. لم يستطع تمييز دمه من دم نيلاب. حين اقترب منه جنديان، عاد ينظر إلى وجه أبيه وانتظر الطلقات التي ستنهي حياته.

لكنهما لم يقتلاه.

انزلقت يداه على الأرضية الزلقة وهما يحملانه. أدرك أن الرصاص قد ضرب غلاية ماء قريبة، وخدش رجله فقط.

لم يعرف قط لماذا أخذوه إلى المستشفى للعلاج في حين كانوا قد أعدموا عددًا كبيرا من أفراد عائلته. قضى شهرًا ونصفًا في المستشفى، تحت رعاية رئيس الأطباء وحراسة عدد من الجنود. حين تعافى بما يكفي، قيدوه ونقلوه إلى سجن بول إى شارخي حيث قابل بقية الناجين من عائلته: أعمامه وعماته وأبناءهم.

«عشنا سبعة في زنزانة في ذلك القبو»، يقول. «كانوا يسمحون لنا بالخروج منها لقضاء حاجتنا فقط. كنا طوال الوقت نسمع صراخ ضحايا التعذيب عبر الجدران الحجرية. كنت بالكاد أنام وأنا أتساءل متى سيحين دوري في الصراخ».

«كم قضيت هناك؟» أسأله.

«ستة أشهر. ثم يوما ما، انتهى الأمر. أرسل شاه إيران طائرة أقلتنا إلى فندق في طهران قضينا فيه شهرًا قبل أن نذهب إلى سويسرا».

قبل الانقلاب مباشرة، كانت والدة رستم قد سافرت إلى أوروبا للعلاج من علة في الرئة. وصلتها أخبار الهجوم على القصر مع التحذيرات بألا تفكر في العودة. مما بلغها، لم يكن قد تبقى لها أحد للعودة إليه.

حين وصل رستم إلى سويسرا، سقط بين ذراعيها واعتذر بشدة لأنه لم يستطع حماية نيلاب. اعتذرت هي لأنها لم تكن معهم تلك الليلة. يعيشان الآن في ألمانيا. عاد رستم إلى كابول منذ ثلاثة أشهر حين سمع عن لجنة البحث عن الجثث.

تسيل الدموع على وجهي. يمسح رستم عينيه بيده. «تلك الليلة.... كنت أنت من كان يسير خلفي في الشارع؟» أسأله.

يومئ برأسه.

«لي صديق في وزارة الداخلية. أخبرني أن سيدة تُدعى زماني تزعم أنها فقدت أسرتها في القصر. حين قال اسم أبيكِ، كدت أختنق برشفة شاي. لم أعرف ماذا يعني هذا، لم أعرف لماذا تستخدمين اسم أختك. أخبرني أنك تقيمين في الإنتركونتننتال. يخجلني أن أخبرك كم من الوقت ظللت أراقب الفندق لكنني كان يجب أن أرى بأم عيني إن كنت أنتِ حقًّا أم لا».

جاء رستم اليوم ليرى إن كانت السفارة الأمريكية لديها أي معلومات عن هويتي. أشعر بفرح شديد أنني عُثِر عليّ.

«سأعود إلى بيتي قريبًا»، يقول رستم. «لم تكن أمي بحال جيدة لتأتي معي إلى هنا ويجب أن أعود إليها. أغلب الأيام، لا تتعرف عليّ».

أتذكر كيف كانت أمه تجمعني أنا ونيلاب بين ذراعيها وتتوسل إلينا ألا نقع في أي مشكلات في أنحاء القصر. أكره التفكير في المعاناة التي لاقتها.

«أنا أيضًا سأعود إلى بيتي قريبًا»، أخبر رستم. «لكننا متجهون الآن إلى سجن بول إي شارخي. أريد أن أتفقد الأمر مجددًا».

يومئ برأسه. ليس بحاجة لأوضح له أهمية إيجادهم.

«هل يمكنني الذهاب معكم؟»

«أأنت متأكد؟» أريده أن يأتي معنا لكنني أعرف أن هذا يعني عودته إلى مكان سُجِن فيه وهو طفل.

«نعم»، يقول وهو يفرد كتفيه. «كان ذلك منذ أمد طويل».

نستقل التاكسي. أجلس في المقعد الخلفي بين ماما وكلاي. ويجلس رستم في المقعد المجاور للسائق. رحلتنا إلى السجن هادئة. يلتفت إلي رستم مرات عدة ليسألني عن عملي أو إن كنت سمعت عن أي شخص آخر كنا نعرفه. يسأله كلاي أسئلة عدة، أيضًا. ظني أنه لا يستطيع منع نفسه.

يعيش في هامبورج. هذه رحلته الثالثة إلى كابول. لا، كان يعمل مستشارًا في التكنولوجيا، لكنه الآن يقوم برعاية والدته.

«الآن بعد أن انتهى هذا الأمر، يمكنني العودة والتركيز على عملي مجددًا»، يقول لي بالدارية كأنه يدين لي بتوضيح.

ألتقط نظرته إلى كلاي وأتساءل إن كان يفترض أي شيء عنا. منذ وقت طويل مضى، كانت نيلاب تغيظني بفكرة الزواج من أخيها لنغدو أختين حقًا. رؤيته الآن، أتساءل كيف كنا سنغدو لولا الانقلاب. لو كنا كبرنا معًا أطفالًا بوالدين وإخوة في طفولة لا مساس بها، كيف كانت علاقتنا ستتشكل؟

يهرش مؤخرة رأسه وألاحظ أنه لا يرتدي خاتم زواج. أتساءل إن كانت حياته نسخة أخرى من حياتي. الآن بعد أن عثر على قبر عائلته، هل يشعر بأي خفة؟

أمنع نفسي بصعوبة من مد يدي إليه والإمساك به خشية أن أفقد الكائن الحي الوحيد الذي عرفني ستارة، الفتاة التي تبتسم للنجوم.

الفصل الحادي والستون

حين يتوقف التاكسي أمام بوابة السجن، أرى عيني السائق تمسحان الجدران العالية وأبراج الحراسة. ورغم أنني أجزلت له العطاء مقابل انتظارنا أمام السفارة وتوصيلنا هذه المسافة البعيدة خارج المدينة، يُخبرنا بأن علينا إيجاد تاكسي آخر في العودة إلى المدينة. لا يطيق صبرًا ليبتعد عن المكان.

أحاول رؤية وجه رستم لكنه يُبقي عينيه المدربتين أمامه. لا أظنه ينظر إلى شيء ما بالتحديد حتى. ألمس كتفه برقة.

«يمكنك الانتظار هنا»، أقول.

أترجل من التاكسي. يقترب مني جندي مسلح، تنم هيئته عن تحفز حتى يتعرف عليّ من زيارتنا الأخيرة.

«لقد اتصلت برئيسك ونحن في طريقنا إلى هنا»، أوضح له. «إنه في انتظارنا».

ينظر إليّ وإلى السائق بريبة. يهز السائق رأسه ويشير إلينا كأنه يقول إنّ مجيئه إلى هنا ليست فكرته.

يعود الضابط إلى موقعه ليجري اتصالاً.

«كلاي، أيمكنك التعامل معه من فضلك؟» أقول.

يومئ لي برأسه ثم ينتبه.

«انتظري، ماذا أقول له؟»

«أخبرهم أن يقابلوني هناك»، أقول وأنا أبتعد عن السيارة وأنطلق وحدي. إنها إطالة أن أظن أنني أعرف سبب عدم عثورهم على بقية الجثث حتى الآن. ربما كنت أحمل ما قاله

الجندي لشير عن دفنهم أكثر من معناه. ربما أثق بذاكرة شير أكثر مما ينبغي. سأتأكد فقط حين أنظر إلى دائرة الأشجار تلك التي رأيناها في زيارتنا الأخيرة إلى هنا، حيث عثروا على جثث الرئيس وعائلته.

في حدائق بابر، رأيت قبر ملك ميت مثله مثل أي فلاح. ربما كان قبره من رخام وأوسع من قبور أخرى، لكنه ما زال قبرًا. تجعله الحدائق من حوله مكانًا جميلًا. اختار شير أن يدفن ابنه في موقع دائم الخضرة يضع فيه الأحياء الزهور على شواهد قبور موتاهم. حتى في الحياة، تشتاق أعيننا إلى الخضرة الوارفة للجنة.

أتساءل إن كان ذلك الجندي الذي نقل آخر الجثث من القصر قد رأى دائرة الأشجار العملاقة. أتساءل إن كان قد حفظ كلمات شير في قلبه وقرر أن يُرقد الجثث في مثواها بين الجذوع الباسقة، إن كان قد لمح تحت ظلالها الوارفة مشهدًا من الفردوس.

أنعطف عند زاوية المبنى وأتجه إلى موقع الحفر. أسير بسرعة، لا أريد أن يلحق بي أحد. كلما اقتربت من الموقع، سيقل كم الشرح والإقناع الذي عليّ تقديمه. أسمع صوت إغلاق باب السيارة من خلفي.

ألتفت خلفي فأرى ماما تراقبني من بعيد. ربما تركتني لئلا تلفت الأنظار إليّ وأنا أسير في البيداء الترابية. ربما تعرف حاجتي إلى الانطلاق في هذه الرحلة وحدي.

أضع طرف طرحتي على فمي وأنفي. أشعر بجفاف حلقي وبالعطش.

بينما أقترب من الربوة، أسمع صيحات بعيدة. أصعد، أرى دائرة الأشجار الباسقة عند طرف ميدان رماية. ألتفتُ خلفي فأرى رجلين ينظران إليّ من برج حراسة. لا يمكنني تمييز ما يقولانه. يتعذر السمع بقرع نبضي في أذني.

أغذ السير، أهرول، أريد أن أصل. أتعثر وأسقط على ركبتي. أعاود النهوض ومواصلة السير دون أن أنفض عني التراب. أصل إلى دائرة الأشجار وأريح يدي على اللحاء المتآكل لأحد العمالقة. تشهد خشونة جذوعها على عمرها المديد الذي قضته هنا، ثلة صغيرة من الحرس، تشهد أسرار كابول وتحفظها.

الأرض هنا لم تمس، محيط الدائرة نحو عشرين قدمًا. ألتقط أنفاسي، أتساءل من أين أبدأ. أسير إلى المركز وأتمهل دقيقة لأتشبع بالسكينة. يُمكن، من هنا، تجاهل السجن خلف الساتر الرملي. يُمكن، هنا في هذه الأيكة البعيدة، الشعور بلحظات نادرة من السلام والأمل. أخرُّ على ركبتيّ، أغمض عينيّ وأنتظر إشارة، إيماءة شبحية ما، على أنني محققة.

«يا دكتورة»، تصيح أصوات ما. أفتح عينيّ وأرى رجلين مقبلين نحوي.

«لماذا لم تحضرا معاول؟» أسألهما.

أمسح بيدي على الأرض.

يقف الرجلان أعلاي.

«علينا الحفر هنا»، آمرهما.

لا ينزعجان. مع أنهما ليسا مطالبين بأخذ أوامر مني، يتركانني حيث أنا.

مكتبة
t.me/soramnqraa

ثـم يصـل الجميـع. الضابـط الـذي قابلنـاه مـن قبـل. ورسـتم، وكلاي، وماما. وحارسان آخـران، يبـدو أحدهمـا مذهـولًا عـن الآخـر.

«مـاذا تفعليـن هنـا؟» يسـألني الضابـط. «مـا المعلومـات التـي لديـك الآن؟»

آخذ نفسًا عميقًا وأنهض لأواجهه.

«يجب أن نحفـر هنـا»، أقـول بلهجـة آمـرة. «وصلنـي أنهـم مدفونون هنـا. دعنـا لا نضيـع الوقت».

«تتحدثين كأنك تحملين نجومًا وشرائط على سترتك»، يتمتم.

«مـن فضلـك»، أقـول. «مـن أخبرنـي كان حارسًـا فـي القصـر تلـك الليلـة. إنـه يعـرف. لا بـد أن هـذا هـو المـكان».

أعتمـد علـى مـا أشـعر بـه مـن صميـم قلبـي. قـد لا يعـرف شـير الإحداثيـات، لكنـه أوصلنـي إلـى هنـا.

«هـذا مطلـب صغيـر»، يُضيـف رسـتم. «بالقيـاس إلـى عـدد الجثـث التـي عُثـر عليهـا خـلال السـنوات الماضيـة، فـي الغالـب سـتكون محقـة».

يتأفف الضابط.

«توجـد إجـراءات لهـذا الأمـر»، يقـول. «نحـن لا نحمـل المعـاول اعتباطًـا هكـذا. سأُحاسَـب علـى هـذا».

تطلق أمي تنهيدة راحة نسمعها جميعًا.

أُحضِـرت الأدوات -معـاول ثقيلـة وصدئـة- علـى عربـة يـد. وزع الضابـط الحـرس فـي محيـط الدائـرة. التربـة فـي هـذه الرقعـة جافـة، تمتـص الجـذور العطشـى كل قطـرة مـاء. يسـتغرق الأمـر جهـدًا لشـق السـطح.

يسير الضابط إلى حيث نقف أنا وماما.

«سنرى»، يقول لي. «لكنني أقترح أن تستغلي هذا الوقت في التفكير في ما تأملين العثور عليه تحت هذا التراب».

أمسك بمعول وأختار منطقة بعيدة عن الآخرين. ينظر إليّ الحراس ثم إلى رئيسهم، يتساءلون إن كان سيمنعني من الحفر. يرفع كتفيه ويبتعد عني فحسب ليُجيب على صيحة من السجن.

يبدأ رستم وكلاي الحفر أيضًا، ليستريح الحرس. تؤلمني راحتاي لكنني لا أتوقف. ألقي بحفنات التراب الصغيرة خلفي، خلف الأشجار مباشرة.

تبدأ الشمس رحلة الغروب. أسمع رستم يحث الحرس على مواصلة الحفر. يضع أحدهم معوله ويعلن أنه حان وقت عودته إلى بيته. الآخرون، رغم عدم عثورنا على شيء سوى الحجارة، يواصلون الحفر. تجلس ماما مستندة بظهرها إلى جذع شجرة، تراقب الحفرة تتسع. يظهر حارس آخر بمصابيح زيت وترموس شاي ثقيل. يتناوبون احتساءه من كوب واحد. تعتم السماء، ويخيم الليل.

«شكرًا لكم» أقول لمن حولي. «شكرًا لكم لفعل هذا. أيًّا كان ما سيحدث، سأظل دائمًا أتذكر أنني لم أكن وحدي هنا».

أريد أن أقول أكثر من هذا بكثير لكنني أختنق وأنا أحاول شرح ما يعنيه لي مشاركتهم جميعًا في هذا البحث.

«أختاه. لقد بذلنا جميعًا جهدًا أكبر في مهام أقل أهمية. لا داعي لشكرنا»، يقول أحدهم. لا أرى وجهه في الظلام. أنظر إلى

رستم، تلمع عيناه في ضوء المصباح. يدير لي ظهره ويضرب بمعوله في الأرض.

بعد ساعتين كنا نوشك أن نستسلم، حين تقطع صيحة إيقاع ضربات المعاول. يسقط المعول من يدي على الأرض بضجة مكتومة. تقف ماما إلى جانبي وأريح رأسي على كتفها فيما يتجمع الآخرون في دائرة حولنا. رغم طول اشتياقي إلى هذه اللحظة، أتجمد فجأة حين أواجهها.

«يا إلهي»، أسمع كلاي يصيح. يقف إلى جانبي في لمح البصر. يتبعه رستم، وجهه جامد بالأسى. أنظر إليه.

«دعيهم هم يحفرون»، ينصحني رستم ويقودني إلى شجرة قريبة حيث أجلس وأريح رأسي على كتف ماما. يستمر العمل. تُستبدل الفرش والأيادي بالمعاول. وتُفرش ملاءة لاستقبال الرفات. تحت سماء الليل المرصعة بكائنات وأجرام أسطورية، أستقبل الرفات أنا أيضًا.

ماذا سيغير هذا؟ أتساءل. إن لم أعد وحدي كما كنت بالأمس، فما الفارق؟ هل سأتحرر من حزني المطبق؟ هل ستزداد أحلامي نعومة؟ هل سأظل أنا؟

أغمض عيني وأشم روائح تلك الليلة؛ رائحة نعناع من يديّ أمي، عطر أبي، وأنفاس فهيم برائحة اللبن. لا تتوقف هناك. أشعر بروح أمي أولًا، كأنها طفت لأعلى وجلست إلى جانبي. أكاد أشعر بتربيتها على رأسي. يأتي بعد ذلك أبي، يبتسم كأنه كان في انتظاري. خطوه وئيد لأنه يحمل أخي. ذراعا فهيم الصغيران يحيطان بعنق أبي، تشع عيناه بحب سرمدي.

أشعر حينها بحماقة لأنني ظننت أنهم قد يكرهونني لأنني نجوت تلك الليلة.

وهكذا، حين ينادونني لأنظر إلى رفات أسرتي، أسير بثبات، مستعدة، لأنني رأيت بالفعل ما جئت لرؤيته.

ختام

قرأت منذ وقت طويل في إحدى غرف الدردشة على الإنترنت نكتة عن الأفغان. كان الملك زاهر شاه، الذي حكم أفغانستان قبل أن يخلعه الرئيس داوود خان، قد عاش منفيًا في إيطاليا. حين آل به الأمر من قصر فخم إلى شقة صغيرة، ومن حياة المجد إلى حياة المنفى، وصار شخصًا نكرة يعيش في بلد أجنبية، أصابه الاكتئاب فذهب إلى طبيب نفسي. في غرفة الانتظار نظر إليه رجل إيطالي كان يتصفح مجلة، جعله فضوله يتساءل عن درجة خطورة مرضه بالقياس إلى أمراض الآخرين في الغرفة. مال قليلًا إلى الملك زاهر وسأله عن مرضه الذي حدا به إلى طلب المساعدة.

قال الملك زاهر إنه كان، حتى وقت قريب، ملك بلد مستقل. فلم يتفوه الإيطالي بشيء.

حين انفتح الباب وسأل المساعد عن التالي، أشار الإيطالي إلى الأفغاني الجالس بجانبه وقال بتعاطف شديد: أدخله هو أولًا. عزى الإيطالي نفسه أن حالته ليست بسوء أن يظن نفسه ملكًا.

يضحك كلاي حين أخبره بهذه النكتة. نجلس على شرفة ماما نراقب اليراعات تنير الغابة القريبة. ماما بالداخل، ترفع أطباق العشاء. عرض عليها كلاي أن يغسل الأطباق، لكنها لوحت له أن يبتعد.

أنت ضيفي الليلة، قالت. والليلة فحسب. غدًا، سأتوقع من الجميع المساعدة في إعداد الإفطار.

هـذه أول عطلـة أسـبوعية نقضيهـا فـي منـزل مامـا. قضـى كلاي أول سـاعة لـه هنـا يدقـق فـي الصـور علـى الجـدران، وزحـام التحـف والتـذكارات مـن جميـع أنحـاء العالـم، والكتـب المرصوصـة بعنايـة علـى الأرفـف. بـدا متـرددًا فـي لمـس بعـض القطـع، كان يميـل إليهـا ويـداه خلـف ظهـره.

تمتـد أصابعـي إلـى عنقـي، عادتـي الجديـدة منـذ أن ارتديـت قـلادة أمـي.. أهدانـي كلاي قبـة زجاجيـة لحفـظ سـاعة يـد أبـي فيهـا. تقبـع علـى مكتبـي حيـث أفقـد نفسـي أحيانًـا وأنـا أتأملهـا، أراقب الزمـن جامـدًا. صـرخت دايـو، صديقتـي الهادئـة، حيـن رأتهـا. عرضـتُ عليهـا صـور القبـور الثلاثـة علـى ربـوة فـي كابـول. أخبرتهـا عـن الجنـازة التـي اسـتطعت أخيـرًا ترتيبهـا لأسـرتي. مـع أنهـا لـم تكـن بتحيـة واحـدة وعشـرين طلقـة فـي الهـواء مثـل جـد رسـتم، لكننـي أرقدتهـم فـي سـلام. بشـواهد قبـور تشـهد علـى وجودهـم.

«أنت تفكرين فيهم»، يلاحظ كلاي.

أخفض بصري.

«نعـم. لكـن... الأمـر مختلـف تمامًـا الآن. اعتـدت أن أفكـر فـي تلـك اللحظـات الأخيـرة فحسـب. كان مـن الصعـب جدًّا التفكيـر فـي أي شـيء آخـر. لكننـي الآن، أشـعر أنـه بإمكانـي اسـتعادة قـدر كبيـر جدًّا، مـا لا يشـبه فـي شـيء اسـتعادتهم مجـددًا، لكنـه يعـد شـيئًا مـا. إلـى حـد بعيـد».

أفكـر فـي دايـو ومـا قالتـه عـن البـرق والرعـد، الوميـض والـدوي. أفكـر فـي المرضـى الذيـن عـدت إليهـم والصواعـق التـي عليهـم تحملهـا. كنـت مخطئـة فـي ظنـي أن بإمكانـي التقـدم بسـرعة. توقعـت مـن نفسـي أكثـر بكثيـر ممـا توقعـت ممـن أهتـم بهـم.

«هذه خطوة كبيرة»، يقول كلاي وهو يأخذ يدي في يده. أبتسم وأميل نحوه لتتلامس كتفانا.

«أتساءل ماذا تفعل الفتاة الصغيرة في المدافن الآن»، أقول مازحة. في طريقنا إلى المطار في كابول، طلبت أن نتوقف لمرة أخيرة في المقابر. صعدت التلة التي تعلوها مقابر متفرقة، بعضها تحيط بها حواجز معدنية للحماية بدت لي كالأقفاص.

وأنا أقترب من المقابر، ظهرت لي فتاة صغيرة تحمل دلو ماء. لا بد أنها رأتني أقترب من بعيد فحثها ذلك على الاقتراب. صارت المدافن فرصة للأطفال الذين يبحثون عن سبل لكسب العيش لأسرهم. عرضتْ عليّ أن ترش الماء على قبور أحبائي لمسح ذنوبهم ولحث العشب على النمو هناك كذلك. كانت ترش الماء بغزارة، تُرطِّب ثراهم وأنا أودعهم بصمت. منحتُها ورقة نقدية جعلت عينيها تتسعان وطلبتُ منها أن تعتني بقبورهم مرات أخرى قليلة.

«في الغالب تتساءل متى ستعودين»، يجيبني كلاي.

لا أعرف إجابة لسؤاله حتى الآن. منذ وقت طويل مضى، أخبرني شير أن كابول لم تعد وطني. كان محقًّا حرفيًّا فقط. ستظل المدينة دائمًا جزءًا مني، وسأظل دائمًا جزءًا منها. ستظل قصتانا تتقاطعان.

أفكر في رستم، يجوب كابول ويبدو كشبح من نفسه. اتصل بي بالفيديو من ألمانيا منذ أسبوع وقدمني إلى زوجته وأطفاله. كانوا مؤدبين وألقوا بنكات قليلة حتى، لكن المحادثة انتهت سريعًا. كنا أغرابًا، رغم كل شيء. بذل رستم جهدًا لتتذكر

أشياء لنتحدث عنها، بعد دقائق قليلة وعد أحدنا الآخر بمعاودة الاتصال قريبًا. أشعر بالاطمئنان لأنه محاط بالحب. هذا كل ما يمكنني استخلاصه مما كنا عليه ذات وقت.

«من يعرف؟ ربما نعود معًا مرة أخرى»، أقول وتدهشني سهولة تحدثي عن المستقبل مع كلاي. ربما لأنني تحدثت معه كثيرًا جدا عن الماضي.

«ربما، ما زال لدي تلك القصص للعمل عليها»، يقول. نجح في عصر ذهنه لكتابة مقالة واحدة عن رحلته إلى كابول لكنها لم تكن كما توقعها رئيسه.

«أأنت متأكد من أنك لا تريد الكتابة عن... ؟»

يهز رأسه.

«إنها قصتك التي يجب أن تحكيها أنتِ يا آريانا»، يقول. «أرجو فقط أن أكون أول من يقرؤها».

أعب برئتيّ هواء الليل البارد، رائحة أشجار الغابة ونار بعيدة. ألف ذراعي حول خصر كلاي ويدور رأسي للتفكير في السرعة والمسافة التي سافرنا بها معًا. أريد أن أعرف المزيد عنه. أريد أن أشاركه المزيد عني.

ولأول مرة في حياتي، لا تقلقني هذه الفكرة.

مكتبة
t.me/soramnqraa

NADIA HASHIMI

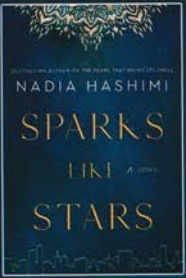

كيف كانت أفغانستان قبل الاجتياح السوفييتي؟ وكيف صارت بعده؟ ما الذي أوقعها في فخ الحرب لعقود طويلة؟ إنها لحظة مفصلية في أبريل 1978، وهذه الرواية تسرد تفاصيل تلك اللحظة، لحظة من تاريخ أفغانستان وكيف امتدت إليها أذرع الحرب الباردة.

"في تلك الليلة، قُطِعت رؤوس عمالقة، وابتلعت الفراغات الموحشة كل ما كان مألوفًا يومًا. إلا أنّ الفتاة الصغيرة المذعورة لن تستسلم. ستكون شجاعة؛ فقد علّمها والدها أن العالم بأسره داخلها؛ عظامها من صلابة الجبال، وعروقها تفيض بها الأنهار، وخفقات قلبها تحمل إيقاع آلاف الحوافر، أمّا عيناها فتتلألآن بلمعان نجوم السماء.

أنا هذه الفتاة، وهذه قصتي".

مكتبة
t.me/soramnqraa

kalemat
www.kalemat.com

جميع كتبنا متوفرة عبر تطبيق مكتبة كلمات
Google play
Available on the App Store